أحمد عبد الغفور عطار

الإسلام

بحث في العقيدة والإيمان

مكة المكرمة
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

الطبعة الاولى
١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م

الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ
مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾

* * *

﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ
لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾

« قرآن كريم »

المُقَـــدِّمَة

هذا الكتاب بأكمله فصل من فصول كتابي « الديانات والعقائد في مختلف العصور » رأيت نشره ، لأن بقية الفصول في حاجة الى المراجعة ، فهي ما تزال في مسودتها الأولى ، وان المراجعة تحتاج الى أيام قد تطول .

وتناولت في كتابي « الديانات » بحث جميع العقائد في الديانات الحق قبل أن يحرفها معتنقوها وبعد التحريف ، وفي الوثنيات المختلفة ، وعرضت كل العقائد في الديانات صحيحها وباطلها ومحرفها مثلما تُعرض الأزياء ، ولكل ذوقه في اختيار ما يشاء ، الا أنني قد أتخذ سبيل النقد اذا رأيته ضرورة لا بدمنها.

وأما عقيدة الاسلام فقد عرضتها كما عرضت سواها في أسلوب حاولت فيه أن يكون بعيداً عن أسلوب المتكلمين وبحوثهم المعقدة ليكون مفهوماً في غير عسر . معروضاً في وضوح ، ليتفق يسر الأسلوب وسماحة البحث مع يسر الاسلام وسماحته .

وإذ تعرضت لبحث القضاء والقدر فإن منطق المتكلمين والفرق قد اضطرنا إليه ، ولكننا تخيرنا السهولة واليسر بقدر ما يحتملهما بحث خطير صعب معقد كهذا البحث الذي جدّ على الاسلام فأحاطه المتكلمون والفلاسفة بالغموض والابهام والعسر ، بعد أن كان واضحاً سهلاً ميسوراً .

وسماحة الاسلام معروفة ، فقد كان البدوي الأمي الجاهل يُقبل على نبي الاسلام ، ويطلب منه أن يعلمه الاسلام ، فيعلمه في سويعة ، فيمضي مشرق الوجه سعيداً ، لأنه أخذه من نبعه الصافي بدون عناء .

أما اليوم فقد صَعُب فهم الإسلام وعسر استيعابه ، لأن مرور القرون أخفى لبابه وراء جبال من القشور ، فلا يصل إليه الراغب فيه إلا بعد الكد والعسر والإرهاق .

وهذا ما صد الناس عنه أو صَعّب عليهم فهمه تصعيباً ، ولو عرضنا الإسلام كما عرضه نبيه الكريم سمحاً سهلاً صافياً لَيَسُرَ فهمه،وزاد إقبال الناس عليه .

وليس التصعيب وقفاً على عقيدة الإسلام وحدها ، بل شمل شريعته أيضاً، فإذا رغبت دولة من دول الأرض في شريعة الإسلام فماذا نحن فاعلون ؟ أنقدم لها المجلدات الضخمة من كتب المذاهب والفرق لترى فيها الشريعة السمحة ؟

إذا قدمنا لها هذه المجلدات الضخمة التي تعد بالمئات فلن تفيد منها ، لأنها لا تملك الزمن والجهد تنفقهما للوصول الى ما تريد ، فتبقى على ما هي عليه.

وواجبنا تنظيم الأحكام والأقضية وترتيبها وعرضها عرضاً سهلاً ، ولو صنعنا ذلك لأقبلت عليه دول كثيرة من غير دول الإسلام التي انصرفت عنه الى غيره من الشرائع والقوانين .

وعلى سبيل المثال ، لو طلبنا الى بريطانيا أن تزودنا بشريعتها التي تتبع لقدمت لنا كتباً سهلة مبوبة أحسن تبويب ، مرتبة أجمل ترتيب ، وكذلك القول في الأمم الأخرى المتقدمة ، حتى روسيا الشيوعية التي لا يزيد عمرها على نصف قرن وضعت لها شريعة معروضة عرضاً خلاباً فتن الملايين ، مع أنها شريعة قائمة على الباطل الصرف والكفر والالحاد .

وإن أفراداً من المسلمين يصادفون في رحلاتهم عباقرة في القانون ، أو يحضرون بعض مؤتمرات الفقه الإنساني التي تضم أكبر علماء الأرض ، فيعرض هؤلاء الأفراد المسلمون بعض نظريات الإسلام بقدر ما يتسع له وقت المقابلة الضيق فيعجبون من سبق الإسلام الى « قوانين » آية في ضمان العدل والحق والخير ، انهم لا يجدونه ميسور العرض سهل التناول ، ويطلبون اليهم تزويدهم بفقه الإسلام فلا يجيبونهم ، لأنه ليس بين أيديهم فقه إسلامي سهل التناول ، ويخشون أن يقدموا لهم — مثلاً — كتاب « المبسوط » أو « فتح القدير » أو « الأم » أو « كشاف القناع » حتى لا يتبدل إعجابهم إذا رأوا هذه الكتب العظيمة غير مبوبة تبويب شرائعهم وقوانينهم .

ومع هذا القصور يواجهنا قصور آخر ، وهو فقدان الكفاءة بين مفكري الإسلام وأعدائه ،فخصومه قوى منظمة ، والكتّاب منهم يوزعون كتبهم بعشرات الالآف ، وهي ملأى بالحملة على الدين القيم .

وليست عقيدة الإسلام وحدها هي التي تتعرض لحملة الخصوم ، بل دين الاسلام كله — عقيدة وشريعة ولغة وآداباً وعلوماً — يتعرض لهجمات شديدة مستمرة غير مقصورة على المستشرقين والغربيين ، بل يتعرض لهذه الهجمات نفسها من مسلمين — عرب وغير عرب — تقليداً للغرب ومحاكاة للمستشرقين أو ذهاباً مع الشيوعيين .

وإذا كان الإسلام — من قبل — هدفاً لحملات عنيفة من الاستعمار الغربي والصهيونية فإن عدواً آخر قد انضم إليهما ، وهو مثلهما بغضاً للاسلام وحقداً عليه ، ذلك هو المذهب الشيوعي الهدام .

وإذا كان الاستعمار والصهيونية الممثلان للغرب المسيحي واليهودي فإن من أبناء الغرب من تصدوا للدفاع عن الدين الإسلامي وإظهار محاسنه ومزاياه ، وترجيحه على مسيحيتهم وعلى الكتاب المقدس لديهم بعهديه القديم والجديد ، وفيهم أكبر أدبائهم وفلاسفتهم في هذا العصر من أمثال برنارد شو وبرتراند رسل.

أما الشيوعية فليس في معتنقيها إلا كل حقود على الإسلام والمسلمين ، وهذا طبيعي ، فهي تجحد وجود الله ، وتكفر بالرسل ، وتنكر الغيب كله ، وتحارب الديانات ، فلا ينتظر من الشيوعي أن يذكر الإسلام بخير .

وكل هؤلاء أعداء بطبيعتهم للإسلام ، ولكن البشع في الأمر أن من أعداء الإسلام حكاماً وكتاباً ينتمون الى العرق العربي ويتسمون بأسماء إسلامية ، وما هم في حقيقتهم بمسلمين .

وهؤلاء أخطر من أولئك على الإسلام ، وبخاصة الحكام الذين وصلوا الى كرسي الحكم بوساطة أعدائه من الغرب والشرق الذين تخيروا صنائعهم ممن لا ضمير لهم ولا دين ولا خلق ولا وطنية ، فحاصروا الإسلام أشد الحصار وخنقوا صوته ، وقتلوا دعاته وأقطابه وعلماءه وأئمته ومفكريه وشبابه ، وملأوا السجون بعشرات الآلاف نساء ورجالاً وأطفالاً ، وانتهكوا الحرمات ، واستصفوا مع أرواحهم كراماتهم وأعراضهم وأموالهم وكل ما يملكون ، ولفقوا عليهم التهم الباطلة ، فقضوا على كل صوت مسلم حر ، فلم يبق في هذه الأقطار إلا الذين يخافون فيسكتون ، وإلا الذين ينافقون فيؤيدون الباطل والكفر وشريعة الشر والرذيلة والبغي والفساد والفجور ، ومع الأسف نجد بينهم أناساً كنا نعرفهم من أهل العلم والفضل .

ووجد الكتاب الملحدون الحرية والتأييد من أنظمة الحكم الكافر فنفثوا سمومهم ، وانتقصوا الإسلام علانية ، وكذبوا القرآن جهاراً ، وهزأوا برسول الله ﷺ على رؤوس الأشهاد ، حتى بلغ الأمر بجريدة وقحة كافرة شيوعية أن تصور رسول الله في صورة ديك ، وكتبت تحته هذه الجملة : أهو دا محمد أفندي اللي اتجوز ٩ (تسعة) !

وهذه الجريدة تصدر في القاهرة ، واسمها « المساء » وتتداولها أيدي الآلاف من مسلمي مصر والأقطار الإسلامية فلم يحركوا ساكناً الا كلاماً في الصحف لا محصول منه ، وهو كلام أفراد ، ولم تنهض حكومة إسلامية للاحتجاج

بله الغضب والجهاد ، كأنما الهزء برسول الله لا يعني غير أولئك الأفراد ، أما الحكومات فلا .

وباسم البحث العلمي ، والنقد العلمي النزيه ، وحرية الفكر تناولوا عقيدة الإسلام وشرعته ، فاتهموه شرَّ التهم ، وقذفوه بأقذر القذائف ، حتى أن امرأة مصرية تعمل في الصحافة هاجمت الإسلام في مجلة «المصور» المصرية لأنه دين يضع القوامة في يد الرجل ، كما أن جريدة « الجمهورية » المصرية هاجمت الإسلام لأنه دين يبيح التعدد والطلاق .

وسكت الأفراد والحكومات .

وهؤلاء الذين ينالون من الإسلام ليسوا باحثين ولا يعرفون النقد ، فما قيمة صحفية مبتذلة في مجال البحث والعلم ؟ إنها امرأة ، ونسكت ترفعاً عن وصفها بما نعرف من سلوكها ، ومع هذا تجد هذه المرأة في بلدان الإسلام تكريماً وترحيباً كما يجد غيرها من الكتاب الماجنين أعداء الإسلام .

وعلماء الإسلام عاجزون عن دفع الأذى عنه ، والأقوياء منهم لا يجدون في الدفاع غير القلم الفرد والجهد الفرد والمال الفرد ، وهذا لا يجدي ، بل هؤلاء الأقوياء يحارَبون في بلدانهم في كراماتهم وأولادهم وأرزاقهم ، وتتقول عليهم الصحافة ، وتشوه سمعتهم زوراً وبهتاناً ، وتغلق في وجوههم أبواب النشر الذي أصبح في يد المنحرفين .

ليس للإسلام دار نشر واحدة في كل العالم في هذه الأيام تضاهي أصغر دار نشر لأعدائه ، بل إن أعداءه في كل مكان حتى في بلاد الإسلام يملكون في حربهم له أضخم قوى الفكر والنشر ، ويتخذون أبشع تنظيم ابتكره الحقد والغدر والشر والمكر ، وجندوا الأموال التي يحصلون عليها من دول وجماعات ، كما جندوا الأقلام الشريرة ، والحشود الحاشدة ، وأخذوا يطعنون الاسلام ويبعدون الناشئة عنه ، ويصورونه له في صورة بشعة منفرة ، وانتهو الى مناهج التعليم فصاغوها صياغة تحقق مأملهم في القضاء على الإسلام في ضمير المسلم .

والصحافة في جميع بلدان العرب والمسلمين صحافة لادينية ، إلا النادر القليل الذي لا أثر له ، ويملكها ويديرها ويرأس تحريرها كفرة فجرة ، أو منحرفون فسقة .

والصحافة المسلمة المؤمنة فردية لا تجد ما تنفق ، بل تجد من يهدمها ويقضي على آثارها الطيبة فتنزوي .

وأقترح على الحكومة المسلمة السعودية أن تنشيء داراً تسمى « دار الدعوة الى الحق » يجمع فيها أكبر أقطاب الفكر الإسلامي ، المطلعين على حركة الفكر والأدب والعلم والفن والثقافة في العالم ، وتفرغهم للكتابة والتأليف ، تكتب وتؤلف في مزايا الإسلام وحقيقته وشريعته وآدابه ونظرياته ، وفي مراقبة كل حملة عليه لردها .

وهؤلاء الأقطاب يتقنون الى جانب العربية لغات أخرى ، فما يكتبونه يترجمونه الى اللغات ، ويوزع ما يكتبون ويؤلفون في أقطار الأرض بثمن زهيد .

وميزانية هذه الدار لا تكلف غير بضعة ملايين لا يصعب على الدولة تأمينها ، ولا ترهق كاهلها وهي السخية في الإنفاق على مرافق وحقول ليست بأعظم من هذا المشروع .

وهناك اقتراح آخر ، لا ، بل تذكرة ، فما أريد اقتراحه قد رآه الملك الشهيد فيصل عاهل المملكة العربية السعودية منذ سنوات ، فأنا أذكر وأستحث .

رأى الملك فيصل – رحمه الله – تأكيداً لدعوته المثمرة الناجحة الى التضامن الإسلامي تأليف موسوعة ضخمة للفقه الإسلامي ، ووكل تحقيق هذا المشروع العظيم الجليل الى وزير المعارف الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ .

وإن الدعوة الى التضامن الإسلامي « فكرة » وأداة تطبيقها تأليف هذه الموسوعة التي تعد أجلّ عمل اسلامي وإنساني في هذا العصر .

وأنا أذكّر وأستحث ، فقد انتهى الوزير من درس المشروع من جميع نواحيه ، ومنهج العمل فيه ، ولم يبق الا التنفيذ .

وإعطاء العالـَم شريعة الاسلام بأسلوب هذا العصر يعين على صلاحه ، فالعالـَم اليوم في حيرة من أمره ، وغرق في الشرور والآثام، واستخف بالقيم الرفيعة ، وضل طريقه ، ولكن الضمير الإنساني ما يزال حياً ، وراغباً في الخير والحق والجمال وإن تراكمت عليه الأحداث الحاطمة وأخفت صوته الكوارث وضجيج الباطل .

وفرصة الإسلام سانحة ، وفي وسعه أن يزيل عن الضمير الإنساني ما ما تراكم عليه ، وأن يصقله ويعيده الى فطرته ، وبذلك ينقذ العالم من الحيرة والشكوك والموبقات والشرور إذا أحسنا عرضه ، ووفقنا لنشره .

ان تلك الدار التي أقترح تأسيسها ضرورة إسلامية وإنسانية لا بد منها . والإسراع الى تأسيسها فرض مقدس، فدعوة الاسلام دعوة تبليغ عامة غير مقصورة على أرض ولغة وجنس ، بل هي للناس جميعاً ، وتأليف موسوعة الفقه الإسلامي ضرورة إسلامية وإنسانية لا بد منها ، والإسراع الى البدء فيه فرض مقدس ، لأن شريعة الإسلام عطاء الرحمن لبني الانسان ، وما مثل عطاء الرحمن عطاء .

فلنعرض الإسلام عقيدة وشريعة وآداباً وعلوماً وسلوكاً واجتماعاً واقتصاداً وتجارة وأخلاقاً .

لنعرضه عرضاً صحيحاً سليماً ، ولننظر ما يكون ، ولن يكون غير الحق والخير والجمال ، يقبل عليه الناس من كل لون وقطر ليجدوا في عطاء الرحمن ما يملأ كل فراغ يحسن به بنو الانسان ، ويجيب على كل سؤال وأي سؤال يطيف بالأذهان .

وصدق الله العظيم : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ .

فلنتلق عطاء الله بما يجب من الشكر والإجلال ، ولنشارك غيرنا فيه ، فهو العطاء الوحيد الذي يزداد مع الانفاق .

وليكون بحث (الإسلام) وافياً وتظهر حقيقته ساطعة كما هي قدمت عليه فصلين هما : « ديانات العرب قبل الإسلام » و « العالم في عصر البعثة المحمدية » .

أحمد عبد الغفور عطار

مكة المكرمة
١٣٨٤ هـ

دِيَانَاتُ العَرَبِ قَبلَ الإِسْلام

عرف العرب أنواع الديانات البدائية والمتطورة ، بعد أن كانوا على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ثم ابتعدوا عنها تدريجاً الى ديانات ونحل مختلفة قائمة على الوثنية والشرك ، والصلات التجارية بين العرب وغيرهم ، ورحلاتهم الى البلدان ، ورحلات غير العرب الى بلاد العرب أتاحت للديانات المختلفة وما كان لدى العرب من ديانات وعقائد أن تتمازج ويتأثر بعضها ببعض ، ويغلب على ديانات العرب الديانة السامية .

ومن الثابت أن العرب عرفوا الطوطمية وعبادة الأسلاف ومظاهر الطبيعة والجن والشياطين والملائكة والأشجار والأرواح والأحجار والأخشاب والثمار .

ولعل تَسَمِّي بعض القبائل بأسماء الحيوان والنبات والجماد يشير الى الطوطمية ، مثل اسم كلب وأسد وصخر وثعلب وثور وبقر وثمامة ، ونسيت الطوطمية وبقيت الأسماء تحملها قبائل تنتسب اليها .

وديانات العرب في الجزيرة العربية شمالها وجنوبها واحدة في الأصول وفي عبادة بعض الأرباب ، وإن كان لكل قرية أو قبيلة أو مدينة أربابها .

ولم تقتصر ديانات العرب على الوثنيات العربية وحدها ، بل اعتنق العرب

ديانات أخرى كالمجوسية واليهودية والمسيحية ، كما كان منهم من اعتنق الدهرية .

ونبدأ من جنوب الجزيرة (اليمن) ويترادف الجنوب واليمن في بعض اللهجات العربية حتى اليوم اذا حددوا الجزيرة ، ونصعد منه الى الشمال والحجاز الذي يعد من الجنوب ممتداً إلى الشمال .

ويشتهر في الجنوب ثالوث يتكون من القمر والشمس والزهرة ، ورب الأرباب : القمر ، وهو أعظم الآلهة طراً عند الجنوبيين ، وكان القمر والشمس الإلـٰهين البارزين اكثر من الزهرة لأنهما الوالدان والقمر هو الأب ، والشمس هي الأم ، والزهرة ابنهما ، ولا بد أن يبرز الوالدان ، ويزداد فيهما بروزاً الأب وهو القمر ، ولعل تغليب القمر في التثنية على الشمس يدل على تقديم القمر على الشمس ، ولذا يقولون : القمران ، ولا يقولون : الشمسان ، وما كان هذا التغليب الا منظوراً فيه الى سيادة القمر .

وتأليه الكواكب معروف عند غير الجنوبيين ، وان كان في بعض الشعوب تأليه القمر والشمس هو المعروف دون الزهرة لعدم ظهور الزهرة لديهم مثل ظهوره في الجزيرة العربية ولدى أمم الشرق .

ولم يقم الجنوبيون بنحت تماثيل لآلهتهم كما صنع غيرهم من الهند وبابل وإيران ، بل وجهوا عبادتهم الى الكواكب البارزة كما صنع غيرهم ممن عبدوها من الأمم الأخرى ، اذ كان هذا الثالوث معروفاً عند البابليين والآشوريين منذ زمن بعيد .

ولكن الجنوبيين رمزوا إلى ثالوثهم هذا في بعض نصبهم ونقوشهم فأشاروا إلى القمر بشكل هلال أفقي ، وإلى الشمس بدائرة ، وإلى الزهرة بنجمة ، كما رمزوا إلى القمر بثور ذي قرنين ، لأن القرنين يشبهان الهلال ، وصار لديهم الثور حيواناً مقدساً .

ولعل من أسباب تأليه هذا الثالوث : أن القمر والشمس أظهر ما يكون من الكواكب ، وللقمر مزاياه في الصحراء وبلاد العرب ، وللزهرة حسابها أيضاً ، فالعوامل الجغرافية والجوية ذات أثر في تأليه الثالوث .

ولما كان القمر رب الأرباب لدى الجنوبيين فإن ديانتهم هي الديانة القمرية التي سادت زمناً طويلاً ، ولم يقض على عبادتها الا الإسلام حين دخل الجنوب ، وإن كانت رواسب العقيدة القديمة في تأليه القمرين تظهر بعد الإسلام بزمن طويل ، فقد أشار الهمداني في الجزء الثامن المطبوع من كتابه العظيم « الاكليل » إلى أن في قلعة الملك قرب « ريام » حائطاً تظهر عليه صورة الشمس والقمر ، وعند خروج الملك تقع عينه على صورة الشمس فينحني بين يديها .

ويقل في الآثار المكشوفة وجود اسم القمر ، ولكن يذكر باسم الشهر وغيره من النعوت ، وهذا من قبيل الاجلال الذي حمل عبَّاد القمر على ذكره بصفاته أو باسم « الشهر » كما صنع اليهود مع « يهوه » اذ أطلقوه على الله دون أن يذكروه بلفظ الجلالة عندهم .

وفي اللغة العربية يطلق الشهر على الهلال ، واستعمله القرآن الكريم بهذا المعنى في قول الله تعالى : ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أي من رأى هلال (قمر) رمضان فليصمه .

وفي استعمال القرآن الكريم ﴿ الشهر ﴾ آية على أن محمداً رسول الله ﷺ لم يؤلف القرآن كما زعم بعض الملاحدة وبعض اليهود وغيرهم ، لأنه لم يكن معروفاً لديه أن الجنوبيين يطلقون الشهر على القمر ، ولم تكن الكشوف الأثرية قد أظهرت ذلك .

وظهر في الكشوف الأثرية أن القمر يعرف في الجنوب باسم « ود » .

ووصفوا القمر بأنه إلـه حكيم صادق ودود وحامي عباده ، ونسجوا حوله ما نسج غيرهم من الأساطير حول زواج القمر بالشمس ، وأن الزهرة

طفلهما ، ووجد من الشعوب الأخرى من ذكروا هذه الأسرة فذهب اللتوانيون هذا المذهب نفسه .

وفي إضفاء الجنوبيين على ثالوثهم الصفات الآدمية اتفاق عبّاد الكواكب في كثير من الصفات التي تدرجت بهم جميعاً الى اتخاذ الأبوة الإلـهية حتى يكون التعاطف بين الآلهة والمؤلهين ، بل وُجد في بعض النقوش ما يثبت أن أحد ملوك « أوسان » إحدى الممالك التي قامت في الجنوب العربي زعم انه ابن ود أي القمر الذي هو الله في عقيدتهم ، وكان هذا الملك في القرن الخامس قبل الميلاد .

وعلاقة الإنسان بالله أو بالآلهة أو بالإلـه لا تقوم على شعور واحد ، بل على مشاعر معدودات ، منها شعور الخوف والهيبة ، وشعور المودة والتعاطف ، وشعور الإجلال والتعظيم إلى غير ذلك ، وقد تجتمع هذه المشاعر كلها .

وكانت علاقة الجنوبيين بآلهتهم مزيجاً من هذه المشاعر حتى انتهت إلى أن الإنسان ابن القمر كما انتهت المسيحية إلى بنوة عيسى لله عز وجل .

وعرف الجنوبيون إلهاً كان يسمى لديهم « الرحمن » وهو إلـه سبئي نسبة إلى « سبأ » وينطق في لهجتهم « رحمن ان » و « ان » هذه هي أداة التعريف ، وكذلك « الرحيم » اسم إلـه في الجنوب، وفي النقوش الصفوية اسم إلـه ايضاً .

ولا يعرف تاريخ ظهور هذا الإلـه (الرحمن) في الجنوب ، ولكن لا يستبعد أن يكون أثراً من آثار اليهودية والمسيحية ، لأن في النقوش التي عثر عليها في الجنوب نقشاً دوّن عليه ما ترجمته : « الرحمن رب السماوات والأرض » [1] .

وإذا كان الإعتقاد برب السماوات والأرض أثراً للديانتين السماويتين فإن الإهتداء الى كلمة « الرحمن » غير معروف التاريخ ، وليس في هاتين الديانتين

---

(١) «تاريخ العرب قبل الإسلام» لجواد علي ، و«التاريخ العربي القديم» ترجمة فؤاد حسنين علي .

كلمة « الرحمن » ومما نعتقده أن كلمة « الرحمن » انتقلت الى الجنوبيين من الديانات السماوية الصحيحة .

والإعتقاد بأن « الرحمن رب السماوات والأرض » [١] لم يقض على الوثنية ، وان كان المفهوم من هذه الصيغة أن تحولاً خطيراً أو انبثاقة مشرقة حدثت في تاريخ ديانة الجنوب ، لأن الصبغة المحلية لم تعد الطابع العام ، بل تدل تلك الصيغة على أن الرحمن ليس إلـهاً ذا صبغة محلية ضيقة ، بدليل أنه « رب السماوات والأرض » .

وعثر في نقش من النقوش جملة كتبت بأمر أبرهة (سنة ٥٤٢ أو ٥٤٣ م) تخليداً منه لبعض أعماله في اليمن عندما أخمد ثورة يزيد بن كبشة وأصلح السد وعمل أعمالاً أخرى ، وترجمتها : « بقوة وعظمة ورحمة الرحمن ومسيحه والروح القدس ، أنا أبرهة وضعت هذا النقش ... الخ » [١].

واستعمل « الرحمن » في قول أبرهة استعمالاً مسيحياً مكان « الآب » أو « الله الآب » بوصفه الأقنوم الأول .

ولم يكن الجنوبيون متفردين عن عرب الشمال والحجاز بديانتهم ، بل شارك بعضهم بعضاً في العقيدة القمرية وإن اختلفت الطقوس بعض الاختلاف حسب اقتضاء البيئة والمجتمع والثقافة والوعي والتحضر .

فالإلـه « ود » بهذا الاسم كان معروفاً في الحجاز حتى أزال تمثاله وعبادته الإسلام ، وكذلك عبادة القمر والشمس .

وأصدق أثر نعتمده هو القرآن للكناية في ديانة العرب بالجزيرة ، فقد صور لنا القرآن الديانات والعقائد التي قامت في جزيرة العرب .

فعبادة الشمس والقمر والزهرة كانت معروفة في غير الجنوب ، وقـــد

---

(١) المرجع السابق .

قال تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ فصلت : ٣٧ .

﴿ الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان ﴾ الرحمن: ٥ — ٦.

فآية فصلت تشير إلى عبادة الشمس والقمر ، لأن السجود خضوع يصدر من الايمان بالألوهية ، وهو كناية عن التعبد عامة لأن أمر الله بالسجود له يشمل الايمان بالوحدانية والتأليه وإخلاص العبادة كلها له .

ولعل « النجم » في ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ مقصود به « الزهرة » التي كان يتعبد لها فريق من العرب ، ويصح أن يكون غيرها .

ويؤيد استمرار عبادة الشمس والقمر إلى عهد الإسلام صيغة الأمر في الآية الكريمة ، وهو أمر للقريب الموجود لا للبعيد المفقود ، ويؤيد وجودها أسماء بعض القرشيين ، فكان فيهم من يسمى « عبد شمس » مثل عبد مناف ، وهو اسم معروف في الجنوب أيضاً وهو « عبد شمس بن وائل بن قطن بن عريب بن زهير بن الغوث بن أبيه الهميسع بن حمير ، كما كان في أيام البعثة أفراد يحملون هذا الاسم ومنهم : عبد شمس بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد شمس بن الحارث بن كثير الغامدي وعبد شمس بن عفيف بن زهير الأزدي .

والشمس صنم لبني تميم ، وكان له بيت وسدنة .

وفي بعض الروايات أن قبيلة كنانة النازلة بمكة حرسها الله كانت تعبد القمر .

وأشار القرآن الى أن الشمس كانت معبودة في سبأ إذ يقول : ﴿ وتَفَقَّدَ الطير فقال مالِي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين * فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تُحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين * إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيتْ من كل شيء ولها

عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾ سورة النمل : ٢٠ — ٢٤ .

وفي ديانة العراق كانت عبادة الشمس والقمر ، ويشير إلى ذلك القرآن الكريم أيضاً : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ .

ولعل الكوكب الذي رآه ابراهيم عليه الصلاة والسلام هو « الزهرة » لأنها كانت تعبد في « أور » .

وعرفت عبادة الكواكب في الجزيرة العربية ، وأشار القرآن الى كوكب الشعرى في قوله تعالى : ﴿وأنه هو رب الشعري﴾ النجم: ٤٩ . وكانت خزاعة التي تنزل مكة تعبد الشعرى العبور ، لأن هناك شعرى أخرى هي الشعرى الغميصاء ، وسن عبادتها أحد رؤسائها وكنيته أبو كبشة .

وعبدت ربيعة كوكب « الجوزاء » وتميم كوكب « الدبران » وطيىء كوكب « الثريا » حسب روايات بعض المؤرخين .

وعرفت عبادة الملائكة والجن ، وأشار القرآن إليها في قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ .

وكانوا يعتقدون أن الملائكة إناث وهم بنات الله من زواج الله بالجن ﴿فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون *أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون* ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وأنهم لكاذبون * اصطفى البنات على البنين * ما لكم كيف تحكمون * أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين * فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين * وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت

الجنة أنهم لمحضرون * سبحان الله عما يصفون ﴾ الصافات : ١٤٩ ــ ١٥٩ .

وهذه الآيات تدل على عقيدة العرب فيما يتصل بالملائكة والجن ، فهم قد عبدوها لأنها «ذوات مقدسة » فالملائكة أولاد الله من زواجه بالجن كما اعتقدوا، وجاء في « الاصنام » لإبن الكلبي : أن بني مليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن ، ونزلت فيهم الآية الكريمة : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ سورة الأعراف : ١٩٤ .

بل كان غير بني مليح يتعبدون الجن بصرف بعض العبادات إليهم ، يقول الله تعالى ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ سورة الجن : ٦ .

فالعياذ بغير الله تعالى شرك أكبر ، وهو حرام في عقيدة التوحيد الصحيحة ، لأن العياذ عبادة لا تجوز إلا لله وحده ، وتوجيهها الى الجن إشراك وكفر .

* * *

وعُرفت في الجزيرة العربية وثنيات مختلفة ، ويقول المؤرخون : إن عمرو ابن لِحَيٍّ هو الذي غير الاتجاه الديني في الحجاز وغيره من التوحيد إلى الشرك ، وزعموا أنه كان على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فلما مرض ابن لحي رحل الى البلقـاء مستشفياً ، ونقل معه بعض الآلهة المعبودة هناك إلى ديار العرب ونشر بين القبائل عبادتهـا ، حيث وزع عليها ما اصطحب من آلهة .

وأحسب أن هذا الادعاء ليس صحيحاً كله ، إذ لا يستطيع عمرو بن لحي تغيير مجرى العقيدة والحياة الدينية من التوحيد إلى الشرك والوثنية بهذه السهولة .

وعصر سيدنا إبراهيم لم يكن عصر توحيد ، لأن الشرك كان أعم وأغلب من التوحيد . والمؤمنون بوحدانيـة الله من أتباع إبراهيم قلة نادرة كما يفصح التاريخ الصحيح ، فإذا كان عصر ابراهيم نفسه زاخراً بالكثرة الوثنية فإن عصر

اسماعيل وغيره من الرسل لم يكن خيراً من عصر إبراهيم في كثرة الموحدين اذا استثنينا عصر موسى عليه السلام ، أما عصر المسيح فكان أتباعه من الصيادين والضعفاء ندرة بين الوثنيين واليهود الذين خرجوا عن التوحيد باعترافهم بآلهة الأمم الأخرى ، بل إن في توراتهم وأسفارهم المقدسة ما يناقض التوحيد الحق ويهدمه هدماً .

ولا يجوز أن يكون العرب موحدين على ملة إبراهيم فيأتيهم عمرو بن لحي بما ينقلهم فجأة من التوحيد إلى الشرك ، ومن الإيمان الديني الصحيح إلى الوثنية الهوجاء .

ولا يستقيم مع الواقع إلا أن يقال : إن الوثنية كانت عامة في الجزيرة العربية — ولكن مكة والحجاز كانتا متمسكتين بدين إبراهيم والوحدانية — ولما نقل عمرو بن لحي ما نقل من الأصنام والأوثان ووزع على القبائل ما وزع كان الجو صالحاً لقبول آلهة جدد ، أما بالنسبة إلى مكة فقد فرض عليها الوثنية بالقوة.

ولا شك عندي أن الوثنية كانت شائعة في الجزيرة العربية قبل عهد عمرو ابن لحي ، فهم ينسبون إليه أنه أحضر معه أصناماً كثيرة وزعها على القبائل ، ومن هذه الأصنام سواع ويغوث ويعوق ، مع أن هذه وغيرها من الأصنام التي ينسب إليه اصطحابها من البلقاء بالشام أو من جدة أو منهما معاً كانت عبادتها معروفة قبل عهده الذي لا يزيد بعده عن البعثة بأكثر من ثلاثة قرون .

ففي (الأصنام) لابن الكلبي ص٥٧ : أن عمرو بن لحي دفع إلى رجل من هذيل هو الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر سواعاً ، فبين الحارث ومدركة ثلاثة آباء ، وفي عمود النسب الشريف : مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ، وبين محمد عليه صلوات الله وسلامه إلى مالك عشرة آباء هم : عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ، وفهر هو ابن مالك ، وإذا أعطينا كل جيل ثلاثين سنة كان مجموع أعمار عشرة الآباء ثلاثمئة سنة.

فبين البعثة النبوية وعمرو بن لحي لا يزيد على ثلاثة قرون حسب تقديرنا.

ومعنى هذا أن عصر عمرو بن لحي كان عصراً وثنياً ، ولم يكن عصر توحيد ، لأنه أفسده هو بإحضار آلهة من البلقاء وجدة ، أحضر أصناماً ونشرها بين القبائل التي كانت تعتنق الوثنية .

وكانت القبائل كلها غير موحدة ، وكانت الأصنام منتشرة في أرجاء الجزيرة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، حتى مكة التي قام فيها البيت الحرام لم تسلم من الوثنية التي أدخلها إليها ابن لحي ، حتى انتهى الأمر إلى أن يكون بجوف الكعبة أصنام وأوثان ، وكانت القبائل التي تسكن مكة وثنية .

وأهم الأصنام : ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وهبل والعزى ومناة واللات ومناف ورضا وذو الخلصة وذو الشرى وسعد وأساف ونائلة وغيرها .

وأما ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر . فهي أصنام قديمة كانت في عصر نوح عليه الصلاة والسلام ، وقد أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وقالوا لا تَذرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾ وقد عبدها قوم نوح فنهاهم ولم ينتهوا .

وعرفت هذه الأصنام في الجزيرة العربية وعبدت ، فالصنم « ود » كان معبوداً رئيساً في الجنوب ، وعُرفت عبادته في الشمال ، فكان في دومة الجندل ، وله بيت وسدنة ، ومن سدنته : « عبدوُدٍّ بن عوف بن عذرة ، ويقال إن عمرو بن لحي أعطاه عوف بن عذرة فأقامه بدومة الجندل ودعا الى عبادته ، ولم يزل بنوه يسدنونه حتى جاء الإسلام وهدمه خالد بن الوليد.

ويقول ابن الكلبي في كتابه[1] : « كان تمثال رجل كان كأعظم ما يكون

---

(١) « الأصنام » تحقيق أحمد زكي باشا ص ٥٦ .

من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل » .

وروى ياقوت في (معجم البلدان) ٨ : ٤٠٧ : « وكان لقريش صنم يدعونه وداً » .

و « سواع » صنم لهذيل ، وضع في رهاط من أرض ينبع ، كما جاء في (الاصنام) لابن الكلبي ، وفي رواية « المحبر » ص ٣١٦ : « وكان سواع بنعمان ، تعبده بنو كنانة وهذيل ومزينة ، وعمرو بن قيس بن عيلان ، وكان سدنته بنو صاهلة من هذيل » .

وقيل في وصفه : إنه حجر ، وقيل : إنه على شكل امرأة .

ويغوث — على رواية ابن الكلبي من الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي ، وهو الذي أعطى سواعاً أيضاً ، ودفع ابن لحي يغوث لأنعم بن عمرو المرادي فوضعه بأكمة مذحج باليمن ، فعبدته مذحج ومن والاها وأهل جرَش .

ويعوق ، دفعه ابن لحي إلى مالك بن مرثد بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيوان بن نوف بن همدان ، وعبدته همدان وخولان .

ونسر ، صنم حمير ، وقيل : صنم ذي الكلاع ، ووجد اسمه على نقش لحياني في شمال الحجاز ، ولكن ذكر في النقش « نشر » على شكل طائر ، وكان ذلك قبل بضعة قرون من البعثة النبوية الشريفة ، وفي المصادر العبرية والسريانية جاء اسم « نشرا » على أنه إلـه عربي ، وأشار (نولدكه) الى وجود صنم على هيئة نسر منقوش على صخور وبخاصة في شمال الحجاز .

ويظهر من هذا كله أن « نسرا » كان معبوداً مشهوراً في الجزيرة العربية ويقول ابن الكلبي [1] : « وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها ، وكان أعظمها عندهم هُبَل ، وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الانسان ،

---

(١) الأصنام : ٢٧ — ٢٨ .

مكسور اليد اليمنى ، فأدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب ، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، وكان يقال له : هُبَلُ خزيمة » .

وجاء في « تاريخ مكة » للأزرقي ١ : ٦٨ : أن عمرو بن لحي قدم « بصنم يقال له : هبل من هيث من أرض الجزيرة ، وكان هبل من أعظم أصنام قريش » .

وذكر الأزرقي : « كان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده » .

وكان « هبل » إلـه قريش الأعظم ، يدعونه ويستشيرونه ويقدحون في سبعة القداح التي كانت بين يديه ، فلا يختنون ولا يتزوجون ولا يقدمون على عمل عظيم إلا بعد أن يقدحوا عنده ، وأن عبد المطلب لجأ إلى القداح عندما نذر ذبح ابنه عبد الله والد الرسول ﷺ .

وفي رواية ابن هشام أن عمرو بن لحي جاء بهبل من مآب بالبلقاء .

وفي المحبر ص٣١٨ : « وكان هبل لبني بكر ومالك وملكان وسائر بني كنانة» .

وفي غزوة أحد عندما انهزم المسلمون لتركهم وصاة الرسول ﷺ وقف رئيس قريش أبو سفيان بن حرب وصاح : أعلُ هُبَل . أعل هبل ، فردّ عليه رسول الله : الله أعلى وأجل .

ويظهر من هتاف أبي سفيان باسم هبل وتمجيده دون أصنام مكة وآلهة العرب جميعاً أن هبل كان أعظم الأصنام طراً .

وورد اسم « هبل » في الكتابات النبطية بالحجر ، كما ورد عند بني كلب حتى تسمى باسمه « هبل بن عبد الله بن كنانة الكلبي » مما يدل على أنه كان معروفاً ومعبوداً .

وسواء صح إحضار ابن لحي هُبَل من هيت أو مآب أم لم يصح ، فإن من الموثوق به أن هبل ليس إلـهاً اخترعه من عبدوه في الحجاز ، بل هو صنم وافد من شمال الجزيرة العربية كما نرجح ، لأن نبط « بطرا » عرفوا هبل ، واسمه عندهم « هبلو » .

وعرب الحجاز لا يحسنون صنع التماثيل ، ووصف تمثال هبل يشير الى أنه من الفنون التي لا يجيدها الحجازيون .

وهو صنم منقول الى الحجاز وعرف فيه قبل بزمن طويل ، لأنه لا يستطيع أن يصل الى ما وصل اليه من المكانة حتى يكون موضعه بجوف الكعبة ويصبح الإلـه الأعظم بالنسبة الى الآلهة التي كانت تملأ الكعبة داخلها وخارجها .

وهذه المكانة تقتضي زمناً طويلاً ، وعلى أي حال كان هبل أكبر الآلهة طراً في مكة وعند قريش .

وهناك ثلاثة أصنام ورد ذكرها في القرآن الكريم اذ يقول : ﴿ أفرأيتم اللات والعزّى * ومناة الثالثة الأخرى ﴾ النجم : ١٩ — ٢٠ .

وفي الأصنام « لابن الكلبي » أن مناة أقدم الأصنام ، وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقديد بين مكة والمدينة ، وكانت العرب تعظمه وتذبح له (أو حوله) وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع ، وهذيل وخزاعة يعظمونه ويذبحون له ويهدون له ، ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج ، وكانوا هم ومن يأخذ أخذهم من عرب المدينة وغيرها يحجون ويقفون المواقف كلها ، ولا يرون تمام حجهم إلا إذا أتوا مناة فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا لديه .

وهدَم مناة سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بأمر سيدنا رسول الله ﷺ .

واللات بالطائف ، وهي — على رأي ابن الكلبي — أحدث من مناة

وكانت صخرة مربعة ، وسدنتها من ثقيف بنو عتاب بن مالك ، وقد بنوا عليها بناء،وكانت قريش وجميع العرب تعظمه،وهدمها بأمر رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة .

وأما العزى فهي أحدث من اللات ومناة ، وكانت بواد من نخلة الشامية يقال له : « حراض » بإزاء الغمير عن يمين المصعد الى العراق من مكة ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح ، وحموا لها شعباً من وادي حراض يقال له : سقام يضاهون به حرم الكعبة ، وكان بها منحر ينحرون فيه هداياهم يسمى الغبغب ، ويقسمون لحومها على من حضر ، وكانت قريش تخصها بالإعظام .

وسدنة العزى بنو شيبان بن جابر بن مرة من بني سليم ، وكان آخر من سدنها منهم دُبَيَّة بن حَرَمِي السلمي ، وانتدب رسول الله خالد بن الوليد فقضى على العزى وقتل سادنها دُبَيَّة .

وسمي العرب بها ، ومنهم : زيد مناة بن تميم بن مر بن أُدّ بن طابخة ، وعبد مناة بن أد ، وتيم اللات بن ثعلبة بن عكابة ، وتيم اللات بن رفيدة بن ثور ، وزيد اللات بن وفيـة بن ثور ، وتيم اللات بن النمر بن قـاسط ، وعبد العزى بن كعب بن زيد مناة بن تميم ، وعبد العزى بن عبد شمس ، وعبد العزى بن قصي ، وعبد العزى بن عبد المطلب المكنى بأبي لهب .

وعرفت هذه الأصنام الثلاثة (اللات ومناة والعزى) عند غير الحجازيين قبلهم،فكان من آلهة نبط بطرا وتدمر: اللات ، وكان هؤلاء النبط يعبدون « منوتو » وهي مناة، وأهل تدمر يعبدون الإله « عزيزو » وهو « العزى » كما وجدت نقوش بابلية وثمودية وصفوية جاء فيها اسم «اللاتو» و«اللت» و«هاللت» أسماء لآلهة عبدت هناك ، وبعض النقوش يرجع إلى ما قبل ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام .

وكانت «العزى» معبود أهل الحيرة وأهل مدينة « بيت حور » كما تذكر كتب سريانية مؤلفة في القرن الخامس للميلاد ، وتذكر هذه المصادر أن المنذر أحد ملوك الحيرة قرب قرابين آدمية للعزى التي كانت بالحيرة ، فقد ذبح المنذر راهبات كن في أسره قرباناً للعزى .

ومَنافُ ، يقول فيه ابن الكلبي (الأصنام ٣٢) : « وكان لهم أيضاً مناف ، فيه تسمي قريش « عبد مناف » ولا أدري أين كان ولا من نصبه » .

وفي سيرة ابن هشام : « مناف اسم صنم أضيف « عبد » إليه ، كما يقولون عبد يغوث وعبد العزى وعبد اللات » .

ومناف اسم إلـه كان عرب الشام يعبدونه، وجاء ذكره في بعض المدونات على الحجارة ، ونقش شكله على حجر ، وهو على هيئة إنسان بدون لحية، وشعر رأسه يتحدر على عارضيه ، وعلى عنقه القلادة التي ترى في صور آلهة سوريا غالباً ، وعلى صدره طيات ردائه ، وورد اسم مناف في كتابة بحوران .

والصنم « رُضَى » لم يذكره ابن الكلبي إلا أن العرب سمت به معبِّدين ، فقيل : عبد رُضى — وهو بضم الراء — وأن بعض الرواة ذكروا أن رضى كان بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة فهدمه بأمر النبي ﷺ المستوغر وهو عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، وقال المستوغر في كسره رضى :

ولقد شددتُ على رُضاء شدة فتركتها تلا تنازع أسحما
ودعوت عبد الله في مكروهها ولـمِثْلُ عبد الله يغشى المحرما

وجاء اسم رضى ممدوداً كما في هذا الشعر ، ولم يذكره ابن الكلبي بين الأصنام ، ولكن تعبده بنو تميم وطيىء ، وسبقهم إلى عبادته ثمود ، وكان إسمه « رضو » وورد إسمه في مدونات ثمودية وصفوية وتدمرية ، مما يشير

إلى أنه كان من معبودات عرب الشمال .

و « ذو الخلصة » يصفه ابن الكلبي بأنه كان مروة بيضاء منقوشاً عليها كهيئة التاج ، وكان بتَبَالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة ، وسدنتها بنو أمامة من باهلة بن أعْصُر ، ويعظمها ويهدي لها بجيلة وخثعم وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن ، وانتدب رسول الله لهدمه جرير بن عبد الله البجلي ، فسار ببني أحمس من بجيلة إليه فقاتلهم خثعم وباهلة دونه ، وقتل جرير مئة رجل من سدنته من باهلة ، ومئتين من بني قحافة بن عامر بن خثعم ، وهدم بنيان ذي الخلصة وأضرم فيه النار .

ويروي ابن الكلبي أن العرب جميعاً كانت تعظم ذا الخلصة .

وقيل في بعض الروايات : إن ذا الخلصة بيت في ديار دوس ، وفي الحديث الشريف : « لا تذهب الدنيا حتى تصطك أَليَات نساء دوس على ذي الخلصة يعبدونه كما كانوا يعبدونه » .

وهذه الأصنام التي عرفها عرب الحجاز بقسميه الشمالي والجنوبي وغيرهم من أقطار الجزيرة لم تجد من يبحثها بحثاً علمياً صحيحاً ، وكل ما كتب فيها لا يعدو الاشارة إلى الاسم واشتقاقه وإلى من سنّ عبادة كل إلـه أو أحضره وإلى موقعه والقبيلة التي تعبده ، وإلى بعض ما قيل فيه من الشعر وإلى من هدمه .

وهذه الإشارة لا تكفي في مجال البحث العلمي المتعطش الى معرفة العقيدة التي يعتقدها عبّاد مناة — مثلاً — وجوهرها وطقوسها وأصل مناة الخ .

ولم يبحث العلماء المسلمون في تاريخ الوثنية العربية وآلهتها وأصولها لأن الإسلام شغلهم ، ولأنهم لم يعنوا ببحث الآثار التي تزخر بها الجزيرة ، ولأن بحث الديانات لم يكن قد استوفى جوانبه حتى يكون لديهم الاستعداد للبحث العلمي الصحيح .

وليس من مهمة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بحث الديانات

بحثاً تاريخياً وعلمياً ، ولا تفصيل أخبارها واستقصاء ما يتعلق بها من عقائد وشرائع ، وكل ما جاء فيهما — وهما أصح المراجع إطلاقاً — إشارة الى الوثنية مع تعداد بعض الآلهة ، وترك ماعدا ذلك للباحثين .

وكثرة الآلهة في الشعوب الوثنية موضع للنظر والتأمل ، وبخاصة في الجزيرة العربية ، وأحسب أن هذه الكثرة صفات آلهة تحولت مع مضي الزمن إلى آلهة ، فبعد أن كان الإلـه موصوفاً بعشرين صفة ، صارت كل صفة إلـهاً أو إلاهة ومن هنا كثر تعداد الآلهة التي يمكن رَجْعها الى أسر معدودات .

وفي بحث الدكتور « ديتلف نلسن » في « الديانة العربية القديمة » المترجم في كتاب بالعربية تحت عنوان « التاريخ العربي القديم » ترجمة الدكتور فؤاد حسنين ، ما يعين على معرفة حقائق رائعة عن الآلهة التي عبدت في الجزيرة ورد بعضها الى إلـه واحد تعددت صفاته فتعددت الشخصيات ، وذهب ديتلف نلسن الى أن إلهة الشمس تسمى في الجنوب بأسماء عديدة ، وفي شمال بلاد العرب تسمى عادة « ه الات » أو « أل الات » أي الإلهة ، وأن عرب الصفا بالقرب من دمشق من الجهة الشرقية ، ويحترفون الزراعة في المنطقة الواقعة شرق جبل الدروز أو جبل حوران متأثرون بطقوس عبادة الشمس السامية الشمالية نتيجة إتصالهم بالثقافة الآرامية النبطية الحورانية التي امتازت بميزات الحضارة السامية الشمالية ، ففي الطقوس الصفوية نجد إلهة الشمس مذكورة تحت اسم « الات » وترسم أحياناً كقطعة من الشمس .

وتصور أيضاً — حسب الطريقة السامية الشمالية — صورة إنسانية تمثل حسناء عارية ، وهي صورة تشبه — في الواقع — تمثال « عشترت » غير أن وجود الشمس بجوار الرأس يحمل على الجزم بأنها صورة إلـهة الشمس .

والظاهرة الهامة في الديانة العربية هي إعتبار إلآهة الشمس أماً ، وهذه فكرة مصدرها أسطورة الأسرة . فإلاهة الشمس العربية القديمة تقابل عند الساميين الشماليين الإلاهة « أم الزهراء » المسماة « عشتر » أو « عشترت » ومن

التسمية « أم عشتّر » يفهم أنها أم طفل ، وهو الطفل الإلهي المسمى « عشتّر » وهي إلاهة أم وإلاهة وحيدة هي مثل « عشتّر » حامية النساء وإلاهة الولادة والحمل .

وكل هذه الصفات نراها مجتمعة في الاسم « الات » أي « الإلاهة » فهذا اسم يصور إلاهة الشمس كشمس وكزوجة للإلَه الأكبر إلَه القمر ، وكالاهة أم ، ولفظ « الات » أو إلاهة » يقابل المذكر « ال » أو « اله » وهو اسم عربي قديم نجده في مختلف بقاع الجزيرة من حضرموت واليمن الى تدمر ومنطقة دمشق ، كذلك في العصور القديمة ، فقد ذكره هيرودوت أيضاً.

ويقول ديتلف نيلسن في بحثه ما ننقله من الترجمة العربية بشيء من الإيجاز :

لفظ « عشتّر » في جنوب الجزيرة هو الاسم العادي للزهراء والإله الزهراء ، ولكننا نلاحظ ندرة هذا اللفظ « عشتّر » في الشمال، وصار « الالَه الزهراء » يعرف باسم آخر كان شائعاً عند العرب الثموديين والصفويين ألا وهو « رضى » وهو يكتب عادة « رض و » أو « رض ى » أي الراضي .

وورد هذا الاسم في قائمة الأصنام التي ذكرها المسلمون ، إلا أنهم لم يعرفوا الإلَه المسمى به، وإن كان « ليتمان » أثبت ورود هذا الإلَه في النقوش الصفوية والثمودية ، وقال عنه « ديو » بحق : أنه الزهراء ، إلا أن ديو رأى أن هذا الآله أنثى وليس مذكراً كما هو معروف ، ومصدر هذا الخطأ هو أنه خلط بين « الات » الواردة في النقوش الصفوية والتي هي إلهة الشمس وبين الزهراء ، واعتقد أن « الات » هي الزهراء .

أما المواضع التي تثبت أن « رضى » لقب من ألقاب الزهراء ، فقد عثّر عليها جميعها في الشمال في الرها التي حكمتها أسرة عربية في أوائل القرن الأول للميلاد، وكانت محل عبادة إلَه الشمس الذي كان يصاحبه إلَهان هما « أزيزوس Azizos » و « مونيموس Monimos » وكان الأول يتقدم

الشمس والآخر خلفها ، وقد عرف من قديم أنهما نجم الصباح ونجم المساء، فأزيزوس الذي هو الزهراء نجم الصباح ، لأنه يسبق شروق الشمس ، ومونيموس نجم المساء الذي يغيب بعد غروب الشمس ، وأزيزوس يرد كثيراً في النقوش على أنه إلـه .

وهما اسمان عربيان ، وعلى هذا فهذان الإلـهان عربيان دون شك، فأزيزوس هو « عزيز » ومونيموس هو « منعم » الذي يمثل نجم المساء ، وهو « رضى » الذي يحمل المعنى نفسه ، وفي أحد النقوش التدمرية نجد هذين الإلـهين ، إلا أنهما لا يسميان « عزيز » و « منعم » بل « عزيز » و « رضى » .

وهذا النقش – مثل كثير من النقوش التدمرية – مكتوب بالآرامية ، إلا أن أسماء الآلهة ليست بالآرامية ، أما الثقافة التدمرية فمتأثرة بالبابلية واليهودية والمسيحية والعربية ، ولهذا وجدت آلهة هذه الثقافات المختلفة ترحيباً في تدمر وترحيباً أكثر من الآلهة التدمرية الآرامية .

وهذان الإلـهان عربيان باسميهما، لذلك بقي الاسم « رضى » غريباً في النقوش التدمرية إذ نظر إلى اللفظ كدخيل وأبقوه كما هو ، ورسم « عزيز » على حجر تدمري في هيئة طفل .

وشخصية الزهراء التي كانت ذات أثر بالغ في الديانات السامية في العصور المتأخرة ما زالت غامضة في كثير من نواحيها ، ونستطيع عن طريق المصادر غير العربية التعرف إلى أنه كان يقدس كطفل ، إذ يذكر في الكتابات اللاتينية دائماً كطفل ، وتصور العرب الكوكبين العظيمين (الشمس والقمر) كشخصين والزهراء طفلاً ، وهذه ظاهرة نلمسها في كثير من ديانات الشعوب الفطرية .

والاسمان « منعم » و « رضى » اسمان لإلـه طفل ، ونجم الزهراء عند العرب وغيرهم منظور اليه لطبيعته المزدوجة كنجم للمساء وكنجم للصباح على أنه إلـهان ، والقربان الذي يقدم اليه يكون من شبهه ، ولهذا كانت

القرابين التي تقدم إليه أطفالاً يمتازون بالجمال ، وقد جاء في نص حراني : « إننا نقدم لك قرباناً يشبهك » .

ويوصف الزهراء بأنه « ذو الخلصا » ومعناه الطاهر أو النقي ، ولم يسهل فهم هذه الصفة إلا إذا علمنا أن الزهراء طفل .

ومن أسماء الأصنام الجاهلية « ذو أخلص » أو « الأخلص » وهذا الاسم نجده كثيراً في المصادر العربية ، ويعتقد « توخ » Tuch (سنة ١٨٤٩) ، أن اسم هذا الإلـه ليس إلا صفة للزهراء، وأثبتت الاكتشافات الأخيرة صحة اعتقاده .

وهذه ظاهرة عجيبة للأسماء العربية المطلقة على الزهراء ، سواء أكانت هذه الأسماء منتشرة عند العرب الشماليين أم النازلين على الحدود حيث تغلب الحضارة السامية الشمالية إذ كان يظهر هذا الإلـه على شكل امرأة ، فمثلاً « ملك » هذا الاسم المنتشر كثيراً على أنه من أسماء الزهراء ينقلب عند الساميين الشماليين « ملكة » و « عشتر » يصير عند الكنعانيين « عشترت » و « كوكب » يصير عند الآراميين « كوكبة » و « خلص » عنـــد النبطيين وغيرهم من العرب الشماليين « خلصة » .

وهذا الاسم المؤنث من أسماء الإلـه التي ترد كثيراً مع أسماء الأعلام في النقوش السينائية ترد في النقوش الثمودية ، وقد يكون في اليونانية أيضاً ذوا الخلص (الخلاص) فإذا وجدنا إلهاً عربياً مثل « ذو الخلص » أو « خلص » يصير عند الشماليين « خلصة » فالنتيجة التي لا مفر منها أن هذا الإلـه صار الآلهة ، وهذا التغيير لم يحدث إلا مع الزهراء .

والثالوث الإلـهي ينظر إليه كأسرة ، القمر والد، والشمس أم، والزهراء ابن ، وأسطورة الملوك العربية تحملنا على الاعتقاد بأن « ملك » هو لقب من ألقاب الزهراء ، ورمز الملك التاج ، والتاج محفور على « ذو الخلصة »

كما يروي ابن الكلبي ، والشبه قوي بينه وبين الزهراء ، وما دام التاج شعار « ذو الخلصة » والتاج رمز الملك ، والزهراء موصوف بأنه ملك ، وصار إلاهة بعد أن كان إلهاً فمن البديهي أن يكون ذو الخلصة هو الزهراء .

ونخلص من الاستشهاد بما انتهى إليه بحث ديتلف نلسن إلى أن العزى ورضى وذا الخلصة الآلهة العربية هنّ الزهراء ابن الإلـه القمر والإلهة الشمس ، وعرفت في الشمال والجنوب عند أمم سامية متعددة .

وأساف ونائلة كانا صنمين ، ويذكر الإخباريون أن أسافاً فسق بنائلة في جوف الكعبة فمسخا حجرين ، ورواية ابن الكلبي [١] : « أساف بن يعلى ونائلة بنت جرهم ، وكان يتعشقها في أرض اليمن فأقبلوا حجاجاً فدخلوا الكعبة ، فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت ففجر بها في البيت ، فمسخا ، فأصبحوا فوجدوهما مسخين ، فوضعوهما عند الكعبة ليتعظ الناس بهما ، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عُبدا معها ، وكان أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم ، فنقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة إلى الآخر فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما ، وعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب » .

وأسطورة أساف ونائلة تذكر بالأساطير اليونانية وبآلهة اليونان الفسقة ، ولم يذكر أساف ونائلة في غير كتب التاريخ والأخبار بعد الإسلام .

وسعد – كما يقول ابن الكلبي – صنم كان لمالك وملكان ابني كنانة بساحل جدة ونواحيها ، وكان صخرة طويلة ، فأقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه ، يتبرك بذلك فيها ، فلما أدناها منه نفرت منه – وكان يهراق عليها الدماء – فذهبت في كل وجه ، وتفرقت عليه ، فتناول حجراً قذفه به وقال : لابارك الله فيك إلـهاً أنفرت علي أبلي ، وخرج في طلبها وجمعها وقال :

---

(١) الأصنام ٩ و ٢٩ .

أتينا إلى سعد ليجمع شملنـــــا فشتتنا سعد فلا نحن من سعـــد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفـــة من الأرض لا يدعى لغي ولا رشد

ووجد من يسمى « عبد سعد » في قبيلة يشكر مما يدل على أنه عبد فيها ، وسعد من أسماء المعاني المتخذة آلهة كما في اليونان وغيرها ، فالمقصود بسعد أنه مسعد ، مثل « ود » لا يقصد به الود (الحب) بل الواد (المحب) .

ويقول ديتلف نلسن : إن في النقش العربي الشمالي لامرىء القيس أن الإلـه « سعد » هو الذي ولد « امرأ القيس » ملك جميع العرب والمتوج على رأسه بتاج .

وعرفت عبادة « سعد » لدى الصفويين لورود اسمه في مدوناتهم .

وما أكثر الأصنام العربية وما قيل فيها من شعر وأساطير ، وما ذكرناه منها إن هو إلا إشارة عابرة ونموذج لآلهة عبدت .

ولم يكن الأمر وقفاً على هذه الآلهة، بل كان بعض العرب يصنع إلـهه من التمر فإذا جاع أكله ، وهذا من الطوطمية عند أصحابها عندما يأكلون لحم إلـههم، والذين صنعوا ذلك من العرب هم بنو تميم ، ويقول ابن قتيبة في « المعارف » ص ٢٦٦ : كان بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية إلهاً من حيس فعبدوه دهراً طويلاً ، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه ، فقال رجل من تميم :

أكلت ربّهـــا حنيفة من جـــو ع قديم بها ومـــن إعـــــواز

وأكل الآلهة من الطوطمية ، فقد كان أتباعها يأكلون إلههم إما تبركاً ، وإما لتحل بهم قوته ، وأما لتحلّ فيهم صفاته ، وما فعله بنو حنيفة إن هو من هذه الطوطمية .

ولم تقتصر ديانات العرب وعقائدها على هذه الأوثان والأصنام ، بل هنالك أسماء كثيرة لم نشر إليها اكتفاء بإعطاء صورة تغني عن سرد أسماء

الأصنام الأخرى ، كما لم تقتصر على ما ذكرنا ، لأن العرب عرفوا المجوسية واعتنقوها كما اعتنقوا المسيحية واليهودية .

فقبائل من بني تميم عرفت المجوسية ومنهم : زرارة بن عدس وقد تزوج ابنته ثم ندم على رواية ابن قتيبة في (المعارف) ومنهم لقيط بن زرارة الذي تزوج ابنته « دختنوس » وسماها هذا الاسم تقليداً ، فهو اسم أعجمي ، فدختنوس هي ابنة برسى بن بهرام بن بهرام ، وهي عمة سابور ذي الأكتاف [١] .

وعندما حضرت الوفاة لقيطاً قال :

يا ليت شعري عنك دختنوس
إذا أتاها الخبر المرموس
أتحلق القرون أم تميس
لا بل تميس انها عروس

وقبول هؤلاء للمجوسية مرده إلى سهولتها وخلوها من التكاليف ، فما وصل إليهم منها لا يكلفهم طقوساً وعبادات لا يطيقونها ، وليس فيها نحت تماثيل وبناء المعابد ، بل كل ما فيها إشعال النيران ، وهو أمر يتفق مع عاداتهم ، فهم يشعلون النار لأنفسهم ولضيوفهم ، ويتباهون – حسب عادة العرب – بأن نيرانهم لا تنطفيء ، إشارة إلى كرمهم ، ووجود الطارقين لديهم الطعام .

والشيء الوحيد الذي كان يضايقهم هو زواج البنات ، أما عدا ذلك فما كانوا يحسون فيه نقضاً لما هم فيه، بل ما كان العرب يشعرون بأن المجوسية غير طبيعية ، لأنها هي والأديان الأخرى انقلبت وثنية كوثنية العرب ، فلا فرق بينها وبين غيرها من الأديان ، والوثنية في عمومها ملة واحدة .

والتعاليم الفلسفية في المجوسية لم تكن مما يبعدهم عنها ، فمن فهمها فقد

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري.

أضاف إلى معتقده ما يزيده ثباتاً ، ومن لم يفهمها لم يكن في حاجة إليها ما دامت الرسوم ظاهرة ، والطقوس مؤداة ، ولم يكن في المجوسية شروط قاسية تصد مثل دين الصابئة الذي لم يجد قبولاً من العرب مع أن الصابئة قريبون منهم .

ودين الصابئة دين أسرار ، ودين يشترط اشتراطات شديدة الصعوبة في الإستعداد للصلوات من طهارة مبالغ فيها تقتضيهم جهداً ، ولدين الصابئة قيود لا يطيقها إلا الندرة القادرة من الناس ، ولهذا كان أتباعه ندرة بحيث بعد المتدينون به .

وكل هذا وقف حاجزاً بينه وبين العرب فلم يجد بينهم أنصاراً ، ولم يلق منهم قبولاً ، فلم يدخلوا فيه كما دخلوا في المجوسية وفي غيرها ، ولم يذكر أن قبيلة دانت به كما دانت تميم بالمجوسية ، ودانت قبائل بديانات أخرى ، وإن كان هذا لاينفي تديّن أفراد من العرب بالصابئة .

أما اليهودية فقد عرفتها الجزيرة العربية قبل المسيحية بسبب سبقها إياها في الوجود ، فما فلسطين التي قامت عليها مملكة اليهود إلا امتداد طبيعي لأرض الحجاز ، وإذا كانت أرض سيناء من مملكة اليهود ، وأسطول سليمان يتخذ أيلة (التي هي العقبة) مرسى فإن ذلك يسمح بأن ينتقل بعض اليهود إلى شمال الحجاز .

وفي سفر الأخبار الأول ٤ : ٤١ : « وجاء هؤلاء المكتوبة أسماؤهم في أيام حزقيا ملك يهوذا وضربوا خيمهم والمعونيين الذين وجدوا هناك وحرموهم إلى هذا اليوم وسكنوا مكانهم لأن هناك مرعى لماشيتهم » .

وفي سفر الأخبار الثاني بالاصحاح السادس والعشرين أن عزّيا حارب الفلسطينيين ، وفي الفقرة السابقة ما نصه : « وساعده الله على الفلسطينيين وعلى العرب الساكنين في جوربعل والمعونيين » .

وأرض المعونيين هي « معان » ووقع الحادث الأول نحو سنة ٧١٥ قبل

الميلاد ، وأما الثاني ففي نحو سنة ٨١٠ قبل الميلاد .

فشمال الحجاز كان معروفاً لليهود ، وكانوا يجدون فيه الأمن والحرية اللذين سلبا منهما على أيدي الملوك الذين غزوهم وشتتوا شملهم ، فلاذوا بشمال الحجاز وأرض العرب طلباً للنجاة من أعدائهم الباطشين .

أما بعد الميلاد فقد أضيف إلى اضطهاد اليهود عامل جديد هو الدين المسيحي الذي دخلت فيه روما بعد زمن المسيح بمدة طويلة كما دخلت فيه بلدان أخرى ، فزاد في ترك اليهود ديارهم الى جزيرة العرب حيث يجدون الحرية والأمن .

بل في عهد المسيح عليه الصلاة والسلام أقبل بولس على جزيرة العرب ولبث بها زمناً ثم عاد إلى موطنه ، وبولس كان يهودياً متعصباً ليهوديته ، ودفعه تعصبه إلى عداء من تبعوا المسيح وإعلان حرب عنيفة عليهم ، ثم دخل المسيحية وصار رسولها الأكبر إلى العالم ، وغيَّر نهج المسيحية ووجهها وجهة لم يقصد إليها المسيح .

وأثبت ما يكون تاريخياً وجود اليهود في منطقة يثرب (المدينة المنورة) ابتداء من تيماء وخيبر وفدك ووادي القرى حتى يثرب ، وكانت هذه المناطق التي نزلها اليهود أصبحت بحكم السكن مناطق يهودية ، ولكنها في الأصل وبحكم السيادة لم تكن كذلك ، بل بقيت مناطق عربية خاضعة للسيادة العربية ، وكانوا يعيشون في حماية العرب ، كل جماعة يهودية تحالف قبيلة عربية وتدفع لها مالاً تلقاء حمايتها إياها وضمان الأمن لها .

ولم يكن لهؤلاء اليهود أي أثر ثقافي أو أدبي أو علمي أو حضاري في حياة العقلية العربية ، لأنهم انطووا على أنفسهم واعتزلوا غيرهم فيما اتخذوا من آطام وحصون وقرى ، واحتفظوا بطابعهم وأسرار دينهم وتشريعهم وعاداتهم.

وخيراً صنعوا ، ولهذا بقي العنصر العربي نظيفاً وسليماً من آفاتهم الذاتية

وعاهاتهم الخلقية ، وإن لم يسلموا من أذى اليهود ومكرهم وإيغار صدور العرب بعضهم على بعض ، وأخذ أموالهم بالباطل عن طريق الربا .

وأشهر القبائل اليهودية التي نزحت من فلسطين إلى الحجاز بنو قريظة وبنو قينقاع وبنو بهدل وبنو النضير وبنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو زيد وغيرهم (١) .

وعندما نزحت هذه القبائل الإسرائيلية من فلسطين نزلوا في يثرب ، وكان معهم من قبائل العرب بطون من بني الحرمان حي من اليمن ، وبني مرثد وبني نيف حيَّين من قبيلة بلى وبني معاوية حي من سليم ، وبني الشطيَّة حي من غسان(١) .

ولا يعرف تاريخ نزوح اليهود إلى يثرب والمناطق التي نزلوا بها ولكن (الأغاني) يذكر أن نزوحهم كان بسبب ظهور الروم على بني اسرائيل .

ونزح الأوس والخزرج من اليمن إلى يثرب ونزلوا بها ، وهم إخوة يقال لهم : بنو قيلة ، إلا أن العداء استحكم بينهم ، ولا نشك أن لليهود يداً في المكر بالأوس والخزرج حتى يفرقوا بعضهم عن بعض فلا يكونوا يداً واحدة على اليهود فيكسبوا من هذا التفريق الأمن والراحة .

وحرب بُعاث شاهد ، فقد نشبت بين الأوس والخزرج حرب عرفت بيوم بعاث ، وكان بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس على الخزرج ، وانتصر الأوس وحلفاؤهم اليهود نصراً مبيناً وغنموا كثيراً .

ولم تكن العلاقات بين اليهود والعرب من الحسن إلا ما تمليه الضرورات على اليهود ، وفي أحسن الصلات لم يكن صفاء القلوب موجوداً ، بل اليهود لا يخلصون لأي أحد من غير بني جنسهم ودينهم ، ويحقدون على من عداهم حقداً لا يزول ، لأنه صار غريزة أصيلة .

---

(١) الأغاني .

وكان يثور جدل بين اليهود والعرب ، وكان لليهود علماؤهم وأحبارهم ، وهؤلاء ذوو ثقافة عالية ، فكانوا – إذا احتدم الجدل أو الخصام بينهم وبين العرب – يتوعدون العرب بأن نبياً عربياً أطل زمانه وقرب أوانه ، وسيسرعون إلى تأييده واتباعه فيكونون معه يداً واحدة عليهم ، ولا قبل لهم بحربهم .

وكان الأوس والخزرج يسمعون ذلك ، فلما حضر أفراد منهم إلى مكة وسمعوا من الرسول ﷺ قال بعضهم لبعض : هذا هو الذي تتوعدنا يهود به ، فلا يسبقنكم إليه ، وأسلموا وتبعوا الرسول الكريم ، ثم عادوا ونشروا الإسلام في المدينة .

وإذا كان في يثرب قبائل يهودية كونت مجتمعات إسرائيلية مغلقة فإن من البديهي أن يكون بمكة أفراد من بني إسرائيل كما نفهم من القرآن الكريم .

قال الله تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ... ﴾ الأعراف : ١٥٧ .

و ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ الإسراء : ١٠١ .

والسورتان مكيتان ، وفي أسباب النزول للواحدي : قوله تعالى : ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾ الآية ، قال ابن مسعود : نزلت في بلعم بن باعورا رجل من بني اسرائيل ، وقال ابن عباس وغيره من المفسرين : هو بلعم بن باعورا » .

وهذه الآية الكريمة ﴿ واتل عليهم ﴾ الآية جاءت بعد قصة موسى وبني إسرائيل وفرعون بالتفصيل .

وفي أسباب نزول قوله تعالى : ﴿ويسألونك عن الروح ﴾ الآية قول لابن عباس : وهو أن قريشاً قالت لليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فنزلت هذه الآية ، وقال المفسرون : إن اليهود

اجتمعوا فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن محمد وحاله : سلوا محمداً عن الروح وعن فتية فقدوا في أول الزمان وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها ، فإن أجاب في ذلك كله فليس بنبي ، وإن لم يجب في ذلك فليس نبياً ، وإن أجاب في بعض ذلك وأمسك عن بعضه فهو نبي ، فسألوه عنها ، فأنزل الله تعالى في شأن الفتية : ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف﴾ إلى آخر القصة ، ونزل في الروح قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ الآية .

وكل هذا يدل على وجود أفراد من اليهود بمكة ، وإن لم يكن لهم شأن مثل شأن اليهود بالمدينة ، وكان فيهم علماء ، فلقنوا قريشاً أسئلة غاية في الصعوبة لا تعرفها قريش .

وسواء صحت روايات أسباب النزول أم لم تصح فإن الواقع التاريخي لا يأبى وجود يهود بمكة ، لأن تجارة قريش كانت تخرج منها إلى الشام مارة بالأماكن التي يستوطنها اليهود من المدينة وشمالها ، وكانت صلة المدينة بمكة قائمة ثابتة ، فلا غرابة أن ينزح إلى مكة أفراد من اليهود ليسر الحياة بمكة ، ولوجود بعض الجاليات الأجنبية أو أفراد من فارس وبيزنطة وسوريا ومصر والحبشة .

ووجود أفراد من هذه البلدان المختلفة بمكة ثابت تاريخياً ثبوتاً صحيحاً : وكان من هؤلاء أغنياء مثل سلمان الفارسي ومثقفون مثل صهيب الرومي .

وإذا افترضنا خلو مكة من اليهود فلا يتغير من الأمر شيء ، فقد كان منهم في الحجاز قبائل معدودة ، لهم مساكنهم وآطامهم وحصونهم ، وكانت لهم وقائع مشهورة مع الرسول والمسلمين ، منها وقائع جدلية ووقائع حربية .

وقال بعض الباحثين : إن بني النضير وبني قينقاع عرب تهودوا : واستدلوا على ذلك بأن الأسماء عربية ، وهو دليل غير صحيح ، كما أن بعض

الباحثين [1] مثل جريتز – حسب رواية الدكتور إسرائيل ولفنسون مؤلف كتاب (تاريخ اليهود في جزيرة العرب) – يذكر إنكار يهود دمشق وحلب أن يكون يهود الجزيرة في يثرب واليمن يهوداً ، ويقول : انهم كانوا ينكرون وجود يهود في الجزيرة العربية ، ويقولون : إن الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود في جهات خيبر ليسوا يهوداً حقاً ، إذ لم يحافظوا على الديانة الإلهية التوحيدية ، ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعاً تاماً ، وإن العالم « شير كان » يعتقد أن اليهودية في بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة ، فقد كانت يهودية في أساسها ، ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودي » [1] .

وعدم المحافظة على ديانة التوحيد الإلهية ، وعدم خضوعهم لشريعة التلمود خضوعاً تاماً لا ينفي أصالتهم اليهودية . فالذين ينكرون عليهم لم يكونوا خيراً منهم في المحافظة والخضوع ، فقد كانوا يعترفون بوجود آلهة الوثنيين ، وفي تلمودهم نفسه كفر بشع ، وفي توراتهم أيضاً .

وفي كتابنا « الإسلام خاتم الأديان [2] » ص ٣١ وما بعدها :

« أما اليهودية فكانت ديناً مغلقاً وقفاً على اليهود وحدهم ، ومع أن اليهود انتشروا في الأرض ، وفي تاريخهم نفي آلاف منهم إلى بابل ، وتشتت عشرات الألوف ومئاتها في أقطار الأرض فإن اليهودية بقيت مغلقة في وجوه غير اليهود ، ولم يقوموا قط – بدعوة الأمم الأخرى ، ولم يرضوا بأفراد منها يشاركونهم دينهم وربهم » .

«وفكرة « الله » في اليهودية كما تصورها كتبهم فكرة وثنية لا تتفق مع كمال الله المطلق وصفاته المثلى وأسمائه الحسنى ، فيهوه رب اليهود وحدهم ، وإلههم الخاص بهم ، ولا يقبلون أن يدعو « يهوه » ربهم أحد من غيرهم .

---

(١) العبقريات الإسلامية للعقاد ، كتاب « مطلع النور » ص ٥٤ .
(٢) طبع بيروت ، سنة ١٣٨٦ (١٩٦٦) .

« واليهود يؤمنون بوجود الآلهة والأرباب التي يعبدها سواهم ، ولا يقتضيهم هذا الايمان أن يعبدوها ، وصارت الديانة اليهودية وغيرها من الديانات لدى اليهود مثل « الجنسية » فكما أن اليهود ينتمون إلى « يهوه » ينتمي غيرهم إلى عشتروت وتموز ومردوخ وآنو ورع وأوزوريس وآلاف الآلهة الأخرى » .

« إن اليهودية « جنسية » مثل جنسيات الدول ، فكما لا يجوز أن ينتمي متجنس بجنسية إلى غيرها كذلك اليهودية » .

« وفي صفات « يهوه » رب اليهود ما ينقض التنزيه الحق والكمال المطلق ، فقد تصور اليهود « يهوه » شديد الظمأ إلى الدماء ، عظيم النشوة والبهجة من رائحة الشواء وتخيلوه رباً وثنياً على صورة إنسان يأكل ويشرب ، وتختلف عليه نقائص البشر وصفاتهم من تعب وراحة واستذكار للدروس ولهو ولعب » .

« وفكرة البعث والنشور غير مذكورة في توراتهم ، والإشارة إليها غامضة في سفر أشعيا ، وإن كان سفر دانيال أبين في الإشارة لأنه ذكر أن الراقدين « الموتى يستيقظون » .

و « وفي التلمود وصفوا الله بما لا يليق بجلاله وقدرته ، ووحدانيته وعظمته وبكل صفاته ، بل ذهبوا إلى خضوع الله لأحبارهم » .

و « وتأثرت اليهودية بما جاورها من الديانات الوثنية ، فأخذت من بابل وتأثرت بمصر في عبادة العجل ، ونقلت عن الكنعانيين مراسيم وطقوساً ، حتى ذهب بعض الباحثين إلى أن « يهوه » إلـه اليهود إلـه كنعاني أخذه العبرانيون وزادوا في صفاته ما يتفق مع حياتهم ، ومن بين الآثار الدالة على ذلك الآثار التي وجدت في كنعان سنة ١٩٣١ م وهي قطع من الخزف يرجع عهدها إلى عصر البرنز الذي يسبق الميلاد بثلاثة آلاف سنة ، وفيها كلمة « ياه » أو «ياهو» وهو اسم إلـه كنعاني .

« ونقل اليهود قصة الخليقة عن وثنيات بابل ، وأخذوا فكرة (المخلص) المنتظر من الديانة الفارسية ومن غيرها » .

« وفسدت الألوهية لدى اليهودية كما فسدت فكرتهم عن الله عندما وصفوه بصفات الآدميين ، فذكروا في « سفر التكوين » من توراتهم : أن الله خلق الكون في ستة أيام ، واستراح من التعب في اليوم السابع ، ونسبوا إلى الله تبارك وتعالى الكذب والتضليل ، إذ يزعم « سفر التكوين » أن الله منع آدم عن الأكل من « شجرة معرفة الخير والشر » بحجة الخلود في حين أن الله أخفى السبب الحقيقي وهو أن يكون آدم مثل الله إذا أكل من هذه الشجرة ، فتقول توراتهم : « وقال الرب الإلـه هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر » [1].

« ولكن آدم أكل من الشجرة ولم يصر مثل الله ، وفي هذا تكذيب لله ، كما أن فيه اعترافاً من « الرب الإلـه » بأن له شركاء يدل عليه قوله في زعمهم : « كواحد منا » .

« ويذكر ما يسمى التوراة لديهم أن الرب الإلـه كان ماشياً في الجنة فاختبأ آدم وامرأته ، بل تجسد هذه التوراة « الله » تجسيداً ، وتذكر في قصة لوط ، أن الله وملكين جاءوا إلى إبراهيم ، وهذه عبارة سفر التكوين (الإصحاح ١١) : وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه ... الخ » وأنهم أكلوا مما قدمه لهم ابراهيم .

« ويكفي أن ننقل بعض ما جاء في « التلمود » للدلالة على بشاعة الوثنية التي دخلت اليهودية فأفسدتها إفساداً .

« في سفر روبين ٢١ حرف ب من التلمود الأصيل : « إحذر يا بني ، يقول الحاخام رابا : واتبع التلمود لا التوراة ، فالتوراة تتضمن أحكاماً

---

(١) سفر التكوين ، الاصحاح الثالث .

لا تستوجب مخالفتها الموت ، وأما من يخالف حرفاً جاء في التلمود فالقتل عقابه ، ومن يهزأ بكلمة من كلمات التلمود يغمس في الغائط ويساق فيه حياً إلى أن يموت » .

« وفي سفر مجيلا ٢١ من التلمود : « إن الله يدرس التلمود منتصباً على قدميه » .

« وفي سفر بيراشون ٧ حرف أ : « دخلت قدس الأقداس فرأيت الله جالساً على كرسي مرتفع ، فقال لي : باركني يا بني ، وإذ باركته شكرني وسلم وانصرف » .

« وفي سفر باباتيرا ٧٥ حرف أ : « الحاخامون يصبحون جميعاً آلهة ، ويدعون يهوه أي الله » .

« وفي سفر مويدقنان ١ حرف أ : « للحاخامين السيادة على الله ، وعليه إجراء ما يرغبون فيه » .

« وفي سفر بابامزيا ٨٦ حرف أ : « إذا احتدم الخلاف بين الحاخامين والله ، فالحق مع الحاخامين » [(١)] .

« وهذه الأسفار كلها من التلمود تبرهن على عقيدة اليهود القائمة على التعدد والكفر وتحقير الله وإنزاله دون منزلة الحاخامين كما أن توراتهم نفسها مليئة بما ينقض التوحيد وكمال الله المطلق ، وتنسب إليه الظلم ، وكل ذلك غاية في البشاعة الوثنية وفساد العقيدة وزوال عقيدة التوحيد من اليهودية ما يثبت أن الديانة اليهودية لم تعد ديانة توحيد كما كانت ، وكتابهم المقدس الذي

---

(١) النصوص المنقولة هنا من التلمود هي ما استشهد به الكاتب المسيحي نقولا حداد ، في مقال له بعنوان « التلمود خدع اليهود » منشور بمجلة « الرسالة » العدد ٧٧٠ الصادر في ١٣٦٧/٥/٢٥ هـ (١٩٤٨/٤/٥ م) .

فيه الهدى والنور قد حرّف بحيث اختلط الأصل نفسه حتى كان التمييز بين الصحيح والزائف متعذراً » .

« هذه هي يهودية يهود دمشق وحلب الذين أنكروا على إخوانهم يهود الجزيرة العربية يهوديتهم ، بحجة عدم المحافظة على ديانة التوحيد الإلهية وعدم خضوعهم التام لشريعة التلمود » .

وما أنكروه هو ما أخذوا أنفسهم به ، فهو حجة مردودة عليهم لأنهم هم ويهود الجزيرة سواء ، بل ليهود الجزيرة دعاواهم أيضاً .

يقول العقاد في كتابه « العبقريات الإسلامية » ص ٥٤ :

« ولا يمنع هذا أن يكون ليهود يثرب رأي في أنفسهم غير رأي إخوانهم الدمشقيين والحلبيين ، فقد روى أوليري في كتابه عن بلاد العرب قبل محمد : أن بني النضير وبني قريظة كانوا يسمون أنفسهم بالكاهنين ، ويزعمون من ثم أنهم من نسل هارون ، وأما ياقوت فإنه يقول : أن يهود يثرب عرب تهوّدوا ، وقد يخطر لنا أن بني قينقاع كانوا من عرب الشمال الأدوميين أو أشباههم الذين هاجروا إلى بلاد العرب بعد هدم الهيكل سنة سبعين أو بعد تشريد اليهود على يد هادريان سنة مئة واثنتين وثلاثين » .

ويعلق العقاد – رحمه الله – على هذا بقوله :

« على أن الصبغة اليهودية التي بقيت مع يهود يثرب في معيشتهم وصناعاتهم ومعاملاتهم ومعرفة بعضهم بالكتب العبرية القديمة ولياذهم بالآطام أدل عليهم من تقديرات المؤرخين على الفرض والتخمين ، وما أشبه قينقاع أن ترجع في أصلها إلى « كوهنكا » ! ! وما أبعد اسم « النضير » من أسماء العرب الأقدمين ! ! لقد قيل : إنهم بطن من بطون جذام أبناء عم اللخميين ، فهل كان في جذام من يعرف العبرية كما عرفها يهود يثرب ؟ وهل كان في وسعهم أن ينشئوا المدرسة العبرية التي ظلت إلى عصر الدعوة المحمدية يسميها العرب

« بيت المدارس » ويسميها اليهود « بيت هام مدراس » .

« وقد كان يحسب لهؤلاء اليهود أثر في مقدمات الدعوة الدينية أو مقدمات النهضة القومية الإنسانية بعبارة أخرى لو أنهم أفادوا العرب من حولهم دروساً في التفكير والأخلاق تكشف لهم عن سخف الجاهلية ، وتهيىء ضمائرهم لما هو أصح منها وأقرب إلى التقدم والهداية ، هذا أو تكون حياتهم بين العرب قدوة صالحة يقتدون بها في معاملاتهم ، وعلاقة بعضهم ببعض في السلم والحرب والمحالفة والمخالفة » .

« ولكنهم لم يصنعوا هذا ولا ذاك ، وصنعوا في أكثر الأحيان نقيض هذا وذاك ، لأنهم لم يكترثوا لأمر المتهودين من قبائل العرب إلّا لينتفعوا بولائهم وحراستهم لتجارتهم في الطريق ، فلم يكن بين الجاهليين المتهودين والجاهليين الوثنيين فرق في العادات والأخلاق إلا أن يكون فرق الشجاعة والرجولة في جانب الوثنيين يمتازون به على الذين تعودوا اللياذ بالآطام ، والتعلق في حربهم وسلمهم بذرائع المساومة والنفاق » .

« وقد كان يهود يثرب قدوة سيئة في كل علاقة بينهم وبين العرب ، أو بينهم وبين أنفسهم في جوار المدينة ، فقد كانت سياستهم مع قبائل العرب قائمة على الإيقاع بينها ، واثارة الأحقاد في المتخاصمين منهم كلما جنحوا إلى النسيان وتعاهدوا على الصلح والأمان، ولزم اليهود أنفسهم داؤهم القديم من الشقاق والمشاكسة حيثما اجتمعوا في مكان واحد ، فدبت الخصومة بين بني قينقاع من جانب ، وبني النضير وبني قريظة من الجانب الآخر ، ولم يتفق بنو النضير وبنو قريظة على شيء غير حسدهم لبني قينقاع ، وعملهم على الوقيعة بين قبائل الأوس والخزرج وهي كثيرة في جوار المدينة ، وقد كانوا ينفسون على بني قينقاع أنهم كانوا يقيمون في قصورهم داخل المدينة ، ولا مأوى لبني قريظة غير ضاحية المشرق ، ولا لبني النضير غير ضاحية المغرب » .

وكان وجود اليهود بالجزيرة العربية مثار فتن ، ولم يسلم في جوارهم جار ،

بل كانوا دائماً مصدر الظلم والفساد ، يكذبون في القول ، ويخلفون الوعد ، وينكثون العهد ، لا يرعون إلّا ولا ذمة ، وبقدر ما أحسن إليهم الرسول ﷺ أساءوا إليه أضعاف إحسانه ، وفي رواية : وكادوا يقتلونه .

وما كان رسول الله يحقد على اليهود ، بل كان يريد لهم الخير ، وأمعن في النية الحسنة مقرونة بالعمل الطيب يبرُّ بهما اليهود رجاء أن يهتدوا فيسلموا ، أو يهتدوا فيكفوا الأذى ، ولكنهم لم يستطيعوا مغالبة ما ركب في طبعهم من الرذائل كالغدر والكذب والنفاق والتآمر والحقد والإثارة والإساءة إلى المحسن.

ويكفي أن ينفد منهم صبر من تفرد بالصبر بين بني البشر أجمعين محمد ﷺ ، وأجبروه على أن يخلِّص يثرب منهم ويخلِّص الحجاز من شرهم ثم الجزيرة العربية على يد بعض صحابته الأجلاء .

ودخلت اليهودية جنوب الجزيرة من يثرب كما يقول المؤرخون ، ويذكرون أن ملكاً اسمه « أب كريب أسعد » المعروف باسم آخر هو « أسعد الكامل آل تبع » رحل إلى يثرب واستقبله اليهود واعتنق اليهودية ونقلها إلى اليمن ، وجعلها ديناً رسمياً فيها .

وعلى أي حال فإن اليهودية وجدت بجنوب الجزيرة كما وجدت في شمالها ، واليمن أدعى من الحجاز وأكثر اغراء للكسب والاتجار ، فهي أخصب ، وليس باليمن ما بالحجاز من التجار الكبار مثل تجار قريش ، أو لا يجدون في اليمن ما يجدونه في مكة من المزاحمة التي لا يستطيعون الدخول فيها وحدة الصف القرشي واجتماع كلمتهم ولأن لليهود خلائق لا يستطيعون بسببها أن يعيشوا مع قريش في أعداد كبيرة على وفاق .

وجدت اليهودية في اليمن وأصبحت دين الدولة الرسمي ، وآخر ملك يهودي الديانة حكم اليمن هو ذونواس الذي حكم من ٥١٠ إلى سنة ٥٢٥ م كما يرجّح بعض الباحثين المحدثين ، وهو آخر ملك في الأسرة المالكة السبئية التي كانت تعتنق اليهودية ، وبقي حكمها قرناً ونصف قرن .

وذو نواس هو الذي تمت على يديه وفي حكمه مذبحة الأخدود الشهيرة في نجران التي أشار إليها القرآن الكريم فقال : ﴿ قُتل أصحاب الأخدود * النَّار ذات الوَقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ البروج ٤ — ٨ .

وهذه المذبحة التي تمت على يد ذو نواس سنة ٥٢٢ م كان وقودَها مسيحيو نجران الألى خيَّرهم العاهل اليمني اليهودي بين الردَّة أو القتل فثبتوا على إيمانهم ، فنقم العاهل اليهودي واليهود على المؤمنين ايمانهم وقتلوهم حرقاً ، واليهود يتلذذون بمنظر ضحاياهم البشرية .

وانتشر خبر المذبحة الفظيعة حتى انتهى إلى قيصر الأمبراطورية الرومانية الشرقية المسيحية فغضب لهؤلاء المؤمنين وانتقم لهم من اليهود وعاهلهم فأبادهم وقضى عليهم .

بعد أن زال حكم اليهود وقُضِيَ عل اليهودية في اليمن حل محلها العنصر المسيحي ، لأن القيصر انتدب نجاشي الحبشة للانتقام ، فبعث جيشاً بقيادة « أرياط » الحبشي لضرب الدولة اليمنية اليهودية ، وقد وفق أرياط للقضاء على دولة اليهود اليمنية وأقام أحد أبناء البلاد حاكماً عليها واسمه « سام يفع أشوع » ويظهر أنه مسيحي ، وذكره مدون في بعض النقوش ، إذ ورد فيها أنه ولي حكم البلاد سنة ٥٢٥ م وقد استهل أحد هذه النقوش بهذه الجملة « باسم الرحمن وابنه يسوع المنتصر » ولم تكن الجملة منقوشة هكذا ولكنها هي الترجمة العربية [١] .

وسيطرت المسيحية على اليمن وانزوى اليهود عندما انتهت دولتهم ، وظهر في اليمن قائد حبشي هو « أبرهة » وكان متعصباً للمسيحية ، محارباً لكل عقيدة تخالفها ، وعلم أن الوثنية العربية لائذة بمكة في كعبتها المشهورة ،

---

(١) التاريخ العربي القديم ، بحث بقلم الدكتور فؤاد حسنين علي ص ٢٠٢ ٣٠٤ .

فآلى على نفسه اقتحامها ، وألا يدع بالجزيرة ديناً غير دين المسيح ، ونشره في بقاع كثيرة ، وجعل نجران مركزاً رئيسياً للمسيحية ، ومنها انطلق إلى مكة[1] ليهدم كعبتها ويصرف العرب إلى « الكاتدرائية » التي بناها بصنعاء ، ولكنه هلك هو وجيشه والفيل الذي صحبه على بعد أميال من مكة ، وسلمت الكعبة وما فيها وحولها من الوثنية التي قضى عليها الإسلام .

أما المسيحية في شمال الجزيرة والحجاز فقد عرفت بسهولة ويسر ، لأنها لم تتخذ وسائل اليهود ، ولم تكن ظروف المسيحية كظروف اليهودية .

وعرفت الجزيرة العربية مختلف النحل المسيحية التي تجاوزت الخمسين في القرن الرابع والخامس الميلادي حتى لم يعد بينها لقاء إلا في نقاط معدودات ، لا تتجاوز تأليه المسيح ، ومن بعدُ تفترق كل نحلة عن الأخرى لتتصارع ، وينتقل الصراع من المجامع المسكونية والكنيسة إلى الجزيرة العربية مع من يحملون النزعات ويمثلون النحل .

والهلال العربي الخصيب تنصَّر ، ودخل في النصرانية قبائل عربية ، منها : غسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيىء وقضاعة وأهل الحيرة ، وجاور في مكة والمدينة مسيحيون ، وكانت مكة أكثر من المدينة التي استأثر بها اليهود .

ولم يكن للمسيحيين أو المسيحية أثر يذكر في الحياة العقلية وإن كانت مكة معترفة بها ، إذ كان في جوف الكعبة صورة للمسيح في حضن أمه العذراء عليهما السلام ، لأن الوثنية المكية كانت من القوة والسيادة بحيث عجزت المسيحية من التأثير فيها .

وخرجت المسيحية من سمتها الصحيح إلى عقيدة شديدة التعقيد ، ندر أن يفهمها إلا الراسخون في العلم ، وأما غيرهم من المسيحيين الأصلاء فلم يكونوا

---

(١) كان ذلك في سنة ٥٧٠ م أو ٥٧١ م .

يفهمون النحل المذهبية وأصولها الفلسفية .

وعندما انتقلت المسيحية إلى الجزيرة العربية ودخل فيها من العرب من دخلوا لم يكونوا يفهمون إلا « المعلومات » السطحية ، أما العقيدة المعقدة فما كانت تخطر لهم على بال ، فإذا كان في رؤساء الديانة المسيحية من أصحاب الفكر والفلسفة من لم يفهم بعض النظريات الفلسفية المعقدة فمن البديهي ألا يفهمها أولئك العرب.

عرف العرب من هذه النحل : الآريوسية ، والنسطورية ، واللوسيانية ، والأريجينية ، واليعاقبة وغيرهم ، ولكن لم يدركوا الفوارق بين هذه النحل ، فكل قبيلة أو جماعة اتبعت نحلة من عرفوهم أو انتهوا إليهم .

ولم تكن المسيحية — وكذلك اليهودية — التي اعتنقها العرب بمنزلة العقيدة المتغلغلة في الأعماق ، بل كانت أشبه بالصبغة تبهت على مرور الأيام، أو تسهل إزالتها إذا أريد لها أن تزول ، ولهذا عندما اعتنق العرب المسيحيون أو من كان منهم على اليهودية دين الإسلام انتهت الصبغة الظاهرة ، ولم يعودوا يذكرون دينهم السابق ، بل كان الوثنيون يذكرون حياتهم القديمة وعقائدهم السابقة وإن كانوا قد تحرروا منها .

وإذا كنت نفيت تأثير اليهودية أو المسيحية في العقل العربي والخلق العربي فإنني لا أنسى أن أهل الكتاب كانوا بمعزل عن العرب ، وأقصد بأهل الكتاب الكهنة الذين اختصوا بالوصاية على الكتاب المقدس وتفسير نصوصه ، أما العامة من أهل الكتاب فلم يكونوا على علم بحقيقة الدين الذي يعتنقون، وهؤلاء الكهنة كانوا بعيدين عن الحياة العربية ، قانعين بكهنوتهم في أضيق الحدود .

وإذا كان الحنفاء من العرب على بعض روايات الإخباريين قد تحرروا من الوثنية وأعجبوا بالنصرانية واستمالتهم محتوياتها من ناحية العقيدة فإن الواقع ليس كذلك ، فالحنفاء قد خرجوا على الوثنية، وكانوا على معرفة ثاقبة بالكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى ، ولكنهم لم يؤمنوا بما جاء فيه مما

لا يتفق مع ما اعتقد الحنفاء وذهبوا إليه ، فهم لم يكونوا مؤمنين بتأليه المسيح ولم يكونوا مؤمنين بما جاء في التوراة من تجسيد الله ومن نسبة النقائص إليه ، فكانوا على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

إن الحنفاء اتجهوا إلى الله وحده ، وآمنوا بالوحدانية ، فهم أصلحوا عقيدتهم باعتقاد التوحيد ، وكفروا بما سواه سواء أكان المعبود من قبل غيرهم بشراً أم ملائكة أم جماداً أم نباتاً أم غير ذلك .

ووجود اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب والحقد على الاسلام حملا بعض الباحثين من غير المسلمين على اتهام الإسلام والرسول الكريم ، فقد زعم أجناس جولدزيهر في كتابه (العقيدة والشريعة في الإسلام) وإبراهيم جيجر في كتابه (ما أخذ محمد من اليهودية ؟) وغيرهما أن الإسلام خليط من مختلف الديانات الوثنية وغير الوثنية والديانات السماوية .

والذين يزعمون هذه المزاعم من المستشرقين مثل جولدزيهر الألماني وغير المستشرقين انما هم يحقدون على الإسلام ، فوحدة الأسماء لا تقضي بوحدة المسميات ، والتقاء الديانات الوثنية والسماوية كاليهودية والمسيحية قبل التحريف والإسلام في نقاط تتصل بالعقيدة والشعائر والفرائض والشريعة لا يوجب أن أن يكون الإسلام آخذاً منها .

وسنعرض للرد على هذه المزاعم في فصل الإسلام لأن ذلك موضعه .

وعرف العرب « الدهرية » أو « التعطيل » أو « الإنكار لوجود الإلـه » أو القول بوجوده مع جحود البعث ، والقرآن الكريم يصور لنا هذه العقيدة الملحدة في غير آية من آياته البينات فيقول :

﴿ وقالوا ما هيَ إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ الجاثية : ٢٤ .

و ﴿ وأقسموا بالله جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ النحل : ٣٨ .

و ﴿ اقالوا أئذا كنّا عظاماً ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً * قل كونوا حجارة أو حديداً * أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً ﴾ الاسراء : ٤٩ ــ ٥١ .

و﴿ قالوا أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون * لقد وُعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إنْ هذا إلا أساطير الأولين ﴾ المؤمنون : ٨٢ ــ ٨٣ .

و ﴿ ضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ يس : ٧٨ ــ ٨٣ .

هذه العقائد قد عرفها العرب ، ولكن منهم من آمن بوجود الله مع إنكار البعث ، لأن العقلية المادية القاصرة لم تتصور القدرة الإلهية التصور الحق ، فأنكروا قدرة الله على إعادة الخلق ، ولم يفهموا البرهان المقدم لهم ، فالله الذي قدر على الإنشاء من العدم لا تعجزه إعادة الخلق .

ونسبة الهلاك إلى الدهر تستحق التأمل . فهناك الحديث الشريف : « لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله » . وفي رواية : « فإن الله هو الدهر » .

وقد ذهب ابن حزم الظاهري إلى أن « الدهر » من أسماء الله الحسنى ، وهو خطأ منه ومردود عليه .

فإذا كان الدهر هو الله فنسبة الإهلاك إليه إنما هي نسبة إليه تعالى ، لأن كليهما يدل عليه سبحانه وتعالى ، فلماذا يندد القرآن بالمشركين حينما ادعوا

« وما يهلكنا إلا الدهر » ؟ أليس الدهر هو الله ، والله هو الدهر كما في الحديث النبوي الشريف ؟

وليس في الأمر تعارض ، فمفهوم الدهر من الآية غير مفهوم الدهر من الحديث الشريف ، فالمشركون أو الكفار نفوا وجود الله ، فالدهر الذي نسبوا إليه الإهلاك ليس الله ، بل هو تعاقب الليل والنهار ، أو الزمان ، فشعراء الجاهليه وشعراء الإسلام أيضاً نسبوا إلى الدهر بعض أفعال الله . أولئك على إنكار وجود الله ، والشعراء المسلمون على المجاز مع الإيمان بوجود الله .

ونختصر ما جاء في مختلف كتب التفسير والمعجمات وكتب التوحيد بما جاء في كتاب « فتح المجيد شرح كتاب التوحيد » للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ [1] ففيه الغناء في هذا الأمر .

قال الشارح الشيخ ابن حسن في مؤلفه هذا (ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤) :

« قال العماد ابن كثير في تفسيره : يخبر تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة ، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد ، ويقوله الفلاسفة الإلـهيون منهم ، وهم ينكرون البدأة والرجعة .

« وتقول الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع ، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه ، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول ؟ ولهذا قالوا : ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر﴾ قال الله تعالى : ﴿ وما لهم بذلك من علم إن

---

(١) توفي المؤلف رحمه الله سنة ١٢٥٨ هـ والكتاب مطبوع ، ومرجعنا الطبعة السابعة منه المطبوعة بمطبعة السنة المحمدية ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) واكتفينا بكتابه بعد أن راجعنا أكثر من مئة كتاب في هذا الموضوع .

هم إلّا يظنون ﴾ أي يتوهمون ويتخيلون .

« فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح وأبو داود والنسائي من رواية سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلّب الليل والنهار » وفي رواية « لا تسبوا الدهر فإني أنا الدهر » وفي رواية « لا يقل ابن آدم : يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر ، أرسل الليل والنهار ، فإذا شئت قبضتهما » .

« قال في شرح السنة : حديث متفق على صحته ، أخرجاه عن طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة قال : ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر – أي سبه – عند النوازل ، لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون : أصابتهم قوارع الدهر ، وأبادهم الدهر ، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها ، وكان مرجع سبها إلى الله عزوجل ، إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصنعونها ، فنهوا عن سب الدهر . أه . باختصار .

« وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جداً بهذا الطريق قال : « كان أهل الجاهلية يقولون : انما يهلكنا الليل والنهار ، وهر الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا ، فقال الله في كتابه : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ .

« ويسبون الدهر فقال الله عز وجل : « يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار » .

« وكـــذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن منصور وعن سريج بن النعمان عن ابن عينية مثله ، ثم روى عن يونس محمد بن دهب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يقول الله تعالى : يسب ابن آدم الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الليل والنهار » وأخرجه

صاحب الصحيح والنسائي من حديث يونس ابن يزيد .

« وقال محمد بن إسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عزوجل : استقرضت عبدي فلم يعطني ، ويسبني عبدي ، يقول : وادهراه ، وأنا الدهر » .

« قال الشافعي وأبو عبيد وغيرها من الأئمة في تفسير قوله : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » : كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى ، فكأنما إنما سبوا الله سبحانه ، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال . هذا أحسن ما قيل في تفسيره — وهو المراد والله أعلم .

« وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدّهم « الدهر » من الأسماء الحسنى ، أخذاً من هذا الحديث » أ هـ.

« وقد بين معناه في الحديث بقوله : « أقلب الليل والنهار » وتقليبه : تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه » .

« وفي هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رحمه الله تعالى وهي قوله : « بيدي الأمر » .

« قوله : وفي رواية : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » معنى هذه الرواية هو ما صرح به الحديث من قوله : « وأنا الدهر أقلب الليل والنهار » يعني أن ما يجري فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره ، بعلمٍ منه تعالى وحكمة، لا يشاركه في ذلك غيره ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

فالواجب عند ذلك حمده في الحالتين ، وحسن الظن به سبحانه وبحمده ، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة » .

وعبادة الأسلاف والأرواح معروفة عند العرب ، وهذه المعرفة البدائية هي التي جعلتهم يفهمون النفس أو الروح فهماً يتفق مع جهلهم ووثنيتهم ، وما جاء في أساطيرهم عن الهامة والصدى اشارة إلى تقديس الموتى .

جاء في لسان العرب ١٦ : ١٠٨ – ١٠٩ [١] : « الهامة : رأس كل شيء من الروحانيين ، عن الليث . قال الأزهري : أراد الليث بالروحانيين ذوي الأجسام القائمة بما جعل الله فيها من الأرواح ، وقال ابن شميل : الروحانيون هم الملائكة والجن التي ليس لها أجسام ترى . وهذا القول هو الصحيح عندنا .

الجوهري : الهامة : الرأس ، والجسع هام ، وقيل : الهامة : ما بين حرفي الرأس . وقيل : هي وسط الرأس ومعظمه من كل شيء ، وقيل : من ذوي الأرواح خاصة .

أبو زيد : الهامة : أعلى الرأس وفيه الناصية والقصة ، وهما ما أقبل على الجبهة من شعر الرأس ، وفيه المفرق ، وهو فرق الرأس بين الجبينين الى الدائرة .

وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الـذي لم يدرك بثأره تصير هامة فتزقو عند قبره تقول : اسقوني اسقوني ، فإذا أدرك بثأره طارت ، وهذا المعنى أراد جرير بقوله :

ومنا الذي أبكى صُدَيَّ بن مالك ونفَّر طيراً عن جُعادة وُقَّعا

يقول : قتل قاتله ، فنفرت الطير عن قبره .

« وأزقيت هامة فلان ، إذا قتلته . قال :

فإن تك هامة بهراةَ تـزقو فقد أزقيتُ بالمرْوَين هـاما

---

(١) وما جاء في المعجمات العربية كالصحاح وغيره لا يخرج عما في اللسان .

« وكانوا يقولون : إن القتيل تخرج هامة من هامته فلا تزال تقول : اسقوني ، اسقوني حتى يقتل قاتله ، ومنه قول ذي الإصبع :

يا عمرُو إن لا تدعْ شتمي ومنقصتي   أضربْك حتى تقول الهامة اسقوني

يريد : أقتلك » .

والهامة : طائر ، وكان من العرب من يزعم — كما يقول المسعودي [1] — أن النفس طائر ينبسط في الجسم ، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً يصدح على قبره ، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم ، وهو أبداً مستوحش ، ويسكن في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور ، وأنها لم تزل عند ولد الميت لتعلم ما يكون بعده فتخبره به .

والصدى — كما جاء في اللسان ١٦ : ١٨٦ — ١٨٧ — ما يبقى من الميت في قبره وهو جثته ، قال النمر بن تَوْلب :

أعاذل إن يصبحْ صَداي بقفرة   بعيدا نآني ناصري وقريبي

فصداه : بدنه وجثته ، وقوله : « نآني » أي نأى عني .

والصدى — أيضاً — حُشْوَة الرأس ، يقال لها : الهامة والصدى ، وكانت العرب تقول : إن عظام الموتى تصير هامة فتطير ، وكان أبو عبيد يقول : إنهم كانوا يسمون ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت إذا بَلِيَ : الصدى وجمعه أصداء ، قال أبو داود :

سلّط الموت والمنون عليهم   فلهم في صدى المقابر هامُ

---

(١) مروج الذهب ١ : ٢٥١ طبعة بولاق . و « بلوغ الأرب » للآلوسي ٢ : ٣١١ .

وقال لبيد : .

فليس الناس بعدك في نقـــير   وليسوا غير أصداء وهـــام

والصدى : الذكر من البوم ، وكانت العرب تقول : إذا قتل قتيل فلم يدرك به الثأر خرج من رأسه طائر كالبومة ، والذكر : الصدى ، فيصيح على قبره : اسقوني ، اسقوني فإن قتل قاتله كف عن صياحه .

وأسطورة الصدى والهام تشير إلى تقديس الموتى ، أو الاهتمام بهم ، وإن كان ذلك مقصوراً على القتلى ، إلا أن الأسطورة تعود — كما نحسب — إلى عبادة الأسلاف ، وإذا أضفنا إليها أسطورة عقر الابل على قبور الموتى من غير القتلى كان ما نحسبه آكد .

ولئن ذهب المؤرخون والمعجبون إلى أن العقر على القبور هو مكافأة الميت على ما كان ينحر في حياته من الإبل للأضياف [1] ، وقيل : كانوا يعقرون إعظاماً للميت كما كانوا يذبحون للأصنام .

ولعل أسطورة الهام والصدى هي الظلال المتخلفة من عبادة الأسلاف ، وقد ألهم الله رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام أن يقضي على هذا اللون من عبادة الأسلاف وتقديسهم فجاء في أحاديثه الكريمة قوله ﷺ :

« لا عقر في الإسلام » .

و « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » .

ولمسلم عن أبي الهياج قال : قال لي علي : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ : « ألاّ تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » .

وقال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

---

(١) النهاية لابن الأثير مادة عقر .

وقال : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيداً » .

وفي الصحيح عن عائشة : أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور ، فقال : أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » .

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في شرح « كتاب التوحيد »[1] .

« قال العلامة ابن القيم [1] رحمه الله : ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به ونهى عنه ، وما كان عليه أصحابه وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضاداً للآخر ، مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً ، فقال رسول الله ﷺ عن الصلاة الى القبور ، وهؤلاء يصلون عندها وإليها ، ونهى عن اتخاذها مساجد وهؤلاء يبنون عليها المساجد ، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله ، ونهى عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها ، ونهى عن أن تتخذ عيداً وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد وأكثر » .

« وأمر بتسويتها كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي وحديث ثمامة ابن شُفَيٍّ وهو عند مسلم أيضاً ، قال : كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودوس فتوفي صاحب لنا ، فأمر فضالة بقبره فسوّيَ ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها » وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين ويرفعونها عن الأرض كالبيت ويعقدون عليها القباب .

---

(١) فتح المجيد ٤٨٢ — ٤٨٤ .

(٢) إغاثة اللهفان ١ : ١٠٢ — ١٠٤ .

« ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه كما روى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال : « نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر وأن يعقد عليه وأن يبنى عليه » ونهى عن الكتابة عليها كما روى أبو داود في سننه عن جابر : أن رسول الله ﷺ « نهى عن تجصيص القبور وأن يكتب عليها » قال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن وغيره .

« ونهى أن يزاد عليها غير ترابها كما روى أبو داود عن جابر أيضاً : أن رسول الله ﷺ : « نهى أن يجصص القبر ، أو يكتب عليه ، أو يزاد عليه » وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار .

« ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى القبر بآجر ، وأوصى ألا يفعل ذلك بقبره .

« وأوصى الأسود بن يزيد : ألا تجعلوا على قبري آجراً » .

« وأوصى أبو هريرة حين حضرته الوفاة ألا يضربوا على قبره فسطاطاً ».

« وكره الإمام أحمد أن يبنى على القبر فسطاطاً » .

« والمقصود أن هؤلاء المعظِّمين للقبور ، المتخذينها أعياداً ، الموقدين عليها السرج ، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ محادّون لما جاء به ، وأعظم ذلك : اتخاذها مساجد ، وإيقاد السرج عليها ، وهو من الكبائر ، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيره بتحريمه .

« قال أبو محمد المقدسي : ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله ، ولأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام ، قال : ولا يجوز اتخاذ المساجد عليها لهذا الخبر ، ولأن النبي ﷺ قال : « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا (متفق عليه) ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام

بالسجود لها والتقرب إليها ، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم ، والتمسُّح بها والصلاة . انتهى .

« وقد آل الأمر بهؤلاء الضُّلّال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجّاً ، ووضعوا لها مناسك حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً وسماه « مناسك حج المشاهد » مضاهاة منه القبور بالبيت الحرام .

ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ، ودخول في دين عبّاد الأصنام ، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور ، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه ، ولا ريب أن ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره » .

كل هذا يبرهن على أنه ما منع عنه الرسول ﷺ وحرّمه كان موجوداً في الوثنية الجاهلية ، ولئن لم يفطن فقهاء المسلمين ومؤرخوهم القدامى لعبادة الأسلاف فإن رسول الله ﷺ كان ملهماً حين حرم هذه الوثنيات : عقر الإبل على القبور ، والهامة ، وبناء المساجد على القبور ، وإيقاد السرج عليها ، واتخاذ قبره عيداً أو وثناً وغير ذلك مما يتصل بتعظيم الموتى حتى يقضي على عبادة الأسلاف التي عرفها الناس قبل عهد الرسول الأعظم ﷺ وبعده .

وعودة كثير من المسلمين إلى هذا الضرب من الحفاوة بالقبور إنما هي إحياء منهم لعبادة الأسلاف المعروفة .

وما تشديد الرسول ﷺ في تسوية القبور إلا الرغبة في القضاء على عبادة الأسلاف قضاء تاماً .

ومع وجود مختلف الديانات والعقائد والوثنيات مع كثرة نحلها ومللها ، ومع وجود الدهريين المنكرين لوجود الله والمعاد والقيامة فإن العرب الجاهليين لم يكونوا جميعاً على هذا النحو من الشرك والضلال ، فقد كان فيهم الحنفاء الذين يتعبّدون الله على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وكان فيهم من

يؤمنون بالبعث والنشور والثواب والعقاب ، وكان منهم موحدون .

فالشاعر أمية ابن أبي الصلت قد آمن شعره وقلبه وإن لم يدخل الإسلام ، وأعلن التوحيد ، وكان رسول الله ﷺ ينشد بيت أمية :

الحمد لله مُمْسانا ومُصبحنـــا ... بالخير صبَّحنا ربي ومسَّانـــا

وقد أدرك أمية الإسلام ولكنه لم يسلم ، فقد توفي في السنة التاسعة من الهجرة ، وهذا يطمئننا إلى أنه سمع بعض سور القرآن ، لأن في شعره ما يدل على ذلك إذا صح ما نسب إليه من الشعر ولم يكن منحولاً عليه .

ومن شعره هذا قوله :

فارتنوره وجاش بماء طمّ فوق الجبال حتى علاهـــــا
قيل للعبد سر فسار وبالله على الهول سيْرها وسراهـــــا
قيل فاهبط فقد تناهت بك الفلك على رأس شاهق مرساها

وقوله :

فكل معمر لا بدّ يومـــــاً ... وذي دنيا يصير إلى زوال
ويفنى بعد جدتـــه ويبـــــلى ... سوى الباقي المقدس ذي الجلال

وهذا منظور فيه إلى القرآن الكريم الذي جاء فيه :

﴿ حتَّى إذا جاء أمرُنا وفار التنُّور قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجَيْن اثنين وأهلَكَ إلّا من سَبَقَ عليه القوْل ومن آمن وما آمن معه إلاَّ قليل * وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم * وهي تجرى بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني إركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين * وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقُضِيَ الأمر واستوتْ على الجودى وقيل بعداً للقوم

الظالمين * ونادى نوح ربَّه فقال ربِّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح إنَّه ليس من أهلك إنَّه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين * قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفرْ لي وترحمني أكن من الخاسرين * قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتّعهم ثم يمسهم منَّا عذاب أليم ﴾ [1] .

و ﴿ كلٌّ من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [2] .

ويقول لبيد :

لَعمرك ما تدري الطوارق بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

ويقول زهير بن أبي سلمى :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى وما يكتم الله يعلم

ويقول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وغير هذا كثير في شعر هؤلاء وغيرهم ، وكأنه شعر إسلامي ، يضاف إليه الإيمان بالبعث . فهذا وثني جاهلي هو عمرو بن زيد يوصي ابنه قائلاً :

أبنيّ زودني إذا فارقتني في القبر راحلة برحل قائر
للبعث أركبها إذا قيل اظعنوا متوثقين معاً لحشر الحاشر

ويوصي جريبة بن الأشيم الفقعسي ابنه قائلاً :

يا سعد إما أُهْلَكَنّ فإنني أوصيك أن أخا الوصاة الأقرب

---

(١) سورة هود : ٤٠ — ٤٨ .
(٢) سورة الرحمن : ٢٦ — ٢٧ .

لا تتركن أباك يحشر راجـــــلاً   في الحشر يصرع لليدين وينكب
واحمل أباك على بعير صالـح   وتق الخطيئة انه هو أقرب
ولعل لي ممـــا تركت مطيـــــة   في القبر أركبها إذا قيل اركبوا

ويسمى البعير أو الناقة التي تعد للميت حتى يركبها يوم الحشر : بلية ، وجمعها بلايا .

وفي اللسان ١٨ : ٩٢ : « وناقة بلية ، يموت صاحبها فيحفر لديها حفرة وتشد ، رأسها إلى خلفها وتبلى ، أي تترك هناك لا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً . كانوا يزعمون أن الناس يحشرون يوم القيامة ركباناً على البلايا ، أو مشاة إذا لم تعكس مطاياهم على قبورهم ، قلت : في هذا دليل على أنهم كانوا يرون في الجاهلية البعث والحشر بالأجساد » .

والقرآن الكريم شاهـــد على أن من العرب من كان يؤمن بالله ويؤمن بربوبيته وبأنه الخالق المدبر للأمر في غير آية منه .

﴿ ولئنْ سألتهمْ مَنْ خلَق السماوات والأرض وسخَّر الشمس والقمرَ ليقولنَّ الله فأنى يؤفكون * اللهُ يبسُط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدرُ له إن الله بكل شيء عليم * ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون * وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعبٌ وإنَّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون * فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ العنكبوت : ٦١ ــ ٦٥ .

و ﴿ ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليُقربونا إلى الله زلفى ﴾ الزمر : ٣ .

ووجود هذا الإيمان بالخالق والبعث في عصر بعدت فيه ديانات السماء كالمسيحية واليهودية عن صراطهما المستقيم إلى الوثنية يشير إلى تفتح في النفس

العربية بالجزيرة وبخاصة بمكة ، وإذا أضيف إلى هؤلاء الذين يؤمنون بالخالق والبعث الحنفاء ، واعتراف الوثنيين من المكيين وغيرهم بأنهم يعبدون مايعبدون من دون الله لا يقصدون إلا اتخاذهم زلفى إلى الله وضح لنا أن مكة وما جاورها من القرى والبلدان والناس كانوا أصح المؤمنين بالله مع ما دخل في معتقداتهم إلا الندرة النادرة من الوثنية .

وكان العصر الذي بعث فيه الرسول ﷺ عصر قلق ، فقد كان ذوو النفوس الصافية يرقبون ظهور نبي جديد ، والمفجوعون في آمالهم ينتظرون من يخلصهم مما انتهوا إليه من الظلم والفساد .

ووجود صهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي على صعيد واحد مع اختلاف الجنس والدار واللغة ودون اتفاق يشير إلى حالة القلق التي سادت العالم المتمدن وسادت جزيرة العرب .

ولا شك أن حالة القلق تسبق الراحة والطمأنينة والأمن ، وهذا ما حدث في الجزيرة العربية ، ومكة على الخصوص .

واذا كانوا ينتظرون من يمحى على يديه القلق ، ويتم على يديه الخلاص مما هم فيه ، فلماذا قاوموا محمداً ﷺ عندما أعلن لهم أنه رسول الله وجاء إليهم بخير الدنيا والآخرة ؟

كان اليهود ينتظرون المخلِّص ، فبعث الله لهم المسيح عيسى بن مريم ، فكذَّبوه وحاربوه حتى صلبوه وقتلوه على زعمهم ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبِّه لهم .

إنه عناد اليهود وعنتهم .

أما في مكة فما كانوا يحسبون أن محمداً عليه الصلاة والسلام سيفرق كلمتهم ويتعرض لآلهتهم بالجحود ، ولكثير من عاداتهم بالتقبيح والتشنيع ، ويدعوهم إلى إلـه واحد يلغي كل من عداه من الآلهة والأرباب فقاوموه .

ولم يكن العرب جميعاً هم المقاومين ، بل مشركو مكة الأُلى تعرضت عقيدتهم وعاداتهم وتقاليدهم ومصالحهم للخطر بسبب الدين الجديد فحاربوه ، ولكنه انتصر بالحق وبالسلم ، وكسب أتباعاً من أجناس مختلفة كانوا طلائع حملة الإسلام إلى العالم ، وكانوا بحق خير نموذج للدعاة إلى الحق .

العالم في عصر البعثة المحمّدية

في العصر الذي ظهر فيه الإسلام* كانت الوثنية تسيطر على الأرض، ولم يكن بها دين صحيح كامل يطبّق ، بل فسدت الديانات كلها وانقلبت أديان شرك ووثنية ، واضطربت الموازين الإنسانية ، وساد الباطل والظلم ، وغرقت المجتمعات الإنسانية في ظلام العقيدة وظلمات الباطل والكفر .

والديانتان اللتان بقيّتا هما المسيحية واليهودية ، ولكنهما لم تكونا الديانتين الصحيحتين المنزلتين من السماء ، بل خفيّت معالمها ، وحرفت كتبهما ، وانقلبتا دينين وثنيين ، وبعدنا عن التوحيد الحق بعداً كبيراً .

ولم يكن أحد هذين الدينين مفتوحاً لغير شعوبهما في الأصل ، بل كانا خاصين ببني إسرائيل ، إلا أن المسيحية انحرف بها بولس حيث جعلها لغير اليهود ، وبشّر بها بين الأمم ، وبذلك ناقض المسيح نفسه .

أما اليهودية فكانت ديناً مغلقاً وقفاً على اليهود وحدهم ، ومع أن اليهود انتشروا في الأرض ، وفي تاريخهم القديم نفي آلاف منهم إلى بابل ، وتشتت عشرات الألوف ومئاتها في أقطار الأرض فإن اليهودية بقيت مغلقة في وجوه

(*) نقلنا هذا الفصل برمته من كتابنا « الإسلام خاتم الأديان » .

غير اليهود ، ولم يقوموا – قط – بدعوة الأمم الأخرى ، ولم يرضوا بأفراد منها يشاركونهم دينهم وربهم .

وفكرة « الله » في اليهودية كما تصورها كتبهم فكرة وثنية لا تتفق مع كمال الله المطلق وصفاته المثلى وأسمائه الحسنى ، فيهوه رب اليهود وحدهم ، وإلههم الخاص بهم ، ولا يقبلون أن يدعو (يهوه) ربهم أحد من غيرهم .

واليهود يؤمنون بوجود الآلهة والأرباب التي يعبدها سواهم ،ولا يقتضيهم هذا الايمان أن يعبدوها ، وصارت الديانة اليهودية وغيرها من الديانات لدى اليهودية مثل « الجنسية » فكما أن اليهود ينتمون الى « يهوه » ينتمي غيرهم إلى عشتروت وتموز ومردوخ وآنو ورع وأوزوريس وآلاف الآلهة الأخرى .

إن اليهودية « جنسية » مثل جنسيات الدول ، فكما لا يجوز أن ينتمي متجنس بجنسية إلى غيرها كذلك اليهودية .

وفي صفات « يهوه » رب اليهود ما ينقض التنزيه الحق والكمال المطلق ، فقد تصور اليهود « يهوه » شديد الظمأ إلى الدماء ، عظيم النشوة والبهجة من رائحة الشواء ، وتخيلوه رباً وثنياً على صورة إنسان يأكل ويشرب ، وتختلف عليه نقائص البشر وصفاتهم من تعب وراحة واستذكار للدروس ولهو ولعب .

وفكرة البعث والنشور غير مذكورة في توراتهم ، والإشارة إليها غامضة في سفر أشعيا ، وإن كان سفر دانيال أبين في الاشارة لأنه ذكر أن الراقدين (الموتى) يستيقظون .

والشريعة التي تذكرها كتبهم صالحة لليهود في عصرهم القديم ، ففيها ما يحتاج إليه قيام مجتمع متكامل من نظم تتناول كل أعماله وأهدافه وآدابه وأخلاقه ومعاملاته في السلم والحرب ، ومعاملات الأفراد فيما بينهم ، ولكننا نفتقد في شريعتهم الإنسانية .

ولكن أبين ما فيها من خلل محاباة الشريعة أصحابها ، ومجافاة من لم تنزل لهم ، مثل إباحة الربا والسرقة والأذى لليهود في معاملة غيرهم من أبناء الأمم الأخرى .

وفي كتبهم أو توراتهم الموجودة أو ما يطلقون عليه التوراة ما يهدم بعضه بعضاً ، ففي الأنبياء والمرسلين من يزني ويعرض زوج من يزني بامرأته للقتل، بل يدفعه إليه دفعاً ليتخلص منه ويضم امرأته إلى نسائه مثل داود ، ومن يزني بابنته وهو لوط ، ومن يثبت لله أنداداً من الأوثان والأصنام ، وهو سليمان ، وقد ذكرنا في الفصل السابق [1] نقولاً عن توراتهم تحوى هذه التهم القذرة موجهة إلى الأنبياء ، وتلك جرائم وكفر ونقائص شائنة يتنزه عنها المرسلون .

وفي التلمود وصفوا الله بما لا يليق بجلاله وقدرته ووحدانيته وعظمته وبكل صفاته ، بل ذهبوا إلى خضوع الله لأحبارهم .

وتأثرت اليهودية بما جاورها من الديانات الوثنية ، فأخذت من بابل ، وتأثرت بمصر في عبادة العجل ، ونقلت عن الكنعانيين مراسيم وطقوساً ، حتى ذهب بعض العلماء الباحثين إلى أن « يهوه » إلـه اليهود إلـه كنعاني أخذه العبرانيون وزادوا في صفاته ما يتفق مع حياتهم، ومن بين الآثار الدالة على ذلك. الآثار التي وجدت في كنعان سنة ١٩٣١ م وهي قطع من الخزف يرجع عهدها إلى عصر البرنز الذي يسبق الميلاد بثلاثة آلاف سنة، وفيها كلمة « ياه » أو « ياهو » وهم اسم إلـه كنعاني .

ونقل اليهود قصة الخليقة من وثنيات بابل ، وأخذوا فكرة « المخلص » المنتظر من الديانة الفارسية ومن غيرها .

وفسدت الألوهية لدى اليهود كما فسدت فكرتهم عن الله عندما وصفوه

---

(١) المقصود الفصل السابق من كتابنا « الإسلام خاتم الأديان » لأن هذا الفصل منقول منه .

بصفات الآدميين ، فذكروا في « سفر التكوين » من توراتهم : ان الله خلق الكون في ستة أيام ، واستراح من التعب في اليوم السابع ، ونسبوا الى الله تبارك وتعالى الكذب والتضليل ، إذ يزعم سفر التكوين أن الله منع آدم عن الأكل من « شجرة معرفة الخير والشر » بحجة الخلود في حين أن الله أخفى السبب الحقيقي ، وهو أن يكون آدم مثل الله إذا أكل من هذه الشجرة ، فتقول توراتهم : « وقال الرب الإلـه هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر »[1].

ولكن آدم أكل من الشجرة ولم يصر مثل الله ، وفي هذا تكذيب لله ، كما أن فيه اعترافاً من « الرب الإلـه » بأن له شركاء يدل عليه قوله في زعمهم : « كواحد منا » .

ويذكر ما يسمى التوراة لديهم أن الرب الإلـه كان ماشياً في الجنة فاختبأ آدم وامرأته ، بل تجسد هذه التوراة « الله » تجسيداً ، وتذكر في قصة لوط أن الله وملكين جاءوا إلى إبراهيم ، وهذه عبارة سفر التكوين (الإصحاح ١١) : « وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه الخ » وأنهم أكلوا مما قدمه لهم إبراهيم .

ويكفي أن ننقل بعض ما جاء في «التلمود » للدلالة على بشاعة الوثنية التي دخلت اليهودية فأفسدتها إفساداً .

في سفر روبين ٢١ حرف ب من التلمود الأصيل : « احذر يا بني ، يقول الحاخام رابا : واتبع التلمود لا التوراة ، فالتوراة تتضمن أحكاماً لا تستوجب مخالفتها الموت ، وأما من يخالف حرفاً جاء في التلمود فالقتل عقابه ، ومن يهزأ بكلمة من كلمات التلمود يغمس في الغائط ويساق فيه حياً إلى أن يموت » .

وفي سفر مجيلا ٢١ من التلمود : « إن الله يدرس التلمود منتصباً على قدميه » .

---

(١) سفر التكوين ، الاصحاح الثالث .

وفي سفر بيراشون ٧ حرف أ : « دخلت قدس الأقداس فرأيت الله جالساً على كرسي مرتفع ، فقال لي: باركني ، وإذ باركته شكرني وسلم وانصرف ».

وفي سفر باباتيرا ٧٥ حرف أ : « الحاخامون يصبحون جميعاً آلهة ، ويدعون يهوه أي الله » .

وفي سفر مويدقنان ١ حرف أ : « للحاخامين السيادة على الله ، وعليه إجراء ما يرغبون فيه » .

وفي سفر بابامزيا ٨٦ حرف أ : « إذا احتدم الخلاف بين الحاخامين والله فالحق مع الحاخامين [١] » .

وهذه الأسفار كلها من التلمود تبرهن على عقيدة اليهود القائمة على التعدد والكفر وتحقير الله وإنزاله دون منزلة الحاخامين [٢] ، كما أن توراتهم نفسها مليئة بما ينقض التوحيد وكمال الله المطلق ، وتنسب إليه الظلم .

وكان ذلك غاية في البشاعة الوثنية وفساد العقيدة وزوال عقيدة التوحيد من اليهودية مـــا يثبت أن الديانة اليهودية لم تعد ديانة توحيـــد كما كانت ، وكتابهم المقدس الذي فيه الهدى والنور قد حُرف بحيث اختلط الأصل مع ما أدخلوه فيه مما ليس منه ، كما حرفوا هذا الأصل نفسه حتّى كان التمييز بين الصحيح والزائف متعذراً .

ومع كل هذا لم تعد اليهودية دينا صالحاً لليهود أنفسهم في زمن الرسول ﷺ وقبيل بعثته لما دخلها من التغيير والفساد والوثنية والباطل ، ولتطور

---

(١) النصوص المنقولة هنا من التلمود هي ما استشهد به الكاتب المسيحي نقولا حداد في مقال له بعنوان « التلمود خداع اليهود » منشور بمجلة الرسالة ، العدد ٧٧٠ الصادر في ١٣٦٧/٥/٢٥هـ (١٩٤٨/٤/٥ م) .

(٢) عندما كنت بالقاهرة زارني بمنزلي الحاخام ناحوم كبير يهود مصر وقت ترشيحي لعضوية المجمع اللغوي وأيد ما جاء في التلمود ، ولكنه لم يقبل المناقشة .

البشرية وتقدمها العقلي والأدبي ، ودليل فقدانها الصلاح أن اليهود في هذا العصر تركوها إلى نظم تنقض ما في أسفار التوراة من الأحكام .

والمسيحية التي هي ديانة سماوية قد اختلفت عليها ما اختلف على اليهودية التي سبقتها ، وهي ديانة خاصة جاءت لخراف بني إسرائيل .

والقرون التي مرت بها حتى زمن محمد ﷺ بعدت بها عن حقيقتها وجوهرها ، وأصبحت قائمة على « التثليث » والتجسيد اللذين يقضيان على التوحيد مهما فلسفوا ، فأقطابهم من رجال الدين والفكر والأدب والفلسفة ينقدون التثليث وينكرونه .

فالعقيدة المسيحية لا تصلح لأن تكون عقيدة الإنسانية كلها لأنها خرجت على التوحيد وقضت عليه .

والمسيحية تؤمن بأسفار العهد القديم التي يؤمن بها اليهود ، وهذا الايمان يزيد في نفي التوحيد وإثبات الشرك مضافاً إليه الاعتقاد بالتثليث ، وهذه الزيادة تزيد في عدم صلاحها لتكون دين الإنسانية جمعاء .

ويجب على دين الإنسانية أن يحتوي على الشريعة التي تنظم حياة بني الإنسان جميعاً ، وليس في المسيحية شريعة خاصة بها ، لأن المسيح نفسه عليه الصلاة والسلام يهودي على ملة اليهود كما تذكر المصادر المسيحية ، ولم يجيء لنقض اليهودية ، ولم يأت بشريعة جديدة تلغيها ، بل كان على شريعة اليهود ويدعو إلى التمسك بها .

ولم تنجح المسيحية وانتهت سريعاً ، واختفى بعد المسيح انجيله الحق ، ونقض بولس رسالة المسيح نقضاً ، ومن جاءوا بعده هدموها هدماً ، ويعترف أكابر الباحثين المسيحيين وأعاظم من رجال الدين المسيحي بما حلّ بالمسيحية من تغير شامل ، كما يعترفون بدخول الوثنيات في المسيحية .

يقول الكاتب الأرلندي المشهور برنارد شو : إن القس الشهير « دين

انج » قال : لقد شوّه بولس تعاليم راعينا حتى لكأنه أعاد صلبه مقلوباً برأسه إلى أسفل » .

ويقول العالم البريطاني المعروف ويلز : « أوتي بولس قوة عقلية عظيمة ، كما كان شديد الاهتمام بحركات عصره الدينية ، فكان على علم واسع باليهودية وبديانة مترا وديانة الإسكندرية ، فنقل إلى المسيحية كثيراً من معتقداتهم ومصطلحاتهم ، ولم يهتم بما جاء به عيسى من فكرة ملكوت السموات » .

ويقول بيري (Berry) في كتابه (Religions of the World) : « بعد صلب المسيح ذاب أتباعه واختفت دعوته ولم يعد أحد يسمع شيئاً عن هذه الدعوة » و « كان عيسى يهودياً ، وقد ظل كذلك أبداً ، ولكن بولس كوّن المسيحية على حساب عيسى ، فبولس في الحقيقة مؤسس المسيحية ، وقد أدخل بولس على ديانته بعض تعاليم اليهود ليجذب اليها عامتهم ، كما أدخل صوراً من فلسفة الإغريق ليجذب أتباعاً له من اليونان ، فبدأ يذيع أن عيسى منقذ ومخلِّص وسيد استطاع الجنس البشري بوساطته أن ينال النجاة ، وهذه الاصطلاحات التي قال بها بولس كانت مشهورة عند كثير من الفرق ، فانحاز أتباعها إلى ديانة بولس ، وعمد – ارضاء لمثقفي اليونان – إلى أن يستعيد من فلاسفة اليونان وبخاصة الفيلسوف فيلون اتصال الإلـه بالأرض عن طريق الكلمة (The Lagos) أو ابن الإلـه » .

وهذه الشواهد تبرهن على أن ما يسمى « المسيحية » ليست مسيحية المسيح عليه الصلاة والسلام بل هي المسيحية التي لفقها بولس .

وكل ما في الديانة المسيحية عقائد وشعائر وأسرار وكل صفات المسيح وبخاصة صفات الألوهية من الديانات الوثنية .

ففكرة « الإله المتجسد » فكرة قديمة وشائعة في كثير من الديانات الوثنية ، ونظائر المسيح وأشباهه موجودون فيها .

وعلى سبيل المثال نشير إلى ذلك في إيجاز مما كتبه أقطاب الفكر المسيحي حتى لانتهم ، وهؤلا ء الأقطاب ليسوا بخصوم دينهم ، ولكن البحث العلمي دفعهم إلى ذكر حقائق الديانات الوثنية التي سبقت المسيحية بما فيها من العقائد الوثنية .

في المصادر المسيحية من أناجيل وغيرها ما نصه :

« إن يسوع المسيح هو المخلص ، والفادي ، والمعزي ، والراعي الصالح، والوسيط ، وابن الله ، والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الآب والابن وروح القدس » .

وفي المصادر الهندية في وصف « كرشنا » كما ذكر العلامة المسيحي « دوان » في كتابه « خرافات التوراة ونظائرها في الديانات الأخرى » [(١)] والمؤرخ موريس في كتابه « تاريخ الهند [(٢)] » المجلد الثاني ، والعلامة « إنمن » في كتابه « العلامات الوثنية القديمة في النصرانية الحديثة » [(٣)] وفي كتاب « العقائد الوثنية في الديانة النصرانية » لمحمد طاهر التنير ما نصه :

« إن كرشنا هو المخلص ، والفادي ، والمعزي ، والراعي الصالح ، والوسيط ، وابن الله ، والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الآب والابن وروح القدس » .

وتروي المصادر المسيحية وفي طليعتها انجيل متى (الاصحاح الثالث) : إن مجوساً من الشرق جاءوا إلى أورشليم يسألون : « أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا نسجد له » و « ذهبوا اذ النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق حيث كان الصبي ... ثم فتحوا له

---

(١) Doane, Bible Mythsand Their Parellels in other Religions

(٢) Mourice, History of Hindostan

(٣) Inman, Ancient Pagan and Modern Christian Symbolism

كنوزهم وقدموا له ذهباً ولباناً ومراً » .

وفي كتاب « الملاك المسيح » يقول « بنسون » أحد أعلام الفكر المسيحي : « جاء في كتب البوذيين المقدمة أن السماوات بشّرت بولادة بوذا بنجم ظهر مشرقاً في الأفق ، ويدعونه نجم المسيح » .

وفي كتاب « تاريخ الصينيين » لثورنتن المسيحي : « يعتقد الصينيون أن نجماً ظهر عند ولادة « يو » من عذراء ودلهم عليه ، و « يو » هذا مؤسس الدولة الأولى التي حكمت الصين ، ويزعمون أن نجماً ظهر عند ولادة الحكيم « لاوتس » ودلهم عليه .

وفي ديانة فارس : لما ولد « مثرا » المخلّص والوسيط بين الله والناس زاره مجوس وقدموا له الهدايا : ذهباً وطيباً ومراً .

وعند ما ولد « كرشنا » جاء الرعاة وقدموا له هدايا من خشب الصندل .

ويروي أفلاطون أن ثلاثة مجوس من الشرق جاءوا إلى محل ولادة سقراط المولود قبل المسيح بحوالى ٤٦٠ سنة وقدموا له هدايا : ذهباً وطيباً ومراً .

وكل هؤلاء أسبق من المسيح مولداً بقرون .

وفي المصادر المسيحية : ولدت مريم يسوع في مغارة .

وفي كتاب « العقائد الوثنية في الديانة النصرانية » [١] : أن أم كرشنا وضعته في مغارة ، و « أبولون » الإلـه الإغريقي المولود من سفاح ولدته أمه في مغارة ، و « مثرا » الإلـه الفارسي مولود في مغارة .

وتاريخ مولد المسيح وأشباهه أو نظائره في الوثنيات واحد ، فالمسيح — كما تذكر المصادر المسيحية — ولد في ٢٥ ديسمبر ، وكل من « باخوس »

(١) تأليف العلامة محمد طاهر التنير .

إلـه الخمر عند الإغريق ، و « مثرا » الإلـه الفارسي ، و « حورس » إلـه المصريين ، و « تموز » إلـه البابليين مولود في التاريخ الذي ولد فيه المسيح وهو ٢٥ ديسمبر ، إلا أن هؤلاء كانوا أسبق من المسيح مولداً .

وكل جزئية أو كلية في الديانة المسيحية مأخوذة من الديانات الوثنية القديمة ، وانقلبت المسيحية من دين توحيد إلى دين وثني محض ، وغرق العالم المسيحي في المنكرات كغيره في ذلك الزمن حتى تربعت على كرسي الحكم في القسطنطينية « عاهرة » صارت زوجاً للأمبراطور جوستنيان واضع مدونة الفقه الروماني والحاكم المسيحي الأعظم في عصره ، وتوفي جوستنيان قبل هجرة الرسول ﷺ بنحو سبع وخمسين سنة .

وإذا كانت الديانتان الصحيحتان (اليهودية والمسيحية) قد انتهتا إلى الوثنية والشرك فإن أجزاء العالم الأخرى التي سادته الوثنيات لم تكن خيراً من البلدان التي تسيطر عليها اليهودية والمسيحية .

هكذا كان العالم في العصر الذي ولد فيه محمد ﷺ وبعث برسالته، لقد كان هذا العالم غريقاً في الكفر والوثنيات والظلم والباطل والفساد ، وشغلت فراغ النفوس وثنيات باطلة ، وساد المجتمعات شرائع ظالمة فاسدة ، وتبع ذلك تدهور الحياة السياسية والأخلاقية والاجتماعية عامة ، وفسدت المجتمعات فساداً شديداً .

فالصين واليابان والتبت وكوريا وكل بلدان الشرق الأقصى وثنية ، وشاع فيها الفساد والجور والكفر والإباحة .

والهند غرقت في الوثنية والفجور ، حتى أن شيوعية المرأة كانت ديانة مقدسة كما تفصح عنها « شكتكماك » ومن حق كاهنه التمتع بنساء غيره ،وكانت العروس تقضي أسبوعها الأول في أحضان هؤلاء الكهان ومضاجعهم يستمتعون بها قبل زوجها ، معتقدة هي وزوجها وأهلها ومجتمعها أن رضا ربهم يسع العروسين ، والبركة تحل عليهما وعلى حياتهما الزوجية .

وهذا العهر مقدس عندهم ومرغوب فيه ، بل يبلغ العهر حده الأفحش ليلة الاحتفال بعيد الهندوس المقدس المسمى « شفرارتي » حيث تستحيل الإنسانية بل البشرية بهيمية عارمة غاية في القذر والبشاعة ، ويرتكب أفحش ما في البهيمية حيث يكون الزنا بالمحارم ضرباً من الدين والقداسة .

وفي فارس شاعت عبادة الفروج ، عبادة عضو المرأة التناسلي ، وداعيها الأول يسمى « أرتكزرسيس » واستفحل شرها الحيواني في عهد « مزدك » الذي كان يدين بمبدأ شيوعية النساء فيما يدين به من مبادىء التخريب ، ووصل العهر المقدس إلى تقديس مناظر الفحش وأعمال الفجور المقرونة بالسكر والعربدة ، وكلما زاد الفحش بشاعة زادت القداسة .

والآشوريون والبابليون والسومريون متفقون في عبادة « اشتار » ربة الحب والحرب والعهر ، ويصفها البابليون في صلواتهم وأدعيتهم بأنها الربة الرحيمة القوية التي أشرق بنورها العالم ، ورفعتها قدرتها فوق مقام الآلهة طراً .

وإن « اشتار » هذه هي الربة الفاجرة التي أمتعت بفجورها وعهرها وفسقها ودنسها عبّادها في الشرق الأوسط ، واحتفظت بصفات الربوبية لأنها لم تتدنس بنجاسة الطهر ، وكان من أقدس القرابين لديها تمريق العفة والدعارة المقدسة .

ويصف « هيرودوت » المؤرخ اليوناني المشهور هذه الدعارة المقدسة فيما كتب بعد أن شاهدها بعينيه قائلاً : إن على كل امرأة بابلية أن تذهب إلى هيكل ميلتا التي هي صورة « أشتار » وتزني ، ولا يعفى من ذلك أي امرأة لأنه شعيرة دينية مقدسة ترضي ربة العهر والحب ، ويجب على المرأة التي تمضي إلى الهيكل ألا تردّ يد أي راغب فيها مهما كان شأنه من الضعة والحقارة والهوان ، وما يعطيها من ثمن الفحش بها ولو كان « قرشاً » يكون مقدساً تحتفظ به المرأة .

وكانت سيدات المجتمع الراقيات يمضين إلى المعبد في موكب حافل لأداء تلك الشعيرة الدينية المقدسة .

ومن الطقوس الدينية السومرية أن المعابد كانت مزدحمة بالجميلات خادمات الآلهة وممثليها من الكهنة الذين كانوا يفسقون بهن ، ويمزقون عفافهن ويستمتعون بأجسادهم باسم الآلهة .

وما كان السومري يشعر بالخزي من تقديم ابنته أو اخته للمعبد هدية للآلهة بل يزهى ويحتفل بهذا التقديم ، لأنه يدخل البهجة والسرور إلى قلوب الآلهة بإدخالهما في نفوس ممثليها ، إذ يتيح لهم أن « يشرفوه » بالاضطجاع مع ابنته أو أخته ، وبقبولها بين خادمات المعبد الجميلات الموقوفات للعهر المقدس .

والسوريون كانو يحتفلون بعشتروت (أشتار) كل سنة ، وعيدها أكبر الأعياد ، وتقترن به الدعارة المقدسة التي تباح فيها الأعراض وتنتهك الحرمات ، حيث تضحي فيها العذراء ببكارتها ، والمرأة بعفتها قرباناً مقبولاً لدى عشتروت ، ومشاركة لها في تهتكها ،وليس ذلك مقصوراً على سوريا الفينيقية بل هي شائعة لدى عباد « البعول » الفينيقية ، فتقام المهرجانات الخليعة الماجنة في كل مكان ، ولا تكمل عظمتها إلا عندما يبلغ الهياج الجنسي أشده .

وإذا كانت « أشتار » تتقبل بابتهاج تضحية العذارى والنساء عامة بالعفة في معبدها ببابل فإن «عشتروت » كانت تتقبل في مدينة « بيبلوس » الفينيقية هذا القربان المقدس .

ولم تكن الآلهة الأخرى في غنى عن الدماء سواء أكانت دماء العذارى أم دماء الضحايا البشرية ، بل كانت تصبو على صور مختلفة ، منها أن عبادها كانوا يذبحون أطفالهم أو يحرقونهم قرباناً لها ، كانوا يلقونهم في النار الهادئة وهم أحياء ، فإذا اشتد صراخهم من حرارة النار رقصوا وزادت بهجتهم واعتقدوا أن الآلهة تقبل قربانهم .

والإغريق والرومان غرقوا في الفسق والفجور والكفر والوثنية مثل آلهتهم ، فزيوس (جوبيتر) أكبر آلهتهم كان يعشق الزنا عشقاً، وجاء بابنه « أبولون » من الزنا .

ومصر وبلدان أفريقية وأوربا كانت حالها مثل سائر البلدان الأخرى في الوثنية والفسق والفجور ، وفسدت « القيم » الإنسانية في العالم كله .

والفضائل أو الرذائل إنعكاس صفات الآله أو الآلهة . فما دامت الآلهة فاجرة فاسقة تتعطش إلى الدماء وتبتهج بالمنكرات والموبقات فإن من البديهي أن يعتقد الناس أن الفسق والفجور والعهر والعربدة والسكر والنهب والسلب والفساد فضائل مطلوبة ، وشرائع محبوبة ، وديانات مقدسة .

هكذا كان العالم كله دون استثناء ، ولم تكن حال الجزيرة العربية بخير منها كثيراً ، وإن كانت الصفات العربية ما تزال فيها خلائق كريمة ، فقد كانت الجزيرة كما وصف أهلها جعفر الصادق رضي الله عنه في قوله للنجاشي ملك الحبشة : « كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف » .

وضاعت صحف إبراهيم ، وحُرِّفت التوراة ، وفُقد الإنجيل ، وما نقله مؤلفو الأناجيل من كلام عيسى محرف ، وهذه الأناجيل زاخرة بما ينقض رسالة المسيح ويهدم دينه ، وكل كتب العهد القديم والجديد مشحونة بالكفر والشرك والباطل والبهتان ، وباتهام الرسل والأنبياء بما يقوِّض عصمتهم ونزاهتهم ، حتى أن الله عز وجل نفسه بعظمته وجلالة قدره وكماله المطلق لم يسلم من الأباطيل .

وتواريخ الرسل وسيرهم صارت مجهولة ، وأشبه بالخرافات والأساطير ، مما حمل علماء باحثين من اليهود والنصارى وممن يدعون الإسلام وهم غير مسلمين حقيقة على إنكار وجودهم وشخصياتهم ، وإنكار الكتب التي أنزلت عليهم مما يعرف بأسفار العهدين .

وإذا كانت هذه حال العالم ، وكان غريقاً في الباطل والكفر والظلم والبغي والفساد والوثنية ، وضاعت منه الكتب المنزلة بنصوصها الصحيحة ، وخفيت معالم سير الرسل وتواريخهم في الأباطيل والأوهام والأساطير ، وزاد الفساد، وأربى في الفترة التي كانت بين المسيح ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، ولم

يظهر خلالها رسول حتى صارت المسيحية وثنية ، وزالت الشرائع السماوية وحل محلها سلطان الهوى، فإن ضرورة الوجود الإنساني تقضي بظهور رسالة جديدة تنقذ العالم مما فيه .

ومما لا شك فيه أن كلام الله عز وجل ، وسيَر الرسل وتواريخهم وأقوالهم وأفعالهم تعين الإنسان على الحياة الفاضلة ، ولم يكن شيء من ذلك في العصر الذي ولد فيه محمد ﷺ .

ولما كان الأمر كذلك وكان الفساد عاماً وليس وقفاً على قطر أو شعب كانت الحاجة ملحة وشديدة إلى رسالة عامة لا تكون وقفاً على قطر أو شعب ، وخاصة بزمن بعد أن تهيأ العقل الإنساني لفهم رسالته الإنسانية مع ما ساد العالم من الفساد .

هذه الحال تقتضي رسالة إنسانية عالمية لأن الفساد وسع العالم كله ، كل أمم الأرض في حاجة إلى دين جديد حق ينقذها مما هي فيه ، وينقذ مجتمعاتها من المحق والإنهيار ، وليس معقولاً أن يرسل الله عشرات الرسل أو مئاتهم في وقت واحد إلى مئات الأمم والشعوب والقبائل حتى لا تتناقض شرائعهم باختلاف الأجناس والبيئات ، ولأن القصد إنقاذ الإنسانية بدين واحد تستظل به يجمع مزايا الأديان الصحيحة السابقة ويزيد عليها ، وتهتدي برسول واحد يلتقي في شخصيته أكرم ما في شخصيات الرسل بحيث يفضلهم جميعاً ، ويكون خاتمهم طرًّا ، ويرجح عليهم بمزايا لم تكن لأحد منهم ، ويكون من العظمة بحيث يسع الإنسانية منذ كانت حتى تنتهي ، يسعها بضخامتها واتساعها وعظمها وتجددها وامتدادها طولاً وعرضاً .

لا بد للإنسانية كلها من رسول واحد يقودها إلى الخير ، ولا بد أن يجتمع في الرسول الجديد من الصفات والمزايا ما لا يوجد في إنسان يعيش على وجه الأرض في ذلك الزمان وفي كل زمان ليكمل بالرسالة فيكون أفضل الخلق جميعاً و أكرمهم على الله .

الإسلام دين الرسل جميعاً

الإسلام دين محمد النبي العربي المولود بمكة والمبعوث منها دون غيره من الرسل الذي سبقوه برسالة الله إلى خلقه ؟ .

نأخذ الجواب من محمد نفسه صلوات الله وسلامه عليه ، فقوله فصل الخطاب ، فماذا يقول محمد ﷺ ؟ إن القرآن الكريم الذي أوحي به إليه من ربه منجماً هو الجواب — خير الجواب — الذي قدمه محمد نفسه .

قال الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ آل عمران : ١٩ .

ولكن أيفهم من هذه الآية أن « الدين » « كل » دين سماوي هو الإسلام؟ ونحن نجيب أن مفهوم الآية كذلك ، ودليلنا القرآن نفسه إذ يقول:

﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبُر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ الشورى : ١٣ — ١٤ .

ونوح عليه وعلى جميع الرسل الصلاة والسلام ، وهو أولهم يقول كما يحكي القرآن : ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ يونس : ٧٢ .

وسائر الأنبياء والمرسلين مسلمون لأن ما جاءوا به من الدين ليس إلا الإسلام .

ويقول القرآن في إبراهيم وإسماعيل : ﴿ وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربنا تقبل منّا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمَيْن لك وأرنا من ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ البقرة : ١٢٧ــ ١٢٨ .

ويقول القرآن الكريم في إبراهيم وبنيه ويعقوب وبنيه : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ البقرة : ١٣٠ ــ ١٣٣ .

ويقول القرآن على لسان يوسف : ﴿ أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ يوسف : ١٠١ .

ويقول على لسان موسى : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ يونس : ٨٤ .

ويقول في عيسى : ﴿ فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحـــن أنصار الله آمناً بالله واشهـــد بأنا مسلمون ﴾ آل عمران : ٥٢ .

ويوجز القرآن معتقد جميع الرسل والأنبياء فيقول : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا و ما أنزل إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط

وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ البقرة : ١٣٦ .

فرسالة الله إلى خلقه « الإسلام » ومن تقبلها واتبع سنتها فهو مسلم .

والمقصود من الإسلام: الإيمان بوحدانية الله ونفي الشريك، لأنه لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وكان هذا المفهوم « الإسلام » لدى الأنبياء طرًّا ، وهو المفهوم نفسه الذي فهمه من اتبعوهم أو خالفوهم وكفروا بهم وبربهم .

يقول القرآن في قصة موسى وفرعون : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدْواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ يونس : ٩٠ .

فالإسلام – على هذا – دين كل الرسل ، لأنه قائم على عقيدة التوحيد ونفي الشريك، وهؤلاء الرسل جميعاً دعوا إلى التوحيد حتى إذا دخل الشرك في الدين بعث الله رسولاً بدين الحق الذي هو الإسلام، ليعيد الناس إلى حظيرة الدين من جديد ، حتى كان عصر محمد عليه وعلى إخوته رسل الله الصلاة والسلام ، حيث فقد الدين روحه وأصله ، واستحال وثنية ، واختفت صحف إبراهيم ، وتحرفت التوراة والانجيل ، وشاهت سير الأنبياء ، وأصبح الشرك عقيدة الناس إلا من رحم ربك .

وما دام العالم كله قد فسد ، وما دامت الإنسانية كلها ضلت طريق الحق ، ولم ينجُ قطر أو شعب ، بل تساوت الأقطار والشعوب في اعتناق الوثنية والابتعاد عن التوحيد فإن عدل الله ورحمته اقتضيا رسالته للبشر رجاء انقاذهم مما انتهوا إليه .

ومع الفساد في العقيدة كانت فلسفة اليونان وحكمة الصين والهند وفارس وآدابها وآداب غيرها من الأمم ، ولكن ذلك كان معواناً على فساد العقيدة ، لأنه قائم على الوثنية والشرك بجميع أنواعهما .

ففلسفة اليونان وثنية ، وحكمة الشرق وآدابه وثنية ، أما كلمات التوحيد التي جاءت في ديانات العالم المختلفة فلم يكن الإسلام الذي جاء به النبيون ، بل هو توحيد ينقض توحيد الديانات ، والخلاف بين التوحيدين في غير حاجة إلى برهان لوضوحه .

وكان من حق العباد على الله ألا يتركهم في ذلك الضلال ، وكان لا بد من رسالة أورسالات بعدد شعوب الأرض وحسب استعدادها الفكري والحضاري والثقافي لتلقي وحي السماء .

وبَعْث رسل يبلغون المئات في وقت واحد يقتضي أن يكون كل رسالة خاصة بمن تبعث إليهم ، وكان لا بد لكل رسالة أن تكون على قدر مستوى من ترسل إليهم ، ولا بد أن تختلف الشرائع باختلاف الشعوب وحظها من الثقافة والعقل والعرفان .

وستعود حال الشعوب كما كانت مثلما حدث مع أمة نوح وأمة إبراهيم وأمم الأنبياء الآخرين كموسى وعيسى ، وعندئذ تقتضي الحال بعث رسل جدد ، وهكذا ، وفي ذلك تكرار وإقرار للاختلاف في الشرائع وتطبيق الأحكام .

ولما كان العقل البشري قد ارتفع من الحضيض الهمجي بفضل رسالات الرسل السابقين وفلسفة الفلاسفة وحكمة الحكماء وآداب الأمم التي تطورت ، فإن دواعي الرسالة تغيرت عن الدواعي السابقة ، وكانت الضرورة تقضي بختم رسالات السماء برسالة عامة متجددة من تلقاء نفسها بحسب الظروف لأنها تصلح لكل زمان ومكان ولكل مجتمع بحسب مواهبه وقدراته وملكاته .

وما دام العقل البشري قد استيقظ فكان لا بد من رسالة يفهمها العقل ويقرها الوجدان إذا أرادا الخير وتجردا من التعصب المقيت وتحررا من القيود .

ولهذا ختمت الرسالات برسالة الإسلام ، وختم الرسل بمحمد عليه الصلاة والسلام .

ولم تكن رسالة الإسلام التي بعث بها محمد إلا بعثاً لرسالة الرسل السابقين ، إنها رسالة التوحيد التي اتفق الرسل عليها اتفاقاً تاماً فدعوا إليها أممهم ، فآمن منهم من آمن ، وكفر من كفر ، ثم انتهت رسالة كل رسول بانتهائه أو بانتهاء المخلصين لينحدروا من جديد إلى الشرك .

والإسلام نقيض الشرك ، لأنه دين توحيد يقوم على الوحدانية الثابتة ونفي الشريك أياً كان جنسه ونوعه ، والشرك تكرار الواحد على صور مختلفة ، وأن مجرد تكرار الواحد مع الإيمان بصفات الواحد الأول قول بالشرك ونفي للتوحيد ، وهو أمر يناقض الدين الذي هو الإسلام .

يقول الله تعالى :

﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يُطْعِم ولا يُطْعَم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ﴾ الأنعام: ١٤.

و ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ آل عمران : ٨٣ .

فالإسلام دين كل الرسل ، بل دين من في السماوات والأرض ، لأن كل الخلق مسلم مرجعه لله وحده ، أو هكذا يجب أن يكون ، وهو نقيض الشرك ، وما من رسول إلا جاء به ودعا إليه ، ومحمد مثل سابقيه من الرسل ، لم يجيء ببِدْع ، ولكنه جاء بدين الله الذي جاء به من سبقه من الأنبياء والمرسلين .

وإذا كان الدين الذي جاء به الرسل جميعاً واحداً لا خلاف فيه بين أحد منهم وغيره، ولا فرق في مفهومه لديهم فإنه هو نفسه الذي جاء به محمد ﷺ ، فالدين السماوي في كل زمان وكل مكان هو الايمان بوحدانية الله ، وإفراده بالعبادة دون غيره ، والاستسلام له بالطاعة في الائتمار بأمره والانتهاء بنهيه .

هذا هو مفهوم الدين الذي هو الإسلام نفسه من ناحية العقيدة ، ويختلف الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ عن الإسلام الذي جاء به من سبقوه من الرسل في

الشريعة وليس غير الشريعة التي تؤدي معنى نظام الحكم والتعامل فيما بين البشر.

إن دين كل الرسل واحد وسواء من جهة العقيدة التي لا يتناولها التغيير بحسب الأزمنة والأمكنة ، الله واحد لا شريك له ، هذا هو المعتقد الذي لا يتبدل بتبدل الظروف والأحوال ، أما الشريعة فتتغير ، فما كان يصلح من الشريعة لقوم نوح لا يصلح بمجموعه لقوم إبراهيم أو موسى أو عيسى ، وهذا يفرض تغير الشريعة ليناسب الأمة التي تتبعها .

ومن هنا جاء الاختلاف ويجيء بين الشرائع ، لأن ظروف البشر وأحوالهم الدنيوية يجوز عليها الاختلاف والتغاير ، فكان لزاماً على كل شريعة صلاحها للأمة التي تتبعها ، ومنظور في الشريعة إلى تهيؤ العقل لقبولها ، وتهيؤ المجتمع لتنفيذها ، والمستوى العقلي والاجتماعي والحضاري ، وإلى الأحوال عامة .

ووحدة العقيدة لم تفرض وحدة الشريعة على الأمم في العصور التي سبقت محمداً ﷺ ، لتكون الشريعة كفاء مستوى الأمم وطاقاتها ، حتى إذا جاء الإسلام الأخير خاتماً للأديان وجب أن تكون هناك شريعة تختم الشرائع السابقة ، ومن هنا كانت وحدة العقيدة مقرونة بوحدة الشريعة ، لأنه لا مجال بعد الإسلام خاتم الأديان ومحمد خاتم الرسل لشريعة جديدة يأتي بها رسول جديد .

ولتكون شريعة الإسلام صالحة كل الصلاح بنيت من قبل الله على قواعد متينة راسخة ، وأصول ثابتة ، ومبادىء محكمة ، وجعل الله باب الاجتهاد مفتوحاً للبشر حتى يستطيعوا أن يضعوا من الأنظمة والقوانين ما يساير التطور والتجديد قياساً على الأنظمة والقوانين المنصوص عليها في شرع الله ، ولهذا كان « القياس » الركن الرابع في مصادر التشريع الإسلامي اللاتي هن : القرآن الكريم ، والسنة المحمدية ، والإجماع ، وهناك فروع لأصول التشريع ذكرها أئمة الفقهاء ضماناً لمسايرة التقدم الإنساني والحضارة والتجديد .

وإذا كان الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو نفسه الذي جاء به الرسل قبله

فإن في دين محمد فضلاً على ما سبق ، وهذا الفضل الذي هو أصيل في عقيدة التوحيد قائم على مزيد من صفات الله المثلى وأسمائه الحسنى لم يكن معروفاً لدى الأمم السابقة لأن عقولها لم تنضج — بعد — لفهم معاني الصفات والأسماء التي وردت في الكتاب والسنة ، ووردت في دين محمد حتى تكون العقيدة وافية كاملة في غير حاجة إلى مزيد لأنه الختام ، لأن العقول والمدركات الحسية تهيأت لفهم الكمال المطلق والتنزيه الحق .

ومن هنا كان دين محمد كاملاً فيما يتصل بالعقيدة وفيما يتصل بالشريعة ، والكامل والختام — بالضرورة — يقضيان على الاستدراك والتعقيب ، لأن الكامل لا يتعدد ، والختام لا يتكرر ، ووجب على هذا الدين — لأنه كامل وختام — أن يكون دين الإنسانية كلها ، وأن يكون محمد رسول الإنسانية أجمع ، لا فرق بين أمة وأمة ولا فرد وفرد .

ولهذا كان الإسلام ديناً مفتوحاً للجميع على مدار الزمان ، ودعا محمد البشر عامة ، وكل ذوي الديانات والملل والنحل دعوة واحدة .

وإذا نظرنا إلى كل دين صحيح في نبعه الأول ظهر لنا الفارق بينه وبين دين الإسلام ظهوراً واضحاً ، فدين نوح كان خاصاً بقومه ، ودين إبراهيم كان وقفاً على قومه ، وكذلك الأمر بالنسبة للأديان الأخرى . فديانة موسى خاصة بقومه بني إسرائيل ، ولم يدخل فيها أحد من المصريين ، وغادر موسى ومعه بنو إسرائيل وحدهم مصر ومرُّوا في طريقهم بأناس لهم دياناتهم الوثنية فما دعاهم موسى إلى دينه ، وما تزال ديانته حتى اليوم مغلقة على اليهود وحدهم.

وديانة عيسى عليه السلام لم تتجه في حياته إلى غير بني إسرائيل حتى أنه قال : جئت لخراف بني اسرائيل الضالة ، ولم يدع إلى دينه رومانياً أو عربياً أو فارسياً أو أي أحد من ذوي الديانات القائمة في عصره .

ومما يؤكد « خصوصية » ديانة عيسى أنه أعلن لملأ بني إسرائيل أنه لم

يأت لينقض الناموس ، وما حاجته إلى نقض الناموس وقد جاء لرد بني إسرائيل إلى حظيرته .

أما ديانة محمد عليه الصلاة والسلام فمنذ نزل عليه الوحي من السماء كانت ديانة عامة مفتوحة للبشر جميعاً ، لأنها موجهة إلى رشد الإنسان وحجاه وقلبه وروحه بصرف النظر عن اختلاف بني البشر ، وآية ذلك أن أول الداخلين فيه لم يكونوا عرباً وحسب ، ولم يكونوا ذوي ديانة واحدة ، فقد دخل في الإسلام العربي وغير العربي ، ودخل فيه الوثني والمجوسي والمسيحي واليهودي ثم البوذي والبرهمي والكنفوشي ، والسيد والعبد والعتيق .

وكل هذا برهان على أن الإسلام موجه إلى كل البشر دون تمييز من أول أيام الدعوة بل من أول يوم فيها ، فقد دخل فيه من مختلف الأجناس والديانات بخلاف جميع الأديان السابقة صحيحها وزائفها ، تلك الأديان التي كانت مقصورة على شعوبها أو أقوامها أو قبائلها ، وجميعها ديانات محلية محددة بزمان ومكان يحصرانها ، حتى المسيحية في عهد المسيح عليه وعلى الأنبياء جميعاً الصلاة والسلام كانت محصورة بقومه بني إسرائيل في حياته ، ولم يفتح أبوابها غير بولس الذي جاء بعد المسيح .

دعا الإسلام اليهود والنصارى ، ودعا المجوس ، ودعا المشركين والوثنيين ، وسائر البشر ، فلبى دعوته من كل دين ولغة ووطن ، ودخل في دينه ذوو عقليات كبيرة وثقافات واسعة وجاه عريض وسلطان مسموع من جميع الديانات والأجناس والأوطان واللغات ، لأنهم وجدوا « الإسلام » قد وَسِعَ أصول الرسالات السابقة من جهة العقيدة الصحيحة ، وزاد عليها إيضاح الوحدانية المنزهة وصفات الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا شريك له .

وليس الإسلام الذي جاء به محمد ديناً صعباً عسيراً لا تطيقه النفس البشرية أو لا تطيق بعضه ، بل هو دين سمح سهل في العقيدة والشريعة ، خلا من

التعقيد والصعوبة على الإدراك وعلى العمل ، وسلم مما لا يسلم به العقل، بل هو دين العقل الرشيد والذوق السليم ، وكلما كبر العقل وتطوّر زاد إيمانه به وقدره إياه .

ومنذ ظهوره حتى اليوم لم يستكبر عليه مفكر إسلامي مهما بلغ من العقل والعلم ، لأنه دينهما الحق ، العقل يكبره ، والعلم يؤيده ، ولا خصومة بينه وبينهما ، بل هو يشيد بالعقل ويحتكم إليه ، ويدعو إلى العلم كله ويشجع على الاستزادة منه والتبحر فيه .

والعقل والعلم لن يقضيا على الإسلام أو يخاصماه إذا عرفا حقيقته ، أما المسيحية — على سبيل المثال — فقد خاصمت العقل والعلم وحكمت على كثير من أصحابهما بالموت حرقاً أو ذبحاً، ولما وجدا القوة والحرية خاصما المسيحية حتى زواياها زياً ، لأنهما قررا أنها لا تصلح لبناء المجتمعات العصرية الحديثة المتطورة المتقدمة ، ولا تصلح أن تكون حَكَماً فيها ، ولا قاعدة للتعامل بها في الحياة العامة والخاصة وفي التجارة والاقتصاد .

ومن الغريب أن العقل والعلم اللذين أصدرا حكم عزل المسيحية في المعبد هو عقل مسيحي وعلمُ مسيحيين لا يتهمون بعدائها لأنهم يعتنقونها عقيدة .

وكذلك القول في سائر الديانات والملل والنحل التي ما تزال تعيش منذ العصور إلى عصرنا هذا ، إنها ديانات عقيدة ، ولم تعد ديانات شريعة ، وهي في رأي أتباعها من المفكرين المتحررين من ربقة التعصب ديانات وثنية تقوم على الشرك وفساد المعتقد .

ودين الإسلام سمح سهل لا تعقيد فيه ، عقيدته سهلة على كل إنسان ، وشريعته سمحة لكل فرد أو جماعة أو مجتمع ، وليس في حاجة لفهمه إلى الكهنة وشروح الأساقفة والحاخامين والرهبان ورجال الدين ، وكل مسلم رجل دين .

إنه دين سهل واضح ، قاعدته : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله واحد ، لا يتعدد بالشركاء والأمثال ، وفهم هذه القاعدة لا يحتاج إلى معاناة من العقل أو الوجدان ، لأنه سهل عليهما ، ومنطق العقل والوجدان يرضى بهذه العقيدة .

يكفي لأن يكون المرء مسلماً أن يقول : لا إله إلا الله ، وهو معتقد الوحدانية التي لا تتم إلا بنفي الشريك ، فإذا شهد وآمن فإن كمال الشهادة والإيمان يفرض عليه الإيمان بأن محمداً رسول الله ، لأنه — أي ذلك المرء — تلقى الوحي الإلهي عن طريق محمد ، فإذا لم يؤمن بأنه رسول الله انتفى إيمانه بالوحدانية التي أمره من تفرد بها بالإيمان بمن أرسله ، وعن طريقه تلقى وحيه .

ولما كانت فلسفة اليونان قد عرفت فيها وفي غيرها من البلدان ، ووقف الناس على ديانات الصين ومصر وفارس والهند وغيرها من الأمم ، وفقهت آدابها وما كان فيها من علوم وفنون ، وانتشر في العالم المتحضر العلم بخصائص الثالوث المسيحي والبابلي والهندي وغيره ، وصفات الآلهة اليونانية وسواها من الآلهة التي تعبد من دون الله ، وخصائص « يهوه » رب اليهود وصفاته كان واجباً على الإسلام أن يعرض نظرية التوحيد كاملة بحيث يعرف المسلمون وغير المسلمين أسماء الله وصفاته وأفعاله وأقواله حتى لا يختلط بها ما لدى غيرها مما يناقض نظرية التوحيد في الإسلام .

وأقطع برهان على « عمومية » الإسلام أن كل دين سبقه نسب إلى الرسول الذي جاء به ، أو إلى الشعب الموجه اليه ، ولهذا سميت الديانة أو نسبت إلى رسولها مثل ديانة نوح ، وديانة إبراهيم ، وديانة موسى أو اليهودية نسبة إلى الشعب اليهودي ، أوديانة عيسى أو المسيحية لأن عيسى هو المسيح أو النصرانية نسبة إلى الناصرة التي ولد فيها المسيح .

أما الإسلام فلم ينسب إلى رسوله ، ولم يعرف بأنه الدين أو الديانة المحمدية ،

وإنما عرف بالإسلام فإذا أطلق لم يتجه إلا إلى الدين الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام مع أنه في حقيقته دين الرسل جميعاً ، ولكنه أطلق على دين محمد لأنه لم يكن ديناً شخصياً أو قومياً ، بل كان إطلاقه عليه لأنه دين عموم البشر فعرف به دون كل الأديان الصحيحة السابقة .

ولهذا كان الإسلام خاتم الأديان وكان من جاء به خاتم المرسلين .

الله في الإسلام

الألوهية

ذات الله في الإسلام ذات منفردة بالوحدانية ، وأسماؤه الحسنى التي بلغت تسعة وتسعين وصفاته المثلى هي أسماء وصفات تليق بوحدانية الواحد الخالق .

وهذه الأسماء والصفات موجزة في بضعة أسماء يجمعها لفظ الجلالة (الله) وهي : الخالق الرحمان الرحيم الملك القوي العظيم العفو الغفار .

ولفظ الجلالة حينما يطلقه الإسلام يفهم منه أنه المتفرد بجميع أسمائه وصفاته ، فهو خالق ، والخالق ليس في حاجة إلى من يخلقه وإلا وجب أن تنتفي صفة الخلق عنه ، ومعاذ الخالق أن يكون مخلوقاً ، ولا يجوز في حق الله أن يكون خالقاً ومخلوقاً في آن ، لأن المخلوق لا يمكن أن يرقى إلى أن يكون خالقاً ، ولا يجتمع الضدّان في حق الله ، فهو خالق أزلي قديم ، هو الأول بلا بداية ، وهو الآخر بلا نهاية .

ولما كان الله خالقاً اقتضت صفة الخلق العدل والرحمة والجود والكرم والعطاء والرزق ، واقتضت السمع والبصر ، واقتضت سائر الصفات الأخرى ،

فكان العظيم المهيمن القوي القادر العزيز الحكيم إلى آخر أسمائه الحسنى .

ولم تكن الألوهية في الإسلام إلا توحيداً كاملاً منزهاً عن التشبيه والتجسيم والتعطيل ، بعيداً عن الإشراك والتعدد ، هو واحد أحد فرد لا شريك له ولا صاحب ولا ولد ولا أي شيء يشركه في ذاته وصفاته وأسمائه .

ففكرة الألوهية في الإسلام أسمى ما جاء به دين وأكمل ما عرفه ، لأن ما سبق من الأديان متفق على التوحيد وفكرة الألوهية ، ولكن الإسلام جاء بها تامة كاملة لأنها جاءت في عصر العقل والفلسفة ، في عصر عرف الفلسفة أيما معرفة ، سواء أكان أصحابها من اليونان والرومان أم كانوا من الهند وفارس ومصر وغيرها من البلدان ، في عصر تفتح فيه العقل ، وأصبح الوعي الإنساني قابلاً لإدراك فكرة الألوهية تامة كاملة في أسمى ما يمكن أن يكون عليه السمو.

ولما كان الأمر كذلك فقد واجه الإسلام بفكرة الألوهية عصر الفلسفة وتفتح العقل وقدرته على الإدراك والتمييز والنقد وكشف الحقائق وفهم الغيب، واقتضى ذلك أن تكون فكرة الألوهية تامة كاملة مستوعبة كل ما يجب أن يكون فيها ، ولهذا زاد على ما سبق من الأديان الصحيحة فيما أوضح من الصفات الخاصة بالذات الإلهية ، ولأنه الدين الختام الذي لا يستدرك عليه ما يجيء بعد، أعطى الصورة الكاملة لفكرة الألوهية بحيث يجد فيها العقل مهما رجح ، والعلم مهما ارتقى ما يملأ فراغهما ويجيبهما على كل سؤال .

وتتجلى فكرة الألوهية تامة كاملة في قوله تعالى :

﴿ تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً * الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ الفرقان : ١ – ٢ .

و ﴿ قل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذلِّ وكبِّرْه تكبيراً ﴾ الاسراء : ١١١ .

و ﴿ وأنه تعالى جَدُّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾ الجن : ٣ .

و ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ الإخلاص .

فالله في الإسلام واحد أحد ، لا أحد من خلقه يتسامى إليه ، ولا كفء له ، والتفرد التام نزَّهه عن أن تكون له صاحبة أي زوج تلد له ، وهو نفسه غير مولود ، لأنه خالق ، والمولود مخلوق ، وهو نفسه لم يلد أحداً .

واقتضى هذا التفرد التام أن ينتفي كل شريك له أو كفء ، لأنه لو كان هناك كفء لتكرر الموصوف بالكمال المطلق ، وتكراره إما أن يكون عبثاً والكامل منزه عن العبث ، وإما أن يكون عوناً ، ومحتاج العون ناقص ، والكامل منزه عن النقص .

وما دام الله لا شريك له في ملكه ، فكذلك لا ناصر له من الذل ، لأن النصير كفء أو معين ، وليس الكامل في حاجة إلى نصير لأنه ليس هناك من يذله .

ويقتضي تفرده في الألوهية التامة الكاملة التفرد في جميع صفاته وأسمائه، فكما أنه لا شريك له في ذاته فكذلك لا شريك له في أسمائه وصفاته ، أما أنه يوصف إنسان بأنه قادر ، ومن أسماء الله القادر فليس ذلك من المشاركة ، لأن المشاركة تحتم الكفاءة ، ولا كفاءة بين القادر الخالق والقادر المخلوق .

ونفي محمد ﷺ أن يشرك اللهَ أحدٌ من خلقه ، سواء أكان ملكا مقرباً أم رسولاً ، وهو نفسه أفضل الخلق طرًّا بما فيهم الرسل الكرام أولو العزم لم يدع أنه « إلَه » أو شريك لله ، أو أن فيه طبيعة إلهية كما ادعى المسيحيون للمسيح وهو مما ادعوا براء .

ولست أنا المسلم أقول هذا ، بل يقوله أناس ممن يتبعون غير دينه ، وحسبنا أن ننقل كلمة برتراند رسل فيلسوف بريطانيا المعاصر وأحد المشاهير في العالم

وردت في كتابه « تاريخ الفلسفة الغربية » ٢ : ١٨٦ [١] وهي :

« كانت ديانة النبي (محمد) توحيداً بسيطاً ليس فيه التعقيد الذي نراه في عقيدة الثالوث والتجسيد ، ولم يزعم النبي لنفسه أنه إلهي ، ولا زعم له أتباعه هذه الطبيعة الإلـهيه نيابة عنه ، وجعل واجباً على المسلمين أن يفتحوا من العالم ما وسعهم فتحه في سبيل الإسلام على ألا يسمح لهم خلال ذلك باضطهاد المسيحيين أو اليهود » .

ويقول [١] : « كان المسلمون خلال العصور الوسطى أكثر مدنية وأرق قلباً من المسيحيين ، فقد اضطهد المسيحيون اليهود ، وبخاصة في عهود الاضطراب الديني ، وصاحبت الحروبَ الصليبية مذابحُ مروعة ، وذلك على نقيض ما كان في البلاد الإسلامية ، حيث لم يسىء أحد معاملة اليهود بأي معنى من معاني الإساءة » .

ولم يسىء الإسلام إلى أي أحد من أبناء الديانات الأخرى ، فاليهود المعروفون بعدائهم الحاقد للإسلام وللإنسانية وجدوا في جوار الإسلام أكرم معاملة إنسانية ، حريتهم مكفولة ، ولم يضطهدهم مسلم أو يتجاوز حده عليهم ، بل كانوا يشاركون المسلمين أعمال الدولة الإسلامية .

وهذا برهان على إنسانية الإسلام لأنه دين الإنسانية كلها ، رسوله بشر ، وعقيدته سهلة ، وشريعته سمحة ، وكل ما فيه طيب وجميل ، ولكل عمل فيه مثوبة جزيلة ، حتى العمل الدنيوي ، بل حتى اللذة من الإتصال الجنسي الحلال تعقب ثواباً ، فكما أنه لو وضعها في حرام كان عليه وزر كذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر كما جاء في حديث للرسول الكريم .

وأركان الإسلام خمسة :

* شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

---

(١) الطبعة العربية ، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود .

* وإقامة الصلاة .
* وإيتاء الزكاة .
* وصوم رمضان .
* وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

وكل هذا سهل بسيط ، لا عسر فيه ، وكله يبني « إنساناً » صالحاً، ليتكون منه ومن أمثاله مجتمع صالح فاضل تسوده المحبة والرحمة والأخوة، وليس في شرع الإسلام سيد ومسود ، بل الجميع سواء ، ولا فضل إلا بالتقوى ، بالقلب الطيب والعمل الصالح .

الإسلام كله عقيدة وشريعة موجز في هذه الكلمات ، كل الإسلام في كلمات ثلاث ، هن : الإيمان بالله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وليس غير .

الرُّسُلُ عِنْدَ أَتْبَاعِهِمْ وَفِي الإِسْلَامِ

مَنْ محمد الذي جاء بالإسلام من عند الله ؟ ما سيرته ؟ ما رأيه في الرسل الذين سبقوه ؟ .

إنه النبي العربي ، ولد من أبوين شريفين ينتميان لبيت هو أعلى بيت في العرب في الحسب والنسب ، في مجد الدين والدنيا ، أسرة اجتمعت لها كل مزايا السيادة والسؤدد والسمو ، وفقد والده قبل أن يولد ، وأمه بعد الولادة فنشأ يتيماً ، حتى إذا بلغ مبلغ الشباب ووصل الأربعين لم يرَ الناس إلا خير ما يرونه من رجل نموذج في الخلائق الإنسانية الكريمة ، لم يشارك الشباب فيما كان مباحاً لهم في شريعة قريش من اللهو ، ولم يكذب على أحد قط ، ولم يغشّ أو يسرق أو يحتل أو يراوغ ، بل كان أعلى مثل للرجل الفاضل الشريف في كل مزاياه ، حتى أجمع الناس على أنه الأمين .

ولما أوحي إليه بالنبوة ثم بالرسالة كان في حياته المثل الأعلى ، فهو في الجاهلية النموذج المُتَخَيَّر للرجل الفاضل الشريف ، وهو في الإسلام المثل الاعلى للإنسان العظيم في كل الخلائق والمزايا .

وتبعه أناس ليسوا من الساقطين المحتقرين في المجتمع ،بل تبعه أعلى الناس مكانة وأعظمهم فروسية وبطولة وشجاعة وثراء ، وكان فيمن تبعوه فقراء

وعبيد ، ومثقفون أعلياء ، وفيهم الرومي والحبشي والفارسي والسوري ، ولأول مرة في تاريخ البشرية يتساوى أفراد الطبقات المختلفة في الحقوق والواجبات مع الإعتراف بالتفاضل فيما بينهم .

ودعا الناس جميعاً من كل لون وجنس ولغة ووطن ودين إلى الإسلام الحق ، لأن الإسلام دين الجميع ، دين الإنسانية كلها ، لا فرق بين أسود وأبيض وأحمر ، وقال : إنه خاتم الأنبياء ودينه خاتم الأديان ، فما حقيقة ما قال ؟ أهو حق ؟

نجيب قائلين : نعم ، والحق مع الايجاب ، والبرهان قائم ، والواقع نفسه من هذا البرهان . محمد خاتم الرسل حقاً بلا نزاع ، فما عرف التاريخ بعده أنبياء ورسلاً إلا بعض المدعين كذبتهم أقوالهم وأفعالهم ، وشهدت ألسنتهم على كذبهم ، ومضوا بين سخريات التاريخ تبتلعهم مهاويه الفاغرة ، وكانوا جميعاً — على نَدْرتهم — بين طامع في مجد وسلطان ، أو أحمق يتظرف ، أو عابث يلهو ، أو ممخرق يدجل .

ولم يثبت على محمد كذب قط لا قبل النبوة ولا بعدها ، وكان أصدق الصادقين ، ولو كان باب النبوة والرسالة مفتوحاً بعده لأخبر به ، لأنه لن يستطيع أن يكذب على المستقبل المغيب المجهول ، ولو كذب عليه لأظهرت أحداثه هذا الكذب ، وآية صدقه عدم ظهور رسول حتى اليوم ، مع أن مصلحين كباراً قاموا في هذا الوجود وعملوا من الخير بحيث كانت ثمرات ما عملوا يرجح على ثمرات كثير من الأنبياء ، وتركوا آثاراً جليلة أعظم من بعض الرسل ، ولو ادعوا النبوة والرسالة لوجدوا الملايين يصدقونهم ويؤيدونهم ، ولكن هؤلاء المصلحين كانوا صادقين فلم يدّعوا النبوة أو الرسالة .

وطبيعي أن هؤلاء المصلحين ليسوا مسلمين ، لأن المسلمين لن يكذبوا رسولهم بادعاء النبوة ، أما أولئك فما يمنعهم عن الادعاء إلا التزام الصدق والحق .

وهذا تصديق الواقع لما أخبر به محمد ﷺ ، وتأييد لنبوته الصادقة المقطوع بصدقها وصحتها .

وصدق محمد أو أمانته التي هي أمثل الأمانات تظهر في كل أقواله وأفعاله ، ولا يصح من أمين هو أصدق الأمناء طراً وأمثلهم أن يقول غير الحق ، فينفي وجود أنبياء ورسل بعده إذا لم يكن ما يقوله حقاً ، لأنهم سيخرجون — إذا لم يكن قوله حقاً — ويكذبونه ، ولكن عدم ظهورهم آية صدقه وبرهان أمانته .

وإن من يذكر من سبقوه من الأنبياء والمرسلين ذكراً جميلاً ، وينفي عنهم التهم التي ألصقها بهم أتباعهم ، ويصفهم بما هم له أهل من صفات الفضل والتنزيه والعصمة ، ويعطيهم حقهم من التجلة والتبجيل لا يتصور العقل والمنطق أن يكذب فيزعم ألا نبيّ بعده إذا لم يكن واثقاً من نفسه صادقاً في قوله . وحقاً ، لم يكن نبي بعده ولن يكون .

ولو كان محمد ﷺ غير صادق وغير رسول حق لأيد أتباع الرسل السابقين فيما قذفوهم من التهم الباطلة الكاذبة طمعاً في تأييدهم إياه ، ولكنه خالف الأتباع وندد بهم وكذبهم فيما زعموا من التهم الملصقة من قبلهم بأنبيائهم المعصومين .

إن كتب اليهود والنصارى تتهم أنبياءهم ورسلهم الذين يؤمنون بأنهم رسل الله حقاً بشرّ التهم وأبشع القذائف .

تتهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأنه كان يصحب زوجه الجميلة « سارة » ويعرضها على ملوك عصره ، ويأخذ منهم تلقاء ذلك هباتهم السخية ، ويرضى بأن يتخذوها حليلة لا خليلة مع أنها في عصمته .

هذا ما تقوله توراتهم في سفر التكوين أول أسفارها الخمسة التي تسمى « التوراة » وها هو ذا الإصحاح الثاني عشر يقول :

« وحدث جوع في الأرض ، فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك ، لأن

الجوع في الأرض كان شديداً ، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته : إني قد علمت أنك امرأة حسنة المظهر ، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون : هذه امرأته ، فيقتلونني ويستبقونك ، قولي : إنك أختي ليكون لي خير بسببك ، وتحيا نفسي من أجلك ».

« فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين لما رأوا المرأة أنها حسناء جداً ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون ، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتُن وجمال ، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام ، فدعا فرعون أبرام وقال : ما هذا الذي صنعت بي ؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ؟ لماذا قلت : هي أختي ، حتى أخذتها لي لتكون زوجتي ، والآن هوذا امرأتك ، خذها واذهب ، فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له » .

وتصور التوراة إبراهيم عليه صلوات الله وسلامه صورة كريهة ، تصوره مستمرئاً تجربته مع فرعون فيمضي إلى « ابيمالك » ملك جرار ومعه سارة ليصنع معهما ما صنع فرعون ، وها هوذا « سفر التكوين » يقول في الإصحاح العشرين :

« وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب ، وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار ،وقال إبراهيم عن سارة امرأته : هي أختي ، فأرسل « أبيمالك » ملك جرار وأخذ سارة فجاء الله إلى أبيمالك في حلم الليل وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها فإنها متزوجة ببعل ، ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب اليها ، فقال : يا سيد ، أأمة بارة تقتل ؟ ألم يقل هو لي : إنها أختي ، وهي أيضاً نفسها قالت : هو أخي ، بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا ، فقال له الله في الحلم : أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا ، وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطىء الي ، لذلك لم أدعك تمسها ،

فالآن رُدَّ امرأة الرجل فإنـه نبي ، فيصلي لأجلك ، فتحيا ، وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتاً تموت أنتَ وكل من لك .

« فبكّر أبيمالك في الغد ودعا جميع عبيده وتكلم بكل هذا الكلام في سامعهم ، فخاف الرجال جداً، ثم دعا أبيمالك إبراهيم وقال له : ماذا فعلت بنا ؟ وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطية عظيمة ؟ أعمالاً لا تُعْمَل عملتَ بي ! وقال أبيمالك لإبراهيم : ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء ؟ فقال إبراهيم : إني قلت ليس في هذا الموضع خوف الله البتة فيقتلونني لأجل امرأتي ، وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي ، غير أنها ليست ابنة أمي فصارت لي زوجة ، وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي قلت لها : هذا معروفك الذي تصنعين اليّ في كل مكان تأتي إليه قولي عني : هو أخي .

« فأخذ أبيمالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وأعطاها لإبراهيم ، ورد إليه امرأته ، وقال أبيمالك : هوذا أرضي قدامك ، أسكن فيما حسُن في عينيك . وقال لسارة : أني قد أعطيت أخاك ألفاً من الفضة ، ها هو لك غطاء عين من جهة كل من عندك وعند كل واحد فأُنْصِفَتْ ».

وهذه الصورة التي يؤمن بها اليهود والنصارى على أنها صورة إبراهيم وخلائقه وصفاته لا ترضي شريعة الأخلاق في كل زمان ومكان ، وإبراهيم – مع كل هذا – عندهم أبو الأنبياء .

وما ذنب فرعون إذا أخذ من إبراهيم أخته السليمة من موانع الزواج ليتخذها زوجاً له على السنة المتبعة في ذلك العصر ؟

ولماذا يصحبها معه وهي « امرأة حسنة المنظر » كما يقول إبراهيم نفسه في وصفها إلى أناس غير أمناء ؟ إلى أناس فتك بهم الجوع الجنسي ؟

لماذا لا يتغرب وحده طلباً للرزق كما يصنع الرجال الشرفاء إذا قصدوا بلداً غير مأمون فيه على أعراض النساء المتزوجات أو غير المتزوجات ؟

ولماذا يعيد إبراهيم التجربة مع « أبيمالك » عاهل جرار ويخدعه حتى يكاد أن يوقعه في دمار وعذاب أليمين لا يقفان عليه وحده ، بل يتجاوزانه إلى مملكته ؟ أليس في عتاب أبيمالك ولومه إياه دليلاً على أنه « بسلامة قلب ونقاء يد » تسلم المرأة ليتخذ ها زوجاً له ؟

أبلغ الطمع بإبراهيم أبي الأنبياء ﷺ إلى أن يعرض امرأتـــه ليكسب غنماً وبقراً وجمالاً وعبيداً وإماء وأموالاً ويدع امرأته لعبة في يد فرعون ثم أبيمالك ؟ ألا يجوز أن يسطو على عرضها وهي عاجزة مادام هو نفسه قد عجز عن حمايتها وحماية نفسه ؟

لقد كاد فرعون وأبيمالك يفترشان زوج إبراهيم لولا أن الرب برز في الوقت المناسب وضرب فرعون وكف يد أبيمالك عن سارة !

وسيدنا « لوط » عليه السلام لم يسلم من قذيفة ماحقة تمحقه هو وأسرته كما تذكر التوراة التي لا تكتفي بنكبة الرجل في شعبه وامرأته حتى تنكبه في ابنتيه وفي نفسه إذ تذكر عنه أنه زنا بابنتيه عندما سقتاه خمراً حتى فقد عقله ووطئهما [1] .

وسيدنا « داود » عليه السلام يزني بامرأة مؤمن حق ومجاهد عظيم هو أوريا الحثي ، يترك زوجه بمنزله على مقربة من منزل الملك داود ، فيراها من سطح داره وهي تغتسل ، فتعجبه ، فيحضرها بقوة سلطانه إلى منزله ويزني بها ، ثم لا يكتفي بهذا الاثم البشع المبين فيضيف إليه آثاماً غاية في القذارة والعفونة .

وها هوذا سفر صموئيل الثاني أحد الأسفار المقدسة يقول في الإصحاح الحادي عشر ما نصه :

« وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت

---

(١) أنظر قصة زنا لوط بسفر التكوين بالإصحاح التاسع عشر .

الملك فرأى من علا السطح امرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً ، فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد : أليست هذه بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي ، فأرسل داود رسلاً وأخذها ، فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ، ثم رجعت إلى بيتها ، وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت : إني حبلى ، فأرسل داود إلى يوآب يقول : أرسل اليّ أوريا الحثي ، فأرسل يوآب أوريا إلى داود، فأتى أوريا إليه ، فسأله داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب ، وقال داود لأوريا : انزل إلى بيتك واغسل رجليك ، فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك ، ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ، ولم ينزل إلى بيته ، فأخبروا داود قائلين : لم ينزل اوريا إلى بيته ، فقال داود لأوريا : أما جئت من السفر فلماذا لم تنزل بيتك ؟ فقال أوريا لداود : إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام ، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي ، وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر ، فقال داود لأوريا : أقم هنا اليوم أيضاً ، وغدا أطلقك ، فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده ، وإلى بيته لم ينزل ، وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب ، وكتب في المكتوب يقول : إجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة ، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت ، وكان في محاصرة يوآب المدينه أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه ، فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب ، وسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثي أيضاً ، فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب وأوصى الرسول قائلاً : عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب ، فإن اشتعل غضب الملك وقال لك : لماذا دنوتم من المدينة للقتال ؟ أما علمتم أنهم يرمون من علا السور ، من قتل أبيمالك بن يَرُبُّوشَتْ ؟ ألم ترمه امرأة بقطعة رحى من علا السور فمات في تاباص ؟ لماذا

دنوتم من السور ؟ فقل : قد مات عبدك أوريا الحثي أيضاً .

« فذهب الرسول ودخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوآب وقال الرسول لداود: قد تجبر علينا القوم، وخرجوا الينا إلى الحقل، فكنا عليهم إلى مدخل الباب ، فرمى الرماة عبيدك من علا السور فمات البعض من عبيد الملك ، ومات عبدك أوريا الحثي أيضاً ، فقال داود للرسول: هكذا تقول ليوآب ، لا يسوء في عينيك هذا الأمر ، لأن السيف يأكل هذا أو ذاك ، شدد قتالك على المدينة وأخربها وشدده .

« فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته ، وصارت له امرأة وولدت له ابنا ، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عين الرب » .

ثم تأتي بقية قصة داود مع امرأة أوريا وسخط الله عليه بأن يعاقبه عقاباً قذراً بشعاً مقيتاً ، ويرسل الله إليه ناثان ليبلغه رسالة ربه .

وها نحن أولاء ننقل من الإصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني تكملة القصة ما نصه :

« فقال ناثان لداود : أنت هو الرجل ، هكذا قال الرب إلـه إسرائيل : أنا مسحتك ملكاً على اسرائيل ، وأنقذتك من يد شاول ، وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك في حضنك ، وأعطيتك بيت اسرائيل ويهوذا وإن كان ذلك قليلاً كنت أريد لك كذا وكذا ، لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه ، قد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة ، وإياه قتلت بسيف بني عمون ، والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد ، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة ، هكذا قال الرب : هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك ، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نساءك في عين هذه الشمس ، لأنك أنت فعلت بالسر وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع

إسرائيل وقدام الشمس ، فقال داود لناثان : قد اخطأتُ إلى الرب ، فقال ناثان لداود : الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك ، لا تموت ، غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك يموت وذهب ناثان إلى بيته .

« وضرب الرب الولد الذي ولدته امرأة أوريا لداود فثَقِل ، فسأل داود الله من أجل الصبي ، وصام داود صوماً ، ودخل وبات مضطجعاً على الأرض ، فقام شيوخ بيته عليه ليقيموه عن الأرض فلم يشأ ، ولم يأكل معهم خبزاً ، وكان في اليوم السابع أن الولد مات ، فخاف عبيد داود أن يخبروه بأن الولد قد مات لأنهم قالوا : هوذا لما كان الولد حياً كلمناه فلم يسمع لصوتنا ، فكيف نقول له : قد مات الولد ، يعمل أشر » الخ .

أي عقاب هذا الذي يعاقب الله به داود ، إن الله أنكر على داود فعلته وزناه وما تبعهما من موبقات فيجازيه بفعلته نفسها بل بأشد وأقبح ، حيث يجعل قريبه يزني بنساء داود علانية أمام الشعب ، وكان هـذا القريب هو أبشالوم بن داود نفسه .

وفي الإصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الثاني ، بالفقرة الثانية والعشرين هذه الكلمة :

« فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ، ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل » .

وسليمان عليه السلام موصوم .

وهذا سفر الملوك الأول يتحدث عن سليمان في الإصحاح الحادي عشر قائلاً :

« وأحب الملك نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل :

لا تدخلون إليهم ولا يدخلون إليكم ، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم ، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة ، وكانت له سبعمئة من النساء السيدات وثلاثمئة من السراري فأمالت نساؤه قلبه ، وكان زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه ، فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين ، وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه ، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ، ولمولك رجس بني عمون ، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللاتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن ،فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إلـه إسرائيل الذي تراءى له مرتين ، وأوصاه في هذا الأمر ألا يتبع آلهة أخرى ، فلم يحفظ ما أوصى به الرب ،فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً ، وأعطيها لعبدك ، إلا أني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك ، بل من يد ابنك أمزقها » .

أيستحق الرسول أن يكون رسولاً أو نبياً إذا استطاعت نسوة أن يملن قلبه وراء آلهة أخرى ؟ أيكون رسولاً من لم يتبع ربه تماماً ؟ أيكون رسولاً حقاً من يبني معبداً لصنم من الأصنام ؟ أيعترف الرسول بآلهة وثنية يعترف السفر المقدس بأنها رجس ؟

هذا اما تقوله الكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى عن أولئك الأنبياء والمرسلين ، وقد طعنت جميع الأنبياء والمرسلين بما فيهم عيسى عليه السلام ، ولم يسلم منها أحد ، حتى الله جل جلاله لم تنزهه تلك الكتب ، بل جعلته كأحد الخلق فيما يختلف عليه من صفات وأعمال ، فهو يأكل ويشرب ، ويضل ويخدع ويكذب ، تعالى الله عما يفترون .

أما الإسلام فلا يساير تلك الكتب المقدسة لدى أصحابها فيما اتهمت به

الله ورسله ، فالله في الإسلام يختلف عن « الله » في تلك الكتب ، الله في الإسلام رب العالمين ، رحمان رحيم ، قوي ، قادر ، لا شريك له ، منزه عن التجسيد والتعطيل والتجسيم والتشبيه ، لا يحابي أحداً من خلقه ، لأنه ليس رب أحد أو شعب وحسب ، بل هو رب كل ما هو كان أو يكون ، رب الكون أجمع ، رب العالمين ، يعلم الغيب ، وما من ذرة في الأرض ولا في السماء إلا وهو محيط بها علماً وسمعاً وبصراً ، وهو كامل مطلق الكمال .

أما رسل الله فهم منزهون معصومون من الكبائر ، ولا يمكن لرسول منهم أن يزني أو يعبد الأصنام أو يعترف بها .

وإذا كان إبراهيم أبو الأنبياء ولوط وداود وسليمان وعيسى وهم من هم في مكانتهم لدى اليهود والنصارى مقترفو آثام فما قيمة الرسالة والنبوة ؟

إن أحقر الناس في جميع العصور لو أخذ امرأته الجميلة يعرضها على الملوك ابتزازاً لأموالهم ، وارتزاقاً بجمالها لعُدَّ من الساقطين ، فكيف والأمر يتعلق بأبي الأنبياء ؟ أيصح أن ينسب إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ما نسبته إليه التوراة ؟ بل أيجوز عقلاً ومنطقاً أن يفعل إبراهيم أبو الأنبياء ما زعمته التوراة ؟

إن الإسلام ينفي عن إبراهيم كل هذه النقائص ويثبت له العصمة والنزاهة ، ويصفه بما هو أهله من الصفات الكريمة الفاضله الكاملة .

وما قيمة داود إذا كان رجلاً هتاك أعراض ، زانياً بزوج مجاهد مؤمن ، ثم لا يكتفي بالزنا حتى يريد أن يدخل في نسب هذا المجاهد المؤمن ولداً حملت به زوجه من زنا داود وأن يدفعه دفعاً إلى النوم مع امرأته حتى يظن أن الحمل منه ، فلما أخفق داود في محاولته مع المجاهد (أوريا الحثي) حكم عليه بالموت تخلصاً منه ، ودبر له مكيدة ، فقتل مجاهداً شهيداً .

ولم يكتف بهذا فأدخل المرأة ضمن نسائه .

وماذا كانت عقوبة داود من ربه ؟ كانت العقوبة أن يموت المولود

من سفاح ، وأن يسلط الله عليه ابنه أبشالوم بن داود يزني بمحارمه أمام بني إسرائيل .

إن الله يمقت الزنا ، ومع هذا – حسب دعوى سفر صموئيل – يعاقبه بأن يزني الابن بنساء أبيه ؟

عقوبة عفنة قذرة يتنزه عنها البشر ذوو النفوس الشريفة ، ولكن الكتب المقدسة تتهم الله بأنه عاقب الزاني على زناه بأن يزني الابن بنساء أبيه .

ولكن الإسلام ينفي عن داود هذه التهمة القذرة لأنها لم تقع من داود ، ويثبت له النزاهة والعصمة ، ويصفه بما هو أهله من صفات الفضل والطهر والنزاهة والعصمة ، ولا يرضى بأي فرية كهذه أن تلتصق برسول أو نبي ، لأن الله لا يختار للنبوة والرسالة إلا أكمل خلقه نفساً وطبيعة وفطرة وسيرة وحياة وأخلاقاً ، ولهذا أثبت للرسل جميعاً التنزه عن الكبائر ، والترفع على الصغائر .

وجعل الإسلام في صلب العقيدة الإيمان بعصمة الرسل ، فإذا زعم مسلم أن داود عليه السلام زنا استتيب وإلا قتل كفراً ، لأنه يكفر بما أنزل الله في كتابه ، ومن يكفر فالقتل جزاؤه الوفاق .

ومن هنا تظهر عظمة الإسلام وعظمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فالله عندهما كامل كمالاً مطلقاً ، والرسل جميعاً وعلى رأسهم إبراهيم ﷺ منزهون معصومون ، وكل من يزعم أن في الله صفات من خلقه كالتعب والأكل والشرب فهو كافر ملعون ، وكل كتاب يزعم ذلك فهو كتاب مردود كذوب ، وكل من يزعم أن الرسل غير معصومين ، وأنهم يقترفون الآثام والكبائر فهو كافر ملعون .

والإسلام على حق في هذا ، لأن الله كامل حقاً ، وأن رسله كرام معصومون حقاً ، ومعاذ الله أن يختار الله رسله من المنحرفين الفاسقين ، ومن

يزعم ما زعمت الكتب المقدسة والمؤمنون بها ففي ذلك اتهام الله بسوء الاختيار والجهل بما سيكون ممن اختار لرسالته ، ومعاذ الله أن يتهم بهذه النقائص والأباطيل .

وإذا كانت شريعة الإسلام المبنية على عقيدته تملي على المسلم ألا يتهم بريئاً من عامة الناس أو يقذفه ، وينذره بعقوبة قاسية شديدة فإن الإسلام سيغضب على من يتهم الرسل الكرام ويقذفهم بما هم منه براء من تلك الزعمات الباطلة .

والإسلام الذي جاء به محمد لم يوافق اليهود والنصارى على ما جاء في كتبهم المقدسة ، ولم يشاطرهم اعتقادهم في رسلهم لأنه اعتقاد باطل ، وهو عدو الباطل في جميع صوره وبخاصة فيما يتصل بالله وبرسله ، بل أعلن في قوة وصرامة نقيض ما ذهبوا إليه ، ودافع عن رسلهم هم أنفسهم دفاعاً بليغاً ، لأن السكوت عليه إقرار أو موافقة أو نفاق أو عجز ، وليس الإسلام كذلك.

وإن عقيدة الإسلام تفرض مواقفه من الأباطيل والكفر والشرك ، ولهذا كان كتاب الإسلام وهو القرآن شديد السطوة على الذين يتهمون رسلهم أو يقتلون أنبياءهم ، قوياً في محاربة المبطلين ، فنفى ما اتهم به الرسل والأنبياء زوراً ، وأثبت لهم العصمة بحق ، ولم يحاب أحداً منهم إذا ألمّ بخطأ ، بل أشار إليه واستتابه ، وذلك الخطأ ليس من الكبائر بل من الخطأ اليسير الذي يقع فيه البشر .

بل لم يحاب الإسلام رسوله الكريم الذي هو أفضل الرسل عندما انصرف عن عبد الله بن مكتوم الأعمى الفقير العامي الذي لا حول له ولا قوة ولا نفوذ إلى بعض رؤساء مشركي قريش رجاء أن يهتدوا فيهتدي ألوف الناس تبعاً لهم فيكون منهم للإسلام قوة ، وفي الوقت فسحة لابن أم مكتوم يقابله فيه ، ولن تسنح الفرص للقاء مع رؤساء المشركين مثل الفرصة التي تهيأت .

هذا الانصراف عن ابن أم مكتوم إلى الرؤساء لم يرضِ الله فنزل القرآن

الكريم على رسوله الصادق الأمين يقول :

﴿ عبس وتولّى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكّر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك إلا يزكّى . وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى ﴾ سورة عبس : ١–١٠ .

وبعد نزول هذه الآيات على رسول الله كان يقول لابن أم مكتوم رضي الله عنه : « مرحباً بمن عاتبني فيه ربي » .

فالإسلام دين التوحيد ، والتوحيد يفرض عل المسلم أن يلتزم الحق الذي هو أحد أسماء الله الحسنى ، وليس بين يدي الحق كبير وصغير إلا بما قدم من الصالحات تصدر عن العقيدة الصحيحة ، فابن أم مكتوم الفقير الأعمى صاحب عقيدة سليمة ، ورؤساء المشركين ليسوا بأصحاب عقيدة صحيحة ، فوجب في شرعة عقيدة الإسلام أن يتقدم بين يدي رسوله صاحب العقيدة مهما سفل مركزه الاجتماعي ، فالامتياز في الإسلام لصاحب العقيدة .

وعقيدة الإسلام — التي لا تحابي — لا تعترف بالوسطاء بين الناس وخالقهم ولا تقر سلطانهم ، لأنه لا وسيط بين الله وخلقه ، هو لهم جميعاً ، ومتى دعوه اتجه دعاؤهم إليه ، وليس الله في الإسلام في حاجة إلى الوسطاء كما هو الحال في اليهودية والنصرانية وسائر الديانات ، لأن كتاب الله (القرآن) ليس وقفاً على أحد ، بل هو للناس جميعاً ، ولا وصاية لأحد عليه يملكه وحده دون غيره ، أما التفقه والامتياز في فهم الدين فليس ذلك سبباً لأن يكون كاهناً يأمر وينهى ، بل هو مكلف إذا منحه الله علماً أن يفيد به من حرمه وألا يكتمه عن محتاج إليه .

وليس لكاهن أن يأمر وينهى ، ولا أن يحل ويحرم ، بل الأمر والنهي لله ، والحلال والحرام بأمر الله ، وليس ذلك من حق المخلوق ، والعلماء مبلّغون ينقلون ما علموا إلى الذين لا يعلمون .

ومن حق كل أحد في الإسلام أن يطلب العلم ، وكل مسلم رجل دين ، البرهان على ذلك قائم ، فأركانه الخمسة كلها لكل مسلم ، لا يخص كلها أو بعضها أحداً دون أحد ، بل هي للجميع ، فشهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لكل مسلم ، والصلاة فرض على كل مسلم ومسلمة ، ومتى حضرت الصلاة كان مباحاً لأي مسلم أن يؤم من حضروا ، وليس في الإسلام معبد أو مكان خاص أوهيكل خاص للصلاة ، بل كل الأرض طاهرة صالحة لأن يصلي فيها ، لأن رسول الإسلام قال « جعلت الأرض لي مسجداً وطهوراً » .

ولا سلطان لمسجد على جميع المساجد في الأرض ، بحيث يكون متبوع المساجد كلها ، ويكون لإمامه السلطان على سائر الأئمة في العالم ، مثلما نجد في اليهودية والمسيحية ، فالهيكل الأول هو صاحب الكلمة على جميع الهياكل ، وإمامه إمام سائر الأئمة ، وهما المرجع والمآب في الحكم الديني .

إن المسجد الحرام الذي هو بيت الله ، وفيه كعبته قبلة المسلمين أنى كانوا ليس متبوع مساجد العالم مع أنه أفضلها ، وليس لإمامه السيطرة على أئمة جميع المساجد ، وفي وسع أي إمام مسلم صالح أن يكون إماماً بالمسجد الحرام.

وثالث الأركان في الإسلام : الصوم ، والمسلم مفروض عليه أن يصوم بمجرد رؤية الهلال ، ولا كهنة يتولون فرض يوم على الناس ، بل بمجرد الرؤية ، ولم يكن الذين يشهدون بالرؤية أفضل المسلمين بل هم من العامة وأكثرهم أميّون ، يشهدون برؤية هلال رمضان فيصوم الناس لرؤيتهم .

ورابع الأركان : الزكاة ، والزكاة فرض على الغني ، وأداؤها موكول إلى ضميره ، يعطيها مستحقها برأيه ، فإن فقد غني مسلم ضميره تولّى الحاكم إخراج الزكاة من مال ذلك الغني .

وخامس الأركان : الحج ، وكل مسلم قادر مفروض عليه الحج ، وإذا دخل أمكنته لم يكن في انتظاره كهنة يتسلمون منه القربان والنذور ، وإملاء

النسك عليه ، بل يؤدي نسكه حسب السنّة ، فإن لم يعرف النسك استرشد بمن يعرفون .

وهذه الأركان الخمسة تؤدى بدون وسيط بين الخالق والمخلوق ، ولا سيطرة لمسجد على المساجد ، ولا سيادة إمام على الأئمة الآخرين ، بل الأمر واحد للجميع ، لأن الإنسان في الإسلام يملك كل الحقوق التي لغيره ، فهو قد سوّى بين الملك والسوقة .

ومواقف العبادة في الإسلام تثبت ألّا وساطة بين الخالق والمخلوق ، فهو يقف بين يدي ربه كغيره دون أن يحتاج إلى وسيط ،لأنه هو الوسيط سواء ، وما ثَمّ ما يفصل بين الله وعبده فيأتي كاهن ليكون أداة وصل بينهما . لأنه هو والكاهن سواء ، ومتى جاء الكاهن ليقف بين الإنسان وربه أُبعد وعوقب وطلب إليه أن يهتدي إلى الحق ، وليس الله في حاجة إلى وسيط ينقل إليه دعاء عبده ، لأنه يعلم به ويسمع دعاءه قبل الوسيط ، فلا ضرورة تلجئ إليه .

مِيزةُ التَوْحيدِ في الإِسْلامِ

ليست ميزة عقيدة الإسلام — بعد ذلك — أنها عقيدة توحيد فحسب ، بل هناك ميزة أخرى ترتبط بها ، أو أن الميزتين واحدة .

فعقيدة التوحيد في الإسلام لا تقوم على وحدانية الله وحده وحسب ، لأن دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى من الرسل دين توحيد أيضاً ، ولكنه لم يكن ديناً واحداً لكل الأمم على الزمان كله ، بل هي ديانات مخصوصة وذوات أجل تنتهي بانتهائه ليقوم من يجدد أو يبعث برسالة تجدد ما اندثر ، وتصلح ما فسد ، وتقوّم ما اعوجّ .

أما عقيدة التوحيد الإسلامية فهي غير مقصورة على القرشيين الألى منهم رسول الإسلام ، ولا على الحجازيين وحدهم ، أو على العرب لا غير ، بل عقيدة التوحيد في الإسلام للبشرية جمعاء ، لأنها العقيدة الكاملة الثابتة الصالحة لكل زمان ومكان ، ولم تكن كالتوحيد فيما سبق من العصور أو في العصر الذي ظهر فيه الإسلام بعد فساد عقيدة التوحيد السماوية الصحيحة .

كان التوحيد في السابق خاصاً بشعب ، فلما تسلم الأمر بعد موت الرسل الحكام والكهّان الموحدون كانوا يقصرون توحيدهم على أنفسهم وشعوبهم ، فإذا غلبوا أمة فرضوا عليها نظامهم الديني والسياسي والاجتماعي فرض تسلط

واستكبار وسيادة مطلقة ، لا فرض تقويم وهداية ومساواة .

فالخضوع من الأمة المغلوبة ليس خضوعاً للتوحيد ، ولكنه خضوع للغالب الذي يعتقد التوحيد ، ولا وحدة في الحقوق والواجبات ، ولا مساواة في الأخذ والعطاء سواء أكانا من الدين أم من الدنيا ، فالغالب يسلب حقوق المغلوب وحريته ليقيده بأمره ، وينتزع منه حقوقه ، ويجرده من آلهته ويفرض عليه إلهــه .

وحوادث التاريخ الكثيرة تثبت ذلك ، فالأمة الغالبة تفرض عقيدتهـــا وعاداتها وتقاليدها على الأمة المغلوبة ، فالعقيدة الدينية تفرض على أساس أنه طابع الغالب يسم به المغلوب .

فالمسيحيون فرضوا على من بقي من المسلمين في الأندلس عقيدتهم فرضاً ، وأخرجوهم من الإسلام قسراً ، ولم يفرضوها رحمة بهم وإنقاذاً لهم ، بـــل فرضوها لأنها عقيدة الغالب المنصور ، ولم يعترفوا للمسلمين الذين تنصروا بالحقوق التي للمسيحيين .

إنهم فرضوا عقيدتهم الدينية ليلغوا إلـه المغلوبين ويجبروهم على التعبد لمن يعتقدون فيه الألوهية ، لا تكريماً للمسلمين المتنصرين وهداية لهم ورغبة في مساواتهم بأنفسهم ، بل فرضوا عليهم دينهم إذلالاً للمسلمين المغلوبين .

أما عقيدة التوحيد الإسلامية فغير ذلك ، إن أي مغلوب يسلم يكون حقه هو حق الغالب ، لأن المقصود الإرشاد والهداية ، فكانت المساواة بين الغالب والمغلوب ، وإذا آثر المغلوب البقاء على دينه فهو حر ، على أن يعطي جزية تلقاء حمايته ، وهي جزية لا ترهق كاهلاً ، فإذا عجز عن الدفع كان على بيت مال المسلمين أن يكفله هو ومن معه .

فعقيدة الإسلام تحرير عقل الإنسان وتحرير جسده ، وكفالته ورعايته ومساواته ببقية الناس في الحقوق والواجبات ، ولا تفرق بين أحد من المسلمين ،

وإذا كان هناك امتياز فهو امتياز التقوى الذي هو امتياز تكليف وحمل أعباء لا امتياز سيادة وقهر وتسلط واستعلاء ، لأن التقوى تناقض هذه الأدواء .

وعقيدة الإسلام تعطي الإنسان الحرية والمساواة ليتمتع بهما بالقدر الذي يتمتع به الغالب المنصور ، لأن مجرد التساوي في الإيمان بالعقيدة يعطيه المساواة بالغالب ولو كان أعظم الملوك في كل شيء .

ولم يكن تحرير عقيدة الإسلام الإنسانية لتنتفع هي من هذا التحرير أو يستغله الرسول لمصلحته الشخصية ، بل يقوم تحرير الإسلام الإنسان ليفيد هو نفسه من هذه الحرية ، وينتفع بها قبل غيره مثل تنفسه ينفع نفسه لا سواه .

حرر العبد الرقيق تحريراً صحيحاً ، ولم يتخذه عبداً لنفسه ، بل هو سيد نفسه ، يستمتع بحريته التي يصعد بها إلى درجة الأحرار الغالبين المنتصرين .

ولهذا كانت رسالة الإسلام للكافة ، لجميع الناس على السواء ، ومحمد رسول الله إلى الناس كافة ، فكما أن الله في الإسلام رب العالمين ، فكذلك رسالته إلى الناس جميعاً ، ورسوله رحمة للعالمين .

إن الإسلام نزل من السماء ديناً مفتوحاً للجميع بدون تأويل ولا تحريف في النص ، أو إضافة شيء من البشر إليه ، أو سياسة تقضي بالخروج به من المحلية إلى العالمية ، أو تصيداً لجاه أو سلطان ، بل النص القرآني واضح في عموم الرسالة المحمدية .

يقول القرآن الكريم : ﴿قل يا أيها الناس أني رسول الله إليكم جميعاً﴾ سورة الأعراف : ١٥٨ .

ويقول القرآن : ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ سورة سبأ : ٢٨ .

ويقول القرآن : ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾ سورة يس : ٦٩ — ٧٠ .

ويقول : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ : سورة الصف : ٩ .

ويقول :﴿ تبارك الذي نزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ سورة الفرقان : ١ .

ويقول : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين * إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ص : ٨٦ – ٨٧ .

ويقول : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للّذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ سورة آل عمران : ٩٦ .

هذا ما قاله القرآن الكريم ، وهو يدل على عموم الرسالة المحمدية وعلى أن الإسلام دين مفتوح لكل إنسان بنص القرآن .

وفي حديث محمد ﷺ الذي هو وحي من الله قوله : « أُرسلت إلى الناس كافة » . وقوله : «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبُعثت إلى الناس عامة».

وأيّد محمد ﷺ قوله بفعله، فوجّه رسالات إلى الملوك والرؤساء في عصره يدعوهم إلى الإسلام ، ومن هذه الرسالات ما وجهه إلى المقوقس حاكم مصر ، وإلى هرقل ملك الروم ، وإلى كسرى ملك الفرس، ودعا يهود المدينة ونصارى نجران ومجوس البحرين والوثنيين على اختلاف نحلهم للدخول في دين الله .

وأقوال نبي الإسلام وأفعاله تبرهن على أنه دعوة عامة ، ولم يكن هذا العموم الشامل سياسة أو رغبة في التسلط وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية ، لأن الفتوح الدينية المحمدية كانت فتوح هداية وإرشاد لا حروب قهر واستعباد ، ويكفي أن نعلم أن الإسلام رفع العبد الحبشي بلالاً وصهيباً الرومي وسلمان الفارسي وزيد بن حارثة السوري إلى أعلى مقام في الإسلام، فرجحت مكانتهم على مكانة أبي سفيان عظيم قريش وغنيها وصهر نبي الإسلام – أبي زوج محمد ﷺ – وعلى أكثر المسلمين .

ولم يكن قدرهم وقفاً على نبي الإسلام ، بل توارثه خلفاؤه الراشدون ، ففي عهد عمر بن الخطاب جاء لمقابلته أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو الحارث مع رجال من أمثالهما ممن يعدُّون سادة مبرزين ، وكان ممن حضروا بلال وصهيب المولیان اللذان كانا عبدين ثم تحررا ، فأذن عمر لهما قبل أولئك السادة الأكابر فقال أبو سفيان : تالله ، لم أرَ كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟ فيرد عليه صاحبه سهيل بن عمرو قائلاً : « أيها القوم ، أني أرى الذي في وجوهكم ، إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دُعِيَ القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم إلخ» .

فمكانة هؤلاء العبيد ارتفعت في الإسلام بالإسلام حتى علت على السادة الأكابر ، ونالوا الحظوة العظيمة التي حرمها غيرهم من سادة العرب الأماجد .

فالدعوة لم تكن خاصة بالعرب ، بل كانت لغيرهم أيضاً ، للناس جميعاً ، ويكفي أن يقول محمد نفسه في صهيب الرومي الذي كان عبداً فتحرر ، وكان ألكن : « السبّاق أربعة : أنا سابق العرب ، وصهيب سابق الروم ، وبلال سابق الحبشة ، وسلمان سابق الفرس » .

فنبي الإسلام يرفع العبدَّى من غير العرب إلى مقامه السامق الرفيع فيجعلهم السبّاق معه ، ووردت أحاديث كثيرة في مدحهم ، وأصبح الرومي والحبشي والفارسي من أبرز صحابة الرسول ومن أعظم الناس في عالم الإسلام ، وشهد لهم الرسول شهادات جعلتهم في القمة الشامخة التي لم يرقَ إليها إلا عشرات من صحابته المقربين .

فالاسلام منذ ظهوره من أول ما ظهر كان ديناً للعامة ومفتوحاً للجميع ، فدخل فيه أناس من غير العرب ومن أبناء الديانات المختلفة ، والأجناس المتغايرة .

اليَومُ الآخِرُ

عقيدة الإسلام تقوم على المشهود والمغيّب . ويجب الإيمان بذلك كله ، وقواعد الإسلام ثلاث : الإسلام والإيمان والإحسان .

وقد مرّت الإشارة إلى الإسلام ، وأركانه تقوم على الشهود والحس . والإيمان يقوم على الغيب ، وأركانه الستة : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره . والإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

إن ما وراء الحس يدخل في عقيدة الإسلام ، ويجب الإيمان به ، والإيمان نفسه قائم على العيان الذي يحس ، وعلى الغيب الذي يدرك بالبصيرة الملهمة وبالعقل ، والإيمان عقيدة ، لأنهما شيء واحد ، فلا يكون المؤمن مؤمناً إلا بالعقيدة ، وذو العقيدة مؤمن حق الإيمان بالبداهة ولو لم يقم لديه دليل حسّي يثبت له ما يؤمن به .

فمعتنق العقيدة الإسلامية مفروض عليه ليكون مسلماً أن يعتقد بوجود الله اعتقاداً صحيحاً جازماً ، والاعتقاد بوجوده يحتّم الاعتقاد بنفي ما سواه من الآلهة التي اعتقد بوجودها الوثنيون ، وأن يعتقد بوجود الملائكة وبصحة

رسالات الرسل والكتب التي أنزلها الله عليهم ، لأن الله أخبر بذلك فيما تلقَّيناه من كتبه على أيدي رسله .

والإيمان بكل ذلك إيمان بالغيب ، وكذلك الإيمان باليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

وقد أوجزتْ الآيات الأولى من السورة الأولى بعد فاتحة الكتاب ما وجب الإيمان به ، وبدأه بالإيمان بالغيب لأنه البرهان على الإيمان الحق .

قال الله تعالى :

﴿ آلم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ البقرة : ١ ــ ٥ .

فالإيمان بالغيب سِمة المؤمن ومن ضرورات إيمانه حتى لا يكون عنصره وقفاً على المادة الكثيفة ، بل قوام الحياة : المادة والروح ، فإذا اهتدى الروح تبعته الجوارح والحواس في الهداية ولم يحتج إلى البراهين الحسية لإيجاد الإيمان في نفسه وبقائه فيها .

إن الحجاب القائم بين المادة والروح ، والظاهر والباطن ، وبين ما يحس وما وراء الحس يزول عندما يحل الإيمان في قلب المؤمن عن طريق التصديق ولو كان الحس لا يقره أو يرى استحالة وقوعه أو وجوده .

ويستوي لدى المؤمن عالم الغيب وعالم الشهادة ، لأن الإيمان أزال الفاصل الذهني فأصبح الغيب والشهادة سواء ، وقد يرجح الإيمان بالغيب على الإيمان بالشهادة ، لأن ما يشهده قد تخدعه الحواس فيه فيراه بعيداً وهو قريب ، وأبيض وهو أصفر ، أما ما لا يشهده فإيمانه به لا يختلف ، وهو قائم على الدوام لأنه مقتنع به ، ولا تخدعه حواسه فيه .

فإيمانه باليوم الآخر حقيقة ثابتة أثبت من المشهود الذي يحسه بما لديه من قدرة الحواس الظاهرة ، وليس ذلك بغريب على المؤمن ، لأن ضميره هو الذي أحس بأن ذلك اليوم حق لا مرية فيه ، ودليله أنه ما دام مؤمناً بوجود الله ووحدانيته وكتبه ورسله فهو مؤمن بما قال الله ، والله قال : ﴿اليوم الآخر﴾ وما دام الله قال ذلك فقوله الحق ، واليوم الآخر آت لا محالة .

وما دام المؤمن قد آمن بوجود الله وهو أعظم من اليوم الآخر فما الذي يمنعه عنه ؟

والايمان بوجود الله يحتم الايمان بكل ما جاء عنه في كتبه وعلى لسان رسله ولو لم تفهمه العقول أو تدركه الأبصار والحواس ، لأن ما وراء الحس موكول في إدراكه إلى الروح ، حتى إذا أدركته الروح تبعتها الحواس في الادراك والتصديق .

والايمان بالله مقرون بالايمان باليوم الآخر ، وما أكثر الآيات التي ورد فيها الايمان بالله مقروناً باليوم الآخر في مجال الوعد الكريم والثناء الطيب وفي مجال الوعيد والتنديد .

﴿إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ البقرة : ٦٢ .

و(ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ البقرة : ١٧٧ .

﴿ ومن أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون* يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ آل عمران ١١٣ — ١١٤ .

﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ النساء: ١٦٢.

و﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين * أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ التوبة ١٨ — ١٩ .

وفي مجال الوعيد للمؤمنين وغير المؤمنين قوله تعالى :

﴿ ولا يحلّ لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ البقرة : ٢٢٨ .

﴿ ومن الناس من يقول آمنا باللهوباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾البقرة :٨

﴿ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً * وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ﴾ النساء : ٣٨ — ٣٩ .

و ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ التوبة : ٢٩ .

والايمان بالله يقتضي الإيمان باليوم الآخر ، والإيمان باليوم الآخر يقضي بالإيمان بكل ما سيكون فيه من أمر الله ، من بعث ونشور وحشر واجتماع ، ووقوف للحساب ، ثم الثواب أو العقاب ، حيث يمضي من يستحقون المثوبة إلى الجنة ، ومن يستحقون العقوبة إلى النار .

وبعد القيامة والدخول إلى الجنة أو إلى النار لا يكون فناء ، بل بقاء سرمدي بلا نهاية ، ولن يكون هناك سأم ، لأن الإنسان عندما يدخل الجنة لا يدخلها بغرائزه البشرية كلها ، بل تزول عنه غرائز الشر والرذيلة ، وتزول عنه العادات والنقص ، ويقول الله تعالى :

﴿ إن المتقين في جنات وعيون * أدخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾ الحجر : ٤٥ — ٤٨ .

﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلَّنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ فاطر: ٣٤ ـ ٣٥.

وفكرة البعث في الإسلام فكرة انسانية يراد منها الخير للانسان أي انسان وكل انسان ، وليست مثل فكرة البعث في ديانات السماء بعد تحريفها ومسخها أو في ديانات الوثنيين ، لأن صورة البعث الإسلامي صورة كاملة انسانية، تقوم على الحق والعدل والرحمة ، ولا مجال في اليوم الآخر الإسلامي ما يضطرب فيما وراء الموت لدى تلك الديانات ما كان يضطرب قبل الممات ، بل اليوم الآخر الإسلامي يوم الحق : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى اللهَ بقلب سليم ﴾ .

وإذا عرفنا أن للاسلام بداية فإن آخره غير معروف ، لأن امتداده لا ينتهي ، ذلك هو امتداد الخلود السرمدي الذي لا نهاية له يدركها البشر بعقولهم هذه .

إن الإسلام يصل الدنيا بالآخرة التي لا آخر لها ، فهو يتناول الانسان قبل أن يتكون ويُخلق في رحم أمه حتى يولد ويحيا ثم يموت ليحيا حياته الأخرى ، فإما جنة وإما نار .

نعم ، يتناول الإسلام الإنسان قبل الخلق والتكوين ، فيأمر بألا توضع النطفة في حرام ، ثم إذا كان جنيناً يأمر بالعناية بحامله وبه، وألا يتعجل أحد مولده بإسقاطه تخلصاً منه ، وينذر من يفعل ذلك بعقوبة شديدة ، فإذا أهلَّ منع من الأذى والقتل ، وأمر برعايته وصونه وتنشئته نشأة طيبة، وهكذا حتى إذا أدرك الحياة كان مسئولاً يزر وزره ، ويحمل هو نفسه وقره ، فإذا مات استقبله ما قدَّم من عمل ، فإن كان صالحاً ذهب به إلى حيث الأبرار ، وإلا مضى إلى حيث يستقر الأشرار .

والإسلام يمشي مع الإنسان حتى ينتهي إلى الجنة أو النار ، فهو لا يتركه

في الدنيا تتقاذفه أيدي الباطل ، بل يريه سبيل الرشد ويدفعه إليه ، فإن استجاب فاز وإلا وقع في الشر الذي يفعله هو نفسه بحريته واختياره وإرادته ، وفي الآخرة ينعم المؤمن بإيمانه ، ويتعذب غيره على عصيانه أو كفرانه ، ويصبح الناس جميعاً في اليوم الآخرمسلمين حيث لا ينفع نفساً إيمانها إلا إذا آمنت من قبل ، ويتبعون في ذلك اليوم محمداً عليه صلوات الله وسلامه ، إذ يمضي إليه كل الناس مسلمين وغير مسلمين ، أتباع كل الديانات صحيحها وباطلها ومن لا دين له يتشفعون به إلى ربه وربهم فيشفع لهم بإذن الله .

وفي هذا الموقف العظيم لا تتخلى عن محمد ﷺ وإنسانيته وإنسانية رسالته، بل يؤكد هذا الموقف أنه رسول إلى الكافة ، لأنه يشفع للكافة ، ويتخلى عن كل قوم رسولهم ، لأن وجود محمد جعلهم يتخلون عن أقوامهم ، وصار الرسل والأنبياء كلهم وأتباعهم يتبعون محمداً عليه الصلاة والسلام ، فكما كان في الدنيا رسول الكافة صار في الآخرة شفيع الكافة .

والبعث الإسلامي حق ، والإيمان به حق الإيمان ضمان للأمن والخير في الحياة ، ونكرانه أو ضعف الإيمان به يدفع إلى الشر ، ويجلب القلق والخراب فأحدنا لا يرتكب المخالفة الهينة مثل مخالفة نظام المرور مخافة حساب شرطي المرور ، والموظف يعمل الشهر كله انتظاراً ليوم الحساب طمعاً في المثوبة يقبضها وهو الراتب .

ولو فكرنا – على الأقل – تفكير من لا يرتكب مخالفة نظام المرور ، وتفكير الموظف لواظبنا على العمل الصالح ، ولكننا غرقنا في المادية حتى نسينا الروح وأغفلنا الإيمان ، وأدَّت بنا المادية إلى نكران غد هذه الدنيا أو تجاهله ونسيانه .

لكل شيء غد ، فلهذا اليوم غد نؤمن به وأنه آت لا محالة وإن كان في ضمير الغيب ، وللإنسان غد غير هذا الغد المعروف في الزمن ، ذلك هو

ذريته التي تعقبه فتكون له بمثابة الغد الزمني ، وهذه الدنيا لها غد وهو اليوم الآخر .

فلماذا نؤمن بكل غد إلا غد الدنيا فنستعد له بحواسنا وعقولنا وضمائرنا ونحسب حسابه فنعمل له ، لأن البعث ليس إلا نعمة من نعم الخالق لئلا يضيع إحسان المحسن والمثوبة عليه ، ولئلا تطغى إساءة المسيء وينجو من العقوبة عليها ، وإلا لو لم يكن غد للدنيا لتساوي الخير والشر ، والحق والباطل ، وسادت الرذيلة ، وقد سادت ، وتساوت الأضرار مما يدل على أن الإيمان بالبعث مفقود أو ضعيف لا أثر له في تهذيب النفوس وتربية الضمائر .

إن الإيمان بالبعث حق الإيمان يدفع بصاحبه إلى التماس رضا الله واتقاء سخطه ، وإن من يفقدون هذا الإيمان لا ينتظرون جنة يعماون الصالحات لتكون طريقهم إليها ، ولا يخشون ناراً فيبتعدون عن المحرمات التي تقودهم إليها ، وتبع ذلك التهالك على موبقات الدنيا والاشتغال بالشر والأذى والمنكر ، ولو آمن المسلمون وغير المسلمين بفكرة البعث كما جاء بها الإسلام لما كان للشر والموبقات والرذائل أن تستأسد فتستعبد الناس إلا من رحم الله .

فالإيمان بالبعث جزء من الإيمان بالله ، والكفر بأحدهما كفر بالآخر ، فإذا آمن بالله وكفر بالبعث أو شك فيه فلا قيمة لهذا الإيمان ، وكما أن الإيمان بالله حتمٌ ، فالإيمان بالبعث حتم ، وإن البعث واقع حتمي لابد منه .

﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية ﴾ الحجر : ٨٥ .

و ﴿ إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ المؤمن : ٥٩ .

و ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ الكهف : ٢١ .

و ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ طه : ١٥ .

و ﴿ وإن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ الحج : ٧.

و ﴿ إذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة ان نظنّ إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ الجاثية : ٣٢ .

فاليوم الآخر والبعث والحشر والقيامة مما زخر به القرآن وكثرت آياته وتعددت مشاهده ، وكل ذلك حتم لا بد منه كما يقول القرآن الكريم الذي يؤمن به المسلم .

وصوَّر القرآن الكريم أبلغ تصوير اليوم الآخر ، وسماه أسماء معدودة كثيرة ، فهو يوم الفصل ، ويوم الدين ، ويوم القيامة ، وحسبنا أن نلجأ إلى القرآن لننقل منه بعض مشاهد هذا اليوم ، ففيه الغناء بإيجازه المعجز عن الإسهاب والتطويل .

يقول الله تعالى :

﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفّون أجوركم يوم القيامة ﴾ آل عمران : ١٨٥ .

و﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ الزلزال : ٦ — ٨ .

و ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحْضَراً و ما عملت من سوءٍ تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ آل عمران : ٣٠ .

و ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴾ وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين * هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴾ الصافات : ١٩ — ٢١ .

و ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين ﴾ النمل : ٨٧ .

و ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يَخِصِّمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون * ونُفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسِلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون * فاليوم لا تُظلم نفس شيئاً ولا تُجزَون إلا ما كنتم تعملون ﴾ يس : ٤٨ — ٥٤ .

و ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون * وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون * أفرأيت من اتخذ آلهة هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكَّرون * وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون * وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين * قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ولله ملك السماوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون * وترى كلَّ أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين * وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تُتلَى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين * وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين * وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين * ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزُواً وغرَّتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون * فلله الحمد ربِّ السماوات وربِّ الأرض رب العالمين * وله الكبرياء

في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ الجاثية : ٢١ ـ ٣٧ .

هذا تصوير القرآن البليغ المحكم المعجز للحياة والموت وما بينهما ، والقيامة وأسبابها ونتائجها ، وما يقع فيها من أحداث ، وكل ذلك مقصود منه الإيمان بالله واليوم الآخر والإيمان بكل ما أمر به في كتابه العزيز ، فمن أطاع فله مثوبة الطاعة ، ومن عصى فعليه عقوبة المعصية ، وإذا كانت الدنيا ليست دار الوفاء بالأجور في أكثر الأعمال فإن غدها الذي هو اليوم الآخر هو اليوم الموعود فيه بالوفاء .

ويأبى عدل الله إلا أن يستوفيَ كل امرىء حقه ، ولو عمل مثقال ذرة من خير أو شر ولا يظلم ربك أحداً .

فالقيامة والبعث والنشور والحساب ضرورة حتمية لينال كلٌّ جزاء عمله ، إن خيراً فخير ، وان شراً فشر ، وكل بما كسب رهين .

القَضاءُ والقَدرُ

نظرية القضاء والقدر في الإسلام وفي غيره من المذاهب والأديان كانت ــ وما تزال ــ مثار آراء متباينة وجدل عنيف بين المفكرين حتى اليوم .

وموضوع اليوم الآخر وضرورة إتيانه أدّيا في الإسلام إلى البحث في القضاء والقدر بحثاً خرج بكثير من الناس والفرق عن جادة الإسلام ، وزاغت طوائف وفرق ، وما يزال أمر القضاء والقدر يشغل الذهن البشري ، واتسع مجال الآراء المتناقضة بين المسلمين وبين المفكرين والفلاسفة والشعراء ، وكثرت الأسئلة واختلفت الأجوبة .

كيف قدر الله على المؤمن أن يؤمن ويحسن ويعمل الخير ويجزيه الخير ، وقدر على العاصي المعصية ، وعلى الكافر الكفر ودفعهما إلى المعصية والكفر دفعاً ، ثم يعاقب على ما قدره هو نفسه ؟

إنه أجبر على الفعل حسناً وسيئاً ؛ ففي عمله مع المحسن محاباة ، ومع العاصي أو الكافر مجافاة للعدل وإقرار للظلم ؛ لأنه هو الذي قدر ما قدر ، فأثاب وعاقب ، مع أن المحسن لا فضل له في إحسانه ، والعاصي أو الكافر لا يد لهما في المعصية والكفر ، فكل منهم مجبر على فعل ما فعل ، فالمثوبة ليست عدلاً ، والعقوبة ظلم .

وافترق المسلمون أنفسهم في القضاء والقدر . كما افترق الذين لم يسلموا ، فأهل السنة اتخذوا الطريق القويم ووقفوا موقف الحق في الإيمان بالقضاء والقدر ، وغيرهم رأوا آراء بعدوا فيها عن الحق والرشد والصواب ، وأما غير المسلمين فكانوا مثلهم في اختلاف الآراء .

والخطأ الذي صحب من تنكبوا طريق أهل السنة مرده إلى عدم الدقة في فهم معنى القضاء والقدر ، فقد فهموا منهما معنى الجبر ، وآخرون فهموا منهما الإختيار ، وغمض على بعضهم فجدّف ، وكل فرقة بنت فلسفتها على حسب ما فهمت .

وقبل أن نسير في البحث نذكر أن عصر االصحابة قد خلا من الاشتغال ببحث القدر وما أشبهه ، لأنهم آمنوا بالقرآن ، فصدق بعضه بعضاً عندهم ، ولم يضربوا بعضه ببعض ، ونهى الرسول ﷺ عن مثل ذلك لأنه مضيعة للوقت ، ومدعاة لاضطراب العقيدة أو الخروج عن السنة القويمة .

في كتاب « ذم الكلام وأهله » لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي المتوفى سنة ٤٨١ هـ ما ننقله من كتاب « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » للإمام السيوطي :

« ... وأخرج من طريق عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر ، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم فقال : « يا قوم ، بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به » .

وأخرج عن أبي هريرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمرّ وجهه ، ثم قال : « أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت

إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حتى تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا » .

فالصحابة – رضوان الله عليهم – بحثوا في القدر ، وهو بحث لا يجدي ، ومشغلة في غير إثمار ، فنهاهم الرسول ﷺ فانتهوا .

وفهموا من القضاء والقدر ما تطمئن إليه النفوس فرضوا بما فهموا وسكتوا عن الخوض والتفلسف قانعين بالإيمان والعمل .

سئل ابن تيمية عن « جماعة اختلفوا في قضاء الله وقدره خيره وشره ، منهم من يرى أن الخير من الله تعالى والشر من النفس خاصة » فأجاب :

« مذهب أهل السنة والجماعة أن الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه لا رب غيره ولا خالق سواه ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم ، والعبد مأمور بطاعة الله وطاعة رسوله ، نُهي عن معصية الله ومعصية رسوله ، فإن أطاع كان ذلك نعمة ، وإن عصى كان مستحقاً للذم والعقاب ، وكان لله عليه الحجة البالغة ، ولا حجة لأحد على الله تعالى ، وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ومشيئته وقدرته ،ولكن يحب الطاعة ويأمر بها ويثيب أهلها على فعلها ويكرمهم ، ويبغض المعصية وينهى عنها ويعاقب أهلها ويهينهم .

وما يصيب العبد من النعم فالله أنعم بها عليه ، وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه ، كما قال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ [1] » .

وقال في تعليقه على الحديث الشريف الوارد في صحيح البخاري: « إن

(١) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٨ : ٦٣ – ٦٤ .

الله لما خلق آدم أراه ذريته من اليمين والشمال ، ثم قال : هؤلاء إلى النار ولا أبالي وهؤلاء إلى الجنة ولا أبالي » .

« في موطأ مالك وسنن أبي داود والنسائي وغيره عن مسلم بن يسار ، وفي لفظ عن نعيم بن ربيعة : أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ﴾ الآية ، فقال عمر : عن رسول الله ﷺ – وفي لفظ : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله إذا خلق الرجل للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق الرجل للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » .

« وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » .

« وفي صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال « كان الله ولا شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض » .

« وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ ببقيع الغرقد في جنازة فقال : « ما منكم أحد إلا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » . فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل ؟ فقال : « اعملوا ، فكل ميسَّر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسيُيَسَّر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة » ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق

بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنسيره للعسرى ﴾ .

وفي الصحيح أيضاً : أنه قيل له : يا رسول الله ، أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ فقال : « نعم » فقيل له : ففيم العمل ؟ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

وعلق ابن تيمية على هذه الأحاديث بقوله :

« إن الله سبحانه وتعالى يعلم الأمور على ما هي عليه ، وهو قد جعل للأشياء أسباباً تكون بها ، فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب ، كما يعلم أن هذا يولد له بأن يطأ امرأة فيحبلها ، فلو قال هذا : إذا علم الله أنه يولد لي فلا حاجة إلى الوطء كان أحمق ، لأن الله علم أنه سيكون بما يقدره من الوطء ، وكذلك إذا علم أن هذا ينبت له من الزرع بما يسقيه من الماء ويبذره من الحب ، فلو قال : إذا علم أنه سيكون فلا حاجة إلى البذر كان جاهلا ضالاً ، لأن الله علم أنه سيكون بذلك ، وكذلك إذا علم الله أن هذا يشبع بالأكل ، وهذا يروى بالشرب ، وهذا يموت بالقتل ، فلا بد من الأسباب التي علم الله أن هذه الأمور تكون بها »[1] .

وقنع الصحابة بالقرآن والسنة وما جاء فيهما ، مما يتصل بالقضاء والقدر ، ولم يخوضوا فيه طاعة لأمر رسول الله ﷺ ، ولكن الخوض بدأ في القدر في عهد بني أمية الذي كان فيه بعض الصحابة وكثير من التابعين ، وكان بدء الاختلاف في أمور العقيدة ، وجدّ في صعيدها جديد كان طليعة الخوض الواحل في أمورها بغير ما أنزل الله وبغير ما جاء في السنة .

ودخول أمم كانت تدين بديانات مختلفة أدى إلى انتقال بعض ما فيها من آراء المسلمين ، ولكن عصر الراشدين كان قوياً فلم تستطع أن تبرز الآراء

---

(١) فتاوى ابن تيمية ٨ : ٦٥ — ٦٨ .

الفلسفية ، ففي عهد عمر جيء إليه بسارق أمر بقطع يده ، وسأله : لم سرقت ؟ فأجاب السارق : قضى الله عليّ ، ، فأمر بقطع يده وجلده أسواطاً ، فسئل في ذلك فقال عمر : القطع للسرقة ، والجلد لما كذب على الله .

فالسارق فهم القضاء والقدر على المذهب الجبري ، فهم أن السرقة مكتوبة عليه ، وأنه مجبر على ارتكابها ، ولا يد له فيه ، وأراد بادعائه أن يبعد عن نفسه العقوبة التي لا يستحقها – كما فهم – فحدّه عمر بقطع يده ، وجلده لأنه زعم ما ليس حقاً .

وسطوة عمرو هيبته وشدته وفهمه النصوص القرآنية والأحاديث على سوائها حسب فطرة المسلم لم تدع لمقولات أمثال السارق مجالاً للظهور ، ولكنها كانت موجودة .

وقتْلُ ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه أدى النِّحلَ بعض الحرية .

ويروى [1] أن شيخاً سأل الإمام علياً كرم الله وجهه منصرفه من صفين قائلاً : أخبرنا عن سيرنا إلى الشام ، أكان بقضاء الله وقدره ؟ فقال علي : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا وادياً ولا علونا تلعة إلا بقضاء وقدر ، فقال الشيخ : عند الله أحتسب عنائي ، ما لي من الأجر شيء ! فقال : بل أيها الشيخ ، عظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون ، وفي منقلبكم وأنتم منقلبون ، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين . فقال الشيخ : وكيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا ، وعنهما كان مسيرنا ؟ فقال علي رضي الله عنه : لعلك تظن قضاء واجباً وقدراً حتماً ، لو كان لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد ، ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا مَحْمَدة لمحسن ، تلك مقالة إخوان الشياطين وعَبَدة الأوثان

---

(١) للذهبي ٦ : ٣٣٥ طبعة حيدر أباد .

وخصماء الرحمن وشهود الزور وأهل العماء عن الصواب في الأمور ، هم قدرية هذه الأمة ومجوسها ، إن الله تعالى أمر تخييراً ونهى تحذيراً ، ولم يكلف مجبراً ، ولا بعث الأنبياء عبثاً ﴿ ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ فقال الشيخ : وما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا ؟ فقال : أمر الله وإرادته بذلك ، ثم تلا : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ فنهض الشيخ مسروراً بما سمع .

ولهاتين الحادثتين إشارة إلى أن فهم القضاء والقدر خرج عن الإدراك الإسلامي السليم الذي كان في عصر الرسول ﷺ ، وكلما بعد بالناس عهد النبوة قربوا من التكلم في مثل هذه الأمور حتى كثير منهم خرجوا عن السبيل السوي وحتى ضلوا عنه ، وكفروا ، ونسبوا إلى الله من الصفات ما لا يتفق مع الحق ، فنسبوا إليه الظلم ونسبوا إليه المحاباة ، ونسبوا إليه ما لا يليق بجلال الله وكمال صفاته وأعماله إلا من عصمهم الله من أهل السنة والجماعة .

وفي خلافة الإمام علي وتفرق كلمة المسلمين ظهرت فرقة الخوارج والشيعة ثم ظهرت فرقة المرجئة ، ثم توالى ظهور الفرق المبتدعة والضالة والكافرة والملحدة .

وفي « لسان الميزان [1] » في ترجمة يونس الأسواري أنه « أول من تكلم بالقدر ، وكان بالبصرة ، فأخذ عنه معبد الجهني ، ذكره الكعبي في طبقات المعتزلة ، وذكر أنه كان يلقب بسيبويه » يقال : إن اسمه سويس ، وقيل : سنسويه .

وكان الأسواري في آخر عهد الصحابة ، وهو نصراني من أهل العراق أظهر الإسلام ، ثم عاد إلى نصرانيته ، وتتلمذ عليه معبد بن عبد الله الجهني [2]

(١) للذهبي ٦ : ٣٣٥ طبعة حيدر أباد .
(٢) اختلفت الأقوال في اسم أبيه وجده وقيل : انه معبد بن خالد بن حكيم (أو عكيم أو عليم) أو معبد بن عبيد الله بن عويمر ومعبد بن عبد الله بن عويم .

وغيلان الدمشقي [١] واعتنقا قالته في القدر ، ولكن معبداً هو الذي صحب الأسواري وأخذ عنه ، وعن معبد أخذ غيلان .

ومعبد هذا أول من ابتدع القول في القدر في الإسلام ، وتحدث به في مدينة الرسول ﷺ ، وأفسد عقيدة من خدعهم زخرف قوله وخلابة منطقه وحججه ، وانتهى به أمره إلى أن قتله عبد الملك بن مروان سنة ثمانين وصلبه بدمشق .

وكان غيلان الدمشقي — تلميذ معبد — يزعم أن القدر خيره وشره من الإنسان . وقتله — على رواية هشام بن عبد الملك — سنة ثمانين بأن قطع يديه ورجليه ثم جزَّ رأسه .

وكان من بقي من الصحابة الأجلاء مثل عبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن عباس ، وأنس بن مالك ، وعبد الله ابن أبي أوفى ، وعقبة بن عامر الجهني وغيرهم يتبرأون من معبد وغيلان والجَعْد بن درهم ، وكانوا يوصون الناس بألا يسلّموا عليهم وعلى القدرية عامة ، وألا يصلّوا على جنائزهم ، ولا يعودوا مرضاهم [٢] . ويروى أن مسلم ابن يسار كان يجلس إلى سارية بالمسجد النبوي الشريف ويقول محذراً الناس: إن معبداً يقول بقول النصارى .

ومذهب هؤلاء قائم على الحرية المطلقة والاختيار المطلق من قبل العبد ، وهو نقيض الجبر الذي يجعل العبد مجبراً لا إرادة له ولا اختيار .

---

(١) غيلان بن أبي غيلان وهو غيلان بن مسلم (أو غيلان بن مروان) الدمشقي ، في القدر ضال ، ومن بلغاء الكتاب ، كان من أصحاب الحارث الكذاب المؤمنين بنبوته ، يزعم أن زوجة الحارث بن سريج المتنبي الكذاب أم المؤمنين ، وكان قدرياً زنديقاً (لسان الميزان ٤ : ٤٢٤) .

(٢) كتاب الفرق بين الفرق تأليف أبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، مطبعة المعارف ، تحقيق محمد بدر .

وليس يسيراً علينا أن نُلم بالفرق التي افترقت . وذهبت مذاهب مختلفة في مسألة القضاء والقدر ، لكي نلم بأعظمها نكتفي ببضع فرق نوجز القول في مذاهبها التي لا تتفق مع مذهب أهل السنة والجماعة ، ومذهب الشيعة الامامية المتفق مع أهل السنة .

القدرية والمعتزلة

نبدأ بالقدرية لأنهم أسبق من الجبرية كمذهب ذي أتباع ، وقد مـــرت الإشارة إلى مولد المذهب وأساسه ، وإلى أئمتهم معبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم .

والقدرية ليسوا كما يفهم منها أنهم يقولون بالجبر ، بل هم الذين يقولون بالاختيار المطلق مع القدر ، وكيف يسوغ أن يسموا هذه التسمية وهم ينفون القدر ، وقيل في تعليل ذلك : إن الاسم نسبة لنقيض ما يذهبون إليه من القول ، وقيل : إنهم نفوا القدر عن الله وأثبتوه للعبد ، وقيل غير ذلك ، ويسمى المعتزلة قدرية ، لأن قولهم في القدر هو قول القدرية ، ولكن لهم آراء أخرى جديدة زادوا بها على القدرية في غير مسألة القضاء والقدر .

وإذا كان السابقون إلى القول بالقدر هم معبد وغيلان والجعد فإن أئمة المعتزلة مثل واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد حذوا حذوهم[1] وكلهم متفقون في مسألة القضاء والقدر ، ويدعون أنهم إنما ينفون عن الله الظلم بما يذهبون

---

(١) سمي المعتزلة قدرية لأنهم أخذوا القول بنفي القدر فعلق بهم ، ويعد المعتزلة غيلان الدمشقي واحداً منهم ، وابن قتيبة الدينوري وأبو منصور وعبد القاهر البغدادي وغيرهم لا يفرقون بينهمـــا .

إليه من القول ، فالعبد – عندهم – حر في فعله سواء أكان خيراً أم شراً ، وله الاختيار المطلق ، وتعالى الله أن يجبر العبد على الشر ثم يعاقبه عليه ، وهذا ظلم لأنه يجزيه على فعل ليس فعله ، و تعالى الله عز وجل عن الظلم ، لأن للعبد الحرية المطلقة في الفعل الذي يريد ، وله الاختيار التام فيما يشاء .

وتقول القدرية والمعتزلة في ادعاء نفي الظلم عن الله : أيخلق الله أفعال العباد ويقدرها لهم ثم يعاقبهم عليها ؟ أليس من أجبر غيره على معصية ثم عذبه عليها كان ظالماً ؟ ومن أعان فاعلاً على فعل الظلم ثم جازاه عليه كان جائراً؟[1] .

وهم بذلك يردون على أهل السنة وعلى الجبرية ، ولا يقولون : إن الله خالق أفعال العباد لينفوا عنه الظلم كما يعتقدون ، ويثبتون القدر للإنسان حتى يحاسب ، ويزعمون : أن العبد إذا لم يكن قادراً على فعل ما يفعل وترك ما لا يريد أن يفعله لما كان موضع التكليف ، فالمكلف يجب أن يكون حراً مطلق الحرية مختاراً تام الاختيار حتى يكون أهلاً للتكليف ، وإلا بطل التكليف ، ويتبعه بطلان العقوبة والمثوبة ،لأن مسلوب الإرادة والحرية والاختيار لا يحاسب، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، فما كان في قدرته من الأفعال هو الذي يكلف به ، وما كان خارجها فهو غير مكلف به ، مثل الحركة الإرادية وغير الإرادية ، فالحركة الإرادية كالسير والأكل وفعل ما يقدر عليه هي التي تجعله موضع التكليف ، وغير الإرادية مثل الارتفاع بجسمه من غير رافع أمر لا يدخل في مدار التكليف .

والقدرية والمعتزلة مجمعون على نفي الظلم عن الله عز وجل ، ولهذا قالوا بنفي القدر عن الله وإثباته للعبد ، ولكنهم اختلفوا في قدرته على فعل الظلم ، فإبراهيم النظام ذهب دون أصحاب المذهب جميعاً إلى نفي استطاعة الله فعل الشر ، وعدم قدرته على ظلم أحد أصلاً ، لأن فاعل العدل لا يستطيع أن يوصف بقدرته على فعل الظلم ، ولم يوافقه المعتزلة وبخاصة معتزلة البصرة

---

(١) ابن حزم .

على زعمه إذ أخذوا بقول أبي الهذيل : إن الله قادر على فعل الظلم ولكنه لا يفعله لحكمته ورحمته، ولأن الظلم ناجم عن النقص، ولا يجوز النقص على الله تعالى ، ولأن القدرة تقوم على النقيضين ، على الفعل وعلى ضده ، فلا يقدر أن يفعل العدل من لا يقدر على الجور .

وكان معتزلة البصرة قبل أن يتبعوا أبا الهذيل يأخذون برأي واصل بن عطاء في جواز وقوع الشر من الله تعالى كالمرض والقحط والنوازل ، لأن هذه شر على المجاز ، إلا أن عباد بن سليمان أنكر عليهم هذا القول فأنكر أن يخلق الله شيئاً من الشر أصلاً ولو كان من نوع المرض والقحط والعقوبات، وإن كان متفقاً معهم على أن الله قادر على الشر ولكنه لا يفعله (١) .

ولكن هذا الخلاف لا ينقض إجماع القدرية والمعتزلة منهم في هذا الأمر على نفي الظلم عن الله وإثبات العدل له ، فالله عادل لا يفعل الظلم ولا يظلم عباده ، وإنما يريد لهم الخير ، وهذا ما دفعهم إلى نفي القدر ، وقالوا : إن العبد حر في اختيار أفعاله فهو مسئول عنها .

ومن هنا وصف المعتزلة أنفسهم بأنهم أهل العدل والتوحيد ، بسبب نفي الظلم عن الله وإثباتهم العدل له ، وللوحدانية التي ذهبوا إليها بعد أن زعموا أن الناس هم الذين يقدرون أعمالهم وأن الله تعالى ليس له فيها صنع ولا تقدير (٢) .

ويستدلون في تأييد دعاواهم بآيات من القرآن الكريم منها :

﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ فصلت : ٤٦ .

و ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ المؤمن : ٣٣ .

---

(١) راجع الانتصار « لابن الخياط المعتزلي طبع القاهرة ١٣٤٤ و «الملل والنحل» للشهرستاني و « الابانة في أصول الديانة » و « مقالات الإسلاميين » لأبي الحسن الأشعري، الأول طبع حيدر آباد ، والثاني طبع الآستانة .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي.

و ﴿ فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ التوبة: ٧١ .

و ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ يونس: ٤٥.

و ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ الزمر : ٩ .

و ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ .

و ﴿ اليوم لا تُظلم نفسٌ شيئاً ولا تجزون إلّا ما كنتم تعملون ﴾ .

و ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيِّراً نعمة على قوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم﴾ .

و ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ الطور : ١٩ .

و ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوْفى ﴾ النجم : ٣٩ — ٤١ .

وعندما يجدون آيات بينات تنقض مذهبهم يلجأون إلى التأويل، ويتقولون على كتاب الله تقويلاً ، وإذ رأوا أحاديث صريحة تثبت رأي أهل السنة والجماعة كذبوها وطعنوا سندها ، فهم يكذبون الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود في الحديث الشريف : « الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه » . واتهم النظام — قبحه الله — ابن مسعود رضي الله عنه أنه كذب على رسول الله ﷺ ، وزعموا مثل هذه الزعمات كثيراً .

وعلى سبيل المثال في الإنكار والتأويل اللذين فسروا بهما القرآن وسوء الفهم والتخريج ننقل رأي هشام بن عمرو الفوطي المعتزلي .

يقول البغدادي في كتابه « الفرْق بين الفرَق » ص ١٤٥ — ١٤٧ :

« ... هشام بن عمرو الفوطي وفضائحه بعد ضلالته بالقدر تترى ، منها أنه حرم على الناس أن يقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل من جهة تسميته بالوكيل ، وقد نطق القرآن بهذا الاسم لله تعالى ، وذكر ذلك في السنة الواردة في تسعة وتسعين اسماً من الله تعالى .

« فإذا لم يجز إطلاق هذا الاسم على الله تعالى مع نزول القرآن به ومع ورود السنة الصحيحة به فأي اسم بعده يطلق عليه .

« وقد كان أصحابنا يتعجبون من المعتزلة البصرية في إطلاقها على الله عز وجل من الأسماء ما لم يذكر في القرآن والسنة إذا دل عليه القياس ، وزاد هذا التعجب بمنع الفوطي عن إطلاق الله تعالى بما نطق به القرآن والسنة .

« واعتذر الخياط عن الفوطي بأن قال : إن هشاماً كان يقول : حسبنا الله ونعم المتوكِّل عليه بدلاً من الوكيل ، وزعم أن وكيلاً يقتضي موكلاً فوقه .

« وهذا من علامات جهل هشام والمعتذر عنه بمعاني الأسماء في اللغة ،وذلك أن الوكيل في اللغة بمعنى الكافي ، لأنه يكفي موكله أمر ما وكله فيه، وهذا معنى قولهم : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ومعنى حسبنا كافينا ، وواجب أن يكون نِعْمَ موافقاً لما قبله ، كقول القائل: الله رازقنا ونعم الرزاق، ولا يقال: الله رازقنا ونعم الغافر ، ولأن الله تعالى قال : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ (1) أي كافيه .

« وقد يكون الوكيل أيضاً بمعنى الحفيظ ، ومنه قوله تعالى : ﴿قل لست عليكم بوكيل ﴾ (2) . أي حفيظ .

« ويقال في نقيض الحفيظ : رجل وَكْل و وَكِل ، أي بليد ، والوكال: البلادة .

« وإذا كان الوكيل بمعنى الحفيظ ـ وكان الله عز وجل كافياً وحفيظاً لم يكن للمنع من إطلاق الوكيل في أسمائه معنى .

« والعجب من هشام في أنه أجاز أن يكتب لله عز وجل هذا الاسم وأن

---

(1) الطلاق : ٣ .
(2) الأنعام : ٦٦ .

يقرأ به القرآن ولم يجز أن يدعى به في غير قراءة القرآن .

« الفضيحة الثانية من فضائح الفوطي : إمتناعه عن إطلاق كثير مما نطق به القرآن فمنع الناس من أن يقولوا : إن الله تعالى عز وجل ألّف بين قلوب المؤمنين وأضل الفاسقين .

« وهذا عناد منه لقول الله عز وجل ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ [1] . ولقوله تعالى : ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ [2] وقوله : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين [3] ﴾ .

« ومنع أن يقول في القرآن : إنه عمىً على الكافرين عُبادُ بن سليمان العمري في هذه الضلالة فمنع الناس أن يقولوا : إن الله تعالى خلق الكافر ، لأن الكافر إسم لشيئين : إنسان وكفره ، وهو غير خالق لكفره عنده .

« ويلزمه على هــذا القياس ألا يقول : إن الله تعالى خلق المؤمن ، لأن المؤمن اسم لشيئين : إنسان وإيمان ، والله عنده غير خالق لإيمانه .

« ويلزمه على قياس هذا الأصل ألا يقول : إن أحداً قتل كافراً أو ضربه ، لأن الكافر اسم للإنسان وكفره ، والكفر لا يكون مقتولاً ولا مضروباً .

« ومنع عبّاد من أن يقال : إن الله تعالى ثالث كل اثنين ، ورابع كل ثلاثة .

« وهذا عناد منه لقول الله عز وجل : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾ المجادلة : ٧ .

« وكان يمنع أن يقال : إن الله عز وجل أملى للكافرين .

---

(١) الأنفال : ٦٣ .
(٢) ابراهيم : ٢٧ .
(٣) البقرة : ٢٧ .

« وفي هذا عناد منه لقوله عز وجل : ﴿ انما نُملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ آل عمران : ١٧٩ .

« فإن كان عُباد قد أخذ هذه الضلالة عن أستاذه هشام فالعصا من العصية، ولن تلد الحيـة إلا الحية .

« وإن انفرد بها دونه فقد قاس التلميذ ما منع من إطلاقه على ما منع أستاذه من إطلاق اسم الوكيل والكفيل على الله تعالى » .

ولم يقف الأمر بالمعتزلة عند هذا الحد، بل تجاوزه متأخرتهم إلى الديانات الأخرى والفلسفة اليونانية ، فكان في نظريتهم من اللاهوت المسيحي ، ولكننا لسنا بصدد هذا الموضوع ، ولهذا نتركه إلى الفلسفة اليونانية التي تأثروا بها في مسألة القدر مغفِلين ما سواها ، لأن بحثنا – هنا – خاص بالقدر .

فالمعتزلة تأثروا بفلسفة أرسطو في القدر وأخذوا نظريته وطبقوها على ما يرود من أمور العقيدة فيما يتعلق بفعل الخالق وفعل المخلوق ، فأرسطو يرى أن الله خير محض أو أنه « علة الخير في العالم، فإننا نرى كل شيء منظماً في ذاته، ونرى الأشياء منتظمة فيما بينها،وكما أن خير الجيش نظامه،وأن القائد خيره أيضاً وبدرجة أعظم لأنه علة النظام ، فكذلك للعالم غاية ذاتية هي نظامه ، وغاية خارجية هي المحرك الأول علة النظام »[1] . فالله ليس مطلق التصرف يفعل ما يريد ، بل الأمر أمر نظام لا يمكن الله أن يخالفه ، فترك العالم يدور على نفسه ، والأشياء كلها تكون وتفسد دون إرادة الله لها .

فإذا كان أرسطو قد عزل الله وجعله بعيداً عن خلقه فإن المعتزلة قد فرقوا فعل الله ، إذ ذهبوا إلى أن الله لا يفعل إلا الخير ومحال عليه فعل الشر ، ولا يقدر أن يفعل الشر أصلاً – على حسب قول النظام – وعزلوا الله عن خلقه

---

(١) كتاب « ما بعد الطبيعة » لأرسطو ، ترجم هذه الجملة المستشهد بها الأستاذ يوسف كرم في كتابه « تاريخ الفلسفة اليونانية » .

أيضاً ، إذ جعلوا إرادة الإنسان وعمله وحريته واختياره بمعزل عن القضاء والقدر ، ويجردونه من بعض صفاته ، ويحصرون سلطانه بحجة تنزيههم الله عز وجل .

وإذا كان متأخرة المعتزلة قد أخذوا برأي أرسطو في الله وفي الكون فقد فاتهم أنهم بذهابهم إلى التكليف والجزاء ثواباً وعقاباً نقضوا رأي أرسطو .

* * *

والخلاف كبير بين أهل السنة والقدرية التي يدخل فيها المعتزلة ، وكل فرقة ترد على الأخرى ، وفي الحوار الذي ذكره ابن القيم رحمه الله في كتابه « شفاء العليل » بين قدري وسني يمثل وجهتي النظر المختلفتين المتناقضتين ، فمن أراد أن يحيط به فليعد إلى الكتاب (١) .

قال القدري : قد أضاف الله الأعمال إلى العباد بأنواع الإضافة العامة والخاصة ، فأضافها إليهم بالاستطاعة تارة كقوله : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات ﴾ وبالمشيئة كقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ وبالإدارة تارة كقول الخضر : ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ وبالفعل والكسب والصنع كقوله : ﴿ يفعلون . يعملون . بما كنتم تكسبون . لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ .

وأما بالإضافة الخاصة فكإضافة الصلاة والصيام والحج والطهارة والزنا والسرقة والقتل والكذب والكفر والفسوق وسائر أفعالهم إليهم ، وهذه الإضافة تمتنع إضافتها إليه ، كما أن إضافة أفعاله تعالى تمتنع إضافتها إليهم فلا تجوز إضافة أفعالهم إليه سبحانه دونهم ولا إليه معهم ، فهي إذاً مضافة إليهم دونه .

قال السني : هذا الكلام مشتمل على حق وباطل ، أما قولك : إنه أضاف

---

(١) يشغل الحوار الصفحات المبتدئة برقم ٢١٣ إلى ٢٤٧ بحرف دقيق من « شفاء العليل » .

الأفعال إليهم فحق لا ريب فيه ، وهذا حجة لك على خصومك من الجبرية ، وهم يجيبونك بأن هذا الإسناد لا حقيقة له ، وإنما هو نسبة مجازية صححها قيام الأفعال بهم ، كما يقال : جرى الماء وبرد وسخن ، ومات زيد .

ونحن نساعدك على بطلان هذا الجواب ومنافاته للعقول والشرائع والفطر ولكن قولك هذه الإضافة تمنع إضافتها إليه سبحانه كلام فيه إجمال وتلبيس ، فإن أردت بمنع الإضافة إليه منع قيامها به ووصفه بها وجريان أحكامها عليه واشتقاق الأسماء له فنعم ، هي غير مضافة إليه بشيء من هذه الاعتبارات والوجوه ، وإن أردت بعدم إضافتها إليه عدم إضافتها إلى عمله بها وقدرته عليها ومشيئته العامة وخلقه فهذا باطل ، فإنها معلومة له سبحانه مقدورة له مخلوقة ، وإضافتها إليهم لا تمنع هذه الإضافة كالأموال فإنها مخلوقة له سبحانه وهي ملكه حقيقة قد أضافها إليهم .

فالأعمال والأموال خلقه وملكه ، وهو سبحانه يضيفها إلى عبيده ، وهو الذي جعلهم مالكيها وعامليها ، فصحت النسبتان ، وحصول الأموال بكسبهم وإرادتهم كحصول الأعمال ، وهو الذي خلق الأموال وكاسبيها والأعمال وعامليها ، فأموالهم وأعمالهم ملكه وبيده ، كما أن أسماعهم وأبصارهم وأنفسهم ملكه وبيده ، فهو الذي جعلهم يسمعون ويبصرون ويعملون فأعطاهم حاسة السمع والبصر وقوة السمع والبصر وفعل الإسماع والإبصار ، وأعطاهم آلة العمل وقوة العمل ونفس العمل فنسبة قوة العمل إلى اليد والكلام إلى اللسان كنسبة قوة السمع إلى الأذن والبصر إلى العين ونسبة الرؤية والسمع اختياراً إلى محلهما كنسبة الكلام والبطش إلى محلهما ، وإن كانوا هم الذين خلقوا لأنفسهم الرؤية والسمع فهل خلقوا محلهما وقوّى المحل والأسباب الكثيرة التي تصلح معها الرؤية والسمع لهم أم الكل خلْق من هو خالق كل شيء وهو الواحد القهار .

قال القدري : لو كان الله سبحانه هو الفاعل لأفعالهم لاشتقّت له منها الأسماء ، وكان أولى بأسمائها منهم ، إذ لا يعقل الناس على اختلاف لغاتهم

وعاداتهم ودياناتهم قائماً إلا من فعل القيام، وآكلاً إلا من فعل الأكل، وسارقاً إلا من فعل السرقة ، وهكذا جميع الأفعال لازمها ومتعديها فقلبتم أنتم الأمر وقلبتم الحقائق ، فقلتم : من فعل هذه الأفعال حقيقة لا يشتق له منها اسم ، وإنما يشتق منها الأسماء لمن يفعلها ولم يحدثها ، وهذا خلاف العقول واللغات وما تتعارفه الأمم . .

قال السني : هذا إنما يلزم إخوانك وخصومك الجبرية القائلين بأن العبد لم يفعل شيئاً البتة ، وأما من قال : العبد فاعل لفعله حقيقة والله خالقه وخالق آلات فعله الظاهرة والباطنة فإنه إنما يشتق الأسماء لمن فعل تلك الأفعال ، فهو القائم والقاعد والمصلي والسارق والزاني حقيقة ، فإن الفعل إذا قام بالفاعل عاد حكمه إليه ولم يعد إلى غيره، واشتق له منه اسم، ولم يشتق لمن لم يقم به ، فههنا أربعة أمور : أمران معنويان في الفهم والإثبات ، وأمران لفظيان فيهما ، فلما قام الأكل والشرب والزنا والسرقة بالعبد عادت أحكام هذه الأفعال إليه واشتقت له منها الأسماء ، وامتنع عوْد أحكامها إلى الرب واشتقاق أسمائها له ، ولكن من أين يمنع هذا أن تكون معلومة للرب سبحانه مقدورة له مكونة له واقعة من العباد بقدرة ربهم وتكوينه .

قال القدري : لو كان خالقاً لها للزمته هذه الأمور .

قال السني : هذا باطل ودعوى كاذبة ، فإنه سبحانه لا يشتق له اسم مما خلقه في غيره ولا يعود حكمه عليه ، وإنما يشتق الاسم لمن قام به ذلك ، فإنه سبحانه خلق الألوان والطعوم والروائح والحركات في محالها ولم يشتق له منها اسم ولا عادت أحكامها إليه ومعنى عوْد الحكم إلى المحل الإخبار عنه بأنه يقوم ويقعد ويأكل ويشرب .

قال القدري : فالآن حمي الوطيس ، فأنت والمسلمون وسائر الخلق تسمونه تعالى خالقاً ورازقاً ومميتاً ، والخلق والرزق والموت قائم بالمخلوق والمرزوق والميت ، إذ لو قام ذلك بالرب سبحانه فالخلق إما قديم وإما حادث ،

فإن كان قديماً لزم قدم المخلوق لأنه نسبة بين الخالق والمخلوق ، ويلزم من كونها قديمة قدم المصحح لها ، وإن كان حادثاً لزم قيام الحوادث به ، وافتقر ذلك الخلق إلى خلق آخر فلزم التسلسل ، فثبت أن الخلق غير قائم به سبحانه وقد اشتق له منه اسم .

قال السني : أي لازم من هذه اللوازم التزمه المرء كان خيراً من أن ينفي صفة الخالقية عن الرب سبحانه ، فإن حقيقة هذا القول : إنه غير خالق، فإن إثبات خالق بلا خلق إثبات اسم لا معنى له ، وهو كإثبات سميع لا سمع له وبصير لا بصر له ومتكلم وقادر لا كلام له ولا قدرة . فتعطيل الرب سبحانه عن فعله القائم به كتعطيله عن صفاته القائمة به .

وقد أجاب عن هذا عبد العزيز بن يحيى الكناني في حيدته فقال في سؤاله للمريسي : بأي شيء حدثت الأشياء ؟ فقال له : أحدثها الله بقدرته التي لم تزل ، فقلت له : أحدثها بقدرته كما ذكرت أو ليس تقول إنه لم يزل قادراً؟ قال : بلى ، قلت : فتقول إنه لم يزل يفعل ، قال : لا أقول هذا . قلت : فلا بد أن نلزمك أن تقول إنه خلق بالفعل الذي كان بالقدرة، لأن القدرة صفة.

ثم قال عبد العزيز : لم أقل لم يزل الخالق يخلق ، ولم يزل الفاعل يفعل ، وإنما الفعل صفة ، والله يقدر عليه ولا يمنعه منه مانع ، فأثبت عبد العزيز فعلاً مقدور الله هو صفة ليس من المخلوقات ، وأنه به خلق المخلوقات .

وهذا صريح في أن مذهبه كمذهب السلف وأهل الحديث ، لأن الخلق غير المخلوق ، والفعل غير المفعول كما حكاه البغوي إجماعاً لأهل السنة .

وقد صرح عبد العزيز أن فعله سبحانه القائم به ، وأنه خلق به المخلوقات كما صرح به البخاري في آخر صحيحه ، وفي كتاب خلق الأفعال قال في صحيحه : باب ما جاء في خلق السموات والأرض وغيرها من الخلائق وفعل الرب وأمره ، فالرب سبحانه بصفاته وفعله وأمره وكلامه هو الخالق المكون غير مخلوق ، وما كان بفعله وأمره وخلقه وتكوينه فهو مفعول مخلوق مكوّن .

فصرح امام السنة أن صفة الخلق هي فعل الرب وأمره وأنه خالق بفعله وكلامه.

وجميع جند الرسول وحزبه مع محمد بن إسماعيل في هذا ، والقرآن مملوء من الدلالة عليه كما دل عليه العقل والفطرة .

قال تعالى: ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ ثم أجاب نفسه بقوله : ﴿ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ فأخبر أنه قادر على نفس فعله ، وهو أن يخلق ، فنفس أن يخلق فعل له ، وهو قادر عليه ، ومن يقول لا فعل له وأن الفعل هو عين المفعول يقول لا يقدر على فعل يقوم به البتة ، بل لا يقدر إلا على المفعول المباين له الحادث بغير فعل منه سبحانه .

وهذا أبلغ في الإحالة من حدوثه بغير قدرة ، بل هو في الإحالة كحدوثه بغير فاعل ، فإن المفعول يدل على قدرة الفاعل باللزوم العقلي ، ويدل على فعله الذي وجد به بالتضمن ، فإذا سلبت دلالته التضمنية كان سلب دلالته اللزومية أسهل ، ودلالة المفعول على فاعله وفعله دلالة واحدة ، وهي أظهر بكثير من دلالته على قدرته وإرادته .

وذكر قدرة الرب سبحانه على أفعاله وتكوينه في القرآن كثير كقوله : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ وأن يبعث هو نفس فعله ، والعذاب هو مفعوله المباين له ، وكذلك قوله : ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ فإحياء الموتى نفس فعله ، وحياتهم مفعوله المباين له ، وكلاهما مقدور له ، وقال تعالى : ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ فتسوية البنان فعله ، واستواؤها مفعوله ،.

ومنكرو الأفعال يقولون : إن الرب سبحانه يقدر على المفعولات المباينة له ، ولا يقدر على فعل يقوم بنفسه لا لازم متعد ، وأهل السنة يقولون: الرب سبحانه يقدر على هذا وعلى هذا هو سبحانه له الخلق والأمر .

قال القدري : كون العبد موجداً لأفعاله وهو الفاعل لها من أجلى

الضروريات والبديهيات ، فإن كل عاقل يعلم من نفسه أنه فاعل لما يصدر منه من الأفعال الو اقعة على وفق قصده وداعيته، بخلاف حركة المرتعش والمجرور على وجهه ، وهذا لا يتمارى فيه العاقل ولا يقبل التشكيك ، والقدح في ذلك والاستدلال على خلافه استدلال على بطلان ما علمت صحته بالضرورة فلا يكون مقبولا .

قال السني : قد أجابك خصومك من الجبرية عن هذا بأن العاقل يعلم من نفسه وقوع الفعل مقارناً لقدرته ، ولا يعلم من نفسه أنه واقع بقدرته ، والفرق بين الأمرين ظاهر ، ولو كان وقوعه بقدرته هو المعلوم بالضرورة لما خالف فيه جمع عظيم من العقلاء يستحيل عليهم الاطباق على جحد الضروريات ، وهذا الجواب مما لا يشفي عليلاً ولا يروي غليلاً ، وهو عبارات لا حاصل تحتها ، فإن كل عاقل يجد من نفسه وقوع الفعل بقدرته وإرادته وداعيته فإن ذلك هو المؤثر في الفعل ، ويجد تفرقة ضرورية بين مقارنة القدرة والداعية للفعل ومقارنة طوله ولونه وشمه وغير ذلك من صفاته للفعل ، ونسبة ذلك كله عند الجبري إلى الفعل نسبة واحدة ، والله سبحانه أجرى العادة بخلق الفعل عند القدرة والداعي لأيهما وإنما اقترن الداعي والقدرة بالفعل اقتراناً مجرداً .

ومعلوم أن هذا قدح في الضروريات ، ولا ريب أن من نظر إلى تصرفات العقلاء ومعاملاتهم مع بعضهم بعضاً وجدهم يطلبون الفعل من غيرهم طلب عالم بالاضطرار أن المطلوب منه الفعل هو المحصل له الواقع بقدرته وإرادته ، ولذلك يتلطفون لوقوع الفعل منه بكل لطيفة ، ويحتالون عليه بكل حيلة فيعطونه تارة ويزجرونه تارة ، ويخوفونه تارة ، ويتوصلون إلى إخراج الفعل منه بأنواع الرغبة والرهبة ويقولون قد فعل فلان كذا فما لك لا تفعل كما فعل، وهذا أمر مشاهد بالحس والضرورة ، فالعقلاء ساكنو الأنفس إلّا أن الفعل من العبد يقع وبه يحصل ، ولو حرك أحدهم أصبعه فشتمت المحرك لها لغضب

وشتمك ، وقال : كيف تشتمني ولم يقل لم تشتم ربي وهذا أوضح من أن يضرب له الأمثال أو يبسط فيه المقال ، وما يعرض في ذلك من الشبه جار مجرى السفسطة وقد فطر الله العقلاء على ذم فاعل الإساءة ومدح فاعل الإحسان، وهذا يدل على أنهم مفطورون على العلم بأنه فاعل ، لأن الذم فرع عليه، ويستحيل أن يكون الفرع معلوماً باضطرار والأصل ليس كذلك .

قال القدري : قال الله سبحانه ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ وعند الجبري أن الكل فعل الله وليس من العبد بشيء ، قال الجبري : في الكلام استفهام مقدر تقديره أفمن نفسك فهو إنكار لا إثبات ، وقرأها بعضهم فمن نفسك بفتح الميم ورفع نفسك أي من أنت حتى تفعلها، قال: ولا بد من تأويل الآية،وإلا ناقض قوله في الآية التي قبلها: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله ﴾ فأخبر أن الحسنات والسيئات جميعاً من عنده لا من عند العبد .

قال السني : فليس لك أيها القدري أن تحتج بالآية التي نحن فيها لمذهبك لوجوه : أحدها أنك تقول فعل العبد حسنة كان أو سيئة هو منه لا من الله ، بل الله سبحانه قد أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات والسيئات ، ولكن هذا حدث من عند نفسه إرادة فعل بها الحسنات ، وهذا أحدث إرادة فعل بها السيئات ، وليست واحدة من الإرادتين من أحداث الرب سبحانه ألبتة ولا أوجبتها مشيئته ، والآية قد فرقت بين الحسنة والسيئة وأنتم لا تفرقون بينهما فإن الله عندكم لم يشأ هذا ولا هذا .

قال القدري : إضافة السيئة إلى نفس العبد لكونه هو الذي أحدثها وأوجدها ، وأضاف الحسنة إليه سبحانه لكونه هو الذي أمر بها وشرعها .

قال السني : الله سبحانه أضاف إلى العبد ما أصابه من سيئة وأضاف

إلى نفسه ما أصاب العبد من حسنة ، ومعلوم أن الذي أصاب العبد هو الذي قام به ، والأمر لم يقم بالعبد وإنما قام به المأمور وهو الذي أصابه ، فالذي أصابه لا تصح اضافته إلى الرب عندكم والمضاف إلى الرب لم يقم بالعبد فعلم أن الذي أصابه من هذا وهذا أمر قائم به ، فلو كان المراد به الأفعال الاختيارية من الطاعات والمعاصي لاستوت الإضافة ولم يصبح الفرق وإن افترقا في كون أحدهما مأموراً به والآخر منهياً عنه على أن النهي أيضاً من الله كما أن الأمر منه ، فلو كانت الإضافة لأجل الأمر لاستوى المأمور والمنهي في الإضافة ، لأن هذا مطلوب إيجاده وهذا مطلوب إعدامه .

قال القدري : أنا أجوز تعلق الطاعة والمعصية بمشيئة الرب سبحانه واحداثه على وجه الجزاء لا على سبيل الابتداء ، وذلك أن الله سبحانه يعاقب عبده بما شاء ويثيبه ، فكما يعاقبه يخلق الجزاء الذي يسوءه ، وخلق الثواب الذي يسره ، ولذلك يحسن أن يعاقبه بخلق المعصية وخلق الطاعة فإن هذا يكون عدلاً منه ، وأما أن يخلق فيه الكفر والمعصية إبتداء بلا سبب فمعاذ الله من ذلك.

قال السني : هذا توسط حسن جداً لا يأباه العقل ولا الشرع ، ولكن من ابتدأ الأول وليس هو عندك مقدوراً لله واقعاً بمشيئته فقد أثبت في ملكه ما لا يقدر عليه وأدخلت فيه مالا يشاء ونقضت أصلك كله فإنك أصّلت أن فعل العبد الاختياري قدرة العبد عليه واختياره له ومشيئته تمنع قدرة الرب عليه ومشيئته له ، وهذا الأصل لا فرق فيه بين الابتدائي والجزائي .

قال القدري : فالقرآن قد فرق بين النوعين ، وجعل الكفر والفسوق الثاني جزاء على الأول ، فعلم أن الأول من العبد قطعاً وإلا لم يستقم جعل أحدهما عقوبة على الآخر ، وقد صرح بذلك في قوله: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ فأضاف نقض الميثاق إليهم وتقسية القلوب إليه ، فالأول سبب منهم والثاني جزاء منه سبحانه ، قال تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم

يعمهون ﴾ فأضاف عدم الإيمان أولاً إليهم إذ هو السبب ، وتقليب القلوب وتركهم في طغيانهم هو الجزاء ، ومثله قوله : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ والآيات التي سمعتموها آنفاً إنما تدل على هذا .

قال السني : نعم ، هذا حق ، لكن ليس فيه إخراج السبب عن كونه مقدوراً للرب سبحانه واقعاً بمشيئته ، ولو شاء لحال بين العبد وبينه ووفقه لضده ، فهي البقية التي بقيت عليك من القدر ، كما أن إنكار إثبات الأسباب واقتضائها لمسبباتها وترتبها عليها هي البقية التي بقيت على الجبري في المسألة أيضاً ، وكلاكما مصيب من وجه مخطىء من وجه ، ولو تخلص كل منكما من البقية التي بقيت عليه لوجدتما روح الوفاق واصطلحتما على الحق وبالله التوفيق.

قال القدري : فما تقول أنت أيها السني في العقل الأول إذا لم يكن جزاء فما وجهه وأنت من يقول بالحكمة والتعليل وتنزه الرب سبحانه عن الظلم الذي هو ظلم لا ما يقوله الجبري أنه الجمع بين النقيضين .

قال السني : لا يلزمني في هذا المقام بيان ذلك فإني لم أنتصب له إنما أنتصب لإبطال احتجاجك بالآية لمذهبك الباطل وقد وفيت به ولله في ذلك حِكم وغايات محمودة لا تبلغها عقول العقلاء ومباحث الأذكياء ، فالله سبحانه إنما يضع فضله وتوفيقه وامداده في المحل الذي يصلح له وما لا يصلح له من المحال يدعه غفلا فارغاً من الهدى والتوفيق فيجري مع طبعه الذي خلق عليه ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون ﴾ .

قال القدري : فإذا كان الله سبحانه قد أحدث فيهم تلك الإرادة والمشيئة المستلزمة لوجود الفعل كان ذلك إيجاداً منه سبحانه لذلك فيهم كما أوجد الهدى والإيمان في أهله .

قال السني : هذا معترك النزال وتفرق طرق العالم والله سبحانه أعطى العبد مشيئة وقدرة وإرادة تصلح لهذا ولهذا ثم أمدّ أهل الفضل بأمور وجودية

زائدة على ذلك المشترك أوجب له الهداية والإيمان وأمسك ذلك الإمداد عمن علم أنه لا يصلح له ولا يليق به فانصرفت قوى إرادته ومشيئته إلى ضده اختياراً منه ومحبة لا كرهاً واضطراراً .

قال القدري : فهل كان يمكنه إرادة ما لم يُعَن عليه ولم يوفق له بإمداد زائد على خلق الإرادة .

قال السني : ان أردت بالامكان أنه يمكنه فعله لو أراد ، فنعم هو ممكن بهذا الاعتبار مقدور له ، وإن أردت به أنه ممكن وقوعه بدون مشيئة الرب وإذنه فليس يمكن فإنه ما شاء الله كان ووجب وجوده وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده .

قال القدري : فقد سلمت حينئذ أنه غير ممكن للعبد إذا لم يشأ الله منه أن يفعله فصار غير مقدور للعبد فقد عوقب على ترك ما لا يقدر على فعله .

قال السني : عدم إرادة الله سبحانه للعبد ومشيئته أن يفعل لا يوجب كون الفعل غير مقدور له فإنه سبحانه لا يريد من نفسه أن يعينه عليه مع كونه أقدره عليه، ولا يلزم من إقداره عليه وقوعه حتى توجد منه إعانة أخرى فانتفاء تلك الإعانة لا يخرج الفعل عن كونه مقدوراً للعبد فإنه قد يكون قادراً على الفعل لكن يتركه كسلاً وتهاوناً وإيثاراً لفعل ضده فلا يصرف الله عنه ترك الواقع ولا يوجب عدم صرفه كونه عاجزاً عن الفعل فإن الله سبحانه يعلم أنه قادر عليه بالقدرة التي أقدره بها ، ويعلم أنه لا يريده مع كونه قادراً عليه فهو سبحانه مريد له ومنه الفعل ولا يريد من نفسه إعانته وتوفيقه ، وقطع هذه الإعانة والتوفيق لا يخرج عن كونه مقدوراً له إن جعله غير مراد ، وسر المسألة الفرق بين تعلق الإرادة بفعل العبد وتعلقها بفعله هو سبحانه بعده ، فمن لم يحط معرفة بهذا الفرق لم يكشف له حجاب المسألة .

قال الجبري : أما أن تقول أن الله علم إن العبد لا يفعل أو لم يعلم ذلك ،

والثاني محال ، وإذا كان قد علم أنه لا يفعله صار الفعل ممتنعاً قطعاً اذ لو فعله لانقلب العلم القديم جهلاً .

قال السني : هذه حجة باطلة من وجوه: أحدها: أن هذا بعينه يقال فيما علم الله أنه لا يفعله وهو مقدور له فإنه لا ينفع البتة مع كونه مقدوراً له فما كان جوابك عن ذلك فهو جوابنا لك، وثانيها: أن الله سبحانه يعلم الأمور على ما هي عليه فهو يعلم أنه لا يفعله لعدم إرادته له لا لعدم قدرته عليه، وثالثها: أن العلم كاشف لا موجب ، وإنما الموجب مشيئة الرب والعلم يكشف حقائق المعلومات عدنا إلى الكلام على الآية التي احتج بها القدري وبيان أنه لا حجة فيها من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه قال ما أصابك ولم يقل ما أصبت ، الثاني : أن المراد بالحسنة والسيئة النعمة والمصيبة، الثالث أنه قال﴿ قل كل من عند الله ﴾فالإنسان هو فاعل السيئات ويستحق عليها العقاب، والله هو المنعم عليه بالحسنات عملاً وجزاء ، والعادل فيه بالسيئات قضاء وجزاء ولو كان العمل الصالح من نفس العبد كما كان السيىء من نفسه لكان الأمر أن كليهما من نفسه ، والله سبحانه قد فرق بين النوعين ، وفي الحديث الصحيح الإلهي : « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

الجَبْرِيَّة

نقيض مذهب القدرية والمعتزلة المذهب الجبري الذي يذهب إلى أن الإرادة غير حرة ، وأن الاختيار وهم باطل ، والعبد خاضع خضوعاً تاماً للحتمية في كل أفعاله وأقواله .

القدرية — كما مر — تذهب إلى الحرية المطلقة والاختيار المطلق ، والجبرية تنفيهما كل النفي ، وتبني على هذا النفي ، فلسفة خاصة بها ، وتدعي أن الإنسان مسير ، مسلوب الإرادة والحرية والاختيار ، وقانون القدر الحتمي يجبره إجباراً على أن يقول ويفعل دون أن يعتور قانونه أي تبدل ، ولا هوادة فيه .

والعبد لا يوصف بالاستطاعة والقدرة، لأنه مجبر في أفعاله ، ولن يستطيع أن يكون ذا إرادة وحرية واختيار ، لأن الله عز وجل خلق العبد وخلق له كل أفعاله ، وإذا نسب إليه فعل فالنسبة مجازية وغير متحققة في الواقع ، مثلها مثل النسبة إلى الجماد كأن نقول : تدحرج الحجر ، وهو لا يتدحرج لأنه لا إرادة له ، والعبد كذلك في كل أفعاله وتصرفاته .

وأول ظهور المذهب في عهد الخلفاء الراشدين ، فقد مضت الإشارة إلى قصة السارق الذي جيء به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسأله : لِمَ

سرقت ؟ فأجاب : قضى الله عليّ ، فأمر عمر بقطع يده وجلده ، القطع حد السرقة ، والجلد لقالته السيئة ، إذ فهم من القضاء والقدر أن فعله مجبر عليه إجباراً ، فهو لا يسأل عنه ولا يحاسب عليه ، فجلده عمر لأن الاحتجاج بما ظنه احتجاجاً مردود بحرية الإرادة والاختيار التي يملكها الإنسان ، فهو محاسب على ما يصدر منه من الفعل ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

ولم تكن هذه الحادثة بدء تاريخ المذهب الجبري ، فهي حالة فردية لا تعدم نظائرها في العصر الذي وقعت فيه ، ولكنه يدل على أن القول بالجبر عرف في عهد مبكر للإسلام ، في عصر كانت فيه العقيدة الإسلامية سليمة صافية بعيدة عن الفلسفة الكلامية التي دخلت الإسلام في أول عصر بني أمية من جراء دخول أناس ذوي ثقافة وعلم بفلسفة اليونان وديانة فارس وغيرهما حيث وفدت آراء الوثنيين إلى بلدان الإسلام حتى انتهت إلى المدينة مركز علوم الإسلام وأقطاب الصحابة الذين رأوا بعض آثار هذه الحركة الجديدة التي لا تتفق مع الإسلام .

وحسب المصادر العربية التي بحثت في الملل والنحل يعزى أساس الجبر إلى طالوت بن أعصم اليهودي الذي أدرك الرسول ﷺ ، وسحره ، وعاصر الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين ، وهو ابن أخت لبيد بن الأعصم من يهود بني زريق من أعدى أعداء النبي ﷺ ، وكان لبيد هذا يقول بخلق التوراة ، وأخذ عنه ابن أخته مقالته ونقلها إلى الإسلام زاعماً أن القرآن مخلوق ، وعن طالوت أخذ الجعد بن درهم ، ومن الجعد تعلم جهم ابن صفوان .

وعلى يد جهم بن صفوان تحددت معالم نظرية الجبر التي تعود في أساسها إلى طالوت وإلى الثقافة غير الإسلامية التي أريد منها هدم صرح العقيدة وإزاغة قلوب المسلمين .

وإن القدرية والجبرية ليستا من الإسلام بل وفدتا إليه من خصومه ، فقد

أخذتا منهم ما أريد به شَغْل المسلمين بنظريات فلسفية وهدم عقيدة الإسلام السهلة السمحة ، ولم تكن قط مصدرهما ، لأن الرسول ﷺ نهى عن البحث في القدر ، وعمر جلد في الجبر ، وتبرأ من كانوا من الصحابة أحياء من دعاتهما والقائلين بهما .

وهذا برهان على أن القدرية والجبرية لم تصدرا عن عقيدة الإسلام بل هما دخيلتان عليهما من ثقافات الأمم الأخرى على أيدي أناس يحقدون على الإسلام حقداً .

وعرفت الجبرية باسمها الآخر وهو الجهمية نسبة إلى جهم بن صفوان .

يقول الشهرستاني (١) : « الجهمية أصحاب جهم بن صفوان ، وهو من الجبرية الخالصة ، ظهرت بدعته بترمذ ، وقتله سلم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية ، ووافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء » .

ويقول (٢) : « ومنها قوله في القدرة الحادثة : إن الإنسان ليس يقدر على شيء ، ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور في أفعاله ، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات ، وينسب إليه الأفعال مجازاً كما ينسب الى الجمادات » .

ويقول (٣) : « والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر ، قال : وإذا ثبت الجبر فالتكليف جبر ». وعرف الشهرستاني الجبر بقوله : « الجبر : هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى » .

ويقول البغدادي (٤) : « الجهمية أتباع جهم بن صفوان الذي قال

(١) الملل والنحل ١ : ١١٣ .
(٢) الملل والنحل ١ : ١١٤ .
(٣) الملل والنحل ١ : ١١٤ — ١١٥ و ١ : ١١٢ .
(٤) الفرق بين الفرق ص ١٩٩ .

بالاجبار والاضطرار الى الأعمال وأنكر الاستطاعات كلها ... وقال : لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى ، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز كما يقال : زالت الشمس ودارت الرحى من غير أن يكونا فاعلين أو مستطيعين لما وصفتا به » .

وقال جهم واستاذه جعد بالتعطيل الذي يلتقي الجبر وينتهي إليه ،لأن التعطيل – في علم الكلام – هو عدم وصف الله تعالى بوصف يصح أن يشاركه فيه عباده ، ولا يوصف إلا بصفة الخلق وصفة الفعل ، لأنه اختص نفسه عز وجل بهما دون خلقه ، فهنا تعطيل أي تجريد لله من صفاته التي وصف نفسه بها في كتابه العزيز ووصفه رسوله الكريم في حديثه الشريف بحجة ألا يشاركه عباده ، وبحجة التفرد في الخلق والفعل .

وكل فعل العبد إنما هو فعل الله – على زعمهم – فكفره وإيمانهومعصيته من فعل الله كما فعل لونه وسمعه وبصره، ولكن لله أن يعذب ويثيب حسب إرادته هو جل وعلا .

واستدل الجبريون بالقرآن والسنة ، ومما استدلوا به منهما قول الله تعالى:

﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ سورة الصافات : ٩٦ .

و﴿ بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ سورة الأنعام : ١٠١ .

و ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ سورة الدهر : ٣٠ .

و ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ سورة التكوير : ٢٩ .

و ﴿ قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * يختص برحمته من يشاء ﴾ سورة آل عمران : ٧٣ – ٧٤ .

ومن الأحاديث قول رسول الله ﷺ في صحيح البخاري : « إن الله لما خلق آدم أراه ذريته من اليمين والشمال ثم قال هؤلاء إلى النار ولا أبالي ، وهؤلاء إلى الجنة ولا أبالي » .

وقوله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » .

هذا موجز رأي الجبريين ، وقد تولى الرد عليهم أهل السنة وغيرهم وفندوا زَعَماتهم هذه ، وفسروا القرآن والحديث التفسير الذي يتفق مع الحقيقة في شأن القضاء والقدر ، تلك الحقيقة التي أدركها الصحابة والتابعون ومن تبعوهم بإحسان من أهل السنة .

ولعل من تمام بحث القدر لدى الجبرية وردّ أهل السنة عليهما أن ننقل حواراً بين جبري وسني ، جاء في كتاب « شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » [1] لابن القيم . وما جاء على لسان « السني » في حواره مع القدري والجبري يمثل وجهة نظر أهل السنة .

وها هوذا الحوار بين السني والجبري ننقل بعض فقرات منه :

« قال الجبري : القول بالجبر لازم لصحة التوحيد ، ولا يستقم التوحيد إلا به ، لأنا إن لم نقل بالجبر أثبتنا فاعلاً للحوادث مع الله غير الله ، إن شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل ، وهذا شرك ظاهر لا يخلص منه إلا القول بالجبر .

« قال السني : بل القول بالجبر مناف للتوحيد ، ومع منافاته للتوحيد فهو مناف للشرائع ودعوة الرسل والثواب والعقاب ، فلو صح الجبر لبطلت الشرائع ، وبطل الأمر والنهي ، ويلزم من بطلان ذلك بطلان الثواب والعقاب.

---

(١) طبع دار الكتاب العربي بالقاهرة ، ونشر مكتبة المعارف بالطائف ، والحوار طويل من صفحة ١٩٦ — ٢١٠ بحرف دقيق ، فمن أراد الوقوف عليه كاملاً مراجعته فيه .

« قال الجبري : ليس من العجب دعواك منافاة الجبر للأمر والنهي والثواب والعقاب ، فإن هذا لم يزل يقال ، وإنما العجب دعواك منافاته للتوحيد ، وهو من أقوى أدلة التوحيد ، فكيف يكون المصور للشيء المقوي له منافياً له.

« قال السني : منافاته للتوحيد من أظهر الأمور ، ولعلها أظهر من منافاته الأمر والنهي ، وبيان ذلك أن أصل عقيدة التوحيد وإثباته هو شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والجبر ينافي الكلمتين ، فإن الإله هو المستحق لصفات الكمال ، المنعوت بنعوت الجلال ، وهو الذي تؤلهه القلوب ،وتصمد إليه بالحب والخوف والرجاء ، فالتوحيد الذي جاءت به الرسل هو إفراد الرب بالتأله الذي هو كمال الذل والخضوع والإنقياد له ، مع كمال المحبة والإنابة وبذل الجهد في طاعته ومرضاته ، وإيثار محابه ومراده الديني على محبة العبد ومراده ، فهذا أصل دعوة الرسل ، وإليه دعوا الأمم ، وهو التوحيد الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه ، لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو الذي أمر به رسله ، وأنزل به كتبه ، ودعا إليه عباده ، ووضع لهم دار الثواب والعقاب لأجله ، وشرع الشرائع لتكميله وتحصيله . .

وكان من قولك – أيها الجبري – : إن العبد لا قدرة له على هذا البتة ، ولا أثر له فيه ، ولا هو فعله ، وأمره بهذا أمر له بما لا يطيق ، بل أمر بإيجاد فعل الرب ، أو أن الله سبحانه أمره بذلك ، وأجبره على ضده ، وحال بينه وبين ما أمره به ، ومنعه منه ، وصده عنه ، ولم يجعل له إليه سبيلاً بوجه من الوجوه ، مع قولك : إنه لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ ، فلا تتألهه القلوب بالمحبة والود والشوق والطلب وإرادة وجهه ، والتوحيد معنى ينتظم من إثبات معنى الإلهية وإثبات العبودية ، فرفعت معنى الإلهية بإنكار كونه محبوباً مودوداً تتنافس القلوب في محبته وإرادة وجهه والشوق إلى لقائه ، ورفعت معنى العبودية بإنكار كون العبد فاعلاً وعابداً ومحباً . فإن هذا كله مجاز لا حقيقة له عندئذ ، فضاع التوحيد بين الجبر وإنكار محبته وإرادة وجهه ، لا سيما

والوصف الذي وصفته به منفـرٌ للقلوب عنه ، حائل بينها وبين محبته ، فإنك وصفته بأنه يأمر عبده بما لا قدرة له على فعله ، وينهاه عما لا يقدر على تركه ، بل يأمره بفعله هو سبحانه ، وينهاه عن فعله هو سبحانه ، ثم يعاقبه أشد العقوبة على ما لم يفعله ألبتة ، بل يعاقبه على أفعاله هو سبحانه ، وصرحت بأن عقوبته على ترك ما أمره ، وفعل ما نهاه بمنزلة عقوبته على ترك طيرانه إلى السماء ، وترك تحويله للجبال عن أماكنها ، ونقله مياه البحار عن مواضعها ، وبمنزلة عقوبته له على ما لا صنع له فيه من لونه وطوله وقصره .

وصرحت بأنه يجوز عليه أن يعذب أشد العذاب من لم يعصه طرفة عين ، وإن حكمته ورحمته لا تمنع ذلك ، بل هذا جائز عليه ، ولو أنه أخبر عن نفسه أنه لا يفعل ذلك لم تنزهه عنه ، وقلت : إن تكليفه عباده بما كلفهم إياه بمنزلة تكليف الأعمى الكتابة . تكليف الزَّمِنِ الطيران ، فبغضت الرب إلى من دعوته إلى هذا الاعتقاد ونفرته منه ، وزعمت أنك تقرر بذلك توحيده ، وقد قلعت شجرة التوحيد من أصلها .

وأما منافاة الجبر للشرائع فأمر ظاهر لا خفاء به ، فإن مبنى الشرائع على الأمر والنهي ، وأمر الآمر لغيره بفعل نفسه لا بفعل المأمور ونهيه عن فعله لا فعل المنهي عبث ظاهر ، فإن متعلق الأمر والنهي فعل العبد وطاعته ومعصيته ، فمن لا فعل له كيف يتصور أن يوقعه بطاعته أو معصيته ، وإذا ارتفعت حقيقة الطاعة والمعصية ارتفعت حقيقة الثواب والعقاب ، وكان ما يفعله الله تعالى بعباده يوم القيامة من النعيم والعذاب أحكاماً جارية عليهم بمحض المشيئة والقدرة ، لا أنها بأسباب طاعاتهم ومعاصيهم ، بل هذا أمر آخر وهو أن الجبر مناف للخلق كما هو مناف للأمر . فإن الله سبحانه له الخلق والأمر ، وما قامت السماوات إلا بعدله ، فالخلق قام بعدله ، وبعدله ظهر ، كما أن الأمر بعدله ، وبعدله وجد ، والعدل سبب وجود الخلق والأمر وغايته ، فهو عليه الفاعلية الغائية ، والجبر لا يجامع العدل ولا يجامع الشرع والتوحيد .

« قال الجبري : لقد نطقت أيها السني بعظيم ، وفهمت بكبير ، وناقضت بين متوافقين ، وخالفت بين متلازمين ، فإن أدلـّة العقول والشرع المنقول قائمة على الجبر ، وما دلّ عليه العقل والنقل كيف ينافي موجب العقل والشرع ، فاسمع الآن الدليل الباهر والبرهان القاهر على الجبر ثم نتبعه بأمثال فنقول: صدور الفعل عند حصول القدرة والداعي إما أن يكون واجباً أو لا يكون واجباً، فإن كان واجباً كان فعل العبد اضطرارياً ، وذلك عين الجبر ، لأن حصول القدرة والداعي ليس بالعبد ، وإلا لزم التسلسل ، وهو ظاهر ، وإذا كان كذلك فعند حصولهما يكون واجباً وعند عدم حصولهما يكون الفعل ممتنعاً فكان الجبر لازماً لا محالة ، وأما إن لم يكن حصول الفعل عند حصول القدرة والداعي واجباً فإما أن يتوقف رجحان الفعل على رجحان الترك على مرجح أو لا يتوقف، فإن توقف كان حصول ذلك الفعل عند حصول المرجح واجباً وإلا عاد الكلام ولزم التسلسل ، وإذا كان واجباً كان اضطرارياً وهو عين الجبر ، وإن لم يتوقف على مرجح كان جائز الوقوع وجائز العدم ، فوقوعه بغير مرجح يستلزم حصول الأثر بلا مؤثر وذلك محال .

فإن قلت المرجح هو إرادة العبد ، قلت لك : إرادة العبد حادثة والكلام في حدوثها كالكلام في حدوث المراد بها ويلزم التسلسل .

قال السنّي : هذا أحدُّ سهم في كنانتك وهو بحمد الله سهم لا ريش له ولا نصل مع عوجه وعدم استقامته ، وأنا استفسرك عما في هذه الحجة من الألفاظ المجملة المستعملة على حق وباطل ، وأبيّن فسادها ، فما تعني بقولك : إن كان الفعل عند القدرة والداعي واجباً كان فعل العبد اضطرارياً وهو عين الجبر ، أتعني به أن يكون مع القدرة والداعي بمنزلة حركة المرتعش وحركة من نفضته الحمى وحركة من رُمي به من مكان عال فهو يتحرك في نزوله اضطراراً منه أم تعنى به أن الفعل عند اجتماع القدرة والداعي يكون لازم الوقوع بالقدرة ؟ فإن أردت بكونه اضطرارياً المعنى الأول كذبتك العقول

والفِطَر والحس والعيان فإن الله فطر عباده على التفريق بين حركة من رُمي به من شاهق فهو يتحرك إلى أسفل وبين حركة من يرقى في الجبل إلى علوه وبين حركة المرتعش وبين حركة المصفق وبين حركة الزاني والسارق والمجاهد والمصلي وحركة المكتوف الذي قد أُوثق رباطاً وجُرَّ على الأرض ، فمن سوى بين الحركتين فقد خلع ربقة العقل والفطرة والشرعة من عنقه ، وإن أردت المعنى الثاني وهو كون العقل لازم الوجود عند القدرة والداعي كان لازم الوجود ، وهذا لا فائدة فيه ، وكونه لازماً وواجباً بهذا المعنى لا ينافي كونه مختاراً مراداً له مقدوراً له غير مكره عليه ولا مجبور ، فهذا الوجوب واللزوم لا ينافي الإختيار ، ثم نقول : لو صحت هذه الحجة لزم أن يكون الرب سبحانه مُضطراً على أفعاله مجبوراً عليها بمعنى ما ذكرت من مقدماتها وأنه سبحانه يفعل قدرته ومشيئته ، وما ذكرت من وجوب الفعل عند القدرة والداعي وامتناعه عند عدمهما ثابت في حقه سبحانه » الخ .

ويطول الحوار بين السني والجبري إلى أن يقول الجبري :

إذا صدر من العبد حركة معينة فإما أن تكون مقدورة للرب وحده أو العبد وحده أو للرب والعبد أو لا للرب ولا للعبد ، وهذا القسم الأخير باطل قطعاً ، والأقسام الثلاثة قد قال بكل واحد منها طائفة ، فإن كانت مقدورة للرب وحده فهو الذي يقوله وذلك عين الجبر ، وإن كانت مقدورة للعبد وحده فذلك إخراج لبعض الأشياء عن قدرة الرب تعالى فلا يكون على كل شيء قديراً ، ويكون العبد المخلوق الضعيف قادراً على ما لم يقدر عليه خالقه وفاطره ، وهذا هو الذي فارقت به القدرية التوحيد ، وضاهت به المجوس وإن كانت مقدورة للرب والعبد لزمت الشركة ووقوع مفعول بين فاعلين ومقدور بين قادرين وأثر بين مؤثرين ، وذلك محال لأن المؤثرين إذا اجتمعا استقلالاً على أثر واحد فهو غني عن كل منهما بكل منهما فيكون محتاجاً اليهما ، مستغنياً عنهما .

قال السني : قد افترق الناس في هذا المقام فرقاً شتى ، ففرقة قالت إنما تقع

الحركة بقدرة الله وحده لا بقدرة العبد ، وتأثير قدرة العبد في كونها طاعة أو معصية فقدرة الرب وحده اقتضت وجودها وقدرة العبد اقتضت صفتها ، وهذا قول القاضي أبو بكر ومن اتبعه لعمر الله إنه غير شاف ولا كاف فإن صفة الحركة إن كانت أثراً وجودياً فقد أثرت قدرته في أمر موجود فلا يمتنع تأثيرها في نفس الحركة ، وإن كانت صفتها أمراً عدمياً كان متعلق قدرته عدماً لا وجوداً، وذلك ممتنع ، إذ أثر القدرة لا يكون عدماً صرفاً .

وفرقة أخرى قالت : بل الفعل وصفته واقع بمحض قدرة الله وحده ولا تأثير لقدرة العبد في هذا ولا هذا ، وهذا قول الأشعري ومن اتبعه .

وفرقة قالت : بل المؤثر قدرة العبد وحده دون قدرةالرب، ثم انقسمت هذه الفرقة إلى فرقتين : فرقة قالت : إن قدرة العبد هي المؤثرة مع كون الرب قادراً على الحركة ، وقالت : إن مقدورات العباد مقدورة لله تعالى ، وهذا قول أبي الحسين البصري وأتباعه الحسينية ، وفرقة قالت : إن قدرة العبد هي المؤثرة ، والله سبحانه غير قادر على مقدور ، وهذا قول المشايخية أتباع أبي علي وأبي هاشم ، وليس عند ابن الخطيب وجمهور المتكلمين غير هذه الأقوال التي لا تشفي عليلاً ولا تروى غليلاً ، وليس عند أربابها إلا مناقضة بعضهم بعضاً .

وقد أجاب بعض أصحاب أبي الحسين عن هذا السؤال أنه وإن كان يقول بمقدور بين قادرين فله أن يقول في هذا المقام : إن كان الدليل الذي ذكرته دليلاً صحيحاً على استحالة اجتماعهما على فعل واحد فإنما يدل على استحالته على فعلهما على سبيل الجمع ولا يستحيل على سبيل البدل كما يستحيل حصول جوهرين في مكان واحد ولا يستحيل حصولهما فيه على البدل ، وهذا جواب باطل قطعاً فإن مضمونه أن أحدهما لا يقدر عليه إلا إذ تركه الآخر ، فحال تلبس العبد بالفعل بقدرته وإرادته إن كان مقدوراً له فهو القول بمقدور بين قادرين وإن لم يكن مقدوراً له لزم إخراج بعض الممكنات عن قدره .

فإن قلت هو قادر عليه بشرط أن لا يقدر عليه العبد، قيل لك فهذا تصريح منك بأنه في حال قدرة العبد عليه لا يقدر عليه الرب فلا ينفعك القول بأنه قادر عليه على البدل .

وأيضاً فإن قدر عليه بشرط أن لا يقدر عليه العبد ، فإذا قدر العبد عليه انتفت قدرة الرب لانتفاء شرطها ، وهذا مما صاح به عليكم أهل التوحيد من أقطار الأرض ورموكم به عن قوس واحدة ، وإنما صانعتم به أهل السنة مصانعة ، وإلا فحقيقة هذا القول أن العبد يقدر على ما لا يقدر عليه الرب .

وحكاية هذا الرأي الباطل كافية في فساده ، فإن قلت : كما لا يمتنع واحد بين عالمين ومراد واحد بين مريدين قيل : هذا من أفسد القياس ، لأن المعلوم لا يتأثر بالعالم ، والمراد لا يتأثر بالمريد . فيصح الاشتراك في المعلوم والمراد كما يصح الاشتراك في المرئي والمسموع ، وأما المقدور فيجوز اشتراك القادرين فيه بالقدرة المصححة وهي صحة وقوعه من كل واحد منهما ، وصحة التأثير من أحدهما لا تنافي صحته من الآخر ، أما اشتراكهما فيه بالقدرة الموجبة المقارنة لمقدورها فهو عين المحال إلا أن يراد الاشتراك على البدل فيكون تأثير أحدهما فيه شرطاً في تأثير الآخر . ولما تفطن أبو الحسين لهذا قال : لست أقول : إن إضافته إلى أحدهما هي إضافته إلى الآخر ، كما أن الشيء الواحد يكون معلوماً لعالمين ويمتنع أن يكون علم أحدهما به هو علم الآخر فهكذا أقول في المقدور بين قادرين ليست قدرة أحدهما عليه هي قدرة الآخر ، والمفعول بين فاعلين ليس فعل أحدهما فيه هو فعل الآخر ، وإنما معنى قولي هذا أنه فعل لهذا وتأثير له أنه لقدرته وداعيته وجد ، وليس معنى كونه وجد لقدرة هذا وداعيته هو معنى كونه وجد لقدرة الآخر وداعيته ، قال : وليس يمتنع في العقل إضافة شيء واحد إلى شيئين ، لكنه يمتنع أن يكون إضافته إلى أحدهما هي عين إضافته إلى الآخر ، وهذا لا يجدي عنه شيئاً فإن التقسيم المذكور دائر فيه ونحن نقول : قد دل الدليل على شمول قدرة الرب

سبحانه لكل ممكن من الذوات والصفات والأفعال ، وأنه لا يخرج عن شيء عن مقدوره البتة ، ودل الدليل أيضاً على أن العبد فاعل لفعله بقدرته وإرادته ، وأنه فعل له حقيقة يمدح ويذم به عقلاً وعرفاً وشرعاً وفطره الله عليها العباد حتى الحيوان البهيم .

ودل الدليل على استحالة مفعول واحد بالعين بين فاعلين مستقلين ، وأثر واحد بين مؤثرين فيه على سبيل الاستقلال .

ودل الدليل أيضاً على استحالة وقوع حادث لا محدث له ورجحان راجح لا مرجح له .

وهذه أمور كتبها الله سبحانه في العقول ، وحجج العقل لا تتناقض ولا تتعارض ، ولا يجوز أن يضرب بعضها ببعض ، بل يقال بها كلها ويذهب إلى موجبها فإنها يصدق بعضها بعضاً ، وإنما يعارض بينهما من ضعف بصيرته وإن كثر كلامه وكثرت شكوكه ، والعلم أمر آخر وراء الشكوك والإشكالات ، ولهذا تناقض الخصوم .

وهذا رأس مال المتكلمين ، والقول الحق له ينحصر في هذه الأقوال التي حكوها في المسألة ، والصواب أن يقال تقع الحركة بقدرة العبد وإرادته التي جعلها الله فيه ، فالله سبحانه إذا أراد فعل العبد خلق له القدرة والداعي إلى فعله فيضاف الفعل إلى قدرة العبد إضافة السبب إلى مسببه ، ويضاف إلى قدرة الرب إضافة المخلوق إلى الخالق ، فلا يمتنع وقوع مقدور بين قادرين قدرة أحدهما أثر لقدرة الآخر وهي جزء سبب ، وقدرة القادر الآخر مستقلة بالتأثير ، والتعبير عن هذا المعنى بمقدور بين قادرين تعبير فاسد وتلبيس فإنه يوهم أنهما متكافئان في القدرة كما تقول هذا الثوب بين هذين الرجلين وهذه الدار بين هذين الشريكين ، وإنما المقدور واقع بالقدرة الحادثة وقوع المسبب بسببه، والسبب أو المسبب والفاعل والآلة كله أثر القدرة القديمة ولا نعطل قدرة الرب سبحانه عن شمولها وكمالها وتناولها لكل ممكن ، ولا نعطل

قدرة الرب التي هي سبب عما جعلها الله سبباً له ومؤثرة فيه .

وليس في الوجود شيء مستقل بالتأثير سوى مشيئة الرب سبحانه وقدرته، وكل ما سواه مخلوق له، وهو أثر قدرته ومشيئته ، ومن أنكر ذلك لزمه إثبات خالق سوى الله أو القول بوجود مخلوق لا خالق له . فإن فعل العبد إن لم يكن مخلوقاً انه كان مخلوقاً للعبد إما استقلالاً وأما على سبيل الشركة،وإما أن يقع بغير خالص ولا مخلص عن هذه الأقسام لمنكر دخول الأفعال تحت قدرة الرب ومشيئته وخلقه .

وإذا عرف فنقول الفعل وقع بقدرة الرب خلقاً وتكويناً كما وقعت سائر المخلوقات بقدرته وتكوينه ، وبقدرة العبد سبباً ومباشرة ، والله خلق الفعل والعبد فعله وباشره ، والقدرة الحادثة وأثرها واقعان بقدرة الرب ومشيئته .

قال الجبري : ضلال الكافر وجهله عند القدري مخلوق له موجود بايجاده اختياراً ، وهذا ممتنع ، فإنه لو كان كذلك لكان قاصداً له ، إذا القصد من لوازم الفعل اختياراً ، واللازم ممتنع فإن عاقلاً لا يريد لنفسه الضلال والجهل فلا يكون فاعلاً له اختياراً .

قال السني : عجباً لك أيها الجبري ، تنزه العبد أن يكون فاعلاً للكفر والجهل والظلم ثم تجعل ذلك كله فعل الله سبحانه ، ومن العجب قولك : إن العاقل لا يقصد لنفسه الكفر والجهل وأنت ترى كثيراً من الناس يقصد لنفسه ذلك عناداً وبغياً وحسداً مع علمه بأن الرشد والحق في خلافه فيطيع دواعي هواه وغيه وجهله ويخالف داعي رشده وهداه ، ويسلك طريق الضلال ويتنكب عن طريق الهدى وهو يراهما جميعاً ، قال أصدق القائلين : ﴿ سأصرف عن آياتيَ الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يرَوا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يرَوا سبيل الغيِّ يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبُّوا العمى على الهدى﴾ وقال تعالى عن قوم فرعون : ﴿ فلما جاءتهم

آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ وقال تعالى : ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ﴾ وقال : ﴿ بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله مـــن فضله عـــلى من يشاء من عباده ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ وقال :﴿ يا أهل الكتاب لمَ تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء ﴾ وهذا في القرآن كثير يبين سبحانه فيه اختيارهم الضلال والكفر عمداً على علم ، هذا وكم من قاصد أمراً يظن أنه رشد وهو ضلال وغي .

قال الجبري : لو جاز تأثير قدرة العبد في القول بالإيجاد لجاز تأثيرها في إيجاد كل موجود ، لأن الوجود قضية واحدة مشتركة بين الموجودات الممكنة وإن اختلفت محاله وجهاته ، ويلزم من صحة تأثير القدرة في بعضه صحة تأثيرها في جميعه لاتحاد المتعلق . وإن ما ثبت لأحد المثلين ثبت للآخر ، وأيضاً فالمصحح للتأثير هو الإمكان ، ويلزم من الاشتراك في المصحح للتأثير الاشتراك في الصحة ، ومعلوم قطعاً أن قدرة العبد لا تتعلق بإيجاد الأجسام وأكثر الأعراض إنما تتعلق ببعض الأعراض القائمة لمحل قدرته

قال السني : لقد كشف الله حوار مذهب يكون إثباته مستنداً إلى مثل هذه الخرافات التي حاصلها أنه يلزم من صحة قدرة العبد على قلع حصاة من الأرض صحة قدرته على قلع الجبل ، ومن إمكان حمله لرطل إمكان حمله لمائة ألف رطل ، ومن إيجاده الفعل القائم به من الأكل والشرب والصلاة وغيرها صحة إيجاده لخلق السموات والأرض وما بينهما ، وهل سمع في الهذيان بأسمج من هذا وأغثّ منه ، اشتراك الموجودات في مسمى الوجود الكلي العام لا يلزم منه أن ما جاز على موجود ما جاز على كل موجود ، وهذا أسمج من الأول

وأبين فساداً ، ولا يلزم من ذلك تماثل البعوضة والفيل ، وتماثل الأجسام والأعراض ، ومن يجعل من الجبرية للقدرة الحادثة تعلقاً ما بفعل العبد يعترف بالفرق ويقول : قدرته تتعلق ببعض الأعراض ولا تتعلق بالأجسام ولا بكل الأعراض ، فإن احتج على إبطال التأثير بهذه الشبهة الغثة ألزم بها بعينها في عموم تعلق قدرته بكل موجود .

قال الجبري : دليل التوحيد ينفي كون العبد فاعلاً وأن يكون لقدرته تأثير في فعله وتقريره بدليل التمانع .

قال السني : دليل التوحيد إنما ينفي وجود رب ثانٍ ، ويدل على أنه لا رب إلا هو سبحانه ، ولا يدل على امتناع وجود مخلوق لله فهو بعد طول مقدماته واعتراف فضلائكم بالعجز عن تقريره وذكر ما في مقدماته من منع ومعارضة إنما ينفي وجود قادريْن متكافئيْن قدرة كل واحد منهما من لوازم ذاته ليست مستفادة من الآخر ، وهو دليل صحيح في نفسه وإن عجزتم عن تقريره ، ولكن ليس فيه ما ينفي أن تكون قدرة العبد وإرادته سبباً لوجود مقدوره وتأثيرها فيه تأثيراً الأسباب في مسبباتها ، فلا للتوحيد قررتم بدليل التمانع ولا للجبر ، وقد كفانا متأخريكم بيان تنافي هذا الدليل من الممنوع والمعارضات .

الشِيعَةُ الإمَامِيّة

عقيدة الشيعة الأمامية في القضاء والقدر هي عقيدة أهل السنة — كما نرى — ويبنونها على كلام الإمام علي كرم الله وجهه الذي مر ذكره عندما سأله شيخ عن المسيرة إلى الشام ، أكان بقضاء الله وقدره ؟ فرد عليه بالإيجاب ، ففهم الشيخ من الجواب غير المفهوم الإسلامي فشرح له الإمام فكرة القضاء والقدر في إيجاز بليغ لم يكن مثله في هذا الموضوع الخطير إذ قال بعد أن أقسم بالله : « لم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ، ولا إليها مضطرين ، فقال الشيخ : فكيف والقضاء والقدر ساقانا ؟ فقال الإمام : ويحك ، لعلك ظننت قدراً لازماً وقضاء حتماً ، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والأمر والنهي ،ولم تأت لائمة من الله لمذنب ،ولا محمدة لمحسن ،ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ،ولا المسيء أولى بالذم من المحسن ،تلك مقالة عباد الأوثان ، وشهود الزور ، وأهل العمى عن الصواب ، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها ، إن الله سبحانه وتعالى أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يُعْصَ مغلوباً ، ولم يُطَعْ مكروهاً ، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً ، ولم يخلق السماوات والأرض بينهما باطلاً » .

وهذا هو ما عليه أهل السنة ، وهو معتقدهم الذي أوجزه الإمام علي كرم الله وجهه في كلمات تكفي لإعطاء حقيقة المفهوم الإسلامي للقضاء والقدر .

ويرى الشيعة الأمامية رأي الإمام علي ، ويبنون عليه عقيدتهم ، أو ما قاله الإمام هو معتقدهم ، كما تثبت كتبهم ، ويبنون فلسفتهم أو بحثهم في القضاء والقدر على عدل الله ونفي الظلم عنه ، فالله عادل كما أثبت لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ ، ونفى الظلم عن نفسه في كتابه العزيز : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ و ﴿ فما كان الله ليظلم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ونفى الرسول عن الله الظلم نفياً قاطعاً .

وإثبات العدل لله سبحانه وتعالى ونفي الظلم عنه ينفي الجبر وينفي الإختيار المطلق ، وفي كتاب « عقيدة الشيعة الإمامية » [1] :

« إن العاقل — لا شك — لا يغفل عن الفرق بين الحركات الإختيارية وغيرها ، ويرى الإنسان نفسه مختاراً في جميع أفعاله وتصرفاته ، ويحسن عند الفعل أن نمدح فاعل الخير المحسن إلى الناس ، وأن نذم الظالم الجائر « المسيء » لغيره ، فلولا أن الأفعال من صنع الإنسان لما استحق مدحاً أو ذماً ، وإنما يحسنان إذا جازت نسبة الفعل إلى العبد الفاعل ، ولذا فإن البياض والسواد لا يستحق المتصف بهما ذماً أو مدحاً لأنهما ليسا من فعله » .

« ومنها أن الله سبحانه أمر عباده بأشياء كثيرة وجعل لها حدوداً ليقف الإنسان عندها ونهاهم عن أشياء ، وأراد منهم فعل ما أمرهم وترك ما نهاهم عنه » .

« قال سبحانه : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ والتكليف لا يجوز بحكم العقل إذا كان الفاعل هو الله ، لأنه إذا خلق فينا الفعل كان واجب الحصول ، وإن لم يخلقه كان ممتنع الحصول ، وما كان وجوده واجباً وعدم وجوده ممتنعاً لا يصح التكليف به عقلاً لاستناد الشيء إلى أسبق علله وأقواها ، فإن كان الإنسان شريكاً مع الله سبحانه فالتأثير إنما يكون لأقوى

(١) تأليف السيد هاشم معروف الحسني ، نشر دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م)

الأسباب وهو الله سبحانه ، وإذا لم يكن للعبد شأن في ذلك كان التكليف لغواً من الآمر ، والمؤاخذة من أفحش أنواع المظالم .

« ولقد سئل الإمام موسى الكاظم عن المعصية ، هل هي من الله أو العبد ؟ فقال : لا تخلو من ثلاث ، إما أن تكون من الله وليس من العبد شيء ، فليس للحاكم أن يؤاخذ عبده بما لم يفعل ، وأما أن تكون من العبد ومن الله ، فليس للشريك الأقوى أن يؤاخذ الأصغر بذنب هما فيه سواء ، وإما أن تكون من العبد وليس من الله شيء ، إن شاء عفا وإن شاء عاقب ، وهو المتعين » .

ويقول : « ومما لا شبهة فيه أن الأفعال تصدر بعد القصد ووجود الداعي وانتفاء الموانع شرعية كانت أم عقلية ، كما أن الترك إنما يكون لوجود الداعي إليه ، والصارف عن الفعل ، فالإنسان إذا جاع وأمكنه تناول الطعام من غير أن يكون ما يمنعه من ذلك وقع منه الأكل لا محالة، ومع فرض أن الأفعال من صنع الله سبحانه ، لا يكون للقصد ووجود الداعي وانتفاء الموانع أثر في وجود الأفعال وتركها ، والضرورة تقضي ببطلان ذلك ، فمع القصد إليه ووجود الداعي لفعله لا بد من وجوده ، ولا يقع منه غيره ، وإذا لم توجد دواعيه ووجود الصارف عنه لا يمكن وجوده » .

« ولو قطعنا النظر عن هذه الأدله فالوجدان خير شاهد على أن أفعال العباد إنما تصدر عنهم مختارين في صدورها ، ويرى الإنسان نفسه حين العمل قادراً على الفعل والترك .

« ويستدل الأمامية على بطلان الجبر بآيات كثيرة من كتاب الله ، والآيات الوارة في المقام منها ما هو صريح في أن الفعل مضاف إلى الإنسان لقوله سبحانه : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ وقوله سبحانه في قصة يعقوب مع أولاده ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ وقوله سبحانه حكاية عن قابيل وهابيل ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ﴾ وقوله : ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على نسبة الفعل إلى العبد ،

وكونه صادراً منه من غير أن يكون مجبوراً علـى ذلك ، ولو كان الفاعل غيره أو كان له شريك في ذلك لما صحت هذه النسبة .

« ومن الآيات الكريمة ما هو صريح في مدح المؤمن على إيمانه، ووعده بالثواب والدرجات الرفيعة في دار الجزاء ، وذم الكافر على كفره ، وتوعد المنافقين بالعقاب على كفرهم ونفاقهم ، وكقوله سبحانه : ﴿ اليوم تُجزَى كل نفس بما كسبت ﴾ وفي آية أخرى ﴿ اليوم تُجزَون ما كنتم تعملون ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ ولا تزر وازرة وزرأخرى ﴾ وقوله : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ وقوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ إلى كثير من أمثال هذه الآيات الصريحة في وعد المطيع بالثواب وتوعد العصاة بالعقاب ، وفي كثير من آيات الكتاب تتضمن توبيخ العبد على كفره وعصيانه كقوله : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ﴾ وهي إنكار في معرض الاستفهام ، وقوله تعالى : ﴿ ما منعك أن تسجد إذ أمرتك ﴾ ، ﴿ لم تصدُّون عن سبيل الله ﴾ ولو كان سبحانه غير مريد للإيمان كيف يأمرهم به ويوبخهم على تركه ؟ كيف ينهى عن الكفر وقد أراده وخلقه فيهم ؟ وكيف ينكر عليهم لبس الحق بالباطل ويقول لهم : ﴿لمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ وإذا كان هذا هو الذي صدهم عن السبيل كيف يقول : ﴿ لِمَ تصدون عن سبيل الله ﴾ ومن النصوص القرآنية ما هو صريح في تخيير العبد في أفعاله ، وكونها معلقة على مشيئته ، قال سبحانه : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ وقوله : ﴿ اعملوا ما شئتم فسيرى الله عملكم ﴾ ، ﴿ فمن شاء أن يتقدم أو يتأخر ﴾ ، ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ .

« وقسم من الآيات الكريمة جاء في مقام الحث على الطاعة والمسارعة إلى عمل الخير والإحسان كقوله : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ ، ﴿واستبقوا الخيرات ﴾ ، ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم ﴾ ، ﴿ وأجيبوا داعي الله ﴾

ولو كان الإنسان مجبوراً على الفعل لا يجوز أمره بالمسارعة والاستباق ، والعاجز عن القيام بأوامر المولى لا يصح تكليفه بالمسارعة إلى امتثالها ، إن هؤلاء أرادوا أن يثبتوا لله القدرة والعظمة فأثبتوا له الظلم والجور والعبث واللغو من حيث لا يشعرون .

« وقد حكى الله سبحانه عن العصاة والمنافقين اعترافهم بالتقصير وعدم قيامهم بما فرض الله عليهم كقوله : ﴿ ما سلككم في سقر * قالوا لم نكُ من المصلين * ولم نك نطعم المسكين ﴾ وقوله : ﴿ كلما أُلقِيَ فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ﴾ .

« ولو كان العبد مجبوراً ،في أفعاله لكان له على الله الحجة البالغة إذا أراد أن يعاقبه على معصية ، وكان له أن ينسب الجور والظلم إلى الله في تعذيب عباده ، ولا محل لاعترافهم بالتقصير والتكذيب للرسل كما هو مفاد الآيات الكريمة ، وأي فائدة للرجعة التي يتمناها الكافر والمنافق كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم إذا لم يكن الفعل تحت سلطان العبد ؟ » .

« قال سبحانه : ﴿ لو أن لي كَرَّة فأكون من المحسنين ﴾ وقوله : ﴿ رب أرجعون * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ﴾ وغيرهما من الآيات الكريمة الحاكية لطلب الرجعة بلسان العصاة ، وإذا لم تكن الأفعال من صنع العبد يكون هذا الطلب لغواً إذ لا اختيار له ليختار الأعمال ويتجنب المعاصي » .

« وأخيراً ، فالعقل والكتاب والوجدان ، هذه الثلاثة تشهد ببطلان هذه الشبهة ، وتثبت إختيار العبد في جميع تصرفاته وأفعاله لنحو من أنحاء الاختيار ، يخرجه عن الجبر ولا يلحقه بالتفويض ، ولازم ذلك ثبوت الواسطة التي عناها الإمام (ع) بقوله : « أمر بين بين » وليسا هما كالنقيضين اللذين لا يجتمعان ولا يرتفعان ، ولا كالضدين اللذين لا ثالث لهما ، وإنما هما ضدان يمكن ارتفاعهما وثبوت أمر ثالث محلهما ، كما كشف عن ذلك الأدلة العقلية والنقلية »

ويقول المؤلف : « وكما لا يقول الشيعة بالجبر لا يقولون بالتفويض » .

« وقال : روى « الصدوق بسنده عن يزيد بن عمر قال : دخلت على علي ابن موسى الرضا (ع) فقلت له : يا ابن رسول الله ، رُويَ لنا عن الصادق أنه قال : « لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين بين » فما معناه ؟ فقال (ع) : من زعم أن الله يفعل أعمالنا ثم يعذبنا عليها فقد قال الجبر ، ومن قال : إن الله سبحانه فوّض أمر الخلق والرزق إلى حججه فقد قال بالتفويض ، فالقائل بالجبر كافر ، والقائل بالتفويض مشرك ، فقلت : يابن رسول الله ، فما « أمرٌ بين بين » فقال : وجود السبيل إلى إتيان ما أمروا به ، وترك ما نهوا عنه، فقلت : فهل لله مشيئة وإرادة في ذلك ؟ فقال : أما الطاعات فإرادة الله ، ومشيئته فيها الأمر بها والرضا والمعاونة عليها ، وإرادته ومشيئته في المعاصي النهي عنها والسخط لها والخذلان عليها ، فقلت : فلله عز وجل فيها القضاء والقدر ؟ قال : نعم ، ما من فعل يفعله العبد من خير وشر إلا ولله فيه قضاء، قلت معنى القضاء ، قال : الحكم عليهم بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة » (1) .

وأهل السنة لا يخرجون عما جاء في مقالة ابن تيمية وابن القيم وعقيدة الشيعة الامامية ، فهم يوجزون معتقدهم الذي لا يخرج عن هؤلاء في كلمة وهي أن لله إرادة وأن للعبد اختياراً فيما يقع عليه الجزاء ، ولكنهم لا يجعلون الإرادة قسراً وحتماً ، بل يميزون بين الإرادة على القسر والحتم والإرادة على الأمر والتكليف .

فالإرادة على المعنى الأول نافذة حسب قضائه ، والإرادة على المعنى الثاني مجاب عليها بالطاعة أو العصيان ، ودليل الأول قوله تعالى : ﴿ كن فيكون ﴾ فهي إرادة على الحتم والقضاء والنفاذ ، ودليل المعنى الثاني قول الله تعالى : ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ وهي إرادة على الأمر القابل للطاعة أو العصيان.

---

(1) راجع من كتاب « عقيدة الشعية الإمامية » الصفحات من ٥٢ — ٧٠ .

وخلاصة القول في القضاء والقدر أن الإسلام جاء فيهما بما لم يجيء به أي دين سبقه مما بقي لنا من نصوصه أو أسفاره المحرفة أو في جميع النظريات والآراء الوثنية أو الفلسفية ، لأن الإسلام الدين الوسط المبني على التكليف المُطَاق والإرادة والاختيار حتى يكون للتكليف معناه في الجزاء ثواباً وعقاباً ، ونظرية الإسلام في القضاء والقدر هي النظرية المثلى التي لا جبر فيها بحيث يبطل التكليف وما يقوم عليه من جزاء ، وليس فيها الاختيار المطلق بحيث يشارك المخلوق خالقه في أفعاله أو ينزع العبد من ربه القدرة فيكون معها شريكاً لله .

وكلا القولين على إطلاقهما غير المحدود ووقوعهما على طرفي نقيض لا يقره الإسلام ، لأنه يتوسط بينهما بحيث لا تتناقض حرية الإنسان في إثبات أفعاله من الحسن والقبح مع قدرة الله ومشيئته ، أو مع قضائه وقدره .

كلمة في القضاء والقدر

ليس في مباحث علم الكلام أو في المباحث التي بحثها السلف وأهل السنة مقطع القول ، لأن هذه البحوث تفسيرات اجتهادية ، إلا أن ما ذهب إليه الذين يتمسكون بالكتاب والسنة حق التمسك هو المذهب الأسلم والطريق الأقوم ، والخوض في ذلك لا يؤمن جانبه ، فقد يغدر باحث القضاء والقدر بنفسه ويتلفها إذا لم يكن له من الله عاصم .

* * *

ومن معاني القضاء والقدر في كتاب الله : أن القضاء يأتي بمعنى الخلق ، كما في قوله تعالى : ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ وبمعنى أوجب كما في قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك أَلَّا تعبدوا إلا إياه ﴾ والإعلام والإخبار كما في قوله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل لتفسدن في الأرض مرتين ﴾ وللكلمة في القرآن واللغة معانٍ أخرى .

والقدر يأتي بمعنى الخلق كما في قوله تعالى : ﴿ وقدَّرنا فيها أقواتها ﴾ وبمعنى الكتابة كما في قوله تعالى : ﴿ وامرأته قدرناها من الغابرين ﴾ ... الخ .

وفي « المفردات في غريب القرآن » (١) .

---

(١) تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني ، طبعة الحلبي ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ .

« والقضاء من الله تعالى أخص من القدر ، لأنه الفصل بين التقدير ، فالقدر هو التقدير ، والقضاء هو الفصل والقطع ، وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المُعَدّ للكيل ، والقضاء بمنزلة الكيل ، وهذا كما قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما لما أراد الفرار من الطاعون بالشام ، : أتفرُّ من القضاء ؟ قال : أفرُّ من قضاء الله إلى قدر الله ، تنبيهاً أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله ، فإذا قُضِيَ فلا مدفع له ، ويشهد لذلك قوله : ﴿ فكان أمراً مقضياً ﴾ وقوله : ﴿ كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ و ﴿ قُضِيَ الأمر ﴾ أي فصل ، تنبيهاً أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه » .

والقدر في الفلسفة لا يخرج عن معناه الشرعي ، وكذلك القضاء ، فالقدر : تفصيل حكم القضاء ، وتخصيص إيجاد الأشياء في أزمنة وأمكنة وعلى أشكال معينة ، فهو وجود الكائنات على حسب أحكام القضاء ، والقضاء والقدر متلازمان .

والقضاء : الحكم الكلي الإجمالي على أشخاص الموجودات بأصولها حكماً لا يتبدل من الأزل إلى الأبد ، كالحكم بأن السماوات سبع ، فلا تكون ستّاً وكل نفس ذائقة الموت ، فلا يمكن أن ينجو من الموت نفس ، وهو بهذا يختلف عن القدر الذي ينصب على حال جزئية في زمن معين ، ويعارض البداء الذي يجيز طروء التغير على أحكام الله الأزلية ، فالقضاء ثابت في علم الله أزلاً ، وصادر عن إرادة قديمة متعلقة بالأشياء على ما هي عليه .

ولا شك أن مسألة القضاء والقدر حيّرت المفكرين ، وأدت إلى الإلحاد بغير المؤمنين كما شككت من ضعُف إيمانه ، ومنهم من نسبوا إلى الله الظلم ، ومنهم من زعموا — كما مر — أن الإرادة ليست حرة ، وأن الاختيار وهم باطل ، والإنسان خاضع للحتمية في قوله وفعله وفي طرائق سلوكه وتفكيره كفرقة الجبرية في الإسلام .

ولا بد من كلمة في هذا الأمر الجلل تقرب إلى الذهن تصور القضاء

والقدر كما نرى ، ورأينا وسط بين الجبر والاختيار المطلقين ، فنحن لا ندعي الحتمية الجبرية،ولا الحرية المطلقة في التصرف والفعل،بل نرى الإنسان مخيراً في تصرّفه على نحو ما ، ومخيّراً في الإمساك عن هذا التصرف على هذا النحو ، أي أنه مخير في الفعل وترك الفعل ، وهو مسئول في الحالين .

وكل ما يحدث من الإنسان سواء أكان بإتيان الفعل أم تركه ناتج عن مجموعة من الأسباب والظروف ، ولكنه ليس حتماً مقضياً بحيث ينفي المسئولية ، فقوانين الطبيعة تصف ولا تلازم ، فهي لا تجبر أحداً على شيء ، فقوانين الحركة تصف لنا كيف تتحرك الأشياء في المواقع دون أن تجبرها على الحركة ، وعلى هذا فالإنسان يتصرف في المواقع تصرفاً حراً غير مجبر ، ومن الممكن أن يتدرج فعله تحت القوانين الطبيعية الوصفية من الوجهة النظرية .

ومن الوجهة الواقعية فالموجودات كلها مرتبط بعضها ببعض بأسبابها ونتائجها ، وترابطها مشهود ، مثل طلوع الشمس نهاراً واختفائها ليلاً ، ومثل ارتباط الإنسان بطعامه وشرابه ، ولا يمكن أن تكون نتيجة إلا بمقدمتها وسببها ، وإلا فلا نتيجة لارتباط السبب والمسبب والعلة والمعلول .

ولا يمكن أن نتصور المسببات بدون أسبابها ، ولا الأسباب بغير المسببات ، لأن الأسباب والمسببات مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، وإن كان يخفى على الإدراك أحياناً إدراك ذلك ، وعدم الإدراك لا ينفيه .

وللإرادة والحرية اختيار هذا السبب أو غيره ، لأن الإرادة الحرة في الاختيار عامل من العوامل الخفية والظاهرة التي يتكون منها النظام الأعم والأشمل لترابط الحوادث بعضها ببعض ، والإنسان لا يستطيع أن يخرج عن ملكوت الله القائم على النظام الدقيق الذي ابتدعه الله خير ابتداع : ﴿ بديع السماوات والأرض انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم [1] ﴾ .

---

(١) الأنعام : ١٠١ .

هذا النظام العام الشامل الذي أوجده الله يشمل الإنسان لأنه من الكون وفيه ، فهو يتحرك بحركة النظام كله كجزء من كل ، والله عليم بكل شيء من ذلك وأحاط علمه به .

ولكن حركة الإنسان الخاصة قولاً وفعلاً هي حركة إرادية، فيها حرية وفيها اختيار ، فالإنسان كجزء من الكون والنظام لا مفر له من القضاء ، وحركته الخاصة ذات تأثير في قدره فيما يجري من الحوادث والأحوال ، ولا يمكن إنكار وجود حريته الشخصية ، لأنه أمر وجداني لا سبيل لإنكاره أو نفيه ، فهو ثابت في الإنسان ثبوت الإحساس والتصور والفكر .

ولإيضاح ذلك نقول : إن الطائرة التي تطير بسرعة تفوق سرعة الصوت وتحمل أناساً إنما هي متحركة بمن فيها وما فيها ، وكل شيء في مكانه المقرر له ، والإنسان كجزء فيها تعمه حركة الطائرة ، ولكنه يملك القدرة على الاختيار ، ويملك الاختيار نفسه ، فهو يجلس على كرسيه ، ويقرأ أو يكتب ، أو يأكل أو يشرب ، يأتي هذه الأفعال حراً مختاراً ، أو يتركها حراً مختاراً ، فكيف يصح أن يقال : ليس له من الأمر شيء ؛ فلا حرية ولا اختيار في أفعاله هذه التي أتاها وفيما ترك منها ، وكيف يصح أن يعد اختياره في الفعل والترك وهماً باطلاً كما تدعي الجبرية ومن يذهب مذهبها في الحتمية .

إن تكن الأفعال التي يقوم بها ولا تحصى وهماً فما يكون هذا الكرسي الذي جلس عليه ، والكتاب الذي قرأ فيه ، والقلم الذي كتب به على الورقة التي كتب فيها والطعام الذي أكله ، والماء الذي شربه ، وقيامه وقعوده ، وحركاته ؟ أهذا كله وهم ؟ طبعاً ليست هذه الأشياء وهماً لأنها وقائع مشهودة يحس بها الإنسان بحواسه كلها مجتمعة أو غير مجتمعة .

وما دامت هذه الأشياء « واقعة » فإن أفعاله واقعة ، ودليل حريته واختياره أنه يستطيع أن يحمل الكأس بيده ويشرب ويستطيع أن يترك الشرب بعد حمل الكأس والتهيؤ للشرب ، واختياره الشرب أو تركه فعل ناتج عن إرادته .

وليست هذه الإرادة مطلقة ، وليست كلية بحيث تكون لها الحرية والتصرف فلا يحد من انطلاقها شيء ، بل هي ليست مطلقة إلى الحد الذي تخرج فيه عن جميع المؤثرات فهي خاضعة للظروف والأحوال ولعوامل كثيرة مثل عوامل البيئة وآداب السلوك والمجتمع والشرائع والقانون والجو والاخلاق وغير ذلك .

إن الإنسان كجزء من هذا الكون خاضع لحركته وللدوافع والأسباب التي تُسيِّر الكون كله ، ولكنه كجزء مستقل ذي كيان خاص لا يفقد حريته واستقلاله ، فله إرادته الخاصة ، يأتي الفعل ويتركه من نفسه وبطوعه واختياره فهو يكتب عندما يريد الكتابة ويأكل عندما يريد الأكل .

ولكن الجبريه الحتمية عامة ترد على هذا الاختيار بأنه لو كان للإنسان أن يختار لكان متوقعاً تغير أحداث مستقبل الإنسان حسب اختيار أفعاله ولتغير القضاء المسطور في اللوح المحفوظ بتأثير إرادة الإنسان من حاله إلى حال أخرى.

وأقرب رد على هذا الاعتراض : ما الذي يمنع أن هذا التغير من حال إلى حال أخرى هو نفسه الذي جرى به القضاء ؟

إن طبيعة المخلوق جعلته قابلاً لما يصدر عنه من الأفعال، فهو ليس مسلوب الإرادة حتى يكون مسيراً تسييراً تنعدم فيه الإرادة الشخصية ، وليس حراً بحيث يكون مطلقاً لا ضابط له في انطلاقه ، فهو كما جاء في كلمة الإمام جعفر رضي الله عنه : « لا جبر ولا تفويض ، ولكن أمر بين بين » وعلى هذا الأساس تنهض التبعة ويقوم الجزاء ، ومن ذلك تتبين حقوق الخالق وواجبات المخلوق .

وإذا ذهبنا مع القدرية كان من الحتم إنكار حكم القضاء والقدر والنظام المحكم الذي يربط كل أجزاء الكون بعضها ببعض وإنكار قدرة الله ، وإذا اعتنقنا مذهب الجبرية كان حتماً الحكم على الإنسان بأنه أحد الجمادات ، ولتبع ذلك إبطال الثواب والعقاب ، ولأصبح الخير والشر شيئاً واحداً ، ولما كان للتمييز بينهما معنى .

وكلا الفريقين يصدم واقعه نظريته ، فالذاهبون إلى الجبر لا يتكلون عليه في واقعهم ، فالمثل الذي ضربه ابن تيمية ينقض نظريتهم ، بل هم ينقضون بواقعهم نظريتهم .

يقول ابن تيمية : « إن الله سبحانه وتعالى يعلم الأمور على ما هي عليه ، وهو قد جعل للأشياء أسباباً تكون بها فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب ، كما يعلم أن هذا يولد له بأن يطأ امرأة فيحبلها ، فلو قال هذا : إذا علم الله أنه يولد لي فلا حاجة إلى الوطء كان أحمق لأن الله علم أن سيكون بما يقدره من الوطء ، وكذلك إذا علم أن هذا ينبت له من الزرع بما يسقيه من الماء ويبذره من الحب ، فلو قال : إذا علم أن سيكون فلا حاجة إلى البذر كان جاهلاً ضالاً ، لأن الله علم أن سيكون بذلك ، وكذلك إذا علم الله أن هذا يشبع بالأكل ، وهذا يروي بالشرب ، وهذا يموت بالقتل فلا بد من الأسباب التي علم الله أن هذه الأمور تكون بها » (١) .

ونحن نسأل الجبري : ما دمت معتقداً بالجبر الحتمي فلماذا تتخذ الأسباب للوصول إلى المسببات ؟ لماذا لا تترك الإتصال بزوجك ما دام القضاء قد فرض وجود ولد لك ؟ ولماذا تطلب الطعام والشراب لتحفظ حياتك ما دامت حياتك مسيرة ؟

وإن المؤمنين بالجبرية الحتمية ينقضون نظريتهم بواقع تصرفاتهم ، فما من أحد منهم يترك بيته يحترق بحجة القضاء والقدر ولا يسرع إلى المطافىء مستنجداً ، وما نرى أحداً منهم قعد عن الصراع من أجل الحياة بالكسب الحلال أو الحرام لأن الأمر قد قُضِيَ فلا حرية ولا اختيار ولا إرادة .

إن هؤلاء يتصورون القضاء والقدر قوة عمياء فرضت سلطانها على المخلوقين فلا سبيل إلى الإفلات منها ، ولا بد من الخضوع لإرادتها ، والقدرية

---

(١) فتاوى ابن تيمية ٨ : ٦٨ .

تصوروا القضاء والقدر شيئاً منفصلاً عن الكون والحياة وفي معزل تام عنهما ، فكأن القضاء والقدر قوة جامدة لا حراك بها ، والذي يتحرك هو الانسان وحده بمحض إرادته دون أن يكون لتلك القوة الجامدة أي دخل في فعله .

وكلاهما على خطأ مبين في معتقده الباطل ، فلا القضاء والقدر قوة عمياء تخبط خبط عشواء ، ولا قوة جامدة بمعزل عن الإحياء ، فقضاء الله خاضع للنظام الكوني العام الشامل الذي أبدعه الله ، فكل شيء يسير ويتحرك حسب هذا النظام وفي داخله، وكل شيء كجزء مستقل يتحرك حركته الخاصة ويسير سيرته الخاصة حسب الإرادة الشخصية .

وما من احد من الفريقين لم يوجب التكليف، بل الملاحدة الذين ينكرون وجود الله أوجبوا التكليف ، والجميع سواء في وجوبه خضوعاً منهم لوجدانهم وإيماناً منهم بضرورته ، وعرفاناً منهم بجدواه .

وهذا يكفي للعلم بضرورة الإيمان بالقضاء والقدر من قبل المؤمنين بوجود الله ، ويكفي للعلم لدى الملحدين أن قوة عليا أوجدت نظام الكون وفرضت عليه التكليف مع تفاوت درجاته بنسبة المكلَّف .

وإن علم الله بما كان وبما سيكون حق ، ونقول : بما كان وسيكون على اصطلاحنا الإنساني الذي قسم الزمن إلى ماض وحاضر ومستقبل مع أن الزمن في وجوده ليس خاضعاً للتقسيم الإنساني ، ولكنه أوجده العقل الإنساني لينظم عليه حياته .

فعلم الله قديم لأنه سبق العالم والزمان اللذين هما حادثان ، وعلم الله بما يكون من خلقه من بدء الخليقة حتى نهايتها ليس معطلاً لإرادة الإنسان ولا سالباً حريته .

ولأقرب إلى الذهن هذا المفهوم أمثِّل له بعمل إنساني .

سمعت رجلين يتآمران ، وعلمت بمؤامرتهما التي أرادا منها نسف محطة

بنزين ، ورأيت في يد أحدهما قنبلة يتجه بها إلى المحطة ، وأخبرت زميلاً لي بالتلفون أن محطة بنزين كذا ستنسف بعد ساعة ، ونسفت المحطة حقاً في الموعد المحدد .

هنا سلسلة من الأفعال ، فأنا علمت بالمؤامرة ، وعلمت بالحادث الذي سيقع ،ولم أكن أتحدث بالغيب بالنسبة لي،وإن كان من أخبرته بالحادثة قبل وقوعها يحسبني متحدثاً بالغيب ، ويتأكد له بعد وقوع الحادث إنني تكهنت أو علمت الغيب قبل أن يظهر ويُعلَم .

أعِلْمي السابق منعَ المتآمرين من تنفيذ خطتهما ؟ أعلمي السابق سبب ما وقع منهما من الفعل ؟ إعلمي السابق سلب إرادتهما فمضيا في فعلهما مجبرين .

إن علمي ليس سبباً للفعل ، ولم يغير من إرادتهما شيئاً ، ولم يؤثر على حريتهما ، ولم يمنعهما من فعل ما أرادا .

ولنزيد الأمر توضيحاً نقول : إن الله عز وجل خلق الإنسان وزوده بأعضائه وبجوارحه ، وجعل لكل وظيفة عضواً ، ولكل عضو وظيفة ، وفي وسع العضو فعل الخير وفعل الشر باختيار صاحبه غير مجبر عليه بحيث يكون الحتم الذي لا فكاك منه .

وأنت إذا أعطيت إنساناً مالاً ليتصرف به فيما ينفع ، وهو حر بطبيعته ، فإذا سخره للخير فهو حر ، وإذا سخره للشر فهو حر ، وليس المعطي في الحالين مسئولاً ، فهو لم يأمره بفعل الشر بل نهاه عنه ، ولم يجبره .

فالإنسان مزود بالقدرة على فعل الخير وفعل الشر ، وعلى أساس هذه الحرية يكون الجزاء : ثواباً وعقاباً .

وقد مر في مبحث « القضاء والقدر » حديث عمر عن رسول الله ﷺ إذ سئل عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم

ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ [1] الآية ، فقال ﷺ : « إن الله خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل : يا رسول الله ، فلمَ العمل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله إذا خلق الرجل للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق الرجل للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » .

والذين لم يفهموا القضاء والقدر فهماً صحيحاً وسليماً اتهموا الله تبارك وتعالى بمحاباة من كتب عليهم أن يعملوا بعمل أهل الجنة ويدخلهم الجنة، واتهموه سبحانه بظلم من كتب عليهم أن يعملوا بعمل أهل النار حتى يدخلوها ، وأصدروا حكمهم هذا وكأن الله عز وجل مثلهم يسأل عما يفعل ، وغاب عنهم أنه غير مسئول عن فعله .

ولتقريب مسألة القضاء والقدر وحكم الله نضرب بعض الأمثال رجاء أن يفهموا ما يجب أن يفهموه من الحق .

إذا كان لديك أيها القارىء بستان خصصته بزراعة الزهور ، وجعلت قسماً منها للزينة يأخذ مكانه من نحور الحسان ومجالس السرور ، وقسماً للنار تعمل منه العطور ، أفأنت مسئول ومحاكم على ما فعلت ؟ .

ما أظن أحداً يحاسبك ويتهمك بالمحاباة في بعض عملك وبالظلم في بعضه الآخر .

وإذا كان لديك بستان يحوي شجراً مثمراً ، فأخذت بعضه للوقود ، وبعضه للزينة ، أفأنت محاسب على ما تملك وعلى ما تفعل به ؟ ما أظن أحداً

---

(١) الأعراف : ١٧٢ .

يحاسبك ويحكم عليك بالظلم في إحراق بعض الشجر ، وما ثم من يتهمك بمحاباة الشجر الذي اتخذته للزينة .

فكيف يصح اتهام الله ومحاسبته فيما يملكه ولا نحاسب نحن على أفعالنا ؟

إذا كنا نحن لا نحاسب فيما نملكه فإن من الظلم بل من الكفر أن يجعل بعضنا من أنفسهم قضاة يحكمون على الخالق جل جلاله .

وهؤلاء يعطون أنفسهم ما ليس بحق لهم . ويأخذونه ببعض ما جاء في الكتاب عن الله ويغفلون بعضه ، فهم يأخذون أن الله خالق وفعَّال ، ويغفلون عن العدل الذي اتصف به الله ، ولا يمكن تحرير الله من بعض صفاته ، بل لا بد أن نثبت كل الصفات التي وصف بها نفسه ، ويجب أن نؤمن بها جميعاً إيماناً حقاً ، نؤمن بأنه خالق وبأنه عادل ، وأنه رحيم وأنه شديد العقاب .

وعندما نؤمن بكل صفاته مجتمعات يزول من أذهاننا فكرة الإتهام ، وعن قلوبنا وساوس الضلال والكفر .

فالله — جل جلاله — لا يحكم عليه من خلقه بأدلة وقرائن تتفق مع ما فينا من غرائز وميول ونزعات ، لأن الله هو وحده الحاكم الفرد ، ولا يمكن أن يكون محكوماً ، والله هو وحده الخالق الفرد ، ولا يمكن ان يكون مخلوقاً ، وإلا انتفى عنه الحكم والخلق وهذا لا يمكن أن يخضع للتصور فضلاً عن الحكم .

والله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ووهب له القدرة على الفعل واختياره ، فالإنسان مخيَّر في فعل ما يريد من الخير ومن الشر ، وهناك أمور لا اختيار له فيها ، فهو يحاسب فيما فيه الاختيار ، ولا يحاسب فيما هو مجبر عليه وفيما لا يملك فيه الاختيار .

هو محاسب على أفعاله ، لأنه يفعلها بإرادته ، وغير محاسب على إحساسه بالمسرة والكآبة ، ولا على نمو جسمه ، ولا على الأعمال التي تؤديها أعضاؤه فيما لا يملك التحكم فيها مثل اشمئزازه من منظر القبح أو الرائحة الكريهة ، ومثل التبول ، ومثل أعمال الغريزة .

فالإنسان مخيَّر في أفعاله التي يملك السيطرة عليها ، وغير مخيَّر فيما لا يملك التحكم فيه ، فنمو جسمه غير خاضع لإرادته ، فهو غير محاسب فيه ، ولكن توجيه الأعضاء إلى فعل ما هو منهي عنه خاضع للحساب .

وإذا كان المخلوق منا لا يحاسب غيره على فعل ما أكره عليه فإن الله تبارك وتعالى أكبر من أن يحاسب من خلقه على ما يكره عليه ، وإنما الحساب في العمل يملك صاحبه الاختيار في فعله أو تركه .

ويجب على الإنسان أن يؤمن بقدرة الله وبكل صفاته إيماناً حقاً ، وعندما ينبثق نور الإيمان في قلبه فإنه يؤمن بأن الله غير مسؤول عما يفعل ، والعدل الذي يتصف به ينفي عنه الظلم نفياً ، وعندما نؤمن بكل ذلك حق الإيمان لن يخطر بالبال أي سؤال يتصل بالشك أو الضلال أو الكفر ، لأن الإيمان يحملنا على قبول كل ما جاء عنه سبحانه وتعالى بالتسليم ، فلا يكون لدينا في أمر القضاء والقدر إلا التسليم الذي يقترن به الأمر والطمأنينة .

ونخلص من هذا المثال وما سبقه إلى أن للإنسان إرادة حرة ، ولكنها ليست بمعزل عن إرادة الله في تقيُّد إرادة الإنسان بنظام الكون العام الشامل الذي أوجده الله ليأخذ كل شيء فيه مكانه الخاص به ، ومن هذا النظام المحكم الدقيق أُعطِيَ الإنسان إرادة حرة فكان بها مخيراً ، وبحكم هذا النظام خضع الإنسان وإرادته وفعله لأسباب ومؤثرات فكان مسيَّراً ، ولكنه غير مشدود للنقيضين بحيث يكون على طرفي نقيض ، بل يلتقي في إرادته الضدان فيكون مسيراً في اختياره ، ومخيراً في تسياره ﴿ سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ .

ونزوله بين الضدّين وأخذه بهما يجعلانه مدار التكليف ، ويدفعانه إلى أن يستزيد من ثمار إرادته الحرة ، فيأخذ منها ما تعطي من الخير ، ويترك ما تهب من الشر ، ويعمل ما فيه صلاح نفسه صلاحاً يرضي خالقه الرحيم ، فيضاعف له حسناته ويجعلها تُذْهِب سيئاته فيناله من الله الرضا والغفران .

دعاوى وأباطيل

هذا موجز عقيدة الإسلام ، وليس بين أيدينا عقيدة أكمل منها على الإطلاق في عصمتها هي نفسها من النقائص التي نشهدها في العقائد الأخرى ، وفي تنزيهها للخالق تنزيهاً يليق بجلاله وعظمته، وتجعله منفرداً في ذاته وأسمائه وصفاته فلا شريك له ولا مثيل .

ومع كمال عقيدة الإسلام الذي اعترف به أكبر فلاسفة الأرض في هذا العصر وأعظم علمائه من أبناء الديانات الأخرى في مؤلفاتهم تعرضت هذه العقيدة العظيمة السليمة للطعن من أناس لا يمكن أن يوصفوا بغير الحقد على الإسلام أو الجهل به أو بهما معاً .

وأبشع فرية افتروها على الإسلام أنه صورة مشوهة من اليهودية والمسيحية أو صورة ملطفة لليهودية ، وأنه مكون منهما ومن غيرهما من الديانات .

ومن أشد أعداء الإسلام : أجناس جولدزيهر المستشرق اليهودي المجري (١٨٥٠ — ١٩٢١) فقد تجنَّى على الإسلام عقيدة وشريعة تجنياً حقوداً قذراً في كتابه « العقيدة والشريعة في الإسلام » (١) ودافعه إلى هذا التجني حقد على

(١) ترجمه إلى اللغة العربية الأساتذة محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق والدكتور علي حسن =

الإسلام وعلى رسول الله وجهل بهما يظللهما لؤم لئيم .

يقول جولدزيهر : « تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً ، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه ، وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت في رأيه كذلك ضرورية لتثبيت ضرب من الحياة في الإتجاه الذي تريده الحياة الإلهية .

لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه وأدركها بايحاء قوة التأثيرات الخارجية ، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه ، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً ، فأصبح — بإخلاص — على يقين بأنه أداة لهذا الوحي » (ص ٥ — ٦) .

ويقول (ص ٧) : « في خلال النصف الأول من حياته اضطرته مشاغله إلى الإتصال بأوساط استقى منها أفكاراً أخذ يجترها في قرارة نفسه وهو منطوٍ في تأملاته أثناء عزلته » .

ويقول (ص ٨ — ٩) : « وفي بدء رسالته كانت تأملاته تأخذ طريقها إلى الخارج في شكل أمثـال مضروبة للحيـاة الأخرى eschatogi gues كانت تفرض نفسها على مخيلته بقوة تزداد يوماً بعد يوم ، وهذه التأملات هي التي كونت الفكرة الأساسية التي بنى عليها تبشيره وما سمعه أو عرفه عن يوم الحساب الذي سيقع يوماً ما على العالم كالصاعقة أخذ يطبقه على الأمور التي يراها حوله والتي كانت تملأ نفسه اشمئزازاً ، فتراه يواجه عدم اكتراث سادة مكة وكبرياءهم وجبروتهم بإنذارهم بيوم الحساب القريب منهم ،

= عبد القادر وطبعته دار الكاتب المصري سنة ١٩٤٦ م والنصوص المنقولة منه من ترجمتهم وقد قاموا برد مفتريات المؤلف في الحواشي الثمينة التي كتبوها .

ويرسم لهم بحروف من نار صورة البعث وصورة الحساب .

و « ما كان يبشر به خاصاً بالدار الأخرى ليس إلا مجموعة مواد استقاها بصراحة من الخارج يقيناً ، وأقام عليها هذا التبشير ، لقد أفاد من تاريخ العهد القديم ، وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء ، ليذكر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصر الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم الذين ارسلهم الله لهدايتهم ، ووقفوا في طريقهم ، وبهذا انضمّ محمد إلى سلسلة أولئك الأنبياء القدماء بوصفه آخرهم عهداً وخاتمهم » .

ويقول (ص ١٧ وما بعدها) : « أما المذاهب والقواعد الوضعية الواقعية فكانت ذات طابع انتخابي كما سبق أن أوضحنا ، وقد ساهم في تكوين عناصر هذه العناصر والقواعد الدين اليهودي والدين المسيحي على سواء ، وتفاصيل هذه المساهمة أو الإشتراك لا محل للحديث عنه هنا .

«ومن المسلّم به من الجميع أن العقيدة الإسلامية في صورتها النهائية قامت على خمس قواعد وأركان أساسية هي : أولاً : الإعتقاد بالله الواحد والاعتراف بمحمد رسول الله . ثانياً : شعيرة الصلاة التي كانت بصورتها الأولى من قيام وقراءة وبما فيها من ركوع وسجود وبما يسبقها من وضوء تتصل بالمسيحية الشرقية . وثالثاً : الزكاة التي كانت في أول الأمر صدقات اختيارية ثم صارت بعد جزءاً معيناً أو ضريبة محددة تنفق في سبيل تدبير حاجات المجموع . رابعاً : الصوم الذي جعل أولاً في اليوم العاشر من الشهر الأول ، أي عاشوراء، محاكاة للصوم اليهودي الأكبر ، ثم نقل بعدئذ إلى شهر رمضان . وخامساً : الحج إلى المعبد الوطني العربي القديم في مكة أي إلى الكعبة بيت الله ، وهذا الركن الأخير احتفظ به محمد عن الوثنية ، لكنه جعله متفقاً والتوحيد ، وعدّل معناه مسترشداً في ذلك ببعض الأساطير الإبراهيمية .

« وكذلك بعض عناصر القرآن المسيحية نعرف انها وصلت إلى محمد عن طريق التقاليد أو الروايات المتواترة المحرفة ، وعن ابتداعات المسيحية الشرقية

القديمة ، كما ينضمّ إلى هذا وذاك شيء من الغنوصية الشرقية ، وذلك لأن محمداً قد أخذ بجميع ما وجده في اتصاله السطحي الناشىء عن رحلاته التجارية ، مهما كانت طبيعة هذا الذي وجده ، ثم أفاد من هذا دون أي تنظيم .

« وفي سبيل التمثيل لذلك نذكر أنه ما أعظم الفرق بين فهمه وتصوره السابق لله ، والكلمة ذات النزعة التصوفية (سورة النور : ٣٥) التي يسميها المسلمون آية النور .

« فالنزعة التي كانت تسود في الأوساط الغنوصية (المرقيونيون وغيرهم) والتي كانت ترمي إلى الحط من قيمة شريعة العهد القديم ، واعتبار هذه الشريعة صادرة من إلـه شديد بعيد عن الرحمة قد نفذت إلى الأفكار التي نشرها النبي بخصوص شريعة اليهود وبخاصة فيما يتعلق بما حرمه الله عليهم من المآكل عقاباً لهم على عصيانهم ، وقد نسخ الله هذه التحريمات إلا أشياء قليلة جداً مستثناة ، إن الله لا يحرم على المؤمنين أي شيء طيب .

« أما ما فرضه على اليهود من قوانين فهو قيود والتزامات (سورة البقرة : ٢٨٦ ، سورة النساء : ١٦٠ ، سورة الأعراف : ١٥٧) وهذا يشبه كثيراً النظريات المرقيونية إن لم نقل إنه مطابق لها تماماً .

« وكذلك التقليد القائل بوجود دين قديم نقي كان يجب على النبي تقويمه ، وأيضاً الإفتراض القائل بتحريف الكتب المقدسة ، هذان وإن كانا قد طبعا بطابع أقوى في الإسلام إلا أنه وُجِدَ لهما أصل في بعض الأفكار التي تتصل اتصالاً وثيقاً بتعاليم القديس كليماندس المسيحية .

« وبعد أولئك جميعاً نجد النحلة البارسية الزرادشتية التي لاحظ الرسول وجود أنصار لها باسم المجوس إلى جانب اليهود والمسيحية لم تمر دون أن تترك أثراً في شعور النبي العربي ، فقد قابلها بالوثنية وبالدين الموسوي والدين المسيحي أيضاً ، وقد اتخذ عن « البارسية » تعليماً هاماً وهو إنكار يوم السبت على أنه يوم ارتاح الله فيه من العمل فصار راحة عامة ، وجعل يوم الجمعة

هو يوم الإجتماع الأسبوعي ، ومع تسليمه بأن الله خالق العالم في ستة أيام فإنه رفض عامداً فكرة أن الله استراح اليوم السابع ، ولذلك لم يجعل يوم الجمعة يوم راحة بل يوم اجتماع يستأنف العمل به بعد الانتهاء من صلاة الجمعة » .

هذا ما يقوله جولدزيهر في إصرار ، ويسوقه وكأنما يقدم حقائق علمية مقررة ، والحق أن يهوديته كانت تسيطر عليه ، وتناول الإسلام وقد حكم عليه قبل أن يبدأ بحثه بالمسخ والتشويه والزراية ، بل تناول قضية الإسلام وهو مُصْدِرٌ الحكم ضده ، فأخذ يصطنع ما يحسبه أدلة ، ويزيف ويجمع ما يدين الإسلام ، وزاد من حقده أنه لم يستطع فهم حقيقة الإسلام وتاريخه ولا استجلاء روحه فكان عمله قائماً على محاربة الإسلام وتشويهه ومسخه .

وقد سبقه أمثاله من ذوي الهوى الباطل والحقد على الإسلام في ذكر الزعمات التي تشبث بها جولدزيهر والقائمة على أن الإسلام صورة مشوهة لليهودية والمسيحية كما عاصره أو خلفه من ذهبوا هذا المذهب ، ومنهم « ديتلف نلسن » ولكنه كان أكثر اعتدالاً من زيهر ، وإن لم يستطع أن يفهم الإسلام فهماً صحيحاً فتخبط في آرائه وتجنب الحق ، وفي بعض ما ذكره يعد رداً على زيهر وأمثاله وإن لم يذكر أسماء .

يقول نلسن (١) :

« أمّا (الله) في الإسلام فهو ولا شك آخر مظهر من مظاهر تطور معنى الله التاريخي في ديانة بلاد العرب الجنوبية ، وهذا « الله » المسلم لا شريك له ، وهو يجب أن يعدّ ضمن آلهة بلاد العرب الجنوبية ، أما في بلاد الحبشة فنجد المسيحية تحل محل الوثنية القديمة كدين رسمي ، لكن من الخطأ المبين أن نعتبر

---

(١) الشواهد التي ذكرناها هنا من كلام نلسن منقولة من كتاب « التاريخ العربي القديم » تأليف نيلسن وغيره وترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ، طبع مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٨ راجع الصفحات ١٨٠ - ١٨١ .

كما هو شائع الآن أن إلـه القرآن هو خليط من آراء يهودية وأخرى مسيحية ، وهو إلـه ساميٌّ شمالي ، نعم كان الجو الديني في بلاد العرب بعد ظهور المسيحية ملبداً بالغيوم في كثير من الأماكن ، وهو خليط من عناصر يهودية وأخرى مسيحية ، ويلاحظ ذلك في النقوش وكذلك في الكتب وخاصة في القرآن الكريم ، لكن فيما يتعلق بالله فإن تلك المظاهر الدينية عند العرب وخاصة فيما بعد عند الكثرة المطلقة من الساميين الشماليين كانت مظهراً من مظاهر الانتقال من الوثنية إلى الإسلام ، وذلك لأن محمداً تهكم كثيراً على المظاهر الدينية الشمالية وتقديسها للصور والأشخاص ، كذلك تهكم على تعدد الآلهة عند العرب الجاهليين ، فـ « الله » في الإسلام هو إلـه واحد وهو رب العالمين ، وهو من هذه الناحية يختلف عن إلـه اليهود الخاص بهم ، وهو بعيد أيضاً عن تعدد الآلهة عند المسيحيين والساميين الشماليين ولم يتصور يوماً ما كإنسان .

« أما ما يتعلق بشخصية هذا الإلـه حسب تعاليم القرآن فهو من كل ناحية يتصف بصفات تجعل منه « رب العالمين » وهو إلـه غير سياسي ، وهو و « إلـه النقوش » العربية القديمة صنوان ، والفرق بينهما فقط في أن الإسلام خصه بصفات وخواص على حساب الآلهة الأخرى ، حتى أن بقية الآلهة تلاشت أمامه ، ومن ناحية أخرى فإن الإلـه الجديد متصل في الذات بالله القديم ، وذلك لأن الوثنية السامية الجنوبية القديمة كانت تتصف بذلك الإلـه الذي كان يعرف منذ العصور القديمة كرب للآلهة بينما إلـه الساميين الشماليين قد اختفى في آلهة أخرى منذ قرون عديدة قبل الميلاد عند الساميين الشماليين .

« إلـه القرآن يكون الخاتمة الطبيعية لتطور فكرة الله عند الساميين الجنوبيين ، وذلك لأنه لم تقم في العصور الإسلامية المتأخرة أية محاولة جديدة في العقيدة بالله ، ففكرة الله في الإسلام ذكرها الإسلام وأثبتها ، وكل ما في الأمر هو شرح القرآن وتفسيره ، لذلك فإن كل المراجع الدينية والمصادر التي بأيدينا تتجه دائماً إلى فكرة الله كما عرض لها القرآن وأخذ باب الاجتهاد يوصد

تدريجياً حتى أصبحنا أمام مذاهب دينية محافظة غير قابلة للتجديد .

« ولعل من حسنات هذه المحافظة أنه وصلت إلينا اليوم معلومات قيمة عن رب إلـه العرب الآخرين كما نعلم الآن كثيراً من عناصر الوثنية التي ما زالت مدسوسة في طيات الديانات الشعبية الحية .

« وكما أن الديانة الإسلامية حافظت على إله من آلهة المتقدمين كذلك اتخذت بعض أعياد ومقدسات الوثنية أعياداً ومقدسات لها ، فإلى الآن يقوم القادرون من المسلمين بالحج ويحتفلون به في مكة ، وعيد الحج هذا هو العيد الخريفي في العصر الوثني ، والهيكل الوثني ما زال قائماً في مكة حتى اليوم .

« أما عيد الحج فقد غُيِّر طبعاً بعض التغيير ، ومعبد الله القديم قد ظهر من الآلهة الآخرين ، لكن حتى في الحج وفي الكعبة وفي كثير من العادات والطقوس والتقاليد الإسلامية ما زلنا نجد حتى اليوم كثيراً من بقايا الوثنية الأولى ، لذلك من الهامّ جداً أن نقوم بدراسة جديدة في بلاد العرب والحبشة لجمع بقايا تلك العصور الوثنية ، والتي ما زالت حتى اليوم حية بين السكان ».

يقول نلسن (١) :

« ومنذ أن اصدر « أبراهام جيجر « كتابه » ماذا أخذ محمد من اليهودية
Abraham Geiger, Was hat Mohammed aus dem judenthume
واتجه نظر العلماء إلى البحث عن اصول الإسلام في اليهودية ، وما كاد « فلهوزن » يصدر كتابه عن بقايا الوثنية العربية إلا واعتبرت المسيحية مصدراً آخر من مصادر الإسلام الرئيسية .

« حقيقي أن الثقافة السامية الشمالية تركت أثرها في شمال بلاد العرب ، وحقيقي أيضاً أن اليهودية والمسيحية انتشرتا في بلاد العرب قبل عصر محمد

---

(١) التاريخ العربي العام ، الصفحات ٢٤٠ — ٢٤٤ .

بزمن بعيد ، وحقيقي كذلك أن محمداً عرف هذه الديانات ، كما أنه استعان بها هي في الواقع بالنسبة للنبي العظيم أمور ثانوية سطحية جداً بالنسبة للإسلام وجوهره وبالنسبة لنظرته إلى الله .

« ومن هذه الناحية نجد أثر اليهودية والمسيحية ضئيلاً جداً ، ولولا ذلك ما استطاع الإسلام أن يظهر كدين مستقل له أصوله وتعاليمه التي وقفت وتقف إلى اليوم تواجه اليهودية والمسيحية .

« نعم ، إن محمداً جادل اليهود والمسيحية ولم يتوانَ عن ترديد القول إن ربه هو الرب الذي كان للعرب من قبل ، والذي صلى له العرب قديماً وعبدوه ، وهذا الرب لم يكن للعرب الرب الأعلى (سورة ٢٣ ي ٨٦ — ٩٢) و (سورة ٢٩ ي٦١ وي٦٣) و(سورة ٣٠ ي ٣٩)و(سورة ٣١ ي١٠ و٢٤) و (سورة ٣٢ ي ٣) و (و سورة ٣٥ ي ٣٨) و (سورة ٣٩ ي ٣٩) بل الأحد أيضاً في وقت الشدة والضيق (سورة ١٦ ى ٥٥) و (سورة ٣٩ ي ٦٥) و (سورة ٣٠ ي ٣٢) و (سورة ٣١ ي ٣١) و (سورة ٣٩ ي ١١ ، ٥٠) وكلما عثرنا على مادة من مواد تاريخ بلاد العرب القديمة والديانات السامية كلما تزداد عقيدتنا في صحة هذه الصورة التي يرسمها لنا القرآن .

« ولفظ «الله» الوارد في القرآن هو « آل » أو « إلـَه» الوارد في النقوش العربية القديمة ، وأكثر من ذلك فكثير من أسماء الله وصفاته الواردة في القرآن نجده في هذه النقوش القديمة ، كذلك بعض الإصطلاحات الدينية الخاصة بالإسلام وهذا موضوع جدير بأن يعالج على حدة ، ونحن نكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة.

« (الرحمن) استعمله القرآن في العصر المكي كثيراً عوضاً عن « الله » ولفظ « الرحمن » هو في الواقع اسم الإلـَه في السبئية (رحمن ان) .

« (الرحيم) استعمله القرآن كثيراً كلقب لله ، وهو يوجد في النقوش الصفوية كاسم لإلـَه (ه رحيم) (هرحم) وفي النقوش السبئية (رحيم) (رحم) .

« ومن بين مجموعة الأسماء الواردة في القرآن وفي النقوش العربية القديمة التي تصف الله بأنه حبيب البشر ، وأنه هو الذي يريد لهم الخير ، وأنه قريب وصديق نجد لفظ « ود » فلفظ « ود » يدلنا حقيقة على هذه المعاني ، وكذلك الحال مع الأسماء الأخرى الواردة في القرآن مثل « سميع » و « حليم » كما نجد الاسم العربي القديم (حكيم) وهو يصف الله كحكيم ، ونفس اللفظ نجده في القرآن (حكيم) وغير هذه الأسماء نجد الشيء الكثير .

« وعلى العكس من ذلك فالإسلام يرفض كل الأسماء التي تصور الله كوالد ، وكذلك الألفاظ الدالة على أي نوع من قرابة بين الله والناس ، « الله » ليس « والداً » بل هو « رب قوي » وأحياناً يجلس على عرش بعيد المنال ، والإنسان ليس طفلاً أو ابناً لله ، بل عبد ، فالفرق بين الله والإنسان بعيد جداً ، فالنظر إلى الله بهذا المنظار له أسبابه القديمة جداً في الوثنية السامية الشمالية التي انتشر أثرها في الجزيرة وبلغ المدينة ومكة في العصور القديمة ، وكذلك نجد «الله» عند النبي يشبه « آل » « أو « إلـه » عند العرب الأقدمين ، فهو مثلهما إلـه عالمي ، ولم ينظر إليه بتاتاً كإنسان .

« أين وطن التوحيد ومن أين جاء ؟ فالقول بانفراد هذا الله بالسلطان من أثر المسيحية مرفوض ، فالمسيحية التي كانت حتى عصر محمد لم تكن توحيدية بل متعددة الآلهة ، فيسوع وأمه كانا يقدسان ككائنين إلهين ، وقد تكون اليهودية قد أثرت ، لكننا نعلم أن إلـه اليهود كان إلهاً قومياً ولم يكن عالمياً .

« لكن نبي الإسلام لم يرد بخصومه في القرآن أنه أول موحد في العالم ، بل نرى الحديث عنه وعن التوحيد يشمل عدداً من الأشخاص خاصة أولئك الأنبياء الذين قد سبقوه ودعوا لنفس الله وعبدوه ، ومن بين هؤلاء نجد أشخاصاً من الكتاب المقدس ، كما نجد أنبياء عرباً أرسلهم الله لمختلف الشعوب العربية القديمة .

« ومحمد يشعر بالقرابة الشديدة بينه وبين هؤلاء الأنبياء الذين لم يتركوا لنا كتابات أكثر من قرابة للأنبياء الآخرين ، لذلك يسمى نفسه النبي الأمي (سورة ٧ ي ١٥٦) ولفظ « حنيف » « آرامي حنيف » يدلنا في نفس الوقت على الفرق بين هؤلاء وبين أصحاب الديانات التي تركت كتباً .

« وإذا بحثنا عن الذين مهدوا للتوحيد الذي يدعو إليه القرآن فإننا يجب أن نلجأ إلى القرآن نفسه، فالكتاب الكريم يشير إلى أن توحيده مستمَد من بلاد العرب القديمة ، وهنا نفس التطور والتدرج الذي انتهى إلى محمد وختم به ، فهو خاتم الأنبياء والرسل حقاً ، ويرى « هوبرت جريمة » أن التوحيد الإسلامي انعكاس للتوحيد العربي الجنوبي ونظرة التوحيد الإسلامي إلى الله نظرة عربية جنوبية فهو « رحمن » وعند الجنوبيين « رحمن ان » وهو سيد السماوات والأرض .

« ويحاول هذا العالم أن يثبت من عبارات القرآن وألفاظه أثر العرب الجنوبيين في الإسلام ، إلا أن « جريمة » لم يوفق فيما ذهب إليه ، ومثله مثل « مرجوليوث » الذي ذهب بعيداً في آرائه .

« يجب ألا نعتقد أن قيام الإسرائيلية أو الإسلامية تأثر مباشرة ببلاد العرب الجنوبية ، فما الإسلام إلا خاتم حركة التطور التي بدأت في بلاد العرب القديمة ، وقد كانت الثقافة العربية القديمة وقت ظهور الإسلام قوية جداً في بلاد العرب الجنوبية .

« كما أن كثيراً من الاصطلاحات الإسلامية الدينية التوحيدية نجده في النقوش العربية الجنوبية ، فلفظ « شرك » مثلاً هو التعبير الفني للقرآن عن تعدد الآلهة ، وقد جاء هذا اللفظ في نقش سبئي دالاً على نفس المعنى .

ولدينا من النقوش ما يبشرنا أننا بدراستها نستطيع أن نؤرّخ ونفهم العصر الذي سبق الإسلام فهماً صحيحاً » .

وكثيرٌ من المستشرقين وغيرهم زعموا ما زعمه جولدزيهر ، فمنهم المستشرق الهولندي راينهارت دوزى (١٨٢٠– ١٨٨٤ م) وقد أبعد في الذهاب إلى أثر اليهود في الحرم نفسه وفي غيره ، فزعم أن بطون بني شمعون هي التي عمرت الحرم ، وأن شعائر الحج هي من أصل إسرائيلي ، وأن لليهود أثراً في أسماء الأيام العربية ، فالسبت تسمية يهودية و « عروبة » هي التسمية القديمة ليوم الجمعة – تسمية يهودية .

وللبارون فون كريمر [1] كتاب اسمه المترجم به إلى العربية « الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الاجتماعية » يقول فيه (ص ٥٢) :

« قام بناء الإسلام على أنقاض الحضارات السابقة وتضمن عناصر قديمة غيَّر فيها تغييراً جزئياً ، وأضاف أشياء جديدة من صنعه هو ، وإن الفصل بين تلك العناصر الجوهرية المختلفة وترتيبها وتتبع وتقرير علاقاتها وارتباطاتها بعضها ببعض هو عمل العلم الحر النزيه الذي لا شعار له سوى كلمة الصدق » .

ويقول (صفحة ٥٥) :

« وقد أخذ الإسلام الشيء الكثير عن اليهودية والمسيحية ودين زردشت ، ومن المحتمل أن يكون قد أخذ عن المانوية ، وقد أخذ عن البرسية بطريق مباشر إذ أن عدداً من الأفكار البرسية الواضحة تسربت إلى الإسلام عن طريق الكتب اليهودية وبخاصة التلمود ، فنظرية البعث ومعظم الأساطير المتعلقة بالجنة والنار

(١) ولد كريمر في فيينا سنة ١٨٢٨ وتوفي سنة ١٨٨٩ م وهو مستشرق نمساوي ، وكان قنصل النمسا في بيروت ومصر ، ونشر بتحقيقه كتاب « الاستبصار في عجائب الابصار » وألف كتاب « الحضارة الإسلامية » الذي ترجمه إلى العربية الدكتور مصطفى طه بدر المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، وطبعت الترجمة العربية بالقاهرة ، ومقدمة المترجم تشير في نهايتها إلى هذا التاريخ ١٩٤٧ ونقله من الألمانية التي ألف فيها المؤلف كتابه إلى الانجليزية المؤرخ الهندي خدابخش الذي ألف هو نفسه كتاباً اسمه « الحضارة الإسلامية » ترجمه إلى العربية الدكتور علي حسني الخربوطلي مدرس التاريخ الإسلامي بجامعة عين شمس ، وطبع بمصر سنة ١٣٨٠ ﻫ (١٩٦٠) .

ونظام الجن بأكمله دخل القرآن عن طريق اليهودية ، وهكذا الحال فيما يختص بوصف الحساب وتعذيب الميت في قبره بوساطة الملكين منكر ونكير. ومن المؤكد أن فكرة الصراط الدقيق كالشعرة الذي يوصل إلى الجنة عبر وهدة النار مستمدة من البرسيين ، وكان وصولها إلى القرآن عن طريق المدراش ، على أن الإسلام لم يتردد في الأخذ عن البرسية مباشرة .

« وهناك حقيقة هامة وهي أن كلمة « دين » التي ترد مراراً وتكراراً في القرآن أخـذت من الكتب البرسية وهي تظهر في الهزوارش Huzvaresh بالصيغة ذاتها تماماً ، وهي في اللغة البكترية القديمة دين Daena .

« ومن الواضح جداً فيما يتعلق بالطقوس أن كل المناسك الخاصة بالحج وتأدية الفريضة في البيت الحرام بمكة بقيت في الإسلام كما كانت في أيام الوثنية العربية بتغيير قليل أو بغير تغيير ، والطقوس الدينية الآن في جامع مكة على ما كانت عليه منذ ألف وخمسمئة سنة مضت ، وأهل مكة يعتبرون أنفسهم خداماً للبيت الحرام طبقاً للاعتقاد الوثني .

« وقد قال لي منذ وقت قصير أحد أهالي مكه — وكان مسافراً معي من بيروت إلى مصر على باخرة واحدة « نحن أولاد الشمس وخدامين الحرم ».

« ويرجع أصل الحج إلى بيت مكة كما هو معروف جيداً إلى أقدم العهود ، إذ كان يحتم على الناس الذين يزورون مكة طبقاً للعادة الوثنية أن يبدوا عراة ولم يكن يستثنى من هذا النساء ، وكان على الحجاج حقاً أن يطوفوا سبع مرات حول الكعبة عراة ، وكانت لقريش وحدها ميزة ارتداء الملابس وإعارتها للحجاج الأجانب ، وقد نشأت من هذا تجارة رابحة جداً .

« والتغيير الوحيد الذي أدخله محمد ﷺ هو أنه سمح للحجاج أن يرتدوا نوعاً من لباس الحج يتألف من قطعتين من القماش تغطي إحداهما إلى أعلى

الفخذ وتغطي الأخرى الصدر والأكتاف على أن تبقى الرأس عارية [1] على ما كان عليه الحال في الأيام السابقة حين كانوا يجعلون من شعرهم نوعاً من الضفيرة بمادة غروية ، ولا تزال عادة الحج هذه. وقد كان من عاداتهم في الجاهلية بعد زيارة الكعبة أن يزوروا تلّـي الصفا والمروة الصخريين ، وكان عليهما صنمان من البرونز ، وقد سار ﷺ شوطاً بعيداً في تساهله إزاء طقوس الحج الوثنية حتى أنه رضي ببقاء زيارة الصفا والمروة على ما كانت عليه قبلاً ، ولكنه أمر بإزالة الأصنام.

« ومعلوماتنا عن تاريخ أصل أوضاع الصلاة والسجود والوضوء والصيام غامضة وغير يقينية ومبهمة .

« وقد كان يوم عاشوراء يوم صيام حتى قبل محمد ، ولكن صوم رمضان يبدو أنه تقليد للصوم الكبير (صوم الأربعين) عند المسيحيين ، وهذا في حين أنه يظهر أن الوضوء والسجود قد أخذا عن طائفة يهودية مسيحية أو عن المانوية .

وكما أن مؤسس الدين العربي استقى من مصادر مختلفة كذلك سار الإسلام على طريقة الأخذ عن الغير بشكل أوسع في مرحلة تبلوره التي أعقبت موت محمد » .

ويقول الدكتور مصطفى طه بدر مترجم كتاب فون كريمر في مقدمته التي صدره بها : « هذا كتاب قيم كتبه المستشرق الكبير فون كريمر وتناول فيه الكلام على الحضارة الإسلامية الأولى وعُنِيَ فيه بصفة خاصة بإبراز ما كان للحضارات المختلفة من أثر في الحضارة الإسلامية .

و « وقد أعجبني هذا الكتاب إلى حد بعيد عندما قرأته في ترجمة

---

(١) هذا نص الترجمة ، والصواب : تذكير الرأس ، ولا يجوز تأنيث الرأس .

خدابخش الإنجليزية ، وعولت على نقله إلى اللغة العربية حتّى يستفيد بما فيه من آراء الباحثون في تاريخ الحضارة الإسلامية ، ولكي يرى طلاب تاريخ المسلمين نموذجاً للأبحاث العلمية الدقيقة التي يجدر بهم أن يحذوا حذوها إذا أرادوا خدمة العلم خدمة صادقة منتجة» .

ثم يقول مصطفى بدر في مقدمته : « وثاني هذه الأمور ما يتعلق بما جاء في الحديث الشريف وأخذه عن الديانات السابقة ، ونحن هنا لا يصعب علينا أن نوافق المؤلف فيما تثبت صحته الأبحاث العلمية الدقيقة لأن النبي ﷺ على الرغم من أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب قد كان ذكياً إلى أبعد حدود الذكاء ، وهبه الله القدرة على الاستفادة من كل ماله قيمة ، وقد كانت في بلاد العرب طقوس خاصة بالحج لا نستبعد أن يكون قد استفاد منها في وضع طقوس الحج الإسلامي .

« كما أن النبي ﷺ ذهب إلى الشام عدة مرات للتجارة ولا يستبعد أن يكون قد اتصل ببعض النصارى وأخذ عنهم بعض العبارات أو بعض التقاليد الدينية ، وعندما نزل عليه الإسلام وتركت له الحرية في تفسيره وتنفيذ المواضع العملية فيه تذكر ما رأى من قبل وسمع ، أضف إلى ذلك أن مركز المانوية كان في بابل على ما يذكر ابن النديم صاحب الفهرست ، وكان أتباعهم كثيرين منتشرين في العالم الشرقي ، ولا يبعد أن يكون النبي قد رأى بعضهم .

« هذا فضلاً عن أن المسيحية واليهودية كانت قد دخلت في بلاد العرب ، وأهل هذه الديانات كانوا على علم بالديانات الأخرى التي سبقتهم مثل المجوسيين والمانوية ، وربما كانوا الواسطة في نقل بعض ما في هذا الديانات إلى النبي » .

ويقول المترجم مصطفى بدر : « وقيمة كتاب فون كريمر العامية عظيمة جداً ، وإذا كان هذا العالم الجليل قد حاول أن يردّ كل شيء في الإسلام إلى نظائره في الديانات الأخرى أو النظم السائدة فيجب ألا يغرب عن بالنا

أنه غير مسلم وأنه ينظر إلى القرآن كما ينظر إلى أي كتاب آخر و ، لا يرى حرجاً في إخضاعه لأصول النقد ، ولا يجد ما يمنعه من الشك فيما جاء به أو رده إلى كتب أخرى سبقته » الخ .

ويقول خدابخش المؤرخ الهندي الذي ترجم كتاب فون كريمر من الألمانية إلى الهندية فيمقدمته التي كتبها له وترجمها مصطفى طه بدر مع كتاب كريمر .

« أقدم الآن للجمهور ترجمة إنجليزية لكتاب فون كريمر المسمى « تاريخ الغزوات الثقافية في بلاد الإسلام » ويعد البحث الذي أمامنا من أحسن دراسات فون كريمر التاريخية وأعظمها قيمة ، ففضلاً عن أنه بحث سليم عميق لاتمله النفس ، مليء بالأفكار قبل كل شيء، يعتبر فريداً من ناحية ما يتسم به من دقة العلم وسعة الأفق .

«وموضوع فون كريمر الأساسي هو أثر اليهودية والمسيحية والبرسية والمانوية في الإسلام ، وهو يقوم على العلم الصحيح ، ولا أثر فيه للجدل الذي منشؤه الضغينة والحقد ، كما أنه كما نتوقع خال من التحزب خلواً تاماً ومن التحامل والميل مع الهوى ، ويبسط فيه فون كريمر حقائق ولا يقف موقف المحامي عن أحد الأحزاب » .

ويقول خدابخش : « قد مضى على ظهور هذا البحث حوالي خمسين سنة، ولكنه ليس له نظير رغم التطور المستمر في جميع العلوم الشرقية » .

فخدابخش ومصطفى بدر المسلمان يوافقان كريمر فيما ذهب إليـــه ، ويتحمسان له ، ويريان أن ما ذكره في الإسلام حق، ويؤيدانه ويزيدانه توكيداً مما يدل على جهلهما بحقيقة الإسلام وبنبي الإسلام .

ومن الغريب أن يصفا بحث كريمر بالعلم والنزاهة والدقة والرغبة فيالحقيقة

مع أن كل ما ذهب إليه كريمر باطل منشؤه الحقد على الإسلام والقرآن وعلى محمد ﷺ .

وتناول كريمر الإسلام متهماً إياه ، فهو يفتعل أدلة الاتهام ويبحث هنا وهناك عن كل ما يؤيده فيه فيقتنصه ويرتبه ليدين الإسلام .

وخدابخش ومصطفى بدر أشادا به ، فالأول أراد أن يتقرب إلى المستعمر الحقود على الإسلام بتأييد عدو للإسلام ليكون من المفلحين لدى قراء الإنجليزية ، والثاني خدم أعداء الإسلام بترويج ما كتبه كريمر لدى قراء العربية وتضليلهم وتضليل طلبته في الجامعة التي يدرس بإحدى كلياتها ، وكلاهما عبد للاستعمار الفكري .

ويا سوء ما يلقنه طلابه إذا كان من هذا النوع الذي يظهر الإسلام كما يزعم أعداؤه الحاقدين وخصومه الهدامون .

إن فون كريمر لم يقصد إلى البحث العلمي ، بل قصد إلى تقويض الإسلام بزعماته وأباطيله ، فما ترك للإسلام شيئاً ، وإنما جعله مزيجاً من الديانات التي سرد أسماءها وقارن بينها وبين الإسلام مقارنة حاقدة تنتهي إلى تأييد بحثه ورأيه القائمين على أن الإسلام ليس من تلك الديانات .

وهؤلاء وأولئك زعموا باطلاً وأدعوا على الإسلام غير الحق ، فما الإسلام كما زعموا ، فهو دين يغاير اليهودية والمسيحية اللتين نعرفهما في أسفارهما ، ويخالفهما عقيدة وشريعة وآداباً وسلوكاً ، كما يغاير البرسية والمانوية وغيرهما ، وإذا كان هناك اتفاق في الأسماء فليس معناه الاتفاق في المسميات .

واتفاق الإسلام مع المسيحية واليهودية والوثنيات في الاعتقاد بالألوهية وفي اليوم الآخر وفي الصلاة والزكاة والحج لا يؤدي إلى وحدة العقيدة والفرائض والمقاصد الشرعية ، فإذا اتفق معها في الأسماء فما أشد الخلاف في المسميات.

تفنيد الأباطيل
(١)

اللهُ في اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام

عقيدة الألوهية في الإسلام تغاير كل عقائد المسيحية واليهودية والديانات الأخرى والوثنيات والفلسفات مغايرة تامة في جوهرها وأصولها ، والاتفاق في الاسم لا يقتضي الاتفاق في المسمى .

أن عقيدة الألوهية في الإسلام توحيد الله عز وجل ذاتاً وأسماء وصفات ، فهو واحد أحد، لا شريك له، ولم يلد ولم يولد، ويعلم غيب السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن ، وهو كامل كمالاً مطلقاً .

أما المسيحية فلديها الشرك والتعدد ، وليس الله واحداً ، فهناك الله الآب، والله الابن ، والله روح القدس ، وهناك فرقة تؤلّه العذراء .

واليهودية تعتقد بالتعدد وإن كانت تؤمن بوحدانية « يهوه » أو « ألوهيم » ولكنها إلى جانب ذلك تعترف بوجود آلهة الآخرين، فالله عندها إلـه قومي محلي مقصور على الشعب المختار ، فهو إلـه أشبه برئيس قبيلة أو شيخ عشيرة ، ووصفوه بنقائص البشر .

وإذا رجعنا إلى التلمود الذي ترتفع مكانته على توراتهم نجد بالتلمود في سفر باباتبرا ٧٥ حرف أ مانصه : « الحاخامون يصبحون جميعاً آلهة ، ويدعون يهوه أي الله » .

وتصف توراتهم الله بصفات معيبة ، وتتهم الأنبياء والمرسلين بالفسق والفجور والوثنية والكذب (١) .

فالإسلام يختلف كل الاختلاف عن المسيحية واليهودية في العقيدة الإلهية اختلافاً مبيناً ، هو اختلاف النقيض عن النقيض .

ويقوم الإسلام على العقل والضمير ، ولم يقم على الخوارق والمعجزات التي تدع العقل في حيرة ، فإذا آمن المؤمن يكون إيمانه بالمعجزة خوفاً ورهباً لا إيمان قناعة ورضاً ، ولم يقم على قراءة الأسرار والإنباء بالطوالع والمستقبل بل خاطب العقل ليقنعه ، وارتفع بالضمير الإنساني إلى حيث يجب أن يرتفع .

ألم تقم المسيحية على الخوارق والمعجزات التي كانت وسيلة الإقناع المكره؟ واليهودية على التنجيم والتنبؤ بالغيب ؟

أما الإسلام فقد نزه نفسه عن اتخاذ هذه السبل فجاء للعقل يقنعه ، ورضي به حكماً .

ونبيُّ الإسلام جاء بالمساواة بين البشر في الحقوق والواجبات ، ولم تكن المساواة التي جاء بها وطبقها ونفذها ليرتفع هو بها من حضيض ، بل ليمحو الفوارق التي فرضها السادة ليحموا أنفسهم بهذا التمييز ، لم يجيء بالمساواة ليرتفع ، لأنه كان بنسبه وحسبه في أعلى مكانة في العرب دون استثناء ، فهو في السنام ، ولم ينزل بنفسه إلى السفح رغبة في المساواة الدنيا ، بل رفع العبيد والعامة إلى مكانة السادة فتمت له المساواة العليا ، وساوى بين ملوك الجاه

---

(١) راجع من كتابنا هذا فصل « العالم قبل البعثة المحمدية » .

والثروة والمكانة وعبيدهم ، فلم يطغ العبد ولم يَهُنِ السيد ، بل عاشوا إخوة متحابين في الله .

فإذا استطاعت عقيدة الإسلام أن تضمن هذا وقد ضمنته فذلك من براهين كمال عقيدته .

ونحن لا ندعي أن الإسلام هو وحده دين التوحيد في جميع العصور ، بل كل الديانات السماوية كانت ديانات توحيد قبل أن يحرفها المحرفون من أتباعها ولكن التوحيد الإسلامي يمتاز عن تلك الديانات بإنسانيته وعموم رسالته.

وسبقت الإسلام ديانات غير سماوية إلى التوحيد ، ولكن ليس كتوحيد ديانات السماء ، بل هي توحيد السيادة وفرض دين الغالب على المغلوب ، وليس فيه من عدالة التوحيد شيء ، فالأمة القوية الغالبة تفرض دينها على الأمم المغلوبة ، فربُّ الغالبين مفروض على المغلوبين ، والملك المنتصر ملكهم جميعاً، فتوحيد الإلـه شبيه بتوحيد الملك ، ملك واحد في الأرض هو ملك العالم، ورب واحد هو ملك السماء ، وكلاهما يأخذ الصبغة العالمية باعتبار الأرض التي هي العالم في نظرهم مِلْك الملِك المنتصر ، وربه هو ربّ الجميع ، وكما قضى الملك المنتصر على الملوك المغلوبين قضى إلـه الغالب على إلـه المغلوبين ، وبذلك تم التوحيد في العقيدة وفي الحكم والسيادة .

وليس هذا التوحيد ضماناً للحقوق ، وليست به المساواة بين المربوبين والمحكومين مضمونة ، فالأمة الغالبة هي التي تملك الحقوق وصاحبتها ، والأمم المغلوبة ليس لها حق معلوم ولا حرية مضمونة ،فلا مساواة في ظل هذا التوحيد، ولكنه « استعمار » مقصود منه إذلال المغلوبين وتجريدهم من عقيدتهم ومن ملوكهم ، فلا عقيدة إلا عقيدة الغالب ، ولا حكم إلا له .

ولهذا تجرد هذا التوحيد من القيم الإنسانية وضمان الحرية والحقوق كما تجرد من منح الهداية للمغلوبين ، فإذا انتصرت فارس على المدن والبلدان

التابعة للروم فرضت ديانتها عليها ، وكذلك الأمر بالنسبة للروم .

أما الإسلام فغير ذلك ، فحق أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن ابن عوف وغيرهم من أقطاب صحابة نبي الإسلام محمد ﷺ هو حق العبيد سواء بسواء اذا دخلوا الاسلام ، وقد ارتفع العبيد كبلال الحبشي وعمار وأبيه ياسر إلى أعلى مكانة في الإسلام .

وإذا تركنا الأفراد واتجهنا إلى الأمم نجد الأمر نفسه ، فالأمة المغلوبة التي دخلت الإسلام مثل مصر والشام وفارس تتمتع بحقوق الغالبين أنفسهم ، ولا تمييز في حق أو واجب ، لأن الهداية والايمان والرشد والحق للإنسان أياً كان هذا الإنسان ، لا فرق في اللون والجنس واللغة ، بل العقيدة ساوت بين الجميع في الحقوق والواجبات .

توحيد الإسلام قائم على أن لا إلـه إلا الله محمد رسول الله ، فمن آمن بهذه الشهادة كان حقه مضموناً وإن كان مغلوباً ، والغالب والمغلوب سواء ، ولا سيادة لغالب على مغلوب ، بل حقهما واحد ما داما مسلمين ، والفضل — بعد — للأكرم في الإنسانية التي عبر عنها الإسلام بالتقوى ، فقال القرآن الكريم : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وقال نبي الإسلام : « لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى » وأشار النبي ﷺ إلى القلب قائلاً : « التقوى ها هنا » .

فميزة توحيد الإسلام على كل أنواع التوحيد سواء أكان توحيداً صحيحاً جاء به الرسل عن الله أم توحيد السيادة والغلبة والانتصار :

أن توحيد الإسلام توحيد الإنسانية كلها ، كل إنسان في ظل توحيد الإسلام يتمتع بالحق الذي يتمتع به الرسول وصحبه والملوك ومن يسمّون السادة ، لأنه لا سيد ولا مسود في رحابه ، كلهم عبيد الحق الذي هو الله ، وعبيد الحق وحده هم الأحرار حقاً ، لأنهم لا يتعبدون غير الواحد صاحب الحق في العبادة ولا أحد سواه يستحقها ، لا ملكٌ مقرب ولا نبي مرسل ، بل الملائكة والرسل كالناس جميعاً في العبودية ، ولا تفاضل بينهم ولا تفاوت إلا بالتقوى .

وكذب جولدزيهر اليهودي المجَري وأمثاله الذين زعموا أن محمداً أخذ عقيدته الدينية من اليهودية والمسيحية ، أو من غيرهما ، وها نحن أولاء قد عرضنا عقيدة التوحيد عند محمد ﷺ وعند غيره من يهود ومسيحيين ووثنيين ، وهي عقيدة تخالف كل ما سواها .

وأما زعم جولدزيهر أن « تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً »[1] فهو زعم باطل يهدمه الحق وواقع التاريخ ومحتوى كل الديانات التي أشار إليها جولدزيهر وأمثاله من المعادين للإسلام .

فمحمد سافر مرتين إلى الشام ، الأولى مع عمه أبي طالب ، وسافر وحده إلى الشام في تجارة لخديجة وهو في الخامسة والعشرين ، ولم يكن لديه من الوقت ما ينفقه في دراسة الديانات ، ففي السفرة الأولى كان طفلاً صغيراً ، وفي الثانية مشغولاً بالتجارة ولم يقِم بالشام إلا ريثما يبيع ما معه من سلع ، ولم يطل سفره غير أيام أو بضعة أسابيع على أكبر تقدير ، لا تتيح لأي امرىء أن يدرك خلالها من أمور المسيحية وغيرها من الديانات ما يمكنه من اختراع دين كامل .

وإذا فرضنا أنه استقى عقيدته ودينه من الديانات الأخرى ، أو بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والنصرانية فلماذا لا يعلن دعوته إلا بعد خمس عشرة سنة .

ان زيهر لم يدّع أن نبي الإسلام استقى معارفه في رحلته ، ولكن الرحلة إلى العالم المسيحي وفيه شراذم يهودية لاحول لها ولا طول يجب أن تكون أول مصدر لاستقاء هذه المعارف ، فإذا انتفى الاستقاء عقلاً ومنطقاً وواقعاً من الرحلة فقد بقي لدينا مجال آخر سنقف عنده ونتبين حقيقته .

إن العقل والمنطق والواقع تنفي الاستقاء من الرحلة ، لأنه عاد منها ولم

(١) كتاب « العقيدة والشريعة في الإسلام » لجولدزيهر ص ٥ .

يعلن دعوته ، بل عاد من رحلته كما مضى عربياً بعيداً عن الوثنيات وطقوس المسيحية واليهودية ، فلم يثبت أنه ظهر بشيء مما يتصل بالأديان الموجودة وبخاصة المسيحية واليهودية .

وإن أعداءه لم يذكروا أنه ظهر بعد عودته من الشام إلى مكة بأي عقيدة أو عبادة تتصل بالمسيحية أو اليهودية من قريب أو بعيد .

ولم يتهمه أعداؤه من كفار قريش إلا بعد النبوة والصدع بالرسالة وتلاوة القرآن ، فزعم مشركو مكة من قريش أن محمداً يأخذ من غيره من العجم – وهم غير العرب – ما في كتبهم ويدعيها لنفسة ويزعم أنه وحي .

وهذا الإتهام باطل ، فقد قال الله تعالى : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبّت الذين آمنوا وهدىً وبشرى للمسلمين * ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ النحل : ١٠٢ – ١٠٣ .

وسبب النزول « عن عبيد الله بن مسلمة قال : كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر اسم أحدهما يسار [١] والآخر جبر وكانا يقرآن كتباً لهم بلسانهم ، وكان رسول الله ﷺ يمر بهما فيسمع قراءتهما وكان المشركون يقولون : يتعلم منهما ، فأنزل الله تعالى فأكذبهم » [٢] .

وذكر الخازن في تفسير الآية أن يساراً وجبراً عبدان لعبيد الله بن مسلمة كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل .

ولم يكن لسانهما أو لسان غيرهما ممن ذكرت أسماؤهم في بعض الروايات عربياً ، ولم يكن التوراة والإنجيل مترجمَين إلى العربية في عصر الرسول ﷺ ، ولم يكن الرسول يتكلم غير العربية ، بل كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب .

---

(١) في تفسير الخازن ٤ : ٩٤ يكنى أبا فكيهة .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٢١٢ .

وهذه الأمية تحتم عليه أن يكون الاستقاء عن طريق التلقي الشفوي المباشر، فيلقنه معلموه أو معلمه من المسيحيين أو اليهود بلسان عربي ، ولكن لم يثبت أن أحداً تفرغ لمحمد يعلمه التوراة والإنجيل أو يعلمه ديانات العرب الجنوبيين أو ديانات غيرهم .

ولم تعرف العربية ترجمة « الكتاب المقدس » في عهديه القديم والجديد إلا بأخرة من الزمن ، ولم يكن بمكة « مركز ثقافي » لأي دين من الأديان ، بل لم يكن مركز كهذا بمكة وضواحيها ، بل ان الشعر العربي في عهد ماقبل الاسلام خال من ثقافة دينية مسيحية أو يهودية ، وما ذكر من بعض الألفاظ الخاصة يبرهن على تأثير هاتين الديانتين في الوثنية العربية الجاهلية .

وإذا تصفحنا ما جمعه الآباء اليسوعيون مما سموه « شعراء النصرانية » يثبت أن الشعراء الجاهليين لم يعرفوا النصرانية ، وإذا كان استعمال بعض الكلمات الخاصة دليلاً على أن أولئك الشعراء كانوا نصارى فإن في الشعر العباسي شعراً كثيراً مليئاً بالألفاظ النصرانية .

وعلى أي حال ، لم يثبت قط أن لليهودية والنصرانية أثراً في الحجاز وبخاصة مكة ، ووجود نصارى فيها لا يقضي بوجود مركز ثقافي لأسفار الكتاب المقدس .

وما دام من الثابت الذي لا خلاف فيه أن مكة خلت من الثقافة الدينية اليهودية والمسيحية خلواً تاماً فإن من الطبيعي ألا يكون لهما أثر في المكيين ، ومحمد منهم ، وليس وجود « الحنفاء » دليلاً على وجود مركز ثقافي ديني ، الحنفاء يعدّون على الأصابع ، وكانوا بعقيدتهم في شبه عزلة عن الذين يعايشونهم من الوثنيين ، وكون محمد من الحنفاء لا يقتضي أخذه من اليهودية والنصرانية هذه « الحنيفية » التي دان قبل البعثة بها ، لأن « الحنيفية » في جوهرها دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، واهتدى محمد بفطرته السليمة إليها فلم يسجد قط لصنم ، ولم يَدْعُ وثناً ، ولم يعبد غير إلـه إبراهيم .

بل كان محمد منفصلاً عن بيئته في مسائل العقيدة والأخلاق وآداب السلوك والاجتماع ، وكان « نادرة » بين الناس جميعاً بمكة ، يؤمن بالوحدانية ، ويكفر بغير الله ، ولا يأتي بعمل يأباه الضمير والخلق ، بل كان اللهو مباحاً لأهل مكة ، يحضرون حفلات الغناء ، بل لم يكن على الفاسق حرج ، فدور البغاء مقصودة من العِلية دون أن يطعنهم طاعن .

ومع هذا ترفّع محمد عن كل ما لا يليق بالكامل من الرجال ، صدوق كريم ، نظيف اليد والقلب واللسان ، لا يغش ، ولا يكذب ، ولا يخدع ولا يمكر ، بل كان أعلى نموذج للإنسان الكامل في الجاهلية ، وأنظف فتى في قريش .

والبيئة الجاهلية وثنية ، وبيئة مكة جاهلية محض ، ومكة ملاذ الوثنية وقاعدتها ، فكان المسجد الحرام مقصد العرب ومحجتهم ، فكانت الكعبة تحوي من الأصنام والأوثان والنصُب ما يمثل معتقدات العرب الوثنية .

ولا أثر لليهودية والنصرانية عقيدة وشريعة وآداباً وسلوكاً في الوثنية المكية التي عاش فيها محمد دون أن يدين بها .

ولم يكن للكنيسة سلطان على مكة وأهلها وأربابها ، ولا لأفراد النصارى بمكة ولا لليهود بالمدينة أي أثر ديني في مجتمع هاتين المدينتين .

وإذا افترضنا وجود أثر ديني عميق في مكة والمدينة وفي الحجاز وفي العالم العربي كله فإن من الحتم الذي لا بد منه أن يكون بين أيدي العرب ترجمة عربية للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، ولكن عدم وجود هذه الترجمة يقضي على كل زَعْمة من تلك الزعمات .

وعدم وجود ترجمة عربية للكتاب المقدس ينفي نفياً قاطعاً زعم من يزعمون أن الإسلام صورة أنشأتها اليهودية أو المسيحية أو كلتاهما معاً .

وجميع المكتبات في العالم دون استثناء خالية من ترجمة عربية للكتاب

المقدس في عصر النبي محمد ﷺ ، ولم يدّع أحد قط — حتى أعدى أعداء محمد والإسلام وحتى جولدزيهر وأضرابه — وجود ترجمة عربية للكتاب المقدس في عصر محمد ، بل أثبت باحثون مسيحيون كبار أن العربية لم تعرف ترجمة العهد الجديد (وهو الإنجيل) إلا بعد أربعة قرون من بعثة نبي الإسلام .

ان بعثته كانت سنه ٦٠٩ ميلادية ، وأول نص عربي للإنجيل كان سنة ١٠٦٠ م .

وقد اعترف الأب هنري لامنس (١٨٦٢ — ١٩٣٧ م) وهو مستشرق بلجيكي بقوله : « لو أن الفكرة اليهودية المسيحية قد تغلغلت حقاً في الثقافة والبيئة الجاهلية فإن من غير المفهوم ألا توجد ترجمة عربية للكتاب المقدس ، وهنالك حدث مؤكد فيما يتصل بالعهد الجديد (الإنجيل) وهو أنهحتى القرن الرابع الهجري لم تكن قد وضعت له ترجمة عربية ، نعرف هذا من مصادر الغزالي [1] الذي اضطر إلى أن يلجأ إلى مخطوط قبطي كيما يحرر رده » [2]

ويقول الأستاذ مالك بن نبي في كتابه « الظاهرة القرآنية » ص ٢٥٩ : « ذكر الأب شدياق R.P. Chediac الذي اضطر إلى البحث في كل ناحية عن المصادر الإنجيلية التي استخدمها الفيلسوف العربي في تأليف « الرد » [3] حين كان يريد ترجمة مؤلف الفيلسوف أن أول نص مسيحي ترجم إلى العربية كان مخطوطاً بمكتبة القديس بطرسبرج ، كتب حوالى ١٠٦٠ م بيد رجل يسمى ابن العسال » .

ولم يكن الرسول العربي الكريم ﷺ يعرف العبرية ولا السريانية ولا أي لسان غير اللسان العربي ، ولم يكن في المسلمين من يعرف العبرية فأمر رسول الله

---

(١) المقصود بالغزالي الفيلسوف العربي حجة الإسلام ، وكتابه هو « الرد على من ادعى ألوهية المسيح بصريح الإنجيل » .

(٢) كتاب « الظاهرة القرآنية » تأليف مالك بن نبي ترجمة عبد الصبور شاهين ص ٢٥٤ .

(٣) هو « الرد على من ادعى ألوهية المسيح بصريح الإنجيل » للإمام الغزالي .

زيد بن حارثة: « تعلم كتاب يهود فإني ما آمنهم على كتابي » فتعلم زيد العبرية وأجادها قراءة وكتابة، وكان يترجم للرسول ما يصله من رسائل يهود.

وهذا لا يترك مجالاً للخلاف في عدم معرفة الرسول والعرب سواء أكانوا مسلمين أم مشركين لغة يهود حتى يطلعوا على الكتاب المقدس.

وما دام ذلك ثابتاً، وعدم وجود ترجمة عربية للكتاب المقدس في عصر النبي الكريم إلى القرن الرابع الهجري ثابتاً فمن أين يتأتى له العلم بالديانة اليهودية والنصرانية وغيرهما من الديانات؟

ولم يكن لمحمد صحبة بالنصارى واليهود، ولم يثبت أن له صلة ود وصداقة أو صلة تعلُّم بنصراني أو يهودي.

وكل هذا يدل دليلاً لا يُنقض على أنه لم يستق دينه من أحد، وكان غير عارف بما حوى الكتاب المقدس، وكل ما قص من قصص الأنبياء والمرسلين وأخبارهم وأخبار أممهم إنْ هو إلا وحي إليه به فأظهره للناس.

والفرق كبير بين قصص القرآن وقصص الكتاب المقدس، ولا لقاء بينهما إلا في المادة القصصية والحادثة مع الاختلاف — أيضاً — في جوهرهما، وما أشد المخالفة بين القرآن والكتاب المقدس في وصف الله وفي سيرة الأنبياء ومعتقدهم بحيث يتحول اللقاء إلى قطيعة وفراق.

فبدء الخليقة في القرآن — ونقصد بها خلق آدم وحواء — يتفق مع سِفر التكوين في البدء، ولكنه يختلف قصة وأداء اختلافاً كبيراً، وكذلك القول في قصة إبراهيم ولوط ويوسف وموسى وعيسى وغيرهم اختلافاً مبيناً.

فلو كان محمد عليه صلوات الله وسلامه مستقياً دينه من اليهودية والمسيحية لما خالفهما عقيدة وشريعة مخالفة لا لقاء بينه وبينهما بتة.

وليس هناك دليل على تأثر محمد تأثراً عميقاً أو غير عميق بالعناصر اليهودية

والمسيحية وغيرهما إلا الدعاوى التي يرسلها جهلة حاقدون أو علماء مبغضون يعادون الإسلام ونبيه أبشع عداء .

وأين هذا التأثر ومحمد أنكر على اليهودية والنصرانية والوثنيات أشد الإنكار وحاربها حرباً ، ولا لقاء بين عقيدته وعقائد كل الديانات التي وجدها قائمة في عصره .

والاتفاق في الأسماء لا يحتم الاتفاق في المسميات والمحتوى ، فالله في دين محمد غير الله في النصرانية والمسيحية والوثنيات جميعها ، فكيف يتهم بالتأثر والاستقاء وهو يخالفها كل المخالفة ؟

إن محمداً طلب إلى أهل الكتاب أن يلقَوه على كلمة سواء ، فلم يجد منهم غير الصدّ ، ولو كان متأثراً بما لديهم لعانقهم وعانقوه ، ولكنهم أبوا وصدوا عن الكلمة السواء ، وما طلبهم إليها إلا لأنه مدرك أنهم أهل كتاب يدينون به ، فرجا أن يكون الإيمان موضع لقاء ، والحق حكماً والخير مطلباً ، فلم يسمعوا ولم يرغبوا في الكلمة السواء ، فهادنهم وعاهدهم ، ولكنهم نقضوا وآذوا وتآمروا .

وهؤلاء الذين يتهمون نبي الإسلام يجهلون كل الجهل أيسر ما تترك الآثار في النفس الإنسانية ، فجولدزيهر يقول في نبي الإسلام : « لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه ، وأدركها بإيحاء قوتهُ التأثيرات الخارجية ، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه ، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً » .

وكلنا يعلم أن من يتأثر هذا التأثر العميق لا يستطيع الخلاص منه ، ولا يستطيع أن يقف موقف النقيض المخالف ، ولكننا نرى نبي الإسلام ينكر على تلك الأفكار ويحاربها ، فكيف يزعم جولدزيهر وأمثاله أنه اعتنقها ؟

وموجز القول : أن الله سبحانه وتعالى في الإسلام هو غير الله في اليهودية والمسيحية وفي جميع الديانات التي كانت قائمة في عهد رسول الإسلام ،

ولا وجه للقاء بين الإسلام والديانات الأخرى، فالعقيدة الإسلامية في الله جل جلاله تخالف كل المخالفة جميع الديانات .

فالله في الإسلام رب العالمين ، واحد ، أحد، لا شريك له ولا ندّ ولا شبيه ولا مِثل ولا صاحبة ولا ولد ، وكامل كمالاً مطلقاً ، منزهاً عن كل النقائص .

أما في الديانات الأخرى بما فيها اليهودية والمسيحية فالله عز وجل ليس واحداً أحداً، بل هو ثالث ثلاثة في المسيحية وفي البرهمية والبابلية وغيرها، وفي اليهودية « واحد » يتكرر ويتعدد ، وله أشباه ونظائر يعترف إلههم « الواحد » المسمى « يهوه » بآلهة الآخرين كما يعترف اليهود عباد يهوه بأولئك الآلهة وإن كانوا لا يعبدونهم ، والله جل جلاله في الوثنيات جميعها أصنام وأوثان .

فالله في دين الإسلام هو في الواقع وعلى التحقيق غيره في جميع الديانات بلا استثناء ، فالزعم من قبل جولدزيهر وأمثاله بأن محمداً رسول الإسلام ﷺ قد أخذ دينه من اليهودية والمسيحية وغيرهما هراء وأي هراء ، بل هو باطل كل الباطل دون مراء ..

تفنيد الأباطيل

(٢)

اليوم الآخر في الإسلام والمسيحيّة واليهوديّة

موضوع اليوم الآخر في الإسلام يخالف كل ما جاء في غيره، ومع هذا يزعم جولدزيهر (ص ٩ من كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام»): «في بدء رسالته كانت تأملاته تأخذ طريقها إلى الخارج في شكل أمثال مضروبة للحياة الأخرى «Eschotlogiques» كانت تفرض[؟] نفسها على مخيلته بقوة تزداد يوماً بعد يوم، وهذه التأملات هي التي كونت الفكرة الأساسية التي بنى عليها تبشيره، وما سمعه أو عرفه عن يوم الحساب الذي سيقع يوماً ما على العالم كالصاعقة أخذ يطبقه على الأمور التي يراها حوله، والتي كانت تملأ نفسه اشمئزازاً، فتراه يواجه عدم اكتراث سادة مكة وكبرياءهم وجبروتهم بإنذارهم بيوم الحساب القريب منهم، ويرسم لهم بحروف من نار صورة البعث وصورة الحساب».

ويظهر من هذا الزعم أن جولدزيهر يجهل «اليوم الآخر» في ديانته اليهودية وفي العهد الجديد من الكتاب المقدس وفي الوثنيات والفلسفات ومختلف الديانات ولولا جهله أو مغالطته القراء لما زعم ما زعم.

فأي يوم آخر في اليهودية التي يمثلها العهد القديم؟ لا شيء منه إطلاقاً،

والمسلمون يؤمنون بأن ديانة موسى في العقيدة هي ديانة محمد عليهما الصلاة والسلام ، فيها اليوم الآخر بحسابه عقوبة ومثوبة وجنة وناراً ، ولكن التوراة الحق لا وجود له ، وما بين أيدينا من أسفار العهد القديم التي تسمى توراة خال من ذكر اليوم الآخر ، لأن « يهوه » رب اليهود إلـه سريع الحساب والانتقام ، فجزاؤه عاجل ، المثوبة للمحسن ، والعقوبة للمسيء ، وكلٌ يوفي حسابه في دنياه .

وكل ما ورد في العالم الآخر لا اليوم الآخر هو وجود هاوية تسمى « شيول » تقع تحت الأرض ، يتردى فيها الموتى الأخيار والأشرار على السواء، إلا الذين ارتقوا إلى مرتبة القرب من الله مثل موسى .

ليس فيما يسمى التوراة يوم آخر ، وليس في كتبهم إشارة إليه إلا في نبوءة أشعياء ، وهي إشارة إلى يوم دنيوي كما تفصح الإصحاحات والفِقَر التي ورد فيها ذكره .

فقد جاء في الإصحاح الرابع والعشرين : « هوذا الرب يخلي الأرض ويفرغها ، ويقلب وجهها ، ويبدد سكانها » .

و « الأرض تدنست تحت سكانها ، لأنهم تعدّوا الشرائع ، غيّروا الفريضة ، نكثوا العهد الأبدي ، لذلك لعنة أكلت الأرض ، وعوقب الساكنون فيها ، لذلك احترق سكان الأرض ، وبقي أناس قلائل » .

و « أسس الأرض تزلزلت ، انسحقت الأرض انسحاقاً ، تشققت الأرض تشققاً، تزعزعت تزعزعاً، ترنحت الأرض ترنحاً كالسكران، وتدلدلت كالعزرال، وثقل ذنبها فسقطت ولا تعود تقوم ، ويكون في ذلك اليوم أن الرب يطالب جند العلاء في العلاء ، وملوك الأرض على الأرض ، ويجمعون جمعاً كأسارى في سجن ويغلق عليهم في حبس ، ثم بعد أيام كثيرة يتعهدون ، ويخجل القمر ، وتخزى الشمس ، لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون وفي أورشليم » .

وأشعياء كان في القرن الثامن قبل الميلاد ، وجاء بعد موسى بخمسة قرون

تقريباً ، ومع أن نبوءة أشعيا ليست واضحة ولا صريحة فإنها لا تحدد اليوم الآخر ، وفكرته — إذا كان يقصد اليوم الآخر — غامضة ، ومع هذا فليس المقصود اليوم الآخر ، بل يوم من أيام الحياة الدنيا ، ففي الإصحاح الخامس والعشرين وما بعده يدل على أن هذا اليوم في الدنيا لا الآخرة .

يقول الإصحاح الخامس والعشرون :

«ويقال في ذلك اليوم: هوذا إلهنا انتظرناه فخلصنا، هذا هو الرب انتظرناه، نبتهج ، نفرح بخلاصه ، لأن يد الرب تستقر على هذا الجبل ، ويداس مؤاب في مكانه كما يداس التبن في ماء المزبلة ، فيبسط يديه كما يبسط السابح يديه ليسبح ، فيضع كبرياءه مع مكايد يديه ، وصرح ارتفاع أسوارك يخفضه ، يضعه ، يلصقه بالأرض كالتراب » .

والإصحاح السادس والعشرون يقول :

« في ذلك اليوم يغنى بهذه الأغنية في أرض يهوذا : لنا مدينة قوية ، يجعل الخلاص أسواراً ومترسة ، افتحوا الأبواب لتدخل الأمة البارة ، الحافظة الأمانة ، ذو الرأي الممكن تحفظه سالماً سالماً ، لأنه عليك متوكل » الخ .

وفي الإصحاح السابع والعشرين :

« في ذلك اليوم يغنى بهذه الأغنية في أرض يهوذا : لنا مدينة قوية ، في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لَوِيَاثان الحية » إلى أن يختم هذا الإصحاح بقوله : « ويكون في ذلك اليوم أن الرب يجنى من مجرى النهر إلى وادي مصر وأنتم تُلْقَطون واحداً واحداً يا بني إسرائيل ، ويكون في ذلك اليوم أنه يضرب ببوق عظيم فيأتي التائهون في أرض أشورا ، والمنفيون في أرض مصر ، ويسجدون للرب في الجبل المقدس في أورشليم » .

فاليوم الذي يشير إليه أشعياء ليس اليوم الآخر ، ولكنه يوم من أيام الدنيا، تحتفل فيه إسرائيل بنصرها على مؤاب ، ويجتمع شمل التائهين والمنفيين في الجبل

المقدس بأورشليم ، وهذا ليس في اليوم الآخر كما تدل النبوءة .

ولعل ما جاء في سفر دانيال بالإصحاح الثاني عشر أصرح مما ورد عن أشعياء ، إذ يقول : « كثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبـــدي ، والفاهمون يضيئون كضياء الجلد [1] ، والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور » .

ولئن كانت كلمة دانيال أو نبوءته تذكر اليقظة التي هي العودة إلى الحياة فليس البعث في اليوم الآخر ، بدليل أن الذين يستيقظون ليسوا الراقدين جميعاً، بل كثيرون منهم ، وإذا كان البعث لا يشمل الجميع ، فأي بعث هذا ؟

وفي نبوءات أنبياء بني إسرائيل وأسفارهم إشارة إلى قيام الموتى في الدنيا ، وآخر من أشير إليه قيام عيسى كما يقولون في أناجيلهم ، وفي أول الإصحاح الثاني عشر نفسه من سفر دانيال بالفقرة الأولى منه قوله : « وفي ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك، ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمته إلى ذلك الوقت ، وفي ذلك الوقت يُنَجَّى شعبك ، كل من يوجد مكتوباً في السفر ، وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون »الخ .

فاليقظة ليست بعثاً في اليوم الآخر ، ولكنها عودة إلى الحياة الدنيا كما يقوم ميخائيل وغيره ممن يرد ذكرهم أنهم يقومون بعد موتهم يستأنفون الحياة الدنيا .

ودانيال من أبناء القرن الثاني قبل الميلاد ، وإذا صح أن دانيال وأشعياءمن الأنبياء فإيمانهما باليوم الآخر حق ، لأن كل نبي حق مؤمن بالبعث والقيامة ، غير أن ما نسب إليهما مما استشهدنا به لا يدل على اليوم الآخر الذي يعقب يوم الحياة الدنيا .

---

(١) الجلد : السماء .

ولم تظهر فكرة البعث في الديانة الإسرائيلية بعد ابتعادها عن ديانة موسى الصحيحة وفقدان التوراة الحق إلا بعد أن فقد اليهود الأمل في قيام مملكة لهم، ونجد هذا التحول أو العودة إلى فكرة البعث الغامضة بعد عهد نفي بابل ، حيث وقفوا على شيء من عقائد فارس ، ويجوز أخذهم إياها من ديانة المصريين .

وأصرح من كل ما سلف ذكره وأبين هو ماجاء في « التلمود » من ذكر الجنة والنار وأن الجنة مأوى الأرواح الطيبة الخيرة ، والنار للأشرار ، ولكن الأنانية اليهودية تبرز ببشاعة عندما يجعلون الجنة وقفاً على اليهود وحدهم دون غيرهم ، ونزُلاً لهم ، لا يشاركهم فيه سواهم ، مهما بلغ من الطيبة والخير ، وأما النار فلا يدخلها يهودي ، بل هي لغيرهم .

وهذا يتفق مع فكرتهم عن « يهوه » فهو إلـه خاص بهم ، وجعلوا جنته لهم أما ناره فلغيرهم ، ويتفق مع ما في شرائعهم من محاباة « يهوه » لهم ، حتى أنه حرم عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً ، وفرض عليهم أن يقتلوا غيرهم من أبناء الشعوب الأخرى .

وفي تلمودهم أن الذين يدخلون الجنة يطعمون من لحم أنثى الحوت الكبير أماتها الله وملّحها وادخر لحمها للذين يدخلون الجنة فيأكلون منه ، وسبب إماتة الله أنثى الحوت الكبير حرمانه من النسل حتى لا يهلك من في الدنيا من الناس وغيرهم من الحيوان والنبات بما ينسلان من الوحوش الضخمة الكبيرة ، لأن هذا الحوت الكبير بلغ من العظم والضخامة أن حلقه يتسع لسمكة طولها ثلاثمئة فرسخ في يسر وسهولة .

وذكر التلمود أن ثلاث الساعات الأخيرة من الأربع والعشرين يقضيها الله في اللعب مع هذا الحوت الكبير .

وما ذكره التلمود عن الجنة والنار يقوم على الأسطورة لا على العقيدة وفكرة البعث الذي يفضي إلى الجنة والنار لا تحسب من خصائص العقيدة الدينية لأنها

خرجت عن العقيدة إلى الأساطير والأوهام الوثنية والخرافات ، بل إلى الخزعبلات والعبث .

وذكرت الأناجيل إنكار فريق من اليهود البعث وذهاب بعضهم إلى الإيمان به ، ففي إنجيل متى (ص ٢٢ فقرة ٢٤ — ٣٠) :

« في ذلك اليوم : جاء إليه صدّوقيون الذين يقولون : ليس قيامة ، فسألوه قائلين : يا معلم ، قال موسى : إن مات أحد وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته ويقم نسلاً لأخيه ، فكان عندنا سبعة أخوة ، وتزوج الأول ومات ، وإذ لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه ، وكذلك الثاني والثالث إلى السبعة ، وآخر الكل ماتت المرأة ، ففي القيامة لمن من السبعة تكون زوجة ، فإنها كانت للجميع ، فأجاب يسوع وقال لهم : تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله ، لأنهم في القيامة لا يُزَوَّجون ولا يتزوجون ، بل يكونون كملائكة الله في السماء ، وأما من جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل : أنا إلـه إبراهيم وإلـه إسحاق وإلـه يعقوب ، ليس الله إلـه أموات ، بل إلـه أحياء » .

فإنكار القيامة التي هي اليوم الآخر طابع اليهودية بعد فقدان توراة موسى أو تحريفها ، وإذا جاء في التلمود ذكر الجنة والنار فمن الجائز أنهم أخذوا من أساطير فارس أو مصر ما يتصل بفكرة البعث ، أو أن رواسب من فكرة البعث في توراة موسى انتهت إليهم فانتقلت من جو العقيدة إلى العالم الأساطير التي ازدحمت بها أسفارهم بما فيها خمسة الأسفار الأولى من العهد القديم .

وجولدزيهر يهودي ، ولا يخفى على مثله ما في ديانته من فكرة اليوم الآخر الممسوخة الشوهاء ، فكيف يدعي في قحة واجتراء أخْذ نبي الإسلام فكرة اليوم الآخر من العقائد المعاصرة ، وها هي ذي عقيدة اليهود في توراتهم خالية من اليوم الآخر ، وما في تامودهم عنه قائم على الأسطورة لا العقيدة .

وتكملة للرد عليه وعلى أمثاله الذين زعموا زعمه نعرض « اليوم الآخر »

في النصرانية وفي بعض الوثنيات ليروا أن محمداً لم يستق معلوماته فيه منها ، وما في الإسلام يغاير ما فيها .

ففي النصرانية حسب رواية الأناجيل المعتمدة وأسفار العهد الجديد نجد أمثال هذه الكلمات : « الحياة الأبدية » و « الحساب يوم الدين » و « الجحيم » و « العذاب » و « النـــار » و « ملكوت السماوات » و « ملكـــوت الله » و « انقضاء العالم » .

وهذه الكلمات في مواضعها مما نسب إلى المسيح عليه الصلاة والسلام تشير إلى « يوم آخر » ولكن ما حقيقته ؟ وما البعث المفهوم من السياق ؟ أهو بعث لبني الإنسان جميعاً للحساب ثم إلى الجنة أو النار ، أم هو عودة إلى الحياة أم نشور يمضي البارُّون الأخيار إلى ملكوت السماوات ويلقى بالأشرار خارجه؟ وهل الملكوت هو الجنة والنعيم وخارجه هو النار والعذاب ؟

الجواب في الأناجيل ، فلنأخذ منها ، ولنكتف بإنجيل متى .

في الإصحاح التاسع عشر : « حينئذ قدم إليه أولاد لكي يضع يديه عليهم ويصلي ، فانتهرهم التلاميذ ، أما يسوع فقال : دعوا الأولاد يأتون اليَّ ولا تمنعوهم ، لأن لمثل هؤلاء ملكوت السماوات ، فوضع يده عليهم ومضى من هناك .

« وإذا واحد تقدم وقال له : أيها المعلم الصالح ، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية ؟

« فقال له : لماذا تدعوني صالحاً ؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله ، ولكن إن أردت أن تدخل فاحفظ الوصايا ، قال له : أية الوصايا ؟ فقال يسوع : لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، أكرم أباك وأمك ، وأحبَّ قريبك كنفسك ، فقال له الشاب : هذه كلها حفظتها منذ حداثتي ، فماذا يعوزني بعد ؟ قال له يسوع : إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك

وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء ، وتعال اتبعني ، فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزيناً ، لأنه كان في أموال كثيرة .

« قال يسوع لتلاميذه : الحق أقول لكم ، إنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السماوات ، وأقول لكم أيضاً : إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله .

« فلما سمع تلاميذه بهتوا جداً قائلين : إذن ، من يستطيع أن يخلص ؟ فنظر إليهم يسوع وقال لهم : هذا عند الناس غير مستطاع ، ولكن عند الله كل شيء مستطاع .

« فأجاب بطرس حينئذ وقال له : ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك ، فماذا يكون لنا ؟ فقال لهم يسوع : الحق أقول لكم ، إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد ، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر ، وكل من ترك بيوتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية » .

و في الإصحاح الثامن عشر : « خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تلقى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان » .

وفي الإصحاح السادس عشر : « وأنا أقول لك أيضاً : أنت بطرس ، وعلى هـــذه الصخرة أبني كنيستي ، وأبواب الجحيم لن تقـــوى عليك » و « أن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازى كل واحد حسب عماله ، الحق أقول لكم : ان من القـيّام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته » .

وفي الإصحاح الثامن : « إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السماوات ، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية ، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ».

وفي الإصحاح العاشر : « لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها ، بل خافوا بالحري من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم » .

وفي الإصحاح الثاني عشر : « من قال على الروح القدس فلن يغفر له في هذا العالم ولا في الآتي » .

وفي هذا الإصحاح نفسه يخاطب المسيح جموع اليهود : « يا أولاد الأفاعي ، كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار ، فإنه من فضلة القلب يتكلم الفم ، الإنسان الصالح من الكنز الصالح في القلب يخرج الصالحات ، والإنسان الشرير من الكنز الشرير يخرج الشرور ، ولكن أقول لكم : إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين » .

وفي الإصحاح الثالث عشر :

« يشبه ملكوت السماوات إنساناً زرع زرعاً جيداً في حقله ، وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع زواناً في وسط الحنطة ومضى ، فلما طلع النبات وصنع ثمراً حينئذ ظهر الزوان أيضاً ، فجاء عبيد رب البيت وقالوا له : يا سيد ، أليس زرعاً جيداً زرعت في حقلك فمن أين جاء له زوان ؟ فقال لهم : إنسان عدو فعل هذا ، فقال له العبيد ، أتريد أن نذهب ونجمعه ؟ فقال : لا . لئلا تقطعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه ، دعوهما ينميان كلاهما معاً إلى الحصاد ، وفي وقت الحصاد أقول للحصادين : اجمعوا أولاً الزوان واحزموه حزماً ليحرق ، وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزني » .

وفي الإصحاح الثالث عشر نفسه :

« حينئذ صرف يسوع الجموع وجاء إلى البيت ، فتقدم إليه تلاميذه قائلين : فسر لنا مَثَل زوان الحقل ، فأجاب وقال لهم : الزارع الزرع الجيد هو ابن الإنسان ، والحقل هو العالم ، والزرع الجيد هو بنو الملكوت ، والزوان

هو بنو الشرير ، والعدو الذي زرعه هو إبليس ، والحصاد هو انقضاء العالم ، والحصادون هم الملائكة ، فكما يجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا يكون في انقضاء العالم ، يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلي الإثم ، ويطرحونهم في أتون النار هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم » .

وفي الإصحاح الخامس والعشرين يقول متى :

« ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه فحينئذ يجلس على كرسي مجده ، ويجتمع أمامه جميع الشعوب ، فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء ، فيقيم الخراف عن يمينه ، والجداء عن اليسار ، ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركي أبي ، رِثُوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم ، لأني جعت فأطعمتموني ، عطشت فسقيتموني ، كنت غريباً فآويتموني ، عرياناً فكسوتموني ، مريضاً فزرتموني ، محبوساً فأتيتم إلي ، فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين : يارب ، متى رأيناك غريباً فآويناك ، أو عرياناً فكسوناك ، ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك ؟ فيجيب الملك ويقول لهم : الحق أقول لكم ، بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم » .

ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار : « اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته ، لأني جعت فلم تطعموني ، عطشت فلم تسقوني ، كنت غريباً فلم تأووني ، عرياناً فلم تكسوني ، مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني ، حينئذ يجيبونه هم أيضاً قائلين : يارب ، متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو محبوساً أو عرياناً أو مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك ؟ فيجيبهم قائلاً : الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبي لم تفعلوا ، فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي ، والأبرار إلى حياة أبدية » .

في هذه الشواهد الإنجيلية صورة حية لليوم الآخر ، ولا تتم هذه الصورة

وتخلو من الخطوط المعيبة إلا إذا أبعدنا عنها ما لا يتفق مع كمال الله وكمال صفاته وذاته وأسمائه ، فاختلط ملكوت الله الآب بملكوت الابن ، إلا إذا احتفظنا بنظرية المسيحية في التثليث ، كما أن أخوة الله لا تتفق مع الكمال الإلهي ، فالملك الذي هو الله ليس أخاً لغيره من خلقه حتى يقال على لسانه «إنكم فعلتموه بأحد إخوتي » .

وعلى أي حال فاليوم الآخر في المسيحية قائم على الحساب ثواباً وعقاباً ، وبعده إما إلى الجنة وإما إلى النار ، وكل خالد في دار الآخرة ، وإن كان الإبهام والغموض يكتنفان الصورة ، ومع هذا فإن عيسى عليه صلوات الله وسلامه مؤمن باليوم الآخر ، وعقيدته هي عقيدة نبي الإسلام ، غير أن إنجيله الحق ليس موجوداً ، فإذا ورد في أناجيل حوارييه إشارة إلى اليوم الآخر إيجازاً أو تفصيلاً فمردّ ذلك إلى ما أخذوه عنه .

والقرآن الكريم يشير إشارة صريحة واضحة لا إبهام فيها ولا غموض إلى عقيدة عيسى في اليوم الآخر فيقول : ﴿ وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ المائدة : ٧٢ .

ويقول : ﴿ وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ المائدة : ١١٦ ــ ١١٨ .

وما جاء بالأناجيل في اليوم الآخر يتفق في أصل الفكرة مع ما جاء في الإسلام ، ولكنه يختلف في الجزئيات والتفصيلات ، وفي تنزيه الله عن مشاركته ،

سواء أكان هذا المشارك ملَكاً مقرَّباً أم رسولاً أم أفضل الرسل طراً ، فكرسي الله فاذٌ فرد ولا يقام بجانبه كرسي نبي أو غير نبي ، فضلاً عن الكراسي الاثني عشر .

وكان أحد الكراسي الاثني عشر ليهوذا الأسخريوطي المقذوف به من بين الحواريين الاثني عشر ، لأنه باع معلمه المسيح بثلاثين فضة وخانه ، ولكنهم وضعوا له بديلاً بعد موت المسيح صلباً على رأيهم .

والاختلاف بين النصرانية والإسلام في اليوم الآخر دقيق وكثير يبرهن على أن اليوم الآخر في الإسلام ليس منقولاً عن الأناجيل للاختلاف البين في صورته ، ولأن نبي الإسلام لم يطلع على الأناجيل ، فهي لم تكن مترجمة إلى العربية كما هو ثابت ، ونبي الإسلام لم يكن يعرف العبرية أو السريانية أو اليونانية حتى يزعم زاعم أنه اطلع عليها في إحدى هذه اللغات .

فاليوم الآخر في الإسلام يوم فريد فيه بحقيقته وجزئياته وتفصيلاته عن اليوم الآخر في اليهودية والمسيحية ، وهو مختلف كل الاختلاف عنه في غيرهما.

تفنيد الأباطيل

(٣)

اليوم الآخر في الزرادشتية

في ديانة فارس المعروفة بالزرادشتية يوم آخر ، وأساس هذه الديانة يختلف عن أساس الإسلام ، ففيها قوتان هما : أهرمان ، وأهورامزدا الذي هو الله الواحد لا شريك له ، وله رمزان أحدهما في السماء وهو « الشمس » والآخر في الأرض وهو « النار » .

وأما أهرمان فهو عنصر الشر والظلمة .

وليست هذه العقيدة ثنوية ، لأن الزرادشتية الأصيلة توحيد ، ولكنه ليس كتوحيد الإسلام ، وما « أهرمان » إلا الشيطان ، وإن كان في بعض عبارات الزرادشتية إنعدام الدقة والتحري بحيث لا يتفق معه محتوى تلك العبارات مع التوحيد .

ولكن في الإمكان اعتبارها ثنوية ، لأن عنصر النور إلـه ، وعنصر الظلمة إلـه ،وإن كانوا يزعمون أن أهورامزدا هو الله الواحد ،وعنصر الظلمة هوالشيطان.

ومع هذا فالصراع بينهما هو صراع الآلهة لا صراع خالق مع مخلوق ، وهول الصراع يدل على ذلك .

ولسنا بسبيل البحث في الزرادشتية عقيدة ، لأننا بحثنا ذلك في الفصل الخامس

الذي عقدناه لها في هذا الكتاب [1] ، ولا ضرورة لإعادة القول مرة أخرى هنا ، فليرجع إليه القارىء إذا أراد .

والصراع محتدم بين النور والظلمة أو بين أهورامزدا وأهرمان ، وسيبقى الصراع حتى ينتهي بانتصار أهورامزدا انتصاراً مبيناً ، وتفنى الأرض وتقوم القيامة ، ويمضي من عاشوا إلى يوم الفناء إلى حيث تسوقهم أعمالهم ، إن خيراً فإلى الجنة وإن شراً فإلى النار .

وأما بالنسبة لمن يموتون قبل القيامة فهم منتهون بعد ثلاثة أيام إلى اليوم الآخر .

إن الإنسان بمجرد أن يموت تبقى روحه ثلاثة أيام تحوم حول الجسد، تشقى إن عملت سوءاً ، وتسعد إذا كانت خيِّرة ، وفي اليوم الأخير تهب ريح تنقل الروح إلى الصراط ، وهذه الريح تختلف ، فإن كانت الروح خيِّرة هبت عليها ريح طيبة عَطِرة ، وإلا كانت الريح عفنة ، وعندما تنقل الريح الروح إلى أوَّل الصراط تجد الخيِّرة حورية آية في الجمال تستقبلها بالترحاب والحفاوة والبشرى ، وتجد الصراط متسعاً فتجتازه آمنة ، مطمئنة ، لأن من ثقلت موازينه يحكم له من قِبَل قضاة ثلاثة عادلين أن تمضي إلى الجنة جزاء وفاقاً على ما قدمت من فكر طيب وعمل طيب وقول طيب .

أما الروح التي ساء فكرها وعملها وقولها فإنها تجد الصراط أدق من الشعرة وأحدّ من الشفرة ، يستقبلها عند أوله مخلوق بشع نتن استقبالاً قارعاً كريهاً فتهوي إلى النار .

والقضاة الثلاثة يزِنون أعمال الميت ، فمن غلبت حسناته سيئاته مضى إلى الجنة ، ومن رجحت كفة سيئاته على حسناته قيد إلى النار ، أما من تساوت

---

(١) المقصود كتاب « الديانات والعقائد في مختلف العصور » وهذا الجزء الخاص منه بالإسلام إنما هو فصل من ذلك الكتاب .

كفتا عمله فموضعه بين السماء والأرض ، يعاني آلام الحر والبرد ومختلف تغيرات الجو ، ويبقى في هذا العذاب منتظراً الفصل الأخير في مصيره .

ويختلف اليوم الآخر الزرادشتي عن اليوم الآخر الإسلامي في كثير ، فالله – في الإسلام – هو الذي يحكم ويقضي ، ويملك المغفرة عن العصاة ، بخلاف قضاة زرادشت الثلاثة ، ثم إن الإسلام يحسب حساب الخاتمة ، فرب امرىء عَمِلَ عَمَلَ أهل الجنة حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، ورب امرىء عمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .

وليس في قضاء قضاة زرادشت حساب للتوبة وتقدير الأعمال ، فهم يزِنون الكم ولا يحسبون حساب الكيف ، أما الإسلام فدقيق في هذا الأمر وفي غيره ، لأن من يتولى الحساب والقضاء في اليوم الآخر هو الله جل جلاله ، سبقت رحمته غضبه ، وفضله عدله ، والحسنة بعشر أمثالها ويضاعف لمن يشاء.

واليوم الآخر في الإسلام يعقب فناء الدنيا والكون ، وللقيامة فيه مشاهد ومواقف تسبق المثوبة والعقوبة الأخيرتين .

أما اليوم الآخر في الزرادشتية فهو موجود في يوم الدنيا ، لأن الميت ينتقل اليه بعد ثلاثة أيام إلى الحساب السريع ليمضي إلى حيث تسوقه أعماله ، أما في الإسلام فالميت يحاسب الحساب الأول في قبره ، أو يعذب في البرزخ الذي هو ليس من الدنيا وليس من الآخرة ، فهو ليس من الدنيا لأنَّ الميت فارقها ، وليس من الآخرة لأنها لا تأتي إلا بعد أن يفنى كل شيء ولا يبقى إلا الله وحده ، وما دام الكون باقياً فذلك نقيض الآخرة .

يقول الله تعالى : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ المؤمنون : ١٠٠ .

تفنيد الأباطيل
(٤)

اليومُ الآخِرُ في دِيانات مِصْر

أما فكرة البعث واليوم الآخر في الديانات المصرية فتختلف ، فلا وجود لليوم الآخر في الديانة الشمسية المصرية ، فالميت يدفن ومعه بعض الأثاث والطعام والشراب ، لأنهم يعتقدون أنه سيحيا في قبره بالعالم السفلي المظلم نهاراً ، والمضيء ليلاً ، لأن الشمس تظهر في العالم السفلي لتضيئه عندما تحتجب ليلاً .

وأرواح البررة الأطهار تستحيل نجوماً تأخذ مكانها في السماء ، لأنها تضيق بالعالم السفلي وتسأم أن تتخذه مقراً دائماً فتمضي إلى السماء متحولة إلى نجوم زاهرة .

وليست فكرة البعث أو اليوم الآخر جديدة في الديانة المصرية ، بل هي قديمة طافت بأذهان بناة الأهرام ، ولكنها كانت فكرة ساذجة لا عمق فيها ولا امتداد ، أوحاها الشعور بالتبعية الأخلاقية ، ولم تكن تعدو أن يمثل الميت بين يدي « رع » إلـه الشمس ليحاسب على ما اقترف من إثم كأن يكون قد آذى أحداً ، وما كان إلا حساباً ساذجاً .

ثم أخذ الشعور بالتبعة يعمق نتيجة للتطور الذي قطع آلاف السنين حتى أصبح الحساب في العالم الآخر عاماً وعسيراً .

وفي القرن الرابع والعشرين إلى القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد في عهد الأسرة التاسعة والعاشرة بلغت فكرة الثواب والعقاب في العالم الآخر مرحلة انتهى إليها الفكر الإنساني الذي ربط بين الحياة في العالمين : عالم الدنيا وعالم الآخرة ، رغبة منه في دفع الإنسان إلى طريق الخير وتشجيعه على العمل الصالح نجاة من العذاب وفوزاً بالثواب ، فما يعمله في دنياه يجده أمامه في الآخرة ، إن خيراً فخير ، وأن شراً فشر ، ولا يفوت محكمة الحساب والقضاء في العالم الآخر أي عمل من أعمال الميت التي تجمع بين يديه ، والعدل يأخذ سبيله ، فلا ظلم ولا محاباة ، ولا تسامح ولا غفران ، بل الجزاء العادل ، والسعيد من استعد لهذا اليوم بالعمل الصالح ، وياويل الشقي من العذاب الأليم .

إن السعيد من يدخل محكمة الآخرة وميزانه ثقيل بالحسنات ، ولا إثم في كفة السيئات ، وعندئذ يستحيل إلهاً فيحيا كأمثاله البررة الأخيار .

وخلف « رع » في محكمـــة الآخرة الإله « أوزيريس » الذي حوكم بين يدي « رَعْ » وبرئت ساحته ، فصار يعرف بأوزير المبرَّأ ، ثم صار هذا اللقب من نصيب كل فرعون ولا يشركه فيه أحد من الشعب إلا بعد زمن حيث صارت الروح الخيرة توصف به .

وكتاب الموتى يعتبر عند بعض الباحثين أول كتاب ذكر العالم الآخر ، ومن الجائز أن يكون كذلك بالنسبة للتأليف الإنساني ، أما أنه أول على الإطلاق فغير صحيح ، لأن الرسل سبقوا هذا الكتاب في الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر .

وكتاب الموتى ــ هذا ــ مجموعة من الرقى والتعويذات وصور فرعونية خيالية تفصح عن آمالهم في العالم الآخر ، وأطلق العلماء على هذه المجموعة اسم « كتاب الموتى » تجوّزاً ، وبه عرفت ، وبدأت كتابتها منذ حكم الأسرة الثامنة عشرة .

وهو كتاب فرعوني يقدسه المصريون على عهد الفراعنة ، معتقدين أنه من الكتب المنزلة ويتدارسونه ويوصي السلف الخلف بقراءته والعمل بما فيه، وقد يضعون مع الميت نسخة منه طمعاً في أن يكون له شفيعاً ، ورغبة في الأنس به في ظلام القبر ووحشته .

ومحكمة أوزيريس التي يصورها كتاب الموتى حيث يمثل فيها الميت لمحاكمته بعد انتقال روحه إلى العالم الآخر هي محكمة الآخرة ، يقضي فيها أوزيريس وبها ميزان منصوب لوزن الأعمال ، حيث توضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة أخرى ، والميت واقف على باب المحكمة يترقب الحكم في خوف ووجل.

وفي صدر المحكمة يجلس أوزيريس وبين يديه اثنان وأربعون إلهاً قاضياً ، وهم شياطين مخيفة ذات أسماء بشعة راعبة ، وعلى جانب من القاعة وبين يدي أوزيريس بجانب الميزان يجثم وحش يسمى « أم أم » ومعناه : المفترس ، وهو حيوان رهيب ، له رأس تمساح وصدر أسد ومؤخر فرس النهر ، متحفز للوثوب لالتهام روح الميت الآثمة إذا خفت موازينه .

ولا يقف الميت جامداً مكتوف اليدين موثق اللسان ، بل يدافع عن نفسه ، ويزكي أعماله ، ويشهد لنفسه بالصلاح والتقوى ، ويقول :

« سلام عليك أيها الإله العظيم .

« لقد جئت إليك يارب الحق خاشعاً رجاء أن أشهد نور وجهك .

« إنني أعرف اسمك،وأعرف أسماء الاثنين والأربعين إلهاً الجالسين معك يقضون على الخاطئين .

« إن غذاءهم لحوم العصاة وشرابهم دماؤهم .

« جئتك يارب وحليتي الحق .

« لم أظلم ، ولم أمض في طريق الشر

« لم أرتكب خطيئة ، ولم أرم بها بريئاً

« وما حنثت في يمين

« ولم أشته زوج قريب أو صديق
« ولم أعص للآلهة أمراً
« ولم أُلْحِقْ أذى أو ضرراً بأحد
« ولم أُجِعْ مخلوقاً
« ولم أطمع في مال غيري
« ولم أكن سبباً في بكاء إنسان
« ولم أكذب ، ولم أقتل ، ولم أسرق
« ولم أتخذ الغدر سبيلاً للحصول على المال
« ولم أنتهك حرمات الموتى
« ولم آتِ بفاحشة
« ولم يصدر مني ما يدنس شيئاً مقدساً
« ولم أبع قمحي بثمن فاحش
« ولم أُطَفِّفْ الكيل ، ولم أخسر الميزان
« ولم أنتزع اللبن من فم رضيع
« ولم أمنع الماشية مرعاها
« ولم أتلف زرع أحد
« ولم أخالف نظام الري
« ولم أبطل شعائر الدين
« ولم أفعل شراً ، ولم أخدع
« ولم أكلف عاملاً فوق طاقته
« ولم أكن نماماً ، ولم أرفع صوتي على أحد
« جئت طاهراً مبرءًا من العيوب والخطايا
« وأرجو أن أكون لديك من الفائزين » .

وبعد أن يدافع الميت عن نفسه ، وينفي عنها السلوك المعيب ، ويدعي أجمل الأخلاق الفاضلة وأرفع المثل العالية يأخذه « أنوبيس » الإلـه الجنازي

الممثل برأس ابن آوى الذي يقف خلفه « تحوت » كاتب الآلهة ، وبين يديه القرطاس وفي يمينه القلم يدون الحكم ، ووراء تحوت يربض « أم أم » مستعداً، ويخاطب الميت كل قاض من الاثنين والأربعين بعد تلك الخطبة الإنسانية البليغة الرائعة التي ينفي فيها عن نفسه الشر ويثبت لها الخير ، متوسلاً إليهم في ذلة وخضوع ، ويقول لهم في رجاء وخنوع :

« سلام عليكم أيها القضاة العادلون

« لا تأخذكم في الحق لومة لائم

« جئت إليكم مبرأ من العيوب والدنس والخطايا

« فما لأحد عليَّ مظلمة

« بل عشت للعدل وللعدل عشت

« وعملت للخير والاصلاح

« والناس يحمدون سيرتي

« فقد كنت أطعم الجائعين

« وكنت أسقي الظامئين

« وأكسو العراة

« وأساعد الأعمى والأعرج والشيخ

« وأعطيت طَوْفاً لمن لاقارب له

« وقدمت للإلـه المقدس القرابين

« وتقربت بالأطعمة من أجل الموتى

« فكونوا معي ، واحْموني

« فقلبي نقي ، ويداي طاهرتان

« فلا تقدموا للإلـه العظيم شكوى تسيء إليَّ » .

بهذه الكلمات القوية البليغة المؤثرة يؤكد الميت أنه بار صالح ، وأنه كان في حياته مثلاً رائعاً للإنسان الفاضل الورع التقي الصالح الكريم .

فإذا كان الميت من الفائزين قال له أوزيريس :

« أخرج أيها الميت فائزاً ، واذهب حيث شئت ، ولتفتح لك أبــواب

الجنة ، ولا يمنعك حرس السماء ، وليرد قلبك اليك ، ولتوهب لك الحياة الهانئة الجديدة ، ولتكنْ عن يميني في الفردوس الأبدي » .

وأما إن كان من الخاسرين فيقول له أوزيريس :

« أيها الشرير ، إلى جهنم وبئس المصير ، مزقوه أيها القضاة بسيوفكم ، وكلوا لحمه واشربوا دمه ، أيتها الأرواح الشريرة ، اضربنه بالحديد ، واحرقنه بالنار ، وأنت يا « أم أم » قطِّعـْه إرْباً إرْباً ، تغذَّ بأحشائه ، كن أيها الشرير غنيمة للأفاعي ، وفريسة للوحوش ، وأنتم يا زبانية جهنم ، جُرُّوه على وجهه إلى الجحيم ، ومزقوا جسده ، ثم ألقوه في عذاب السعير » .

في بعض هذه الإجراءات مشابه مما جاء به دين الله منذ نوح حتى محمد عليه وعلى إخوته الرسل صلاة الله وسلامه ، ومع ذلك فالإختلاف كبير بين الإيمان الحق والأسطورة والشعوذة ، والحق والباطل ، والوحدانية والشرك .

ومع كل ذلك فالحياة في العالم الآخر لم تكن خاضعة للإلـه العظيم والآلهة الأخرى وحسب ، بل كان أمر هذه الحياة الأخرى بيد الكهنة الذين يستطيعون أن يرضوا عن المذنب الغريق في الآثام فيجد الجنة أمامه يمضي إليها هانئاً سعيداً .

ولو اقتصر الأمر على الحساب لدل على تطور إنساني كبير في الشعور بالتبعة ، فلا يعمل الإنسان في حياته إلا الطيبات التي يجدها أمامه في العالم الآخر ، فتعينه على اجتياز أهواله إلى الجنة حيث ينعم في الفردوس الأبدي على يمين الإلـه أوزيريس .

وإذا دلت فكرة الحساب والثواب والعقاب في العالم الآخر على تقدم إنساني رائع في العقيدة إلا أن عمل الكهنة أحال ذلك التقدم انحطاطاً ، لأنـّه جعل الآثم الكفور يمضي إلى الجنة بسلام متى دفع إلى الكهنة ثمن ما يضمن له الفردوس المنشود .

ويقول الأستاذ سليم حسن في كتابه « مصر القديمة » ٥ : ٢٤٠ — ٢٤١ :

« على أن الكهنة لو تركوا الأمر على تلك الحال لكان حسناً مقبولاً ، ولكن — لسوء الحظ — كان انتشار الاعتقاد في نفع قوة السحر وتأثيرها في الحياة الأخروية لا يزال مستمراً ، إذ كان المعتقد أن كل النعم المادية يمكن الحصول عليها — من غير نزاع — باستعمال الرقية الملائمة للحصول على ذلك الأمر المرغوب فيه ، كما كان في الإمكان أن يعاد إلى الإنسان بتأثير تلك العوامل السحرية كل شيء ، حتى العتاد العقلي ألا وهو « القلب » الذي معناه — في اللغة المصرية القديمة — « الفهم » أو « العقل » .

و « قد سوّغت للكهنة أبواب الكسب والارتزاق — التي كانت لا تقف حيلتهم فيها عند حد — أن يتخذوا لهم في ذلك الزمن خطة خطيرة للإحتيال على الكسب ، ألا وهي السماح لمثل تلك العوامل المنحطة أن تتدخل بتلك الكيفية في القيم الخلقية ، إذ كان في مقدور السحر أن يصير عاملاً للوصول إلى الغايات الخلقية » .

ويقول في ص ٢٤٢ :

« وكانت كلمات الحكم التي تعلن أن المتوفى قد فاز في المحاكمة وبرىء من كل شر نسب إليه تُدوّن في صحيفة من تلك الصحف ، وعلى ذلك كان في إمكـــان كل إنسان — مهما كانت أخلاقه ذميمة في الحياة الدنيا — أن يستولي من « كتاب الموتى » على شهادة يعلن أن صاحب هذا الاسم — الذي ترك مكانه أبيض — كان رجلاً عادلاً » (يعني أن هذا كان يفعل من قبل أن يعرف من سيكون صاحب هذا البياض) .

و يقول : « وقد كان في مقدور ذلك الميت أن يحصل على صيغة سحرية شديدة القوة والتأثير لدرجة تجعل « إلـه الشمس » الذي يعتبر القوة الحقيقية الكامنة وراء تلك المحاكمة يسقط من سماواته في « النيل » إذا لم يخرج ذلك الميت بريء الساحة — تماماً — من محاكمته .

« وبتلك الكيفية نجد أن أقدم انتشار للأخلاق الفاضلة كان يمكننا تتبعه في حياة الإنسان القديم قد توقف فجأة أو على الأقل قد صدم صدمة عنيفة بتلك الحيل الممقوتة التي كان يستعملها أولئك الكهنة الفاسقون جرياً وراء الكسب ، ولسنا في حاجة إلى بيان ما أدى إليه تدخل السحر في ذلك الشأن الخطير من الاعتقادات الدينية وما آلت إليه الحال من الارتباك في الفوارق التي انطوت على ذلك التطبيق الأخير للسحر ، وذلك الارتباك كان ناتجاً من خيبة الإنسان قديماً في فهم الفرق بين « ما يدخل في نفس الإنسان » وبين « ما يخرج منها » .

« فتلك البراءة التي تطبق على الإنسان تطبيقاً آلياً بالعوامل الخارجية لتتجه من العقوبات التي مصدرها من الخارج — لا يمكن — بطبيعة الحال — أن تزيل الأضرار التي حدثت في باطن الإنسان ، فالإيحاء الباطني الذي كان يحسه المصريون الأقدمون أكثر من أية أمة أخرى في الشرق القديم ، وهو الإيحاء الذي كانت ترتكز عليه أيضاً كل فكرة عن الحساب الخلقي العسير في عالم الآخرة — لا يمكن أبداً أن يكتفي بمثل تلك الطرق الخارجية التي ابتدعها لهم السحر ، ولا بد أن الاعتقاد العام الذي جرت به العادة في الاعتماد على مثل تلك الحيل الدنيئة للفرار من المسئولية الخلقية عن حياة مرذولة — كان قد سمم حياة الشعب الفطرية » .

ويقول في صفحة ٢٤٧ : « ولا غرابة إذن إذا كان كهنة ذلك العصر وكتبته قد انتهزوا تلك الفرصة السانحة لابتزاز أموال الناس بالباطل حباً في الكسب الذي كان يأتي إليهم بتلك الطريقة السهلة ، ولذلك تضاعفت أخطار الآخرة وأهوالها إذ ذاك تضاعفاً عظيماً ، إلا أن الكهنة في مقدورهم إنقاذ المتوفى لدى كل موقف حرج بالتعاويذ الفعالة التي تنجيه من الخطر حتماً ، هذا بخلاف تعاويذ عديدة تساعد المتوفى على الوصول إلى عالم الآخرة ، كما كانت توجد أيضاً تعاويذ تمنع فقدان الميت فمه ورأسه وقلبه ، وأخرى لتساعده على استذكار اسمه ، وكما كان منها ما يساعده على التنفس والأكل والشرب ، ومنها

ما يمنعه أكله لبرازه ، ومنها ما يمنع الماء الذي يشربه أن يتحول إلى لهيب، ومنها ما يحول الظلام نوراً ، كما كان من التعاويذ ما يحجب عن الميت كل الثعابين والوحوش المؤذية الخ » .

لقد كانت فكرة الحساب من أجل أن يقلع المرء في حياته عن الشر ويمعن في عمل الخير ما وسعه حتى يسعد مجتمعه ويسعد هو نفسه ، لأنه يخشى العالم الآخر ، فلا يستعد له بسوء يجزى عنه عذاباً شديداً ، فينصرف إلى الخير رغبة في النعيم المقيم .

وكان المصري عميق التدين شديد الإيمان بالعالم الآخر ، ويحمله الخوف من عذابه والطمع فيما فيه من نعيم على الإقلاع عن الشر ، والحرص على لقاء العالم الآخر بالصالحات وقهر الشهوات ، والاستكبار على غرائزه الشريرة.

ولكن هذا الخوف قد بدده الكهنة كما يسروا له سبيل الشر ودفعوه إليه دفعاً ، فقد ضمنوا له الفوز بالجنـــة ونعيمها مهما كان شريراً وعمله سيئاً ، ومهما بلغت آثامه وخطاياه ، وضمنوا له النجاة من النار مهما أطلق لشهواته وغرائزه العنان ، ومهما خلت كفة الحسنات من الحسنات .

كل هذا تلقاء دريهمات يقدمها الإنسان للكهنة يحصل بها على صك أعظم من صك الغفران الذي ابتدعته المسيحية ، وما عليه بعد أن يرضي الكهنة بالمال أن يعمل ما تشاء له نفسه الشريرة ، فالجنة مضمونة له ، والنار بعيدة عنه بفعل الكهنة ، وكأنهم ملكوا الجنة ، يدخلون فيها من أرضاهم بالمال وغيره ، ومن لا يرضيهم فإلى جهنم وبئس المصير .

وفعل الكهنة قضى على الشعور بالتبعية الأخلاقية عند المصريين ، وبعث إلى أنفسهم الأمن والطمأنينة ، لأنه مبشر بالجنة مهما فعل من الشرور والموبقات ما دام قادراً على إرضاء الكهنة ، وبذلك انتفى القصد من الحساب في العالم الآخر الذي لا خوف منه على الزنيم المذنب الأثيم ما دام في وسعه إرضاء الكهنة

الذين أعطوا أنفسهم سلطة تجبر الإلـه الأعظم المصري (إلـه الشمس) على الرضوان بَلْه الغفران ، فإذا لم يرض الإلـه الأعظم عن الميت ويخرجه من المحاكمة بريئاً فقد كتب على نفسه أن يسقط من سماواته العلى .

فالكهنة هم الذين يسيطرون في الحياة الدنيا على الأحياء ، وهم أنفسهم يسيطرون على إلـه الشمس والآلهة في العالم الآخر ، ويجبرونهم على الرضوان عن العاصي إذا رضي عنه الكهنة ، وليس غير الكهنة .

ومناط الأمر كله بيد الكهنة ، والجنة والنار بين أيديهم ، ولا سلطان إلا لهم ، والآلهة لا تستطيع أن تحاسب مذنباً فاز برضا الكهنة ، بل الآلهة مجبرون على أن يرضوا عمن رضي عنه الكهنة ، بل بلغ بهم الاستئثار بالسلطة على الآلهة إن إلـه الشمس الأعظم القوي مهدد بالسقوط من سمائه إذا لم يرض عمن رضي عنه الكهنة .

فالعالم الآخر بجنته وجحيمه ؛ وبآلهته وقضاته وبكل ما فيه من قوى غلابة تحت تصرف الكهنة يتحكمون فيه من عالم الدنيا ، فالأمر أمرهم ، ولا شيء إلا هو من عندهم .

ولم يصبح للعالم الآخر أي جدوى ، فالظلم منتقل من الدنيا إليه ، والقدرة على الشراء هي التي تحكم .

وإذا كان الكهنة يتحكمون على العالم الآخر فهم محكومون لمن يدفع ، فالحاكم الفعلي على الإلـه الأعظم المصري والجنة والنار هو المذنب الظالم القادر على دفع المال .

ويجب أن ندرك الفرق الكبير بين العالم الآخر واليوم الآخر ، فالعالم الآخر في الديانات المصرية ليس يوماً آخر ، ولكنه عالم واقع في الدنيا دون أن يشهده الأحياء ، لأنه خاص بمن يفارقون الحياة .

أما اليوم الآخر فهو نقيض الدنيا ، ولا يأتي إلا بعد فنائها ، ثم تكون

القيامة العامة حيث يتم الحساب الحق بعدها ، لا ظلم فيه ، ولا أمر إلا للواحد القهار .

والعالم الآخر في الديانات المصرية لا يتفق مع العالم الآخر واليوم الآخر في الإسلام ، وإذا كان فيه من الكلمات وبعض الإجراءات مما يشبه ما في الإسلام فمرد ذلك إلى أن فكرة البعث واليوم الآخر فكرة قديمة سبقت الديانات المصرية الوثنية ، فالرسل بشروا بها ، وعرضوها عرضاً صحيحاً كما تلقوها من الله فبقيت ظلال من الفكرة الصحيحة انتهت إلى الديانات الوثنية .

وعلى أي حال ، ففكرة العالم الآخر في الديانات المصرية أساطير وليست حقيقة من حقائق العقيدة ، وان كانت في هيكلها الأسطوري أروع من العالم الآخر في الوثنية اليونانية التي أخذت من ديانات مصر وغيرها فكرة العالم الآخر ، ونسجت منه أسطورة كالأساطير المنسوجة عن الآلهة نفسها .

تفنيد الأباطيل
(٥)

اليوم الآخر في ديانات الهند

لا وجود لليوم الآخر في البوذية والبرهمية وفي ديانات الهند الأخرى ، التناسخ في بعضها تنفيه ، وفكرة « النرفانا » التي ينتهي إليها الإنسان النقي الطاهر أو الذي طهره العذاب والألم من جراء التناسخ ليندمج في النرفانا حيث ينعدم الحس الإنساني .

وأقدم الديانات المعروفة ديانة الفيدا ، وليس فيها يوم آخر ، لأنها تعتقد بالتناسخ ، إلا أن لكتب الفيدا وذيولها أثراً في ميلاد دين جديد أعقبها ، ويختلف عنها في المنحى الفكري والعقائدي ، هذا الدين الجديد هو « البراهمية » نسبة إلى « براهما » أحد الثالوث الإلهي المكون منه ومن فشنو وسيفا ، وعندما دخل البحث الفلسفي الديانة البراهمية فهم « البراهمان » على أنه الوجود المطلق ، وجوهر العالم الواحد الشامل .

ويعود تاريخ ظهور البراهمية إلى ما بين القرن الثامن والسادس قبل الميلاد ، وهي صفحة أخرى من الديانة الفيدية ، فيها المنطق والعقل والفلسفة ، وحل معضلات وقفت أمامها الديانة الفيدية خاشعة دون بحث أو تفكير ، فأخذت

البراهمية تبحث وتفكر وتعلل، وتذهب إلى التوحيد الذي يراد منه أن الألـه واحد أحد ، ولكنه توحيد لا ينفي الشرك ، لأن كل شيء يصبح إلهاً ، كل إنسان جزء من الإلـه وإن كان منفصلاً عنه ، إن الانفصال مجرد وهم، ومع ذلك سينتهي به الأمر إلى الاندماج فيه من جديد .

وهذه الوحدة التي تجمع الأجزاء في كلٍّ واحد هي وحدة الوجود ، إنه « براهمان » الكلمة ، إنه البدء الذي يستمد منه كل كائن وجوده ، وبراهمان وحده هو الذي يستمد وجوده من ذاته، بل هذا الإنسان في جوهره المتجرد من الذاتية إنما هو الإلـه نفسه ، لأن الإلـه جوهر الكائنات كلها .

وتكرار الوفاة والولادة بوساطة التناسخ والحلول يلغي اليوم الآخر ، فالتكرار مستمر دائم إذا لم تتطهر روح الميت المنتقل منه إلى حيوان أو شجر أو إنسان ، فإذا تطهرت وتم لها التجرد المطلق من الشهوات صعدت إلى حيث يمكنها الاتحاد مع الكل والاندماج فيه ، وتلك نعمة تضع حداً للعذاب الذي يتجلى في تكرار الولادة الذي هو قصاص عادل يستوفيه حتى يتجرد تجرداً تاماً مطلقاً .

فالبرهمية خالية من الإيمان باليوم الآخر ، والجينية ديانة معطلة لا إلـه فيها فهي لاهوت بـــلا إلـه، ومع هذا تذهب إلى أن الراهب الذي يتنعم بقتل نفسه بعد ترويضها اثنتي عشرة سنة وقتْل كل شهواته ونزعاته ووصوله إلى الدرجة الرفيعة فقد استطاع إنقاذ نفسه من التناسخ والحلول، والصعود إلى حيث النعيم الأبدي في جنة أشبه بالجزيرة حيث الخلود .

والقتل المباح المحبب أن يكون عن طريق الجوع تأسياً بوالدَي «ماهافيرا» مؤسس الجينية اللذين قتلا نفسيهما جوعاً زهداً في الحياة والغنى والمجد مع أنهما كانا من الأغنياء المترفين .

والصعود إلى النعيم الأبدي في الحنيفية أسطورة وليس من حقائق العقيدة ولا يعد إيماناً باليوم الآخر لأنه فاقد أسباب وجوده .

والبوذية في أساسها إلحاد كالجينية ، وليست ديناً بالمعنى الصحيح ، لأنها مجرد آداب سلوك ، وليس فيها يوم آخر ، لأن البوذي السعيد الذي ينجو من الدوران في محيط الولادة والموت إذْ يصل إلى « النرفانا » حيث لا ولادة ولا موت ، وهذه المرحلة هي انعدام التناسخ الذي هو من ضرورات النفس الشقية.

والنرفانا عدم تجدد الولادة وتكرار الوفاة ، وعدم الشهوة والألم ، وعدم الرغبة والإرادة ، وعدم الحياة في العالم الأرضي ، ولكنه في البوذية وجود أيضاً ، لأن النفس – عندما تصل إلى النرفانا – تنتهي صلتها بالوجود الأرضي ، فهو وجود يفنى في وجود .

والنرفانا في البوذية ليس عالماً مادياً ، ولكنه ميتافيزيقي ، إنه وراء الحس ، فالبوذية انتهت إلى إثبات ما أنكره بوذا نفسه ، وهو المجهول ، وبوذا نفسه ذهب إلى فناء النفس وفسادها وانحلالها .

وعلى أي حال ، لا وجود في ديانات الهند لليوم الآخر ، لأن منها ما أنكر بقاء النفس ، ولأن منها ما أنكر بقاء ما قال بالتناسخ ، وهو قصاص دنيوي لا ينتهي إلا بعد التفكير والتطهير لتمّحي النفس في النرفانا .

وماذا يأخذ نبيُّ الإسلام من هذه الديانات التي لا يعلم عنها شيئاً ، ولا علم له بلغات الهند ، وليس فيها ما يتفق مع عقيدة الإسلام في اليوم الآخر ولا في ذات الله عز وجل نفسه .

اليوم الآخر في أساطير اليونان وفلسفتهم

أما الأساطير اليونانية فلا وجود فيها لليوم الآخر، إلا «هاديس» العالم السفلي الذي تجتمع فيه أرواح الموتى جميعهم، وفيه عذاب، ولكنه ليس جزاءً لما قدم الإنسان في دنياه، بل لمخالفات تقع بين الأرواح المجتمعة.

وهوميروس أشار إلى «هاديس» في «الأوذيسا» وما يقع فيه، وفي الأساطير اليونانية: أن «هاديس» يسمى «أوركوس» و «إيريبوس» وهو غير «ترتاروس» الذي يخلط بينهما بعض المؤرخين وكثير من الكتاب، وهو العالم السفلي ويحكمه الإلـه «هاديس» الذي يسمى إيديس أو أيدونيوس — ومعناه الخفي، وبلوتو أو بلوتون — ويسميه الرومان «ديس» أو «أوركوس» أو ترتاروس، وهو ابن كرونوس وريا، وشقيق زوس وبوسايدون وهيرا، ويوصف بأنه ملك الجحيم وإلـه الموتى.

واجتناباً للوهم تطلق على هاديس أحد أسمائه الأخر وهو «بلوتو» للتفريق بين هاديس الإلـه الخفي الذي يحكم عالم الأموات، وهاديس العالم السفلي

مقرأ رواح الموتى .

وتصور الأساطير اليونانية بلوتو « مجرداً من الشفقة نحو سائر المخلوقات، وعنوان الخوف من البغضاء عند البشر »[1] وخطف بيرسيفوني ابنة كيريس عندما خرج بلوتو ذات مرة من عالمه السفلي إلى العالم الأرضي فأعجبه جمالها فخطفها وعاد إلى مملكته تحت الأرض ، وكان لبلوتو معشوقات أخريات ، منهنّ : « مينثي » التي حولها بلوتو إلى شجرة نعناع لينقذها من قسوة بيرسيفوني .

وكان يجلس مع زوجته المخطوفة على عرشه بقصره العظيم الرهيب للقضاء والعقاب ، ولا يقتصر حكمه على الموتى بل على مخلوقات مخيفة تأتمر بأمره ، ومنها ما هو في العالم الأرضي ، وأما ما كان منها في العالم السفلي فله القدرة عــلى مغادرته إلى الأرض لمعــاقبة من يأمر بمعاقبته من سكانها ، وكان فيه ربات الانتقام والعذاب يسمين « الأرينويس » أو « الفورياي » الاسم الروماني لهن ، وهنّ ثلاث عذارى ذوات أجنحة ، شعورهن ثعابين ، وأجسادهن محاطة بالأفعوانات ، ويحملن المشاعل والمناجل ، وبأيديهن السياط .

والعذاب المصبوب منهن على المذنب غير منظور فيه إلى ذنبه ، ارتكبه عمداً أم خطأً أم عفواً ، وليس عقابهن مقصوراً على أرواح الموتى بل على الأحياء أيضاً .

ويفصل بين العالم الأرضي والعالم السفلي نهر الآلام المسمى « أخيرون » وهو ابن الإلاهة جيا ، والموكل بنقل الموتى نوتي اسمه خارون ، أسمر اللون ، بشع الخلقة ، ذو ملابس قذرة ، ويطلب أجره قبل نقله ، فمن دفع نقله ، وإلا لبث مئة سنة ، ويساعده «هيرميس» — واسمه ميركوريوس لدى

---

(١) رجعنا فيما كتبنا في أسطورة « هاديس » إلى «معجم الاعلام في الأساطير اليونانية والرومانية» ترجمة أمين سلامة ، وكتاب « مشاهد القيامة في القرآن » لأخي الإمام الشهيد سيد قطب رحمه الله وأسكنه الجنة .

الرومان ــ أحد كبار آلهة الأولمب ، ووظائفه كثيرة ، منها : إرشاد أرواح الموتى إلى العالم السفلي .

وعند مجرى أخيرون يقبع كلب « يسمى « كيربيروس » يحرسه ، فيسمح للموتى بالدخول ، ويمنعهم من الخروج ، وله ثلاثة رؤوس ، وهو مفترس .

وكان هاديس في الأسطورة اليونانية أو العالم السفلي عالمَاً شديد الظلمة ، خصص ليكون مأوى الموتى ، ولم تكن داراً آخرة للحساب ثواباً وعقاباً ، فأرواح الموتى تنتقل من العالم الأرضي إليه في صورة أشباح ، لا حساب ولا عقاب ولا لذة ولا سرور ، بل لا إدراك أيضاً ، ولا طاقة لها على الكلام إلا لمن شرب من دم الحيوان المذبوح .

وعندما تطورت الفكرة من انتقال الروح إلى هاديس عرفت الأسطورة اليونانية فكرة الحساب ، فالظالم يعاقب على ظلمه ، ويثاب العادل على عدله ، فأقيمت الحقول الإلوسية كمكان مبارك للأخيار في هاديس نفسها .

وكان حتماً وجود مكان للعذاب فاخترعت الأسطورة « ترتاروس » وتمثل هوة سحيقة تبعد عن هاديس بمقدار بعد الأرض عن السماء ، وإذا أُلْقِيَ من الأرض شيء فإنه لن يصل إلى ترتاروس إلا بعد تسعة أيام .

وما دام ترتاروس للعذاب فقد امتلأ بالظلمة القاتمة ، وأشبه السجن ، فقد أحيط بحيطان من البرنز ، وكان من قبل سجن الآلهة التي تحلف كذباً بستوكس ، وهو نهر رئيسي بهاديس ، ويعتبر ربة ، وابنة أقيانوس وتيثوس ، و «ستوكس» اسم مقدس عند الآلهة نفسها ، حتّى صار يحلف بـــه ، فإن كان الإله الذي يحلف اليمين حانثاً يسكب من مـــاء النهر فيظل سنة دون حركة كأنه ميت ، وإن كان صادقاً لم يصبه أذى ، ويرسل الإلـه الذي يكذب في يمينه إلى ترتاروس ليقضي فيه تسع سنوات تكفيراً وعقاباً .

ثم صار ترتاروس مكاناً لعقاب المذنبين ، وأخيراً صار جزءاً من هاديس .

وتولى مينوس – ابن زوس ويوروبا – وملك كريت ، بعد موته قاضياً في العالم السفلي، وكان مجلس قضائه على عرش وبيمناه صوبجان،يقضي بين الطيب والخبيث ، والصالح والشرير ، ولكل من يحكم عليه مكان في العالم السفلي [١] .

ولم يكن هاديس مكاناً لأرواح الموتى وحدهم ، بل كان مقراً لأرواح من لم يولدوا بعد .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد جاء في قصيدة بندار الأولمبية الثانية : «سيجد العظماء في الأرض قاضياً في الجحيم ، فالذين ارتكبوا أعمالاً محرمة تحاكمهم الإلاهة أنانكي»[٢] . ويقول الأستاذ سيد قطب: «ومع أنه لا يبين كيف تجرى هذه المحاسبة إلا أنها خطوة كبيرة في القرب من العقيدة المصرية في عدالة هذا الحساب ».

ويقول الأستاذ سيد قطب : « ثم تمر السنوات حتى يأتي أفلاطون (مولده بين ٤٢٩ – ٤٢٧ ق. م.) فيقول : « فإذا جاءت الأموات أمام قاضيهم ردامانت (وهو أخو مينوس) إلى القرب منه ، ثم فحص روح كل واحد منهم من غير أن يعرف لمن هي ... فإذا وجدها مملوءة فساداً وخبثاً وكانت قد عاشت بعيداً عن الحقيقة بعث بها إلى السجن لتتلقى فيه العقاب الذي تستحقه » .

ويتابع الأستاذ سيد قطب عرضه لرأي أفلاطون فيذكر قوله : « وردامانت يرسل المحكوم عليهم إلى قاع الجحيم بعد أن يسمهم بميسم تبعاً لقابليتهم أو عدم قابليتهم للتطهير ، أما الروح الذي يرى أنه عاش في الطهر وفي الحقيقة فإنه يبتهج به ويرسله إلى الجزائر السعيدة » .

---

(١) معجم الأعلام في الأساطير اليونانية ، وفهرس الأعلام في الترجمة العربية للأوذيسة بقلم عنبرة سلام الخالدي .

(٢) مشاهد القيامة لسيد قطب .

ولكن سبق أفلاطون ومدارس الفلسفة اليونانية الديانة السرية المعروفة بالأورفية نسبة إلى أرفيوس – كما يقال – وهو شاعر خرافي من تراقيا ، غير معروف تاريخ حياته ونحلته ، وله ذكر حي في الأساطير اليونانية .

وديانتها قائمة على عبادة ديونيسوس ، وصار لدى الأروفية إلـه التضحية ، ولئن كانت ديانة أسطورية قديمة إلا أنها عرفت في القرن السادس قبل الميلاد ، واليوم الآخر الذي عرفته لا يخرج عن الأساطير ، وما فيه مزيج من الديانة المصرية والهندية ، فالإنسان مطبوع على الشر ، ولا بد أن يتخلص منه ، وليس ذلك سهلاً ، ولا تكفي حياته الأرضية الأولى ، بل يحتاج تطهيره من الشر إلى آلاف السنين ينتقل خلالها في دورات متتابعة للولادات المتكررة ، وأظهرت الكشوف الأثرية في جنوب إيطاليا حيث كانت الديانة الأورفية صفائح في بعض المقابر دُوِّن فيها ما يجب أن تتبعه نفس الميت ، والصلوات التي تتلوها .

ودل هذا الكشف على معرفة الأورفيين كتاب الموتى المعروف في الديانة المصرية حيث اقتبسوا منه كما أخذوا عن ديانة الهند فكرة الولادات المتعاقبة .

وللفلسفة اليونانية منذ فجرها الأول الذي بدأ في القرن السابع قبل الميلاد آراء في النفس وفي الغيب ، فالمدرسة الأيونية من طاليس إلى هرقليطس نشأت في أواخر القرن السابع حتى أواخر الخامس ، وهي متأثرة بفلسفة الشرق ، وآخر أبنائها هرقليطس (٥٤٠ – ٤٧٥ م) الذي يعتنق مذهب وحدة الوجود ، فهو يرى أن المبدأ الأول – أي الله – هو النار ، ولكنها ليست هذه النار ، بل هي نار لطيفة ، والنفس الإنسانية بخار حار ، والحرارة ضرورة لازمة للحي ، وهي قبس من النار الإلهية ، ونهاية النفس الفناء في هذه النار حيث تعود إلى مصدرها الأول .

وانكسمندريس – أحد أقطاب المدرسة الأيونية – يرى اللانهائي هو الأصل ، وما انفصل عنه هو النهائي ، ومعاد النهائي إلى اللانهائي هو الوحدة ، لأن

الانفصال نفسه كان خطيئة فالعالم يكفر عنها حتى يعود إلى اللانهائي .

وأما مدرسة فيثاغوراس (٥٧٢ – ٤٩٧ ق . م) فمذهبها أن النفس أو الروح – وهما لديها بمعنى واحد – تتعذب بالتنقل من جسد إنسان أو حيوان أو نبات إلى جسد آخر حتى يتم لها التطهير التام بعد هذا التناسخ المستمر ، فتتلاقى في هذا المذهب نظرية التناسخ ونظرية الدور دون أن يتم بينها التوفيق .

وأمبادقليس يعتقد بالتناسخ ، وأنه كان طائراً وسمكة وشجرة ، ولذلك يحرم ذبح الحيوان خشية أن يذبح الإنسان أباه أو أمه .

وفلسفة الذريين التعطيل ، فديمقراطيس الذي تناول المذهب وشرحه ينفي وجود الآلهة لأنه وهم ، والنفس الإنسانية مكونة من ذرات ، وأنفس الآلهة من ذرات ألطف تضمن لها بقاء أطول ، ولا شيء من اليوم الآخر لديها ولدى من سبقها .

وسقراط يرى الروح خالدة ، ولا تفنى بفناء الجسد ، والموت خلاصها من سجنها ، فتعود إلى طبيعتها الصافية ، ولا شيء بعد ذلك .

وأما أفلاطون فرأيه أو معتقده هو التناسخ ، فالنفس كانت في عالم المثل ، وكانت سعيدة فيه ، ثم حلت بالجسم ، فإذا مات الإنسان الطيب السعيد عادت روحه إلى عالم المثل لتحيا به سعيدة مطمئنة ، ثم تأتي لتحل بعد زمن طويل بالجسم ، أما الإنسان الشقي فلا تعود روحه إلى عالم المثل ، بل إلى العذاب ، ثم يحل في جسم أحط ، فالرجل يحل في جسم أنثى ، وكلما زاد الإنسان سوءاً في حياته تحل روحه في جسم أكثر انحطاطاً ، فالشهواني يحل في جسم حيوان .

وأفلاطون ناقض نفسه عندما زعم حلول روح الإنسان في جسد حيوان ، فقد قال : إن نفس الحيوان لم تدرك قط حقيقته ، ولهذا لا تحل في جسد إنسان ، فكيف تحل روح الإنسان الذي أدرك الحقيقة في جسد حيوان .

ويجوز أنه لم يناقض نفسه ، فالتناسخ عقوبـــة ، وحلول روح الإنسان

الذكر في جسم أحط كجسد المرأة أو أكثر انحطاطاً منه كجسد حيوان عقوبة .

ويأتي أرسطو فيرد على أفلاطون وفيثاغوراس ومن يرى رأيهما رداً فيه فن وبلاغة ، فعنده « النفس » مجموعة قُوى ، ولا توجد نفس من غير جسم ، فهي وظيفة هذا الجسم ، فكيف تحل نفس خاصة ببدن في بدن آخر ، بل كيف تحل نفس إنسانية لها خصائصها وطبائعها وأعمالها في جسم حيوان ؟ فوظيفة شيء لا تؤدي وظيفة شيء آخر ، فعلاقة النفس بالجسم كعلاقة النغم بالوتر ، فإذا قلنا بالتناسخ كنا كمن يريد ذلك النغم من مطرقة الحداد .

والوظيفة تفنى بفناء العضو ، فهل تفنى النفس عند أرسطو ؟ إنه يفرق بين النفس والعقل ، فالنفس تفنى ، والعقل الفاعل لا يفنى ، لأن طبيعة الجسم تقتضي وجود النفس ، فهي تتبعه في الفناء ، ولكن العقل الفاعل جاء من خارجها فهو يعود من حيث جاء ، وهو أزلي أبدي بلا بداية ولا نهاية ، فلا بد أن يعود إلى العقل المطلق الأزلي الذي لا أول له ولا آخر ، وهو الله ، والعقل الفاعل صادر من العقل المطلق ، ومنه جاء إلى الإنسان المكون من نفس وجسم ، وبفنائهما يعود العقل الفاعل إلى مصدره .

ويفهم من أقوال أرسطو أنه يذهب إلى الحلول ، لأنه يقول : إن كل شيء في الوجود يسعى لتحقيق العقل ، والعقل المطلق هو الله .

ومعنى هذا أن الله حالٌّ في كل شيء في الوجود يسعى لتحقيق العقل .

والرواقيون يذهبون إلى وحدة الوجود ، فالله والطبيعة شيء واحد ، فلا آخرة لديهم .

وفي كل ما سبق الإسلام من مذاهب وديانات ونحل يكاد يخلو من اليوم الآخر ، ويجب التنبه إلى الفرق بين اليوم الآخر والعالم الآخر ، وما أشار إليه ليس يوماً آخر ، ولكنه عالم يشبه عالم الأحلام ، وهو — بعد — من

الأساطير ، وليس حقيقة من حقائق العقيدة الدينية ، بل يكاد يكون خرافة لم يصل إلى مرتبة الأسطورة .

أما ما أشارت إليه المسيحية التي تصورها أسفار العهد الجديد فهو لا يتفق مع الإسلام في جزئياته وتفصيلاته ، ولا في مقاصده ، لأن فكرة الخطيئة والخلاص والفداء الإنسانية تبعد مسئولية الإنسان ، فوزره قد دفع ثمنها المخلص وحمله عن بني الإنسان ، فما جدوى الحساب ؟

الفرائض والشعائر المتشابهة

أعداء الإسلام لا يتركونه في سلام يؤدي ما تكفل به من إسعاد البشر وصلاحهم وهدايتهم وتهذيبهم وإنقاذهم من القلق والمخاوف ومن الشقاء الذي يغشاهم فتتدجى كل سبلهم ، ويتنكرون له في الوقت الذي يريد لهم الخير كله ، ويحاربونه في كل ما أتي به للخير الخاص والعام .

حتى الاسم الجميل أرادوا مسخه فزعموا ان لفظ المسلم و « الحنيفية » مأخوذ من الوثنية الباطلة ، فزعم مستشرق جهول ممتلىء القلب بالحقـــد والهوى ان « المسلم » منسوب إلى مسيلمة الكذاب ، وأن « الحنيفية » منسوبة إلى بني حنيفة قبيلة مسيلمة الكذاب .

ولو كان هذا المستشرق على أيسر حظ من العلم لما تورط في هذا السخف الذي لا يدانيه سخف ، والقصد من الحنيفية معروف ومعناها واضح ، وهو الطهر والميل الصادق إلى الإسلام دين الحق ، وأن « المسلم » مشتق من « الإسلام» وعرف من يعتنق الإسلام بالمسلم قبل أن يعرف اسم مسيلمة وكذبه وادعاؤه النبوة .

وليس مثل أكاذيب هذا المستشرق الجهول الحاقد فيما يتصل بالعلم والجد والبحث ، بل هو من الهذر والسخف الرخيصين وما قصد من باطله غير

التجني على الإسلام والمسلمين بكل وسيلة وبكل ما يسعه القول والفعل ، معتقداً مثل زملائه أن العداوة والحرب تبيحان لهم اتخاذ كل سلاح ولو كان أقذر سلاح لا يرتضيه من كان على شيء جدّ يسير من العقل والعلم والخلق .

ومن ذلك التجني الحقير أن يتهموا الإسلام بأنه نسخة مشوهة من اليهودية والمسيحية والصابئة ومن الديانات الوثنية الأخَر ، وغفلوا عن أن الإسلام غير هذه الديانات في كل ما جاء به ابتداءً من العقيدة وانتهاء إلى أمور الحياة دقيقها وجليلها .

والاختلاف بين الإسلام وغيره من الديانات لاحد له ، وإن اتفقت الأسماء.

وإذا صح الاتفاق بين الإسلام وغيره في شعائر وفرائض فإن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يدَّعِ أنه جاء بدين يناقض الأديان الصحيحة، بل دينه دين من سبق من الرسل ، و ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾ ونبي الإسلام يقول : « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » .

ويقول الله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وآتينا داود زبورا * ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ النساء: ١٦٣ — ١٦٥ .

وإذا جاء في القرآن والحديث شيء مما جاء في الديانات الأخرى فإن سبب ذلك أن الإسلام دين الرسل جميعاً ، وإذا وجد في الوثنيات شيء من الحق فذلك ما ورثته من الديانات الصحيحة ، لأن الضمير الإنساني — مهما اغرقه الكفر والشرك — لا ينعدم فيه الخير ، وإذا انعدم عند أناس فإن بعض الضمائر يبقى سليماً أو أقرب إلى السلامة ، وأصحابها يرثون الأنبياء ، وينقل إرثهم السلف إلى الخلف .

والآداب الإنسانية – أوامرَ ونواهيَ – حصة مشتركة تنبع من الضمير الإنساني ، ومن الغريزة والفطرة ، فإذا اتفقت ديانات السماء والإسلام والوثنيات في بعض الأوامر والنواهي مثل : بر والديك ، وارحم الضعفاء ، ولا تسرق ، ولا تقتل ، فليس معنى هذا أن نبي الإسلام أخذ منها .

وأما الصلاة وغيرها من الشعائر الدينية فلم يأخذها محمد ﷺ من الديانات والعناصر الأجنبية ، وإذا اتفقت الأسماء فالمسميات مختلفة ، فكلمة « الرحمن » الموجودة في ديانة الجنوب من الجزيرة العربية التي اطلقت على إلـه فيها لا تجيز للعقل أن يتهم نبي الإسلام بأنه أخذها منها .

فالرحمن في الإسلام ليس كالرحمن في غيره في المعنى والمفهوم ، فهذا الاسم – من أسماء الله الحسنى – يطلق في الجنوب على أحد الآلهة ، وله أشباه ونظائر في الجنوب وفي غيره ، ولكنه في الإسلام أحد أسماء الله الحسنى ، وهو ليس مرادفاً لأي اسم من هذه الأسماء ، حتى « الرحيم » يختلف عن الرحمن ، فالرحيم هو ذو الرحمة الخاصة بالحياة الدنيا ، والرحمن أعم من ناحية ، وأخص من ناحية أخرى ، فهو ذو الرحمة في الآخرة .

ووجود « الرحمن » في ديانة الجنوب قبل الإسلام ليس معناه أنه أخذه عنها، فمما لا شك فيه أن المعنى يختلف كل الاختلاف في ديانة الجنوب الوثنية الشركية وفي الديانة الإسلامية ، فهو يطلق في الجنوب على صنم من الأصنام ، وفي الإسلام على الله الواحد الأحد الذي لا شريك له .

وما ثم ما يمنع أن يكون الجنوبيون أخذوه من إحدى ديانات السماء الصحيحة ، بل هو مأخوذ منها قطعاً ، لأن تلك الديانات كانت موجودة قبل ديانة الجنوب الوثنية ، فديانة نوح والنبيين من بعده وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق قد سبقت ديانة الجنوب ، وكان الجنوب من مناطق ديانات التوحيد ، فلا يستبعد أن تكون كلمة « الرحمن » من الكلمات التي ورثها الجنوب من تلك الديانات .

فاشتراك الإسلام مع غيره من الديانات التي انتقلت من التوحيد إلى الشرك في بعض أسماء الله الحسنى أو في الفرائض والعبادات والمعاملات والأحكام لا يفهم منه أنه أخذها منها ، بل هو مستقل ومختلف عنها في المسميات .

فأركان الإسلام الخمسة تغاير أشباهها في الديانات الأخرى ، فالشهادة في الإسلام — وهو أول أركانه — غيرها في الشهادة المسيحية واليهودية وفي جميع الوثنيات بما فيها وثنية أخناتون التي ذهبت إلى التوحيد وصفات التنزيه كما يقولون .

فالله جل جلاله عند المسلمين واحد أحد ، لا شريك له ولا ند ولا صاحبة ولا ولد ولا شبيه ، وهو رب الكون كله وصاحب الأمر وما فيه ، وهو رب المؤمن به والشاك فيه والمنكر وجوده . وهو رب العالمين ، وليس كمثله شيء في الأرض ولا في السماء .

والله سبحانه وتعالى في المسيحية المحرفة هو الآب ، والمسيح هو الله الابن ، ومعهما الله روح القدس ، وهذا هو الثالوث المقدس عند المسيحيين .

والله عز وجل في اليهودية « يهوه » أو « ألوهيم » وهو إلـه اليهود الخاص بهم ، ولا يشركه فيه أحد سواهم ، فهو ليس رب المسلمين ولا رب المسيحيين ولا رب أي أحد غير اليهود ، لأن لهؤلاء آلهتهم وأربابهم .

وتوحيد أخناتون توحيد وثني خاص أيضاً ، فهو تخيل الإلـه الأحد الفرد الصمد قرص الشمس المرسل أشعته إلى الأرض ، والأشعة تنتهي بأيدٍ بشرية تمنح الخيرات كما يقول من كتبوا عن أخناتون من علماء المصريات المصريين .

إن تصور أخناتون لإلهه تجسيد لا يتفق مع جلال الله وكماله المطلق .

وآلهة مصر الأخرى أصنام موصوفة بصفات النقص التي يتصف بها بنو البشر ، والآلهة الوثنية في جميع الديانات بلا استثناء أوثان وأصنام وذوات صفات بشرية أو حيوانية ، وبعضها من المخازي الشنيعة .

والبوذية والجينية — من ديانات الهند — لاهوت بغير إلـٰه ، فهما ديانتا إلحاد لا تعترفان بوجود إلـٰه .

وديانة الصابئة تلتقي بكثير من الديانات التي بقي فيها عبادة الأجرام السماوية « فصابئة » النبيط والفرس والروم فزعت للسيارات السبع ، وصابئة الهند فزعت إلى الثوابت ، فأولئك عبدة الكواكب ، وهؤلاء عبدة الأصنام كما يقول الشهرستاني .

وفي ديانة الصابئة توحيد ، فهم يقولون في الله : إنه الخالق الواحد الأزلي الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، وهو خالق كل شيء ، ويؤمنون بالغيب والحساب والبعث والقيامة .

وهذا التوحيد هو توحيد الصابئة المؤمنة التي ذكرها القرآن ، وأما الصابئة التي تعبد الكواكب فهي الخارجة على التوحيد .

وعلى أي حال فكل الديانات غير السماوية لم تعرف التوحيد الحق ، وبخاصة الديانات التي كانت عند ظهور الإسلام ، فكلها كانت ديانات شرك ووثنية بلا استثناء ، فديانات السماء قد انقلبت وثنية .

ولهذا لا يمكن أن يقال : إن الإسلام نسخة مشوهة من المسيحية واليهودية ومن الصابئة وبعض الديانات الوثنية، فالخلاف بينه وبينها خلاف لا يتم معه لقاء ، وهو غيرها في الأصول والفروع وإن اتحدت الأسماء .

فذات الله وأسماؤه وصفاته في الإسلام غيرها في جميع الديانات ، فكيف يزعمون ما زعموا والإسلام يغاير تلك الديانات ؟

وكتاب الله عند المسلمين يخالف الكتب التي يزعم أصحابها أنها كتب الله أو أنها منزلة أو مقدسة ، فكتاب الله الخاص بالإسلام يتفق مع عقيدة التوحيد وكمال الله المطلق وعصمة رسله الكرام ، وكتب الآخرين المقدسة تعكس عقائدهم في الإلـٰه والكون والرسل .

فالقرآن الكريم يخالف كتب اليهود والنصارى والزرادشتيين والبرهميين والفيديين والكنفوشيين وغيرهم ، فكتاب اليهود المعروف بالعهد القديم لا ينزه الله نفسه ، بل يجسده ويتهمه بصفات العيب والنقص ، ويتهم الرسل بأبشع الجرائم والموبقات ، فداود يزني ، وابنه أبشالوم يزني بنساء أبيه (سراريه) ولوط يزني بابنتيه ، وسليمان يعود إلى الوثنية ، وإبراهيم يعرض زوجه الجميلة « سارة » على الملوك طمعاً في الحصول على المال والهدايا ، وكاد فرعون ملك مصر وأبيمالك ملك جيرار يضطجعان مع سارة ، وإسحاق يحذو حذو أبيه .

ومعاذ الله أن يكون هؤلاء الرسل الكرام صلوات الله وسلامه على محمد وعليهم كما وصفهم كتاب اليهود زوراً وبهتاناً .

وكتاب العهد الجديد للنصارى يقول بالتعدد ، ويتهم الرسل جميعاً فيقول على لسان سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام في الرسل الكرام كما جاء في الإنجيل: إنهم سُرّاق .

وكل كتاب غير كتاب المسلمين محرف أو باطل ، وليس من الكتب المنسوبة إلى الله ما يروى بالتواتر غيرالقرآن الكريم ، فهو مستظهر كله من قبل ملايين ، ومئات الملايين يستظهرون بعضه ، ولم يقع فيه تحريف في حرف منه ، ولا يمكن أن يقع تغيير حرف فيه إلا ويكشفه عامة المسلمين وخاصتهم .

والصلاة في جميع الديانات ، ولكن الصلاة في الإسلام تختلف عما لدى تلك الديانات اختلافاً كبيراً، فأقوالها وافعالها غير الأقوال والأفعال في صلوات غير المسلمين .

وأول خلاف أن المسلم ينوي الصلاة لله وحده ، ثم أول ما يفتتح الصلاة بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وهو إيمـان قوي لا يتزعزع بالوحدانية الصحيحة التي تغاير ما عرف في بعض الديانات من الوحدانية الوثنية .

ولا تقام الصلاة في غير الإسلام إلا في معبد خاص ، أما في الإسلام فالصلاة تقام في كل مكان طاهر ، والأرض كلها مسجد ، أي معبد تقام فيه الصلاة .

ولا يمكن إقامُ الصلاة إلا بعد أن يكون المسلم طاهراً في بدنه وثيابه ، ولا بد من الوضوء .

وفي الصابئة وضوء يسبق الصلاة ، وأركانه : النية ، وغسل اليدين إلى المرفقين فالوجه فالعورة، فالركبتين، فمسح الجبين والأذن والأنف ثم تغطيس الرجل اليمنى ثم اليسرى في الماء .

ويشترط في وضوئهم أن يكون الماء حياً، ويقصد ونبه الماء المتصل بالنهر : الماء الجاري ، أما الماء المنقول منه فلا يجوز الوضوء به ، لأنه ماء غير حي .

وإذا كان هناك تشابه في الوضوء بين المسلمين والصابئة فمرد ذلك أن ديانة الصابئة الأساسية ديانة صحيحة ، والإسلام كذلك ، فإذا كان الوضوء فيه يشبه إلى حد ما الوضوء في الصابئة فلأن الفريضة واحدة في أصولها ، والإسلام يختلف في كثير ، فالوضوء فيه من أي ماء بشرط طهارته ، والوضوء يقع على الأعضاء الظاهرة فتُغْسَل اليدان إلى المرفقين ، والوجه ، ويمسح الرأس ثم تغسل الرجلان إلى الكعبين .

والصيام في الديانات السابقة ، فهو في بعضها إمساك عن القول ، وفي بعضها إمساك عن الطعام والشراب والاتصال بالمرأة ، وفي بعضها إمساك عن بعض الطعام .

وزعم بعض الباحثين الغربيين — ومنهم الدكتور جاكوب الألماني وإدوارد وسترمارك الفنلدي — أن الصوم الإسلامي مأخوذ من الصابئة والمانوية لأن فيهما صيام الثلاثين .

وفي كتاب « غرائب النظم والعادات والتقاليد » للدكتور على عبد الواحد وافي ١ : ٧٦ – ٧٩ :

« حاول كثير ممن في قلوبهم مرض وممن وقفوا جهودهم على النيل من الإسلام والكيد تحت ستار البحوث التاريخية والتحقيقات الاجتماعية أن يرجعوا أنواع الصيام الدورية عند المسلمين إلى نظائرها عند الصائبة والمانويين ، ووجهوا أكبر قسط من جهودهم الآثمة إلى إرجاع صيام رمضان على الأخص إلى صيام الثلاثين عند هؤلاء كما حاولو أن يرجعوا صلواتنا إلى صلواتهم فزعموا أن محمداً عليه السلام قد نقل عن هاتين الديانتين ديانة الصابئين وديانة المانوية معظم ما جاء به من صلاة وصوم ، وأن الأوقات التي شرعت فيها صلوات المسلمين وصيامهم ، واتصال هذه الأوقات بحركات الشمس والقمر والكواكب ، كل هذا يتم على الأصول الصابئية والمانوية التي استمدت منها هذه العبادات .

« ومن هؤلاء : الدكتور جاكوب الألماني ، فقد قرر في رسالة كتبها في صيام رمضان بعد تحقيقات حسابية طويلة ، وموازنات بين التقويم العربي من جهة وبين التقويمين البابلي والميلادي من جهة أخرى أن أول سنة شرع فيها الصيام وهي سنة ٦٢٣ ميلادية كان أول يوم من رمضانها يوافق الثامن من شهر آذار ، أي أن أول شهر صامه المسلمون كان موافقاً في مبدئه ونهايته لتاريخ صيام الصابئين ويرى الدكتور جاكوب في هذا دليلاً قاطعاً على أن محمداً قد نقل صومه عن شريعة الصابئين [١] .

وذهب وسترمارك إلى ما يقرب من هذا الرأي مع شيء من الاعتدال والحيطة في التعبير اذ يقول : « إن وجود الشبه بين صيام رمضان وصيام الصابئين والمانويين لبالغ الوضوح مبلغاً يحمل الباحث على أن ينظر إلى هذا الأنواع الثلاثة

---

(١) ذكر الدكتور وافي بهامش الصفحة المصدر وهو :

Jacob (K.G.) : Der muslim Fastenmonat Romadân;
dans VI Gesellschaft Zu Grefswald, 1ère Partie 1893-96, d. 2 et suiv.

من الصيام نظرته إلى ثلاث شعب متفرعة من أصل واحد ، فمن الراجح أن يكون محمد قد نقل صيامه عن الصابئين أو عن المانوية أوعنهما معاً » (١) .

ويرد الدكتور وافي مزاعمهم بقوله :

« لم يحدث في الجاهلية اتصال فكري أو ديني بين قريش التي نشأ فيها الرسول عليه السلام وبين المانوية والصابئين ، وقد حال دون هذا الاتصال أمور كثيرة منها : اختلاف اللغة والرسم والثقافة والحضارة ، ومنها : بُعد المسافة بين منازل هؤلاء ومنازل أولئك ، فقد كانت بلاد الصابئين والمانوية على حدود فارس من الغرب على حين أن القرشيين كانوا يقطنون الحجاز الخ » .

ويقول : « ومما يرد به كذلك على أصحاب هذا الأفك أن صوم رمضان يختلف اختلافاً جوهرياً في شروطه وقواعده ووقته وطريقة أدائه ومقاصده وحكمة تشريعه عن صوم الثلاثين عند المانوية والصابئين ، فليس بينهما من وجوه الشبه إلا الاتفاق في عدد الأيام وتتابعها ، وهذه ناحيه شكلية من التعسف اتخاذها دليلاً على أن أحدهما منقول عن الآخر ، على أنهما في هذه الناحية نفسها يختلفان اختلافاً غير يسير ، فالصيام الإسلامي مدته شهر قمري ، على أن صيام الصابئين والمانوية مدته ثلاثون يوماً ، تبدأ بالثامن من شهر شمسي ، والصيام الإسلامي يبتدىء بابتداء الشهر وينتهي بانتهائه ، أما صيامهم فيبدأ من الثامن ولا ينتهي إلا في الشهر التالي له » .

---

(١) ذكر الدكتور وافي بهامش الصفحة المصدر وهو

Westermarck. : Origine et Développement des Idées Morales, T. II. pp. 301, 302.

ولم يعرف الدكتور وافي وسترمارك ، وهو إدوارد وسترمارك (١٨٦٢ – ١٩٣٩) فنلندي أنثروبولوجي ، وكان أستاذ علم الاجتماع بجامعة لندن من ١٩٠٧ – ١٩٣٠ ثم أستاذ الفلسفة بجامعة توركو حتى سنة ١٩٣٥ وهو حجة في تاريخ العادات والأخلاق والزواج ، وأهم كتبه « الزواج » . ومن أشهر مؤلفاته : « العادات المغربية » وكتاب « المسيحية والأخلاق » .

ونضيف إلى رد الدكتور وافي أن حساب الدكتور جاكوب الألماني الذي قدره بأن أول يوم من أول رمضان صامه المسلمون وافق اليوم الثامن من شهر آذار سنه ٦٢٣ ميلادية ، وبذلك وافق صيام المسلمين إياه صيام الصابئين الذين يبدأونه من الثامن من آذار ، وينتهي عندهم باليوم الحادي عشر من نيسان ليس الحساب الدقيق الذي لا خلاف فيه .

فقد ذكر المدققون في الحساب من المؤرخين والباحثين والفلكيين أن شهر رمضان الذي صامه المسلمون لأول مرة كان في شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ٦٢٣ ميلادية وهو تحقيق الدكتور محمد على الحاج سالمين في كتابه « حياة محمد » .

وفي كتاب « التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية » تأليف اللواء محمد مختار باشا : أن أول رمضان فرض فيه الصوم هو الذي وافق أول يوم فيه يوم الأحد ٢٦ شباط (فبراير) سنة ٦٢٣ ميلادية .

ورمضان الثاني وافق أوله يوم الجمعة ١٥ شباط (فبراير) سنة ٦٢٤ م .

وثالث رمضان في الإسلام وافق أوله يوم الثلاثاء ٤ شباط (فبراير) سنة ٦٢٥ ميلادية .

ولكن أول رمضان الذي كان في السنة الأولى من الهجرة كان يوم الأربعاء ٩ آذار (مارس) سنة ٦٢٢ م ولم يكن فرض فيه صوم رمضان على المسلمين ، وهو لا يتفق مع دعوى الدكتور جاكوب الألماني .

وعلى هذا يكون كل ما بناه الدكتور جاكوب الألماني على اتفاق يوم أول رمضان صامه المسلمون مع أول يوم في صيام الثلاثين عند الصابئة قد تهدم ، فالصوم قد فرض في السنة الثانية من الهجرة ،وأول رمضان لا يوافق حساب الدكتور جاكوب .

والإسلام لا يدعي أن الصوم فيه أول صوم مفروض على بني الإنسان ، بل كان مفروضاً على الأمم السابقة لأمة الإسلام بدليل قول الله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياماً معدودات ﴾ البقرة : ١٨٣ — ١٨٤ .

ودعوى فون كريمر أن نبي الإسلام قلد المسيحيين في الصوم الكبير (صوم الأربعين) مردودة، فالمسيح — على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام — لم يحدد الصوم ولم يفرضه ، ففي كتاب « يسوع المسيح » تأليف الأب بولس الياس اليسوعي ، صفحة ١٩٥ :

« أشار المسيح أخيراً إلى واجب الصوم والصلاة ، وعهد إلى الكنيسة العناية بتطبيق هذا الواجب وفقاً لأحوال المكان والزمان ، وهكذا نرى صوم اللاتين يختلف عن صوم الشرقيين ، وصوم الأصحاء والبالغين أصرم من صوم الشيوخ والصغار ، قد راعت الكنيسة في تطبيق قانون الصوم السن والمهنة والمناخ والبلاد وما سوى ذلك من الاعتبارات ، ولو كان المسيح حدد بذاته طريقة الصوم لكان أصبح هذا الواجب حجر عثرة في سبيل المؤمنين ، وكثير منهم لا يقوَوْن على النهوض به » .

والواقع أن الأناجيل ليس فيها نص في فريضة الصوم ، ولكن بها مدحه وإطراؤه ، والصوم الكبير عند المسيحيين الأرثوذكس خمسة وخمسون يوماً قبل عيد القيامة ، وصوم الميلاد أو الصوم الصغير عند المسيحيين أربعون يوماً قبل عيد الميلاد ، ويبدأ عند المسيحيين الغربيين في ١٦ نوفمبر ، وعند الشرقيين في ٢٦ نوفمبر .

والكاثوليك يصومون اليوم السابق لعيد الفصح كما يصومون عن السمك يوم الجمعة .

وأيام الصوم عند القبط والأرمن أكثر من ذلك .

وكان المسيح على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام يصوم الأربعين ، كما صام موسى من قبله ، ولكن رؤساء الكنيسة وضعوا أنواعاً من الصوم .

وكان الصوم المشروع عند المسيحيين مثل صوم اليهود ، يأكلون في اليوم والليلة مرة واحدة ، فغيّروه وصاروا يصومون من نصف الليل إلى نصف النهار .

وصوم المسيحيين مختلف فيما بينهم في عدد الأيام وفي طريقة الصيام، فمنهم من يصوم عن اللحم ، ومنهم من يصوم عن السمك أو عن اللبن والبيض، وهو مختلف كل الاختلاف عن الصوم في الإسلام ، وأشار القرآن إلى أن الصوم كان مكتوباً على الأمم السابقه ، فهو معروف قبل الإسلام في الديانات السماوية الصحيحة ، وباق فيما بقي منها بعد التحريف ، ومعروف لدى الوثنيين ذوي الثقافة العالية والوثنيين الجهلة منذ أقدم الأزمنة حتى الآن .

ولكن الإسلام لم يأخذ الصوم من أي دين، لا من الصابئة ولا من المانوية، وإذا صح أن أول صوم كـــان في الإسلام موافقـــاً أول يوم في شهره – وهو شهر رمضان – أول يوم يبدأ في صيام الصابئة فليس هذا الاتفاق بدائم، بل وقع مصادفة ، لأن الثامن من آذار (مارس) وهو أول يوم يبدأ في صيام الصابئة لا يتفق مع أول رمضان من كل عام دائماً ، بل يكاد يكون هذا الاتفاق غير واقع .

فاتفاق الزمن منفي ، واتفاق ما في صوم المسلمين مع الصابئة والمانوية غير موجود ، لأن للصوم الإسلامي شعائره وفروضه وسننه ومستحباته ومبطلاته مما يختلف فيه عن الصوم لدى غير المسلمين ، وليس الخلاف مقصوراً على ما ذكرنا ، بل يتجاوزه إلى المقاصد والأعمال التي تتم فيه وما يجب بعده .

وكذلك لم يأخذ الإسلام من المسيحية ولا من غير المسيحية الصيام الذي فرضه للخلاف بين الصيامين ، بحيث لا يكون هناك اتفاق في غير الاسم .

وكل ما زعمه الدكتور جاكوب الألماني ووسترمارك الفنلندي وفون كريمر النمساوي وغيرهم في موضوع صوم المسلمين ودعواهم أنه مأخوذ من الصابئة والمانوية والمسيحية إنما هو زعم باطل لا يؤيده أي دليل مما زوّروا .

ولم تصح دعوى وسترمارك وفون كريمر ، لأن صيام المسلمين مختلف كل الاختلاف عن الصيام في جميع الأديان والملل .

ولكن هؤلاء وغيرهم يدّعون على الإسلام ما يدّعون من الأباطيل وهم لا يريدون الحق والعدل والإنصاف ، بل يريدون تشويه سمعة الإسلام الحق ورسوله الكريم،لأنهم لا يستطيعون أن يروا محاسنهما وكمالهما فيتصدون لهما بالأكاذيب ، ويختلقون التهم عليهما، ويقذفونهما بها ليشفوا ما في صدورهم من غل وحقد على خير دين وأكرم رسول .

وموجز القول : إن الصيام في الاسلام متفرد عن كل أنواع الصيام في جميع الديانات تفرد الإسلام ورسوله في كل ما سبقها من الأديان – حقها وباطلها– وتفرد رسوله عن إخوته الكرام في خصائص معروفة .

والزكاة في الإسلام لم تؤخذ من غيره ، فهو عطاء الإسلام المالي والمادي يقدمه المسلم الموسر لمن هم في حاجة إليه ، وهي فريضة ، ولا يكون المسلم مسلماً إلا إذا آمن بأنها فرض عين على القادر ، ومن جحدها كفر ، ومن لم يخرجها بحقها على وجهها الصحيح فهو عاص مرتكب للكبيرة ، وهي الإثم الشديد الخطير ، ويعاقبه الإسلام إذا علم به من ينفذ شرعه، ويأخذها منه قسراً، وهي حق الفقير ومن في حكمه في مال الغني ، ولا فضل له في هذا العطاء إلاّ فضل الطاعة لأمر الله .

والحج الإسلامي ليس كالحج في غير الإسلام ، وكان معروفاً في عهد الوثنية والجاهلية ، ولكن الإسلام طهره منهما ، وأعاد إليه قداسته ، وزاد

فيه من الأقوال والأفعال ما يتفق مع الإسلام نفسه ، ولسنا في مقام الإفصاح عن حكمته ومقاصد الشريعة منه ، وما يتم فيه من التعارف والتعاون وتجديد عهد الإخاء الوثيق ، وتبادل المنافع والموارد والآراء في حاضر المسلمين ومستقبلهم وعلاقات بعضهم ببعض .

ورسول الإسلام لم يجحد الديانات الصحيحة التي سبقت الدين الذي جاء به ، ولم يستنكر ما فيها من فرائض وشعائر ولم يمحُها ، فهو ﷺ يقول : « جئت لأتمم مكارم الأخلاق » فهو قد جاء لإتمام ما جاء به الرسل السابقون .

ووجود الفرائض والشعائر السابقة والمعروفة في الإسلام ليس معناه أنه أخذها منها ، فهي في الإسلام ذات صبغة إسلامية ، وفي غيرها تتفق مع تلك الديانات .

ولم يأت الإسلام لينتزع من نفوس الناس طبيعة الخير وملكة التدين ، بل جاء للخير يزرعه فيها لتعطي أطيب الثمر ، لأنه مدرك أن هذه الملكة وتلك الطبيعة يجب أن تبقيا على الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وإلا إذا انتزعها فلا خير يبقى في النفوس إذا أجدبت ، لأن ذلك يحيلها إلى شر مستطير يضاف إلى شرور الوثنية والكفر والشرك .

والإبقاء على طبيعة الخير وملكة التدين إبقاءٌ على إنسانية النفس البشرية ، لتكون متهيئة لقبول الدين الصحيح ، والتحول من الوثنية إلى التوحيد الحق .

والإسلام لا يحارب النفس والفطرة ، وإنما يحارب ما جدّ عليهما من خارجهما من العقائد الباطلة وما انعكس منها إلى النفس ، لأنه إذا قضى على طبيعة الخير فقد كتب على النفس ألاّ تصلحَ أبداً ، أما إذا أبقى ملكة الخير والتدين وأبقى النفس على فطرتها فإنه يستطيع أن يهيئها لما يريد من الصلاح والخير بعد أن يبعد عنها ما طرأ عليها من الفساد والشر .

والنفس البشرية مفطورة على الخير وإن تكن أمارة بالسوء ، وهذا ما يثبت

الفطرة لها ، لأن النزوع إلى السوء حادث يطرأ عليها وليس طبيعة فيها ، ولهذا حرص الإسلام على إبعاد ما وفد على النفس من خارجها ، وحماية الفطرة التي تتقبل الهداية والرشاد ، ولهذا لم يقض الإسلام على الشعائر والفرائض الدينية والخلائق الفاضلة والطبائع الطيبة ، بل أبقاها على الفطرة ثم تناول ما جدّ عليها من المعتقدات الباطلة ليضع في النفس الإنسانية ما يريد من العقيدة الصحيحة مكان تلك المعتقدات .

وعلى هـــذا الأساس لم يقض على الحج وما يتصل به من المناسك كالسعي والطواف والذبح والوقوف بعرفة والمبيت بمنى والتلبية .

والحج معروف قبل الإسلام ، ولكنه انقلب إلى عبادة وثنية بعد أن كان شعيرة دينية في ملة إبراهيم ، وتحولت المناسك الإبراهيمية إلى طقوس وأقوال وأعمال وثنية .

ولما كان وجود الحج والصوم والصلاة ضرورة دينية وأخلاقية واجتماعية وإنسانية وجب بقاؤها في الإسلام حسب شرعته ومنهاجه ، وليس معنى هذا الوجود أنه مأخوذ من الديانات السابقة ، فاشتراك بني الإنسان في الأعضاء ووظائفها لا يقضي بأن اللاحق أخذ من السابق ، وكذلك الإسلام .

ولكن خصوم الإسلام يمسخون جماله ويفترون عليه، فإذا كان جولدزيهر اليهودي المتعصب وجاكوب الألمــاني ووسترمارك وفون كريمر وغيرهم من أضرابهم يتقولون على الإسلام فإننا لا نتقول على دياناتهم التي يعرفون من أنواع الخلل والخطل والزلل والباطل والفساد فيها ما نعرف وأكثر ، ولكن الحقد يملي عليهم ما يكتبون ، ويجدون من بين المسلمين من يذهبون مذهبهم ويصدقون أباطيلهم ، ويعتنقون أفكارهم ، ويروجون مفترياتهم .

وهناك مسلمون عرب وغير عرب يقلدون المستشرقين وخصوم الإسلام فيتناولون الإسلام على طريقة خصومه المعادين ، ويزعمون أن ما يقدمونه هو

البحث العلمي ، وهو يقضي بأن يتناولوه غير متعصبين له ، مع أنهم هم المتعصبون ضده ، وهم أبعد ما يكونون عن البحث العلمي الحق .

ولم يقف التجني والحقد والبغضاء على الإسلام في حدود العقيدة وأركانه ، بل تجاوزت أحقاد خصومه العقيدة والأركان إلى شريعة الإسلام فزوّوها ، فلا يحكم بها بتةً ، ومناهج الدراسة في كل بلدان الإسلام لم تبنَ على أساسه ، بل بنيت على تقويضه لتمحى الشخصية الإسلامية والعربية المسلمة ، وقد محيت .

وكل عقيدة الإسلام وكل ما يتصل به ويقوم عليه معرضان للفرية ، فكل مزية فيه يشوهونها أبشع تشويه ، وإذا كانت المزية غير قابلة للتشويه زعموا أنها مأخوذة من الديانات الأخرى .

وقداسة مكة والكعبة والحجر الأسود تعرضت لأكاذيب أعداء الإسلام ، ومقصدهم تناول الإسلام بكلياته وجزئياته بالمسخ والتشويه والهدم والتخريب ، فالحجر الأسود قالوا فيه أقوالاً مبنية على الأوهام والأساطير ، ففي كتاب « حجة إلى المدينة ومكة » المطبوع في لندن سنة ١٨٥٥ م لمؤلفه سير رتشاد برتون المستشرق البريطاني بالجزء الثاني ص ٣٠١ و ٣٩٢ : [(١)] .

« يذكر ولفورد Wilford (A Soc Wols III, IV) أن الهندوس يقولون : إن الحجر الأسود في مكة كان صنماً لشيفا Shiva الذي زار الحجاز مع زوجته ، ولما بنيت الكعبة وضع هذا الأثر في الحائط الخارجي احتقاراً له ، ولكن الناس بقوا يقدسونه .

« وفي كتاب دبستان يقال : إن الحجر الأسود صنم كيوان Kaywon او زحل.

« ويؤكد المجوس أن الحجر الأسود كان بين الأوثان والآثار التي خلفها مهبد Mahbad وخلفاؤه في الكعبة بصفة شعار لزحل ، وهم يسمون

---

(١) تعليقات خدابخش على كتاب فون كريمر المترجم بقلم مصطفى بدر ص ١٥٥ .

المدينة مهجد Mahgad ومعناها مكان القمر من تمثال جميل جداً للقمر ، ويقولون : إن العرب أخذوا عنه اسم مكة .

« والصابئة يحترمون الكعبة أيضاً والأهرام ، ويؤكدون أنها قبور شيث Seth ونوح Enoch أو (Hermes) وصابىء Sabi ابن نوح .

وعلى ذلك فمكة تعتبر مكاناً مقدساً ، والحجر الأسود ، والكعبة أيضاً تحترم وتعتبر مشاعر مقدسة عند أربعة أديان الهندوس والصابئة والمجوس والإسلام » .

وهم يقصدون من هذه الزعمات أن يتهموا الإسلام بأنه أخذ تقديس الحجر الأسود من هذه الديانات التي سبقته ، ودعواهم في الحجر الأسود باطلة ومردودة ، وما يدعونه ليس إلا كذباً ووهماً ، فزيارة شيفا وزوجته لمكة خرافة أو أكذوبة ، فشيفا أحد الثالوث البرهمي (براهما وفشنو وشيفا) وهم آلهة هندية ، وثلاثتهم يكونون الأقانيم الثلاثة الهندية التي تشبهها أقانيم المسيحية الثلاثة ، وكل هؤلاء أوهام مجسدة .

ونخلص من كل ما سبق إلى القول : إن الإسلام بعقيدته وشريعته دين فاذٌ متفرد ، لم يخترعه نبي الإسلام ويلفقه من الديانات المختلفة كما يزعم المبطلون ، بل هو وحي السماء أنزل على محمد ﷺ ، فبلغه الناس كما أنزل أصدق تبليغ وأوفاه .

وإذا أرادوا هدم الإسلام أو مسخه وتشويهه بدعوى اختراع محمد ﷺ للإسلام أو تلفيقه إياه فتلك الدعوى تنقلب عليهم ، لأن ما جاء به وما نزل عليه من الوحي المتمثل في القرآن والحديث لا يتيسر لمخلوق ولو كان خير الخلق وأعظم الرسل على الإطلاق ، فإذا أنكروا الوحي وادعوا أن ذلك من عمل رسول الإسلام فقد وصفوه بالألوهية ، لأن ذلك فوق طاقة المخلوق ، وما دام منسوباً إليه من قبلهم فقد رفعوه من البشرية إلى الألوهية .

افتراهم يرضون لنبي الإسلام أن يكون إلهاً كاملاً وهم لم يرضوا له أن يكون بشراً سوياً ؟

أنهم أرادوا أن يحقروه فإذا هم قد ألهوه ، ومحمد لا يرضى بذلك لأنه يصف نفسه بأنه عبد الله ورسوله ، وأنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ، وأنه بشر ، وصحابته والمسلمون يصفونه بما وصفه الله ووصف هو نفسه به .

يقول برتراند رسل أعظم فلاسفة العصر الحاضر وأحد مشاهير العالم في كتابه « تاريخ الحضارة الغربية » ٢ : ١٨٦ الطبعة العربية :

« كانت ديانة النبي (محمد) توحيداً بسيطاً ليس فيه التعقيد الذي نراه في عقيدة الثالوث والتجسيد ، ولم يزعم النبي لنفسه أنه إلهي ، ولا زعم أتباعه هذه الطبيعة الإلهية نيابة عنه » .

وطعن الرسالة المحمدية من قبل الطاعنين لا يقبله عقل إنسان يحترم نفسه وغيره ، وكذلك اتهامهم محمداً عليه الصلاة والسلام بما اتهموه تهدمه الحقائق والبراهين ، ولو كان رسول الإسلام من أبناء هذا العصر الذي سهل فيه العلم ويسرت المعرفة لما أمكن أن ينسب إليه أنه مخترع الإسلام .

ولو أن علامة أكبر علامة تفرد بالعلم كله والمعرفة كلها ووعب تاريخ العالم ودياناته المختلفة بعقائدها وشعائرها وفرائضها وشرائعها وطقوسها وفلسفاتها وأحكامها وعباداتها ، وفهم العلوم والآداب والفنون جميعها ، وحفظ كل الكتب المقدسة وعرف أسرارها وأدرك كل ما حوت وكل ما بان واستتر من المعاني والمقاصد ، ورتب ما أخذ منها جميعها وبوّب وصنف ثم أضاف إلى ذلك ما أراد أن يضيف من عبقريته التي لا تدانيها عبقرية أيكون في قدرته أن يأتي بما حوى القرآن الكريم والحديث الشريف ؟

من البديهي ألا يكون ذلك في مستطاعه في عصر العلم والذرة والفضاء ،

فهل يكون في مستطاع إنسان أمّي بمكة أن يأتيَ من عند نفسه بالقرآن والحديث ؟

الجواب الذي لا جواب سواه أنه لن يستطيع ، وما دام الأمر كذلك فمن المقطوع به أن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو من عند الله سبحانه وتعالى ، وما محمد إلاّ رسول .

ويسخر العالم الفرنسي « مونتيه » من سذاجة « النقد العلمي الحديث » من أمثال ما وجّه إلى نبي الإسلام محمد ﷺ وذلك عندما تحدث عن عالم الطب المشهور أسترك Astroc (١٦٨١ – ١٨٦٦) قائلاً [1] :

« إن من البيِّن أن أسترك يتمثل مع شيء من السذاجة موسى (عليه الصلاة والسلام) وهو يرجع إلى الوثائق يستشيرها ويعمل كأنما هو أحد علماء القرن الثامن عشر » .

ونحن نضع مكان « استرك » أسماء أولئك الحاقدين عل رسول الإسلام ومكان « موسى » محمداً عليهما الصلاة والسلام لتظهر سذاجة النقد العلمي والبحث العلمي وغفلة أولئك الخصوم أو حقدهم المذموم ، وتثبت رسالة النبي الكريم وصدقه العظيم .

وبعد ، فالإسلام دين حق له سماته الواضحة به، وله شخصيته وعلاماته الفارقة التي تميزه عن جميع الأديان ولا يخطئها أحد من المنصفين ممن لا يدينون به ولا يتبعون رسوله مثل مئات الباحثين والفلاسفة والمفكرين الذين كتبوا في الإسلام ورسوله وعلى رأسهم برتراندرسل .

وما دام الإسلام دين الحق على التحقيق فإن نبيه الصادق ورسوله الأمين محمداً ﷺ سيد الخلق على العموم والإطلاق، ودينه هو دين الله المنزل عليه، ورسالته لبني الإنسانية أجمعين ، وكل ما جاء به في دينه عقيدة وشريعة وآداباً وسلوكاً وأخلاقاً واجتماعاً يغاير ما لدى غيره وإن اتفقت الأسماء .

---

(١) الظاهرة القرآنية تأليف مالك بن نبي ص ٢٦٣ .

الإسلام والفلسفة والكلام

الإسلام في حقيقته وجوهره ، وفي عقيدته وشرعته ومنهاجه دين سهل سمح ، يقبله الوجدان والذوق والضمير والعقل والجوارح ، وكلما ارتقى العقل وجد في سماحة الإسلام ويسره ما يتفق مع رقيِّه ويساير تقدمه وتطوره ، وطبيعيٌّ أن يكون الإسلام سهلاً سمحاً سليماً من التعقيد اللفظيِّ والمعنويِّ ، والتركيب المنطقيِّ والفلسفيِّ ، لأنه لم يأتِ للأعلياء المثقفين والعلماء المتبحرين وحدهم ، بل جاء لهم وللناس كافة ، فلا بد أن يكون مما يسيغه عقل العامة والخاصة ، ويطيقه العجزة والضعفاء كما يطيقه الأقوياء والأكابر ، إنه مثل الماء مستساغ لمن كانت له إليه حاجة ، وكل كائن حيٍّ لا يحيا إلا به .

وآية يسره وسهولته أن البدويَّ غير المثقف العالم كان يأخذ الإسلام من رسوله الرؤوف الرحيم في جلسة قصيرة ثم يمضي مسلماً مفلحاً ، لأنه دين يمتاز باليسر والبساطة ، والخلوِّ من التعقيد والتركيب والغموض والإبهام .

قدم ضمام بن ثعلبة من بني سعد بن بكر على رسول الله ، فأناخ بعيره على باب المسجد بالمدينة ، ثم دخله ورسول الله بين أصحابه ، فأقبل حتى وقف على الحلقة وسأل : أيكم ابن عبد المطلب ؟ قال رسول الله : « أنا ابن عبد المطلب » قال : محمد ؟ قال : « نعم » .

وهنا اتجه ضمام إلى رسول الله قائلاً : إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك ! .

قال رسول الله ذو الخلق العظيم : « لا أجد في نفسي ، فسل عما بدا لك » قال : أنشدك بالله إلهك وإلـه من كان قبلك وإلـه من هو كائن بعدك، الله بعثك إلينا رسولاً ؟ قال : « اللهم نعم » .

قال ضمام : فأنشدك بالله إلهك وإلـه من كان قبلك وإلـه من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ، ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا تعبد من دونه ؟ قال « اللهم نعم » .

قال : فأنشدك بالله إلهك ، وإلـه من كان قبلك وإلـه من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن تأمرنا أن نصلي هذه الصلوات الخمس ؟ قال : « اللهم نعم » .

ثم أخذ ضمام يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة : الزكاة ، والصيام ، والحج ، وشرائع الإسلام كلها ، يناشده عن كل فريضة كما ناشده فيما سبق ، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد ألاّ إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وسأؤدي هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه ، ثم لا أنقص ولا أزيد .

ثم انصرف إلى بعيره راجعاً فقال رسول الله حين ولى : « إن صدق ذو العقيصتين يدخل الجنة »[1] وأرسل ضمام بعيره من عقاله وعاد إلى قومه فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به أن أعلن الكفر والهزء باللات والعزّى . فقالوا له : يا ضمام ، اتق البرَص ، اتق الجذام ، اتق الجنون! قال: ويحكم إنهما والله لا ينفعان ولا يضرّان ، إن الله قد بعث رسولاً ، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ، فما أمسى ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً .

وفي بعض الروايات: أن رسول الله قال عندما غادره ضمام: «فقـُه الرجل»[1] .

---

(١) البخاري، والاصابة ، وتاريخ الطبري.

ومثل ضمام غيره من الوفود والوافدين على رسول الله وسائليه ، يجلسون إليه يسيراً ، ويتلقون منه الإسلام ويمضون مبشرين ومنذرين ، ويكفي أن يشهد رسول الله فيقول : « فقه الرجل » .

هذه السهولة التي امتاز بها دين الإسلام على جميع الأديان يسرت فهمه على الناس مهما كان تحصيلهم من العلم أو نصيبهم من العقل والذكاء ، وما أكثر البدو الجهلاء الذين لا يعلمون الا اليسير من أمور الحياة قصدوا الرسول صلى الله عليه وسلم يسألونه الدين فيعطيهم إياه كما أعطاه ضمامَ بن ثعلبة ، فيغادرونه وهم قد فقهوا الإسلام يغنيهم موجزه المفهوم السمح السهل عن التطويل .

ولم يؤثَر عن مسلم في عهد رسول الله اللجاجة في السؤال ، والإلحاح في الاستفهام ، والتفلسف في الغيبيات ، لأنه فهم العقيدة الإسلامية على سواء فطرتها ، والقرآن على سننه الواضح المبين ، ولم يكلف نفسه الجدل الفلسفي والحوار المنطقي ، لأن الفطرة هي التي كانت تطلب العلم وتلقي السؤال على دين الفطرة ، فتتلقاه منه سهلاً ميسوراً ، ولم يكن العقل الإسلامي خاضعاً للفلسفة أو معجباً بها أو عالماً بما فيها ، فكان فهمه للإسلام سليماً صافياً متفقاً مع الفطرة .

فهم المسلم الشهادة على بساطتها العميقة ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله، الله واحد أحد ، خالق السماوات والأرض ومن فيهن وما فيهن ، ونزّه الله من الشريك والمِثل والشبيه ، وفهم آيات الصفات فهماً سليماً ، فلم يتعبد لغير الله ، ولم يتعبد بغير القرآن ، فالله فاطره ، والقرآن هاديه .

ولهذا كان في غنى عن الفلسفة ومصطلحاتها وبحوثها في الصانع وواجب الوجود ، والمادة والهيولى ، إلى آخر ما تفتقت عنه الفلسفة .

ومحمد رسول الله ، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً ، فهو نبي حق ، ورسول صدق ، ولم يبحث المسلم في « النبوّة » و « الوحي » بحث الفلاسفة ، لأنه فهم

منهما ومن المعجزة ومن كل ما يتعلق بالغيبيات أو ما فوق المادة الفهم الذي يتفق مع إيمانه ، مستغنياً عن السؤال في « ماهية » النبوة والوحي بما فهم من معانيهما الواضحة له .

إن المسلمين في عهد رسول الله أسلموا وجوههم لله ، وقلوبهم لكتابه العزيز ، وبهداه اقتدَوا ، ووكلوا إليه أمرهم ، وصدروا عنه في العقيدة كما صدروا عنه في الشريعة ، فهو الحكَم في كل شؤونهم سواء في ذلك ما أضمروا وما أظهروا ، فلما اتسعت الحياة لم يتركهم القرآن للهوى يُحكّمونه ، ولم يتركوا هم أنفسهم القرآن إلى ما تسوّل لهم أنفسهم وعقولهم ، لأنهم لم يحتاجوا إلى غير القرآن ، فقد وجدوا فيه جواب كل سؤال ، وحل كل مشكلة ، واستقبال كل جديد .

ولم يتخذوا القرآن لغير ما أنزله الله ، ففيه الهدى والنور والرحمة ، وفيه العقيدة والشريعة ، فلم يتخذوا منه دواء المرض ، ومجلبة الثروة ، ووسيلة إلى هزم جيوش الأعداء بالقبوع في المسجد وتلاوته ، لم يتخذوه شيئاً من ذلك إلا باتخاذ ما أمر به القرآن من اتخاذ الأسباب .

ولم يقفوا القرآن للتلاوة والتبرك وعمل الأحجبة ، لأنهم فهموا أن القرآن هدىً ورحمة ونور ، وكل هذه الأشياء لا تتم إلا بأسبابها ، لأن الإيمان وحده — حسب مفهوم المتواكلين الكسالى — لا ينفع صاحبه ، بل قرن الله الإيمان بالعمل الصالح ﴿ والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوا بالحق وتواصَوا بالصبر ﴾ .

ولم يصعب على المسلمين أن يفهموا الإيمان كما فهموا الإسلام ، فآمنوا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، ولم يتفلسفوا أو يسألوا الأسئلة التي تخرج بصاحبها عن السهل إلى العسر ، ومن البساطة إلى التعقيد ، ومن الهدى إلى الضلال .

بل شدّد الرسول صلى الله عليه وسلم على الذين أرادوا أن يتفلسفوا ويبحثوا

في الغيبيات التي آثر الله بها نفسه ، أو لم يبين لهم في محكم كتابه أكثر من الإشارة إليها ، مكتفياً بطلب الإيمان دون البحث في « الكيفية » و « الماهية » .

وبحسبنا أن نذكر جدل بعض المسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في مسألة القضاء والقدر وموقف الرسول منهم .

سمع رسول الله ﷺ أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر ، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم فقال « يا قوم ، بهذا ضلّت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به » .

وأخرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمرَّ وجهه ، ثم قال : « أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حتى تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا » .

وهذا الإنكار الشديد من رسول الله لم يقصد منه إلا صرف المسلمين عن الخوض في بحوث لا نفع منها ، بل يتفجر منه الضرر على العقيدة والشريعة والمجتمع ،ويفرق الكلمة ويمزق الوحدة ، ويفضي بهم إلى معصية اللهِ ورسوله، وقد يفضي ببعضهم إلى الكفر والإلحاد .

ولم يصعب على المسلمين في عهد رسول الله ﷺ أن يدركوا أن القرآن هو الحادي وهو الحكَم ، فتلقَّوه كما تلقاه رسولهم ورسولنا عليه صلوات الله وسلامه ، وفهموا منه أنه كتاب الحياة والإنسانية، يهديهم إلى الرشد ، ويسلمهم إلى الحق والخير والفضيلة والجمال ، ويحميهم ـــ إذا تمسكوا به ـــ من المذلة والكفر والزيغ والضلال .

يقول الله تعالى :﴿ ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين * الذين

يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

و ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ﴾ .

وهذه الآيات هي الإسلام والإيمان والإحسان ، إنها الإسلام كله ، وفهم المسلمون في عهد رسول الله هذه الآيات وما تحوي من العقيدة والشريعة ومنهاج العمل الفهم السليم الذي يتفق مع أسلوب القرآن وسنن العربية ، ففهموا العقيدة كما يجب أن تفهم ، مبرأة من ضلال الفلسفة وزيغ الفلاسفة ، فوقفوا في العقيدة عند الحدود الواضحة التي أقامها القرآن ، ولم يضيفوا إليها جديداً ، أو يبتكروا فيها بدَعاً ومنكرات ، لأنهم أدركوا أن العقيدة كاملة — كل الكمال ، والكمال لا يقبل الإضافة والزيادة ، لأنه — بمجرد قبوله إياها — لا يكون كمالاً ، وكذلك لا يقبل التكرار ، لأن التكرار — هنا — عبث يتنزه عنه الكامل والكمال .

أما أصول الشريعة فكاملة ، وفروعه تقبل الزيادة والإضافة كما هو ملحوظ في كل ما يسمى فرعاً ، فساق الشجرة واحدة ، ولكن فروعها تتعدّد ، وتقبل الزيادة والحذف بحسب مقتضيات الظروف والمطالب والأحوال والحاجات .

وقصة معاذ بن جبل حينما بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن معلّماً وهادياً ومرشداً تبرهن على سماحة شريعة الإسلام ، وقبولها الاجتهاد ما لم يكن هناك نص من الكتاب والسنّة .

عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال له : « كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ » قال : أقضي بما في كتاب الله ، قال : « فإن لم يكن في كتاب الله ؟ » قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : « فإن لم يكن في سنّة رسول الله ؟ » قال : أجتهد رأيي لاآلو ، قال معاذ :

فضرب بيده في صدري وقال : « الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضاه رسولُ الله » .

وليس اللجوء إلى الرأي في الشريعة خروجاً على القرآن ، بل طاعة وسمع لما فيه ، فالله عز وجل يقول : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ سورة النساء : ٥٩ .

ويسول الله تعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ و ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾.

وليس الرأي هنا الاختراع ، ولكنه القائم على أساس الدين ، وأن تكون دوافعه دينية ، والمقصد منه التوسع فيما أباح الله فيه ورخّص ، وأن يكون صاحب الرأي معروفاً بالعدالة وسلامة العقيدة والعلم النافع والخلق الفاضل .

والرأي في غير العقيدة وفي غير ما فيه نص جائز ، بل مرغوب فيه كما جاء في حديث معاذ بن جبل، لأنه ضرورة لا بد منها،ويجب أن نفرق بين الاجتهاد والابتداع ، فرأي المجتهد له ثقله في الميزان ، أما البدعة فضلالة وعصيان

وللإسلام قاعدتان : العقيدة والشريعة ، فالعقيدة لا يجوز فيها إلا ما ورد في القرآن الكريم والسنّة الصحيحة ، والشريعة الإسلامية قائمة في أصولها على قاعدة العقيدة ، لأنه لا فصل في الإسلام بين القاعدتين ، وإن كان هناك فارق بينهما في قبول الشريعة للتوسعة والاختلاف بخلاف العقيدة التي لا يجوز فيها الاختلاف والتوسعة ، وهذه الشريعة التي تقبل التوسعة إنما في الجانب الذي أباح فيه رسول الله نفسه وهو ما عرف بالفقه ، لأن الشريعة في حقيقتها تحوي العقيدة والعبادة والمعاملة .

وليس الاختلاف بين الفقهاء في الشريعة مأخذاً تؤاخذ به ، لأنه ليس اختلاف خصومة وتضادّ ، بل القصد منه التنويع وملاحظة اختلاف طاقات

المكلَّفين وقواهم بحسب ظروفهم وأحوالهم وبيئاتهم وقدراتهم .

وما جاء عن الله ورسوله وجب الاعتصام به وجوباً لا مفر منه ، فإن تركه تارك أو أنكره منكر خرج على الإسلام وعنه .

وما جاء عن الله ورسوله في أمر العقيدة لا يباح فيه الرأي والتعطيل والتوسعة التي تخرج عن الشرح والتفسير المتفقَين مع الأصول الدينية الصحيحة ، لأن القرآن ألزم الناس بالعقيدة إلزاماً ، ولم يجز لهم فيها الرأي ، وكل الرسل سواء في العقيدة لا خلاف بينهم فيها ، بل جميعهم متفقون فيها ، وما أرسلوا به منها واحد لا يتغير بتغير الأزمان والأمكنة .

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إلـه إلا أنا فأعبدون﴾ سورة الأنبياء : ٢٥ .

﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبَدون ﴾ سورة الزخرف : ٤٥ .

و ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده * وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلاً قد قصصناهم عليك ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم اللهُ موسى تكليماً * رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ سورة النساء : ١٦٣ — ١٦٥ .

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنّيّ لكم نذير مبين * ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ سورة هود : ٣٥ — ٣٦ .

فالعقيدة واحدة لا زيادة فيها ولا نقصان ، لأنها كاملة ، وصفة الكامل الامتناع عن قبول الزيادة والنقصان .

أما الشريعة فيراعى فيها ظروف المجتمع ، ويقصد منها حراسته وحمايته

وتهذيبه ، فهي في أصولها ثابتة ، وفي فروعها سماحة تقبل التغيير والتبديـــل والتعطيل والزيادة والنقصان بحسب الأزمنة والأمكنة والطاقات والقوى .

فعطاء المؤلَّفة قلوبهم فرضه الإسلام حينما كان في حاجة إلى التأليف لقاة المسلمين ونقص قوّتهم ، فلما دانت لهم القوة وزاد عددهم لم تكن حاجته إلى عطاء المؤلفـــة .

أما العقيدة القائمة على وحدانية الله وعبادته وحده لا شريك له فلا تقبل ما تقبله الشريعة ، لأن الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، والذي وُهِبَ القرآن ومثله معه وهو الحديث أباح الرأي ، ولا ضير من الخلاف فيه بين الأئمة ، لأنه خلاف سعة وتنويع لا خلاف خصومة وتضاد .

وهذا الخلاف المباح أحل مثله في تلاوة القرآن ، وكان اختلاف القراءات بعضها عن بعض خلاف سعة وتنويع لا خلاف مخاصمة وتضاد .

ولم يتخذ الرسول ﷺ أسلوب الجدل في العقيدة إلا ما جاء به القرآن حينما جادل المشركين وأهل الكتاب ، ولم يدخل القرآن نفسه معهم في الجدل العقائدي حسب ما ألف المثقفون من معارضي الإسلام ، وترفع عن أسلوب الفلسفة متخذاً في الحجاج والمجادلة أسلوباً فريداً يتفق فيه العقل والإحساس والموجودات المادية وما يحس وجودها بالنظر في إقامة البرهان أو الرد على البهتـــــان .

وكان خلق رسول الله ــ كما ذكرت أم المؤمنين عائشة ــ القرآن ، فكان أسلوبه ﷺ هو أسلوب القرآن ، بل القرآن نفسه .

وجدل القرآن فريد في أسلوبه ، ولم يقصد إليه إلا إقراراً للوحدانيـــة والحق ، ورداً على الشبهات التي كان أهل الكتاب والمشركون يثيرونهـــا ، وتأييداً لموقف الرسول ﷺ ، ولم يكن القرآن ليدخل في جدل تفصيلي في الرد على من يدعون التثليث أو الادعاء بنبوة أحد من خلقه له أو المشاركـــة

له سبحانه وتعالى في الألوهية والذات والصفات ، بل كان القرآن ينهي مجادلته الكريمة السمحة التي لا يراد منها التعجيز بل الهداية والتبصير بالحق بمثل هذه المعاني : ﴿ فإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون * الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ سورة الحج : ٦٨ — ٦٩ .

ولم يكن جدل القرآن جدلاً ترف عقلي ، بل كان للحاجة إليه ، فلم يخرج عن مقدارها ولا على سواء الفطرة والرغبة في الهداية ، بل كان يحصره في ميدان ضيق حتى لا يتسع كما يرغب المجادلون لئلا يتخذ القرآن كتاب جدل وفلسفة وبحوث علمية في العقائد ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ .

وعرض القرآن للجدل الذي لا بد منه في مقام الرد والتجبيه وتأييد الرسول ، فعندما قدم راهبان من نصارى نجران ولقيا رسول الله وعرض عليهما الإسلام فأجاباه في قحة وغلظة : قد أسلمنا قبلك ، فرد عليهما : كذبتما ، يمنعكما من الإسلام سجودكما للصليب ، وقولكما : اتخذ الله ولداً ، وشربكما الخمر ، فقالا : ما تقول في عيسى ؟ فسكت النبي ﷺ ثم أجابهما وأراد مباهلتهما فامتنعا .

وها هوذا جدل القرآن الكريم فيما كان بين رسول الله والنصارى منزهاً عن السفسطة والفلسفة .

﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم * قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون * يا أهل الكتاب لِمَ تُحاجُّون في إبراهيم وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم

فلِمَ تحاجُّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ سورة آل عمران : ٥٩ — ٦٦ .

هذا الحِجاج القرآني هو النموذج الأعلى الذي اعتصم به الإسلام ورسوله الكريم ، فلما أعياه التفاهم مع أهل الكتاب والعودة معهم إلى كلمة سواء بينه وبينهم تحداهم بأن يباهلهم ، وهو تحدي الواثق من صدق إيمانه وقوله وموقفه ، فنكصوا على أعقابهم ولم يقبلوا ، لأنهم أدركوا من أنفسهم ضعف الإيمان وقوة خصمهم من ناحية الإيمان والعقيدة .

ولم يذكر في عهد الرسول أي جدل عقائديّ فلسفيّ كجدل أهل الكلام والفِرق بين الرسول وبين أهل الكتاب أو بين هؤلاء وبين المسلمين في طبيعة المسيح ولاهوته وناسوته ، بل كان الجدل حول صرف العبادة له مع الله وبنوّته لله ، ولم ينصرف إلى الجزئيات والتفصيلات ، ولم يقم الجدل مع اليهود في موضوع محتوى ما يسمى التوراة التي بأيديهم تفصيلاً ، بل وقف عند اتهامها بالتحريف ، واتخاذهم الأحبار أرباباً من دون الله .

ومع هذا أمر القرآن بمجادلتهم بالتي هي أحسن ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ سورة النحل: ١٢٥ .

والقرآن نزل نوراً وهدى ؛ ولم يكن كتاب فلسفة وجدل ، ولم يَدْعُ إلى الإيمان عن طريق الجدل ، ولم يتخذه وسيلة الإقناع .

وقد أوجز تقي الدين المقريزي في كتابه العظيم « الخطط » ما نحن بصدده في قوله[1] :

« إن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمداً ﷺ رسولاً إلى الناس جميعاً وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه الكريمة في كتابه العزيز الذي

---

(١) ج ٤ ص ١٨٠ — ١٨١ .

نزل به على قلبه ﷺ الروحُ الأمين ، وبما أوحى إليه ربه تعالى ، فلم يسأله ﷺ أحد من العرب بأسرهم قرويهم وبدويهم عن معنى شيء من ذلك ، كما كانوا يسألونه ﷺ عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك مما لله فيه سبحانه أمر ونهي .

« وكما سألوه ﷺ عن أحوال القيامة والجنة والنار ، ولو سأله إنسان منهم عن شيء من الصفات الالهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه ﷺ في أحكام الحلال والحرام ، وفي الترغيب والترهيب ، وأحوال القيامة والملاحم والفتن ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث ومعاجمها ومسانيدها وجوامعها.

« ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرَد قط عن طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه وتعالى به نفسه الكريمة في القرآن الكريم ، وعلى لسان نبيه محمد ﷺ ، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات ، نعم ، ولا فرَّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أوصفة فعل ، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعز والعظمة ، وساقوا الكلام سوقاً واحداً .

« وهكذا أثبتوا رضي الله عنهم ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك مع نفي مماثلة المخلوقين فأثبتوا رضي الله عنهم بلا تشبيه، ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا ، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت .

ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله ، ولا عرف أحد منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة » .

ولم يكن الرسول ﷺ ليرضى بالجدل الدينيّ ، بل كان يغضبه ذلك أشد الغضب ، وينكره أشده الإنكار .

عن أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع قالوا : خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في شيء من الدين فغضب علينا غضباً شديداً لم يغضب مثله ، ثم انتهرنا ، قال : « يا أمة محمد ، لا تهيجوا على أنفسكم » ثم قال : « أبهذا أمرتكم ؟ أو ليس عن هذا نهيتكم ؟ انما هلك من كان قبلكم بهذا » ثم قال : « ذروا المِراء لقلة خيره ، ذروا المراء فإن نفعه قليل ، ويهيج العداوة بين الإخوان ، ذروا المراء فإن المراء لا تؤمن فتنته ، ذروا المراء فإن المراء يورث الشك ويحبط العمل ، ذروا المراء فإن المؤمن لا يماري ، ذروا المراء فكفى بك إثماً ألا تزال ممارياً ، ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة ، فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة في وسطها ورياضها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق ، ذروا المراء فإنه أول ما نهاني الله عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ، ذروا المراء فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد ، ولكن رضي بالتحريض وهو المراء في الدين ، ذروا المراء فان بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة ، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلهم على الضلالة إلا السواد الأعظم » قالوا : يا رسول الله ، ومن السواد الأعظم ؟ قال : « من كان على ما أنا عليه وأصحابي » ثم قال : « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً ، فطوبى للغرباء » قالوا : يا رسول الله ، ومن الغرباء ؟ قال : « الذين يصلحون إذا فسد الناس ، ولا يمارون في دين الله » .

هذه الخطبة البليغة تفصح عن غضب الله ورسوله وسخطهما على الذين يتخذون الجدل الدينيَّ ، فالمؤمن لا يماري ، أي لا يجادل في الدين أو يتخذ الدين موضوع جدل ، لأن الجدل الديني محبطة العمل ، مغضبة لله ورسوله ، ومرضاة للشيطان .

وانتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى والإسلام كلمة واحدة ، والمسلمون قلب واحد ، وعقيدة واحدة ، وتركهم على كتاب الله وسنة نبيه ، وتمسكوا أشد التمسك بكلمته العظيمة التي أمر بها كل مسلم منذ ألقى خطبته البليغة في

حجة الوداع إذ قال فيها : « إعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي ، فإني قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، كتاب الله وسنة نبيه » .

وكانوا متمسكين حقاً بالكتاب والسنة ولم يخرجوا عنهما في العقيدة والشريعة رغم الخلاف الذي وقع في موضوع الخلافة بين المهاجرين والأنصار ، والانتهاء منه إلى ما فيه خير المسلمين ، كما وقعت خلافات أخرى لم تصل إلى العقيدة أو الخروج بالقرآن والسنة عن حدِّهما القوام .

ولم يذكر في عهد الصديق أبي بكر ما يشير إلى تبدل في سير خط الإسلام من ناحية العقيدة إلا ما كان من اعتراض عمر بن الخطاب في قتال أهل الردة ممن آمنوا بالشهادة وتركوا الزكاة ، ويقول له : كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم » وينبري له أبو بكر فيرد عليه بالدليل القاطع ويقول : « أليس قد قال النبي ﷺ بعد هذا « إلا بحقها » ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والله ، لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه » .

ويقتنع عمر ومن معه من الذاهبين إلى ترك قتال مانعى الزكاة بحجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ولا يجادلونه ، لأنهم جميعاً مدركون ما يجب ، ومطيعون سامعـــون لأمر الرسول ﷺ في ترك المـــراء ، وساروا جميعاً تحت لواء العقيدة الإسلامية لا يخرجون عن القرآن والسنة ، ويلتزمون نهج الرسول الأكرم ، ولا يخرجون القرآن والسنة عن سوائهما، واستمروا على فهم العقيدة كما كانوا في حياة النبي ، لم يبتدعوا ما يخالف ما طلب إليهم التمسك به والاتفاق فيه .

ومضى عهد أبي بكر على خير ، فقد كان امتداداً سليماً طيباً لعهد رسول الله ، ثم جاء عهد عمر بن الخطاب ، عهد الفتوح وانتشار الإسلام ، ومع ذلك

لم يجدّ في العقيدة جديد إلا بعض حوادث فردية ، وما عداها كان الأمر فيه كما كان من قبل .

وطبيعيٌّ أن الفتح الإسلاميَّ في عهد عمر كان مقصوداً منه ما كان مقصوداً منه في زمن الرسول وأبي بكر ، كان القصد منه إنقاذ الإنسانية مما انتهت إليه من الفساد الخلقيِّ والعقائديِّ ومن كل أنواع البغي والفساد ، ولم يرد الإسلام أو الفاتحون المسلمون علوّاً في الأرض ولا استكباراً .

ولم يكن الفتح الإسلاميُّ مثل فتوح فارس والروم وغيرهم من الأمم التي اتخذت الفتح للتسلط والقهر ، أما الفتح الإسلاميُّ فكان للإرشاد والهداية ، فمن أسلم من الكفار والمشركين والملحدين فحقه مثل حق الخليفة نفسه ، والأكرم هو التقي ، والامتياز لمن يحسنون ولو كانوا من قبل عبيداً منبوذين .

ودخل في الإسلام أناس من مختلف الديانات والملل والنحل، وفيهم من العلماء فيها ، ومنهم من أسلم كرهاً ، فهو ناقل إلى الإسلام معه ما كان يعتقد.

ولئن كان حكم الإسلام قوياً بحيث لم يجد المثقفون من أصحاب الديانات المختلفة مجالاً لنشر ما يعتقدون على نطاق الجماعة فإن من الطبيعيِّ أن يتكلموا بما لديهم من العلم ، ولا يعدمون من يختدع بقولهم أو يسمع لهم، ولكن كان الإجماع الإسلامي حصناً لا يقتحمه أحد ، ولا يستطيع أن يجد فيه ثغرة ينفذ منها ، واذا نفذ فعمر بن الخطاب بالمرصاد .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : إني سمعت عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن .

وعن عمر بن إسحاق قال : لَمَنْ أدركت من أصحاب رسول الله

ﷺ أكثر ممن سبقني منهم ، فما رأيت قوماً أيسر سيرة ولا أقل تشديداً منهم.

وكانوا يتحاشون الخوض في « الإلهيات » وينفرون ممن يتكلم فيها ، ولا يخرجون فيها عن القرآن وآياته المحكمة ، وكان إيمانهم مقصوراً على تصديق القرآن وكل ما جاء فيه دون الخوض في الكيفيات وما وراء العقل وما فوق الطبيعة فسلموا من الوقوع في الخلل والخطل والخطأ في أمور العقيدة ، وسلم من اهتدى بهم واقتدى .

ونجم من الفتوح الإسلامية واتساع رقعة الإسلام دخول أناس من ذوي الديانات والثقافات والفلسفات ، فنقلوا معهم إلى المسلمين ذوي اليسر والسماحة ما لديهم من هذه الفنون ما أدخل على العقيدة الإسلامية الصافية ما لا يتفق مع صفائها ويسرها وسماحتها ، ولم تُجِدْ مقاومة الفقهاء والمعتصمين بالكتاب والسنة ، فقد كان الزحف قوياً جارفاً .

وأُخِذ كثير من علماء المسلمين بسحر الثقافة غير الإسلامية ، ولم يأخذوا العبرة والعظة من الحوادث التي حدثت في عهد الرسول ﷺ .

إنه منعَ الخوض في حديث القضاء والقدر فامتنعوا ، ولكن الخلف لم يتبعوا السلف .

وإن كعب الأحبار وأمثاله روّجوا في الإسلام ما شغل المسلمين ووجهوهم الوجهة التي منع عن الإتجاه إليها .

الإسلام لم يشرح ما أشير إليه من الغيبيات ، فجاء كعب الأحبار وأمثاله من مسلمة أهل الكتاب يضيفون من خرافاتهم وأساطير كتبهم ما وجهوا الحياة العقلية الإسلامية والتفسير وجهة لا يرتضيها الإسلام .

فالمسلمون قرأوا في سورة الصف قول الله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله اليكم مُصدِّقاً لما بين يديَّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ .

ولم يسألوا عن الموضع الذي ذكرت فيه البشرى من التوراة والإنجيل ، بل سمعوا وصدّقوا ، وتلوا الآيات الكثيرة التي ذكر فيها أهل الكتاب والتوراة والإنجيل والزبور ولم يبحثوا عن هذه الكتب للاطلاع والعلم ، بل أنكر الرسول ﷺ على من أراد الإطلاع أو اطلع .

ففي «النهاية» مادة « هوك » أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بصحيفة أخذها من بعض أهل الكتاب فغضب وقال : « أمُتَهوِّكون يا ابن الخطاب».

وروى النسائي وغيره عن النبي ﷺ أنه رأى في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقة من التوراة فقال : « أمتهوِّكون يا ابن الخطاب ؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لو كان موسى حياً واتبعتموه وتركتموني ضللتم » وفي رواية : « لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتِّباعي » فقال عمر : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا سفيان عن جابر عن الشعبي عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ، إني مررت بأخ لي يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله ﷺ .

قال عبد الله بن ثابت : قلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، قال : فسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وقال : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين » .

وقال يعلى الموصلي : حدثنا إسحاق ، حدثنا عماد عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق ، والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني »

وقد روى هذه القصة البيهقيُّ في شعب الإيمان ، والدارميُّ في سننه ، وغيرهما.

وهذا الإنكار العنيف من رسول الله ، والغضب الغاضب يبرهنان على أن رسول الله أراد أن يحفظ الإسلام بعيداً عن الإسرائيليات والنصرانيات حتى لا يدخل عليه ما يفسده كما فسدت ملة اليهود والنصارى .

وكان هؤلاء الكتابيون يتعالَوْن على العرب بما لديهم من العلم والثقافة ، ويدّعون الدعاوى العريضة ، فلما ظهر رسول الله كان بعض العرب يسألون أهل الكتاب عنه ، ويتلقون منهم الأجوبة بحسب أهوائهم ومقاصدهم وظروفهم ، فوقر في نفوس العرب أن اليهود والنصارى على علم وأن في كتبهم علماً ونبوءات .

وضللهم كعب الأحبار برواياته ونقوله عن التوراة حتى زعم « ما من الأرض شبر إلا مكتوب في التوراة التي أنزل الله على موسى ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة » .

والتوراة التي يشير إليها كعب موجودة بين أيدينا ، وليس فيها هذا الزعم ، ثم إن قوله هذا ليس صحيحاً ، ولو كان ما زعمه حقاً لما بقي في الدنيا غيب .

وإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب بالدرة كعباً ، وحسبنا أن رسول الله منع صاحبه القوي الذي أعز الله به الإسلام من قراءة بعض التوراة ، وجبهه جَبْهاً ، وأدرك عمر خطأه فتجنبه ، حتى أنه لما ولي إمارة المؤمنين علم أن رجلاً أصاب كتاباً في فتح المدائن ، وفيه كلام معجب ، فأحضره وسأله : أمن كتاب الله ؟ قال : لا ، فأحضر الدرة وأخذ يضربه بها وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿ آلر * تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ثم قال : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من العلم .

وكعب ووهب بن منبه وأمثالهما أدخلوا في التفسير ما ليس بحق ، وبخاصة

كعب الأحبار الذي تقوّل على التوراة المحرفة ونسب إليها ما ليس فيها وقد أصاب الإمام ابن تيمية إذ يقول :

« وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله نصب على الحق فيه دليلاً ، فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف ، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة ، وفي مقدار سفينة نوح وما كان خشبها ، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ، ، ونحو ذلك ، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ — كاسم صاحب موسى أنه الخضر — فهذا معلوم ، وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ من أهل الكتاب — كالمنقول عن كعب ووهب ومحمد بن اسحاق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب — فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه ، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه » [1] .

فابن تيمية اعتمد على الحديث الشريف في عدم جواز تصديق ما يؤخذ عن أهل الكتاب كالمنقول عن كعب وغيره وعدم جواز التكذيب إلا بحجة.

وإذا قام الدليل على بطلان ما يرويه كعب أو اختلاقه فإن أسباب الرد تكون أقوى ، والأدلة قائمة على كذب كعب مع أن قدماء رجال الجرح والتعديل عدّلوه ، لأنهم لم يطلعوا على ما يجرحه ، ولم يتبينوا ما في روايات كعب من الكذب والتلفيق والعزْو إلى التوراة وكتب الرسل مما ليس فيها مما يرويه ، ولو تبين لهم ما ظهر لنا بالدليل القاطع لأنكروا عليه وجرحوه ، بل جرحه السابقون فقد روى البخاري في كعب عن معاوية : « أن كنا لنبلو عليه الكذب».

ووقف الصحابة لحراسة القرآن والسنة من الخوض فيهما بما لم يرد عن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ١٣ : ٢٤٥ الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ طبع الرياض.

الرسول ﷺ ، فسكتوا عما سكت عنه ، ولم يخوضوا في المتشابه والقدر والغيبيات التي لم يرد فيها نقل صحيح ، بل كان عمر رضي الله عنه يقسو على من يبتدع فيتكلم فيما لم يتكلم فيـه الرسول الكريم ، وحادثة السارق الذي جيء به إليه مشهورة ، فقد سأله عمر : لمَ سرقت ؟ فأجاب : قضى الله عليّ ، فأمر بجلده وقطع يده ، الجلد على كذبه على الله ، والقطع للسرقة .

وتكلم صبيغ بن عسل في المتشابه ، فأحضره عمر وعلا رأسه بعراجين النخل حتى أدماه ، ولم يتركه حتى قال : حسبك يا أمير المؤمنين ، قد ذهب الذي كنت أجده في رأسي .

وموقف الصحابة من المتكلمين في الغيبيات بآرائهم موقف شديد حازم ، فقد تكلم معبد بن عبد الله الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم في القدر فأعلن من بقي من الصحابة مثل عبد الله بن عمر وعبد الله بن العباس وجابر ابن عبد الله وأبي هريرة وأنس بن مالك وعبد الله بن أبي أوفى وعقبة بن عامر الجهني وغيرهم إنكارهم على هؤلاء المتكلمين ، وأمروا أن يتبرأ النـاس منهم ، وألا يسلّموا عليهم ، وألا يحضُروا جنازتهم ، وألا يعودوا مرضاهم .

وإن مما يروى : أن مسلم بن يسار كان يجلس إلى سارية بمسجد رسول الله ﷺ ويحذر المسلمين من هؤلاء المتكلمين ويقول : إن معبداً يقول بقول النصارى .

وإذا كان كعب يزعم أنه ما من شبر من الأرض إلا وهو مكتوب في التوراة ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة فإن المسلمين يؤمنون أن القرآن حق، ومنهم من يرى أن القرآن أحق من التوراة بما جاء فيها من الأسرار والعلم ، أليس الله عز وجل يقول : ﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء ﴾ ؟

وفهموا من قول الله تعالى أن القرآن يحوي كل شيء ما كان وما سيكون، وعلوم الأولين والآخرين إلى يوم القيامة ، بل نجد في عصرنا هذا وأيامنا

هذه من يتلقفون النظريات الفلسفية والعلمية ويسرعون إلى القرآن مدّعين أنه سبق أصحابها إليها وحواها وأشار إليها .

وليس معنى قول الله كما فهموا ، فالقرآن الكريم لم يحوِ كل فروع أحكام العبادات ولا كل أنواع المعاملات الشرعية ، والمفهوم من قول الله تعالى : أن القرآن لم يترك شيئاً من أمر الدين الذي أرسل به الرسل كافة وفي ختامهم سيدنا رسول الله محمد ﷺ ، وأنزل عليهم الكتب التي تهدي إلى الحق وصراط مستقيم .

إن في كتاب الله كل شيء من أمر الدين ، فلم ينقص منه ما يجب العلم به وما يجب اعتقاده والإيمان به ، أما أن يكون فيه ما زعموا فلا .

وفهمُ قول الله ذلك الفهمَ الخاطىء حمل بعض المفسرين والكاتبين والباحثين في القديم والحديث على أن يتأولوا آيات الله البينات ويفسروها حسب اجتهادهم فيتقوّلوا على كتاب الله ما لم يقله ، ويحمّلوه من المعاني ما لا يحتمل، واستعانوا أهل الكتاب من يهود ونصارى ممن أسلموا أو لم يسلموا في تفسير كلام الله حتى لا تكون التوراة أكثر شمولاً فيما كان وفيما سيكون من القرآن الكريم .

وخرج هؤلاء وغيرهم بالقرآن عن حقه ، وأخضعوه لآرائهم ، كما أخضعه أصحاب الفرق لمذاهبهم ، يؤيدونها بآياته ، ويحتجون على خصومهم بما يستنبطونه من الأدلة التي تقوي حجتهم وتدحض حجج خصومهم ، وفتحوا أبواب التفسير للإسرائيليات والفلسفة اليونانية والمعتقدات الباطلة .

وفيهم من صنعوا ما صنعوه بحسن نية ، ومنهم من قاده سوء النية والدخلة والحقد على دين الله كالباطنية وغيرها من الفرق الكافرة .

وتحدث بعض المفسرين في الغيبيات وكأنها في عالم الشهادة ، فاللوح المحفوظ الذي جاء ذكره في سورة البروج : ﴿ بل هو قرآن مجيد * في لوح

محفوظ ﴾ وصفوه وكأنهم شهدوه أوتلقـوْه من المعصوم محمد عليه الصلاة والسلام ، مع أن ما ذكروه منقوض بأقوالهم .

ففي تفسير ابن كثير ٩ : ١٧٠ – ١٧١ [١] :

« قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ،حدثنا أبو صالح، ثنا معاوية بن صالح أن أبا الأعبس – هو عبد الرحمن بن سلمان – قال: ما من شيء قضى الله القرآن فما قبله وما بعده إلا وهو في اللوح المحفوظ ، واللوح المحفوظ بين عيني إسرافيل لا يؤذن له بالنظر فيه » .

و « روى البغوي عن طريق إسحاق بن بشر ، أخبرني مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن في صدر اللوح لا إلـه إلا الله وحده ، دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله وصدّق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة . قال : واللوح لوح من درّة بيضاء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافتاه من الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه نور ، وكلامه معقود بالعرش ، وأصله في حجر ملك .

وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش » .

وفي البغوي [١] (على هامش ابن كثير) : « أخبرني مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده ، دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله عز وجل، وصدّق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة ، واللوح لوح من درّة بيضاء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين الشرق إلى الغرب ، وحافتاه الدرُّ والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه نور ، وكلامه قديم ، وكل شيء فيه مستور وقيل : أعلاه معقود بالعرش ، وأصله في حجر ملك .

---

(١) طبع مطبعة المنار ، سنة ١٣٤٧ هـ .

قال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش » .

والشيء المقطوع به أن اللوح المحفوظ حق ، والإيمان به فرض ، وذكره الله في محكم كتابه ، فوجوده حق ، وأما هذه الصفحات التي جاءت في البغوي وابن كثير فمما لم يثبت عن المعصوم رسول الله بالتواتر ، ودخوله في العقيدة مرغوب عنه .

وتناولت الفرق على مختلف اتجاهاتها وعقائدها القرآن فأخضعته لتفسيراتها التي تتفق مع مذاهبها ، وبدأ بالخلاف بين الإمام علي كرم الله وجهه ومعاوية ابن أبي سفيان ، وتطورّ إلى اختلاق الأحاديث ونسبتها إلى الرسول ﷺ ، والاستعانة بها في تفسير القرآن وأيد كل فريق مذهبه بالقرآن ، وتفسير الحديث الصحيح الثابت تفسيراً يخدم هوى المتنازعين .

فمعاوية فسر حديث رسول الله ﷺ في عمار بن ياسر رضي الله عنهما : « عمار في أهل الحق يقتله الفئة الباغية » وكان عمار مع الإمام علي ، وقتلته فئة معاوية ، وانتشر بين جيش الشام خبر الحديث فتضعضعوا ، فأوّل معاوية الحديث وفسره بقوله : إنما قتله من أخرجه ، يريد معاوية أن الإمام علياً هو الذي قتل عماراً رضي الله عنه لأنه أخرجه معه إلى القتال ، ففرقة علي كرم الله وجهه هي التي قتلت عماراً فهي — إذن — الفئة الباغية .

وهذا التأويل باطل ، لأن معنى الحديث الشريف غير ما وجهه معاوية ، وأن عمرو بن العاص نفسه روى الحديث في صفِّين ، حتى أغضب معاوية وقال له : أفسدت عليّ أهل الشام ، أكلّ ما سمعت من رسول الله تقوله؟ فرد عليه عمرو : قلتها ولست — والله — أعلم الغيب، ولا أدرى أن صفّين تكون ، قلتها وعمار يومئذ لك ولي ، وقد رويت أنت فيه مثل الذي رويت فيه ، فاسأل أهل الشام ، فغضب معاوية وتنمر لعمرو[1] .

---

(١) وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم العنقري الطبعة الأولى ١٣٦٥ طبع الحلبي ص ٣٩١ .

ولما قُتل الإمام عليٌّ كرم الله وجهه لعنه معاوية، وفرض لعنه على المنابر، والإمام مبشر بالجنة، ولا يدخلها إلا من تنزلت عليه رحمة الله، وعلي كرم الله وجهه تنزلت عليه هذه الرحمة الإلهية فكان من المبشرين بالجنة، واللعن الطرد من رحمة الله، وفي لعنه وإشهاره على المنابر التي يذكر منها اسم الله مناقضة لبشارة رسول الله ﷺ.

ولم يقف شيعة الإمام مكتوفي الأيدي والألسنة، ففسروا القرآن تفسيراً يؤيد ما يذهبون إليه من إظهاره كفر الأمويين، بل أسرفت فرق من الشيعة فتجنوا على الصدّيق والفاروق وابنتيهما زوجي المصطفى ﷺ.

بل إن الإمام العلاّمة ابن جرير الطبريّ الذي يعتبر تفسيره من خير التفاسير، ولا يتهم بالتحيز، وعرف بالعدل والنزاهة، واشتهر بالصلاح والاعتدال ذكر في تفسير قول الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار﴾ (1) ما ننقله بنصه (2):

«حدثنا ابن بشار وأحمد بن إسحاق قالا: ثنا أبو أحمد قال: ثنا سفيان عن علي بن زيد عن يوسف بن سعد عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿ألمْ تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار جهنم﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فقد كفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتّعوا إلى حين».

وتفاقم خطب الشيعة وخصومهم حتى نال الخصوم من الإمام عليٍّ كرم الله وجهه شر النيل، وألف الجاحظ كتابه «العثمانية» في ثلب الإمام مزاياه وتجريده من مفاخره زوراً وبهتاناً وكذباً وباطلاً، كما ألف غيره من الملاحدة والضالين كتباً كفّروا فيها الإمام وأخرجوه عن الإسلام، وفسروا قول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على

---

(1) سورة إبراهيم الآية ٢٨.

(2) جامع البيان في تفسير القرآن ١٣ : ١٤٦ طبع المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٢٨ هـ.

ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام ﴾ بأنها نزلت في الإمام علي بن أبي طالب، وكذلك قول الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ نزلت في قاتل الإمام علي رضي الله عنه ، وكل هذا باطل محض .

والمعتزلة فسروا القرآن وأخضعوه لفلسفتهم ، وأنكروا أحاديث مؤيدة لآيات من القرآن إذ ناهضت مذهبهم ، كما أولوا الآيات والأحاديث حسب هواهم العقلي ، فرؤية الله عز وجل ثابته نصاً من القرآن والسنة ، فالله عز وجل يقول في كتابه : ﴿ وجوهٌ يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾ القيامة: ٢٢–٢٣.

ويقول رسول الله ﷺ : « إنكم سترون ربكم عياناً » [١].

وعن جرير : « كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته » [١].

وينكر المعتزلة رؤية الله عز وجل ، ويستدلون من القرآن بقول الله تعالى: ﴿ ذلكم الله ربكم لا إلـه إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ .

وليس في دليل المعتزلة دليل على امتناع رؤية الله حقيقة لا مجازاً ، وليس فيه نفي الشهود العياني يوم القيامة لمن رضي الله عنهم وأنعم عليهم بالنظر إليه سبحانه وتعالى.

وتصدى للمعتزلة في تفنيد ما ذهبت إليه من إنكار الرؤية علماء كثيرون ، وممن تصدى لهم الإمام محمد بن عمر الرازي (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) في كتابه « كتاب الأربعين في أصول الدين » [٢] وتناول دعوى المعتزلة في إنكار الرؤية بالحجج النقلية والعقلية في فصول معدودات وصفحات كثيرة ، منها « الفصل

---

(١) البخاري، كتاب التوحيد ٩ : ١٢٧ طبعة بولاق الأميرية .

(٢) طبع حيدر أباد سنة ١٣٥٣ هـ .

السادس » بعنوان « في حكاية شبه المعتزلة في إنكار الرؤية والجواب عنها » ص . ٢١ — ٢١٥ وقال :

« إنهم يتمسكون بوجوه عقلية وبوجوه نقلية ، أما الشبه النقلية فأربع .

« الشبهة الأولى — التمسك بقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ إعلم أنهم تارة يتمسكون بهذه الآية في بيان أنه تعالى لا يراه أحد ، وأخرى في بيان أنه يمتنع أن يراه أحد .

« أما الوجه الأول فتقريره أن نقول : الإدراج المضاف إلى البصر هو الرؤية والإبصار ، بدليل أنه لا يصح إثبات أحدهما مع نفي الآخر ، فلا يصح أن يقال : رأيته وما أدركته بعيني ، وأن يقال : أدركته بعيني وما رأيته ، وهذا يدل على أن إدراك البصر والرؤية شيء واحد .

« إذا ثبت هذا فنقول بأنه تعالى نفى أن يدركه أحد من الأبصار ، وهذا يتناول جميع الأبصار في جميع الأوقات ، وذلك يقتضي ألا يراه أحد في شيء من الأوقات .

« وأما الوجه الثاني فهو أنه تعالى يمدح نفسه بأنه لا يدركه شيء من الأبصار ، وكل ما كان عدمه مدحاً كان وجوده نقصاً ، والنقص على الله تعالى محال ، فوجب أن تكون الرؤية ممتنعة على الله تعالى .

« الشبهة الثانية — تمسكوا بقول الله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ لن تراني ﴾ وهذه الكلمة للتأكيد بدليل قوله تعالى : ﴿ قل لن تتبعونا ﴾ فثبت أن موسى عليه السلام لا يراه قط ، وإذا ثبت هذا في حق موسى ثبت في حق غيره لانعقاد الإجماع على أنه لا قائل بالفرق .

« الشبهة الثالثة — تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ﴾ دلّت هذه الآية على أن كل من يكلم الله تعالى فإنه لا يراه ، وإذا ثبت عدم الرؤية في وقت الكلام ثبت عدم الرؤية في غير

وقت الكلام ضرورة أنه لا قائل بالفرق .

« الشبهة الرابعة — أنه تعالى ما ذكر الرؤية في القرآن إلا وقد استعظمها وذلك في ثلاث آيات :

« أولها قوله تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ وثانيها قوله تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزِّل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ وثالثها قوله تعالى: ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم ﴾ الآية ، وهذا الاستعظام يدل على أن رؤية الله تعالى ممتنعة .

« وأما الشبه العقلية فهي أيضاً أربع :

« الشبهة الأولى ، وهي شبهة الموانع ، وقبل تقريرها لا بد من مقدمة وهي أن الأشياء التي يجب حصول الإبصار في الشاهد عند حصولها ثمانية :

« أحدها : سلامة الحاسة ، وثانيها : كون الشيء بحيث أن يكون جائز الرؤية ، وثالثها : ألا يكون في غاية البعد ، والرابع : ألا يكون في غاية القرب ، والخامس أن يكون مقابلاً للرائي أو في حكم المقابل ، والسادس : ألا يكون في غاية اللطافة ، والسابع : ألا يكون بين الرائي والمرئيِّ حجاب ، والثامن : ألا يكون في غاية الصغر .

« قالوا : عند حصول هذه الأمور الثمانية يجب حصول الإبصار ، إذ لو لم يجب لجاز أن يحصل بحضرتنا جبال عالية وشموس مضيئة وأصوات هائلة ونحن لا نراها ولا نسمعها ، وذلك يقتضي دخول الإنسان في الجهالات .

« إذا عرفت هذه المقدمة فلنرجع إلى تقرير الشبهة فنقول : أما الشرائط الست الأخيرة فلا يمكن اعتبارها إلا في رؤية الأجسام ، والله تعالى ليس بجسم فلا يمكن اعتبار هذه الشرائط في رؤيته .

« فعلى هذا ، لو صحت رؤيته لوجب ألا يصير في حصول رؤيته إلا أمر أن سلامة الحاسة وكونه بحيث يصح أن يرى ، وهذان الأمران حاصلان الآن ، فثبت أنه لو صحت رؤيته لوجب أن نراه الآن ، ولما لم يكن الأمر كذلك وجب أن يقال : إنما لا نراه الآن لأنه لا تصح رؤيته .

« الشبهة الثانية — شبهة المقابلة — أن كل ما كان مرئياً وجب أن يكون مقابلاً للرائي أو في حكم المقابل له ، وذلك لا يصح إلا في الشيء الذي يكون حاصلاً في الحيز والمكان ، والله تعالى ليس في المكان والحيز ، فامتنع كونه مقابلاً للرائي أو في حكم المقابل له ، فامتنع كونه مرئياً ، وإنما قلنا : إن المرئي يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل احتراز عن صور ثلاث :

« أحدها : أنا نرى الأعراض مقابلة للجسم ، إلا أنها حالّة في الأجسام المقابلة للرائي ، فكانت في حكم المقابلة .

« وثانيها : أنا نرى وجوهنا في المرآة ويستحيل أن يكون الوجه مقابلاً لنفسه إلا أن الشعاع يخرج من العين إلى المرآة ثم ينعكس إلى الوجه ، فبهذا الطريق يكون الوجه جارياً مجرى المقابل لنفسه .

« وثالثها : الشيء الذي يوضع في الرطوبة فإنه وإن لم يكن في مقابلة العين إلا أن شعاع العين ينعطف عليه ويصير مرئياً ، فهو أيضاً في حكم المقابل .

« إذا عرفت هذا فنقول : إن أبا الحسين البصري ادّعى العلم الضروري بأن مالا يكون مقابلاً ولا في حكم المقابل يمتنع أن يرى .

« الشبهة الثالثة — شبهة الانطباع — وهي أن كل ما يصير مرئياً لا بد وأن تنطبع صورته ومثاله في العين ، والله تعالى لا صورة له ولا مثال ، فوجب أن تمتنع رؤيته .

« الشبهة الرابعة ، أن كل ما كان مرئياً فلا بد له من لون وشكل ، ودليله

الاستقراء ، والله تعالى منزه عن ذلك ، فوجب ألا يرى ، فهذا مجموع شبههم في نفي الرؤية .

« والجواب عن الشبهة الأولى وهي تمسكهم بقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ من وجوه .

« الأول : لا نسلِّم أن الإدراك عبارة عن الرؤية ، بل هو عبارة عن الوصول ، يقال : أدرك الغلام اذا صار بالغاً ، وأدركت الثمرة إذا وصلت إلى حد النضج ، وقال تعالى : ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ أي لَمُلْحقون .

« إذا عرفت هذا فنقول : إن من رأى شيئاً ورأى أطرافه ونهاياته قيل : إنه أدركه ، على تقدير أن يكون قد أحاط به من جملة جوانبه ، وهذا المعنى إنما يتحقق في الشيء الذي له أطراف ونهايات ، والباري تعالى منزّه عن ذلك ، فلم تكن رؤيته إدراكاً البتة ، فلم يلزم من نفي الإدراك نفي الرؤية ، فالحاصل أن الإدراك رؤية مكتفية ، ولا يلزم من نفي الرؤية المكتفية نفي أصل الرؤية.

« كما أنا نعرف الله ولا نحيط به ، فكذلك نراه ولا ندركه .

« الوجه الثاني في الجواب ، هب أن إدراك العين عبارة عن الرؤية ، إلا أن قوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ نقيض لقولنا : تدركه الأبصار ، وقولنا : تدركه الأبصار يقتضي أن يدركه كل أحد ، لأن الألف واللام – إذا دخلا على اسم الجمع – يفيد الاستغراق ، ونقيض الموجبة الكلية السالبة الجزئية ، فكان قوله : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ معناه : أنه لا يدركه جميع الأبصار ، ونحن نقول بموجبه فإنه لا يراه جميع المبصرين ، فإن الكافرين لا يرونه ، بل يراه بعض الأبصار .

« الوجه الثالث في الجواب : أنا نقول بموجب الآية أنه لا تدركه الأبصار

فلِمَ قلتم بأنه لا يدركه المبصرون ، فإن قالوا : المراد من الأبصار في الآية المبصرون وإلا خرجت الآية عن أن تكون مفيدة فنقول : إذا حملنا الأبصار على المبصرين وجب أن تكون معنى قوله تعالى : ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ أنه يدرك جميع المبصرين ، ولا نزاع في أنه تعالى مبصِر ، فيلزم بحكم هذه الآية أن يبصر نفسه ، وأنتم لا تقولون به .

« الوجه الرابع في الجواب : هبْ أن ظاهره يدل على نفي الرؤية عن جميع المبصرين إلا أنه عامٌّ ، وقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾ خاص ، والخاص مقدَّم على العام .

« وأما الوجه الثاني في تمسكهم بالآية فنقول : ذلك إنما يلزم لو حملنا الإدراك على الإحاطة قلنا : هبْ أن الإدراك محال على الله تعالى فلمَ قلتم بأن الرؤية ممتنعة ، وأيضاً نقول : هذا الاستدلال معارض بأن رؤية الله تعالى لو كانت ممتنعة لما حصل المدح بأنه لا يُرى ، ألا نرى أن المعدومات تمتنع رؤيتها وليس لها مدح ، بل المدح إنما يحصل لو كانت رؤيته جائزة .

« ثم إنه سبحانه وتعالى يقدر على منع الأبصار عن ذلك .

« إذا ثبت هذا فنقول : هذه الآية تدل على أن رؤية الله تعالى جائزة من هذا الوجه ، وإذا ثبت الجواز وجب القول بالوقوع في القيامة ضرورة أنه لا قائل بالفرق ، وأيضاً فقولهم : إن كل ما كان عدمه مدحاً كان وجوده ممتنعاً منقوض بأنه تعالى يمدح بنفي الظلم والعبث عن نفسه حيث قال : ﴿ وما ربك بظلاّم للعبيد ﴾ ، ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ مع أن مذهب المعتزلة أنه تعالى قادر على فعل الظلم والعبث .

« أما الجواب عن الشبهة الثانية — وهي التمسك بقوله تعالى : ﴿ لن تراني ﴾ فنقول : كلمة « لن » لا تدل على التأبيد بدليل قوله تعالى : ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ مع أنهم يتمنونه في الآخرة .

« والجواب عن الشبهة الثالثة – وهي التمسك بقوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ فنقول : الوحي هو أن يسمع ذلك الكلام بسرعة، وليس فيه أن يكون محجوباً على رؤية الله تعالى أم لا .

« وأما الجواب عن الشبهة الرابعة أن نقول : لمَ لا يجوز أن يكون ذلك الاستعظام لأجل أنهم طلبوا الرؤية على سبيل التعنت والعناد ، والدليل عليه أنه تعالى استعظم أيضاً طلبهم لإنزال الملائكة ، ولا نزاع في جواز ذلك إلا أنهم لما طلبوه على سبيل العناد استعظم الله ذلك ، فكذا في سؤال الرؤية .

« وأما الشبهة العقلية فنقول : أما الشبهة الأولى وهي شبهة الموانع فالجواب عنها على مقامين :

« المقام الأول ، لا نسلم أن عند حصول الشرائط الثمانية يجب حصول الإبصار ، ويدل على أنه غير واجب عقلاً وجهان :

« الحجة الأولى ، أنا نرى الجسم الكبير من البعد صغيراً، فإن رأينا جميع أجزائه وجب ألا نراه صغيراً ، بل كبيراً ، وإن لم نر شيئاً من أجزائه وجب ألا نراه ألبتة ، وإن رأينا بعض أجزائه دون البعض مع أن جميع الأجزاء بالنسبة إلى القرب والبعد واللطافة و الكثافة وعدم الحجاب وسلامة الحاسة وصحة الرؤية متساوية لزم ألا يكون الإدراك مع حصول هذه الشرائط واجباً الخ » .

وهذه الفلسفة التي اتخذها المعتزلة في نفي رؤية الله يوم القيامة خرجت بالعقيدة عن السنّة المحمدية ، واضطر أهل السنة أن يتخذوا الأسلوب نفسه في الرد عليهم وعلى أمثالهم من الفرق الضالة أو الملحدة .

وانبرى الإمام أبو الحسن الأشعري للمعتزلة يردُّ عليهم ويفنِّد أقوالهم بمنطقهم كما انبرى غيره ، ولكن الأشعري وأتباعه حملوا لواء أهل السنة في تفنيد دعاوى المعتزلة .

وموقف الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في موضوع الرؤية كان صلباً

مثل موقفه من دعوى خلق القرآن ، فقد أُحْضِرَ الإمام إلى مجلس المعتصم وقال أحمد بن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين ، هذا (ويقصد الأمام أحمد) يزعم أن الله تعالى يُرى في الآخرة ، والعين لا تقع إلا على محدود .

واحتج الإمام أحمد بالقرآن والسنة بحديث رسول الله ﷺ بعد احتجاجه بالقرآن ، ذلك الحديث الذي رواه قيس بن أبي حازم عن جريد بن عبد الله ، والحديث : « إنكم سترون ربكم عياناً » (١) والحديث الآخر المروي عن قيس ابن أبي حازم عن جريد قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر ، قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هـذا القمر لا تضامون في رؤيته » (١) .

وسأل المعتصم ابن أبي دؤاد عن حجة الإمام أحمد بن حنبل فردَّ ابن أبي دؤاد : إنه يحتج بحديث جريد ، وانما رواه قيس بن أبي حازم وهو أعرابي بوّالٌ على عقبيه ، وهي حجة ساقطة ، فهناك حديث ثالث رواه قيس ، ولكن هناك حديثاً رواه عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة رضي الله عنه (البخاري ٩ : ١٢٨ بولاق) : إن الناس قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ » قالوا : لا يارسول الله ، قال : « فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ » قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة » الحديث.

وهناك حديث عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قلنا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً ؟ » قلنا : لا ، قال : « فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم

---

(١) البخاري ٩ : ١٢٧ طبعة بولاق الأميرية سنة ١٣١٥ هـ وهناك رواية ثالثة للحديث عن قيس ابن أبي حازم عن جريد قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة البدر فقال : « إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته » صحيح البخاري : ٩ : ١٢٨ .

يومئذ »[1] الحديث .

وكلما احتج أهل السنة على المعتزلة بحديث رسول الله ﷺ طعنوا في الإسناد وكذبوا الرواة ، فإذا احتجوا بالقرآن تصدى المعتزلة لآياته التي يستدل بها أهل السنة في حقيقة رؤية الله تعالى يوم القيامة بالتأويل ، وبدعوى المجاز.

فالله عز وجل يقول : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾ ولا مجال للمعتزلة تجاه القرآن حتى يطعنوا كما طعنوا الحديث ، فذهبوا إلى التأويل وتعسف الحجة فزعموا في تفسير الآيتين الكريمتين مذهباً غريباً ، ففسر أحد أقطابهم – وهو أبو علي الجبّائي – أن كلمة « إلى » ليس حرف جر ، ولكنه اسم من « الآلاء » بمعنى النعم ، فيكون المعنى : إن الوجوه منتظرة نعم ربها .

والمحاكمة الظالمة للمحدث الفقيه العادل السلفي الصالح أحمد بن نصر الخزاعي تظهر تسلُّط المعتزلة واستعانتهم بالسلطة الغاشمة لقهر العلماء ، فقد قبضوا على ابن نصر وأحضروه بين يدي الخليفة الواثق فامتحنه في خلق القرآن ورؤية الله يوم القيامة وسأله : أفترى ربك في القيامة ؟ فأجاب : هكذا جاءت الرواية ، فرد عليه الواثق : ويحك ، تراه كما ترى المحدود المجسم ؟

واتهمه الواثق ومن بحضرته من المعتزلة بالمروق ، وطلب السيف ليتولى بيده قتل ابن نصر المارق رغبة في مثوبة الله كما زعم الواثق ، وانبرى أحد أتباع الواثق فقتل ابن نصر وهو شيخ ، وكان أحد الأربعة الذين ثبتوا في وجه الظلم والباطل حتى الموت ، ولم تغره الدنيا أو يُخِفْه جبروت الظالمين ، فلقي الله شهيداً .

وأفتى المعتزلة بكفر ابن نصر الذي وصفه الإمام أحمد بن حنبل بقوله : « رحمه الله ، ما كان أسخاه ، لقد جاد بنفسه » وهو يريد أنه جاد بنفسه في سبيل الله .

---

(١) البخاري ٩ : ١٢٩ .

ويقول أبو موسى المردار عيسى بن صبيغ الملقب بالمردار [1] أحد أقطاب المعتزلة : من ذهب إلى أن الله تعالى يُرى بالأبصار بلا كيف فهو كافر ، وكذلك الشاكُّ في كفره ، والشاك في الشاك إلى مالا نهاية ، لأنه شبه الله بخلقه، والتشبيه كفر .

وتبارت الفرق في الخروج على نهج الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين وصحابته المبجلين رضوان الله عليهم أجمعين في فهم عقيدة التوحيد وصفات الله عز وجل ، وأدخلوا الفلسفة ومصطلحاتها وبحوثها في العقيدة، ونشأ علم الكلام متّخذاً الفلسفة وأسلوبها وآراءها وطبقوها على التوحيد فتغير النهج المحمدي في فهمه السليم ، واضطر علماء أهل السنة أن يتخذوا أسلوب المتكلمين للرد عليهم ونقض أدلتهم وإظهار ضلالاتهم .

وعرف العلامة أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبري زاده المتوفي سنة ٩٦٢ هـ علم الكلام وبحثَه بحثاً واسعاً في كتابه « مفتاح السعادة » [2] ٢ : ١٩ — ٢٦ وقال :

« من العلوم الشرعية علم أصول الدين المسمى بعلم الكلام .

« وهو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ، ورفع الشبهة عنها .

« وموضوعه : ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته عند المتقدمين .

« وقيل موضوعه : الموجود من حيث هو موجود ، وإنما يمتاز عن العلم الإلهي الباحث عن أحوال الموجود المطلق باعتبار الغاية ، لأن البحث في الكلام على قواعد الشرع وفي الإلهي على مقتضى العقول .

---

(١) من كبار المعتزلة أخذ عن بشر بن المعتمر توفي المردار سنة ٢٢٦ هـ .
(٢) طبع حيدر أباد .

وعند المتأخرين « موضوع الكلام » : المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقاً قريباً وبعيداً ، وأرادوا بالدينية المنسوبة إلى دين نبينا محمد صلوات الله عليه وسلامه » .

ويقول : « وبالجملة يشترط في الكلام أن يكون القصد فيه تأييد الشرع بالعقل ، وأن تكون العقيدة مما وردت في الكتاب والسنة ، ولو فات أحد هذين الشرطين لا يسمى كلاماً أصلاً .

« ولما لم يلزم من قصد موافقة الشرع الموافقة في نفس الأمر عدّ بعضهم كلام أهل الاعتزال من الكلام وإن لم يوافق الكتاب والسنة ، فظهر من هذا التفصيل أن الكلام من العلوم الشرعية ، لكن إذا كان على طريقة الكتاب والسنة.

« وإن هناك كلاماً مموَّهاً يشبه الكلام وليس بذاك، ككلام أهل الاعتزال وأمثاله فذلك علم شرعي باعتبار مسائله ، وغير شرعي باعتبار دلائله » .

ويقول : « إن رئيس أهل السنة والجماعة في علم الكلام رجلان : أحدهما حنفي والآخر شافعي .

« أما الحنفي فهو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي إمام الهدى ، له « كتاب التوحيد » و « كتاب المقالات » و « كتاب تأويلات القرآن » وله كتب في الرد على المعتزلة والقرامطة والروافض ، وله كتاب « مأخذ الشرائع » في أصول الفقه ، و « كتاب الجدل » و « أصول الفقه » مات بسمرقند سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة وتخرج بأبي نصر العياضي .

« وأما الآخر الشافعي فهو شيخ السنة ورئيس الجماعة ، إمام المتكلمين وناصر سنة سيد المرسلين ، والذاب عن الدين ، والساعي في حفظ عقائد المسلمين أبو الحسن الأشعري البصري ، إمام حَبر تقي برٌّ ينقي الصدور من الشُبَه كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، والمرتقي بأنوار اليقين من الوقوع في ورطات ما التبس ، حامي جناب الشرع الشريف من الحديث المفترى ،

الذي قام في نصر ملة الإسلام ، فنصرها نصراً مؤزراً ، ولد سنة ستين ومئتين

« وتبع – أولاً – مذهب الجبائي واستمر على الاعتزال أربعين سنة صار للمعتزلة إماماً فلما أراد الله نصر دينه رأى النبي ﷺ في المنام ثلاث مرات ، وكل ذلك يقول : أنصر المذاهب المروية عني فإنها الحق ، واعتذر في الثالثة بأني كيف أدع مذهباً تصوّرت مسائله وعرفت دلائله منذ ثلاثين سنة ، فقال ﷺ : لولا أني أعلم أن الله يمدك بمدد من عنده لما أمرتك به ، ثم استيقظ ، وقال : فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

« وأخذ في نصرة الأحاديث في الرؤية والشفاعة وغير ذلك ، فأمدّه الله تعالى بمدد من عنده ، وكان يفتح عليه من المباحث والبراهين ما لم يسمعه من شيخ قط ، ولا اعترف به خصم ، ولا رآه في كتاب فغاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً ثم خرج إلى الجامع وصعد المنبر وقال : معاشر الناس ، إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي شيء على شيء ، فاستهديت الله تعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا (وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به) ودفع الكتب التي ألفها على مذاهب أهل السنة إلى الناس .

« وكانت المعتزلة قبل ذلك كانوا قد رفعوا رؤوسهم فحجرهم الأشعري حتى دخلوا في أقماع السمسم .

« والصحيح أن وفاة الشيخ الأشعري بين العشرين والثلاثين ، والأقرب أنها سنة أربع وعشرين ، ويقال : سنة نيف وثلاثين وثلاثمئة .

« وأعلم أن السلف من الفقهاء والمجتهدين قد ينقل عنهم التكبر في حق علم الكلام ، حتى أن كثيراً من فقهاء عصرنا أنكروا على المشتغلين بعلم الكلام أشد الإنكار تمسكاً بما ورد في ذلك عن العلماء الأخيار » .

وذكر أقوال الأئمة : أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد فقال :

« عن حماد بن أبي حنيفة رحمه الله أنه كان يتكلم في الكلام فنهاه أبوه عن ذلك فقال له حماد : رأيتك وأنت تتكلم ، فما بالك تنهاني ؟ فقال : يابني كنا نتكلم وكل واحد منا كأن الطير على رأسه مخافة أن يزل صاحبه ، وأنتم اليوم تتكلمون ، كل واحد يريد أن يزل صاحبه فكأنه أراد أن يكفر ، ومن أراد أن يكفر صاحبه فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه » .

و « ورد في « التترخانية » في كراهية جماعة الاشتغال بعلم الكلام ، قال : وتأويله عندنا أن كره المناظرة والمجادلة لأنها تؤدي إلى إثارة الفتن والبدع وتشويش العقائد » .

و « عن أبي يوسف رحمه الله أنه لا تجوز الصلاة خلف المتكلم ، وإن تكلم بحق فهو مبتدع ، ولا تجوز الصلاة خلف المبتدع ، فعرضت هذه الرواية على أستاذي ، فقال : تأويله ألا يكون غرضه إظهار الحق » .

و « أما الإمام مالك فقد قال : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء ، قال بعض أصحابه : أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا » .

و « أما الإمام الشافعي رحمه الله فقد روي عنه أنه قال : لو يعلم الناس ما في علم الكلام من الأهواء لفرّوا منه فرارهم من الأسد ... وقال أيضاً : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد وأن يطاف بهم في العشائر والقبائل ، هذا جزاء من ترك السنة وأخذ في الكلام ، وقال أيضاً : إذا سمعتَ الرجل يقول : الاسم هو المسمى أو غيره فاشهد أنه من أهل الكلام ولا دين له ، وقال أيضاً : قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ، ولأن يلقى العبد بكل ما نهى الله عنه خلا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام » .

و « أما الإمام أحمد رحمه الله فقد قال : لا يفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا نرى أحداً ينظر في الكلام إلا وفي قلبه مرض ، وبالغ في ذمه حتى هجر

الحارث المحاسبي مع زهده وورعه لتصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة وقال له : ويحك ، ألست تحكي بدعتهم أولاً وترد عليهم؟ ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالب كلام أهل البدعة والتفكر فيه فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث ، وقال أحمد أيضاً : علماء الكلام زنادقة » .

وهذه الأقوال التي ذكرها مؤلف مفتاح السعادة عن هؤلاء الأئمة والتي نسبها إليهم تؤكد أن مقصدهم هو التمسك الحق بالكتاب والسنة ، وانتهاج نهج الرسول ﷺ وصحابته ، والتنزه عن الجدل والبحث والتفلسف في ذات الله وصفاته .

وإذا اشتد هؤلاء الأئمة على المتكلمين فهم على حق ، لأنهم رأوا أن الكلام قد خرج عن نهج القرآن والسنة إلى الفلسفة التي لا خير فيها إذا أخضعنا الدين لها ، لأن الفلسفة آراء اجتهادية لفلاسفة وثنيين ، ومن كان منهم معترفاً بالوحدانية فليست هي بوحدانية القرآن ، ومن الفرض تنزيه الدين عن تعقيدات الفلاسفة والتركيب المنطقي ، لأن الإسلام دين سمح سهل لكافة الناس ، فإذا زاغ أصحاب العلم والمعرفة والثقافة الواسعة كالمعتزلة وضلّوا السبيل فغير من في طبقتهم أشدُّ زيغاً .

أما انتهاج الإمامين الأشعري والماتريدي سبيل الكلام فلم يكن الدافع إليه هو دافع المتكلمين ، بل كان القصد منه حراسة الدين وحماية المسلمين ، وتفنيد المنطق الكلامي بمنطق مثله ، فالحديد لا يفلُّه إلا الحديد ، والشوكة لا تخرجها إلا شوكة .

وليس عمل الأشعري والماتريدي مما يتصل بعلم الكلام المحرم ، بل هو عمل صالح أريد به حَطْم ضلال المتكلمين ممن أخضعوا الدين للفلسفة التي أخذوها عن اليونان وغيرهم .

ويقول صاحب مفتاح العلوم ٢ : ٢٩ : أما الكلام الــذي ظهر في العصر الأخير بالمساعي الجميلة من جهة أبي الحسن الأشعري فكل الغرض فيه موافقة

الكتاب والسنة ، واقتداء أهل السنة والجماعة ، فكيف يسوغ القول بحرمته أو كراهته » .

ويقول في الجزء الثاني صفحة ٣١ – ٣٢ : « إن إنكار السلف لا ينبغي أن يكون على كلام الأشاعرة والماتريدية ، بل على كلام الفلاسفة وأهل الاعتزال وعلى كلام أهل الجدال بالباطل ، إذ الكلام الشائع في زمان الأئمة المجتهدين هو كلام أهل الاعتزال والإرجاء وأمثالهما ، وأما كلام أهل السنة والجماعة فقد حدث بعد انقراضهم بزمان كثير .

« وتفصيل ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا في زمن النبي ﷺ على عقيدة واحدة ، لأنهم أدركوا زمالة الوحي وشرف صحبة صاحبه ، وأزال نور الصحبة عنهم ظلم الشكوك والأوهام ، وهكذا إلى انقراض زمن الصحابة رضي الله عنهم .

« ولما مضى العلماء الذين يرجَع إليهم في المضائق ترأس الناس كلهم لائقاً وغير لائق ، وأفتَوا بغير علم فضلوا وأضلوا ، ولما صار حدود المئة من الهجرة ، وانقضى الصدر الأول من الصحابة ظهر بين الناس الجدال والمراء والعصبية والهوى ، وظهر تشويش عقائد المسلمين ، وخرمُ نظام الدين ، وتشعبُ مسالك الإسلام » .

فعلم الكلام المكروه أو المحرم هو الذي غيَّر منهج الإسلام والرسول وصحابته والتابعين والسلف الصالح إلى الجدل الفلسفي الذي أضل الناس عن سبيل الرشاد ، أما التوحيد الحق أو البحث الحق فليس من الكلام المحرم ، لأن هذا سبيل الغي والضلال ، وذلك سبيل الحق والهدى .

وزعم زاعمون لم يفهموا الإسلام على حقه أن هذه العصور التي غشيها من علم الكلام ما غشيها هي عصور النهضة إنما هو زعم باطل ، لأن الباحثين من الفلاسفة المسلمين والمتكلمين غيَّروا النهج المحمديَّ كل التغيير ، ونقلوا

العقيدة من القرآن الكريم والسنة الشريفة إلى مباحث الفلسفة والمنطق فأفسدوا العقيدة الصحيحة .

وسحرت الفلسفة اليونانية ألباب بعض علماء المسلمين وقد وفدت إليهم هذه الفلسفة بشروح مدرسة الإسكندرية وغيرها ، لأن العالم الإسلامي كان قد شمل البقاع التي زخرت بالفلسفات ، ألا وهي فارس والعراق والشام ومصر ، وكانت إلى جانب ذلك زاخرة بالمذاهب الدينية المسيحية واليهودية أو الفرق التي افترقت إليها المسيحية واليهودية ، بجانب الملل والنحل الأخرى كالزرادشتية والصابئية .

ولم تكن فارس مقصورة على فلسفتهما وديانتهما ، بل عرفت الأفلاطونية الحديثة ، بل يرجع ترحاب فارس بفلسفة اليونان إلى عهد أسبق من الإسلام ، فعندما أغلق جوستنيان مدرسة أثينا الفلسفية سنة ٥٢٩ م هرب سبعة من مدرسة الأفلاطونية الحديثة استقبلهم أنوشروان استقبالاً حسناً ، ولبثوا ببلاده عشرين عاماً مكرمين أحراراً حتى غادروه إلى وطنهم في سنة ٥٤٩ م .

وكان بفارس في عهد أنو شروان بعض علماء المسيحيين من النسطوريين واليعاقبة ، وكانوا مكرمين معززين .

وأثر وجود هؤلاء وأولئك في الحياة الثقافية الفارسية ، وكذلك الأمر في الشام والعراق، فقد عرف هذان الإقليمان فلسفة اليونان وبخاصة الأفلاطونية الحديثة المترجمة على أيدي السريان الألى استخدموا الفلسفة الأفلاطونية الحديثة في قضايا العقيدة وبحوثهم الدينية .

وقد تأثرت اليهودية والمسيحية بفلسفة اليونان ، ودخلت في عقائد المسيحيين واليهود ، وامتزجت بعقائدهم .

وعندما انتقلت الفلسفة إلى الأقطار الإسلامية — وبخاصة منذ عهد المأمون— وجدت حفاوة وترحاباً ، وترجمت كتب أرسطو وأفلاطون وغيرهما ،

ولم تقتصر الترجمة على كتب الطب والهندسة والرياضيات ، بل ترجمت كتب فيما وراء الطبيعة وفي الإلهيات والمنطق ، وبذلت الحكومة والأفراد بسخاء من أجل نقل الكتب اليونانية إلى العربية .

وهذا الموقف الإسلامي من الفلسفة اليونانية يناقض موقف المسلمين وثقافة الأمم الداخلة في حوزته ، ففي عهد عمر بن الخطاب كان العداء شديداً للثقافة الأجنبية ، وهو عداء طبيعي ، لأنها ثقافة وثنية ، وثقافة الإسلام قائمة على التوحيد الحق .

فعندما فتح المسلمون فارس كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر — رضي الله عنهما — يسترئيه في كتب فارس التي غنموها ، فكتب إليه عمر أن يلقيها في الماء أو النار ، فإن كان ما فيها باطلاً فقد كفى الله ، وإن كان فيها هدى فقد وفق الله لأهدى منه ، فلا ضرورة إليه [1] .

إنهما موقفان متناقضان ، فعمر يتجهم لكتب فارس لأن ما في القرآن والسنة يغني كل الغناء عن غيرهما في أمور الدين والعقيدة ، أما إذا كان بها ما يفيد من أمور الدنيا كالصناعات والدواوين فلا يعاديها ابن الخطاب لأنه نقل ما أفاد منه في سياسة الأمة كما رضي الرسول ﷺ بنقل ما فيه الخير عند ما أذن لتميم الداري بإنارة مسجد المدينة وعمل منبر له بها عندما رأى ذلك في كنائس الشام .

والفتنة بالفلسفة اليونانية لم تكن مقصورة على من تثقفوا ثقافة دنيوية ، أو كانوا ذوي رقة في الدين ، بل كان المثقفون من مفكري الإسلام والأئمة في علومه مفتونين بتلك الفلسفة ، فهذا الإمام ابن حزم الأندلسي الفقيه المعروف يقول في كتابه العظيم « الفِصَل في الملل والأهواء والنحل » [1] ١ : ٧٩ ما نصه :

« الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه بتعلمها

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٤ طبعة بيروت .

ليس هو شيئاً غير إصلاح النفس بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في المعاد، وحسن سياستها في المنزل والرعية ، وهذا نفسه لا غيره هو الغ ض من الشريعة ، هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة » .

وليس ابن حزم على حق في هذه الدعوى ، فما غرض الشريعة والفلسفة واحداً ، وليس سبيلهما واحداً ، بل لكل منهما تعريفه الخاص ، ونتائجه الخاصة ، ولم يقل علماء الشريعة ما قاله علماء الفلسفة ، ودعواه أنه لا خلاف بين أحد من هؤلاء ليست صحيحة ، بل ما أشد الخلاف بين الفلسفة والشريعة وأصحابهما ، وإذا بدا أن هناك نقاط لقاء فليس معناه أنه لا خلاف بينهما .

وكيف فات ابن حزم وهو الإمام البحاثة أن الفاسفة اليونانية أفسدت العقيدة الإسلامية حينما اتخذها بعض العلماء المسلمين منهجهم في بحث العقيدة .

وعلى أي حال فليس مقصدنا بحث الخلاف بين الشريعة والفلسفة ، بل الإشارة إلى حفاوة رجال من مفكري المسلمين الكبار بالفلسفة اليونانية ، وفيهم فقهاء مثل ابن حزم الظاهري الأندلسي .

وزعم أبو حيان التوحيدي في كتابه « المقابسات » (١) : « إذا انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال » .

ويقول في صفحة ٢٠٠ «هل الحكمة إلا مولدة الديانة ؟ وهل الديانه إلا متممة للحكمة ؟ وهل الفلسفة إلا صورة النفس ؟ وهل الديانة إلا سيرة النفس » .

ولعل مرد حفاوة هؤلاء العلماء من مفكري الإسلام بالفلسفة اليونانية وافتتانهم بها هو المنقول إليهم نقلاً غير أمين وغير دقيق في الأساس ، لأن ما نقل إليهم كان عن طريق مدرسة الإسكندرية المتدينة ، ومانقلوه كان

(١) صفحة ٤٥ طبعة المطبعة الرحمانية بالقاهرة .

مصبوغاً بالصبغة الدينية الصوفية ، وغلبت على الترجمة النزعة الدينية الصوفية فحسبوا أن غرض الفلسفة والشريعة واحد .

وما تُرجم من كتب أرسطو في عهد المنصور أحدث في الجو العلميّ العربي إشراقاً جديداً بهر الأنظار ، إذ لم يكن للعرب عهد بمثل هذا المنطق المحدد ، فلما عرفوه في بعض كتب المنطق التي ألفها أرسطو تهافتوا عليه وفتنوا به .

ترجم عبد الله بن المقفع لأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي بعض كتب منطق أرسطو ، منها : كتاب « فاطيغورياس » وعرب الاسم دون أن يترجمه ، ومعناه : المقولات، وكتاب « بارى أرمنياس » ومعناه : العبارة ، وكتاب « أنالوطيقا » ومعناه : « التحليلات الأولى أو القياس » .

وما كاد العرب يطّلعون على كتب أرسطو في المنطق حتى بهرهم ما فيها وأكبروا علم اليونان واعتقدوا برجاحته ، وأيقنوا بعصمة الحكمة اليونانية وصواب المنطق اليوناني ، فقلدوا أرسطو في منطقه ونقلوا مصطلحات الفلسفة وتعبيراتها إلى الدين بعد أن ذهبوا إلى وحدة الدين والفلسفة بوحدة غرضيهما كما زعم ابن حزم .

ونظرية أرسطو في الصورة والهيولى (المادة) ومغايرة الله للعالم ونظرية الوحدانية وغيرها من أرائه ونظرياته فيما وراء الطبيعة والإلهيات حملت المتكلمين وغيرهم من فلاسفة الإسلام على أن يتخذوا أدلة أرسطو أدلتهم ، وينقلوا منطقه إلى موضوع التوحيد فيثبتون به ما يريدون إثباته لله من صفات ، وينفون به ما يريدون نفيه من الصفات .

ولم يقتصر أخذ فلسفة أرسطو على فرقة معينة خاصة ، بل أثرت فلسفته في كثير من الفرق ، وعلى سبيل المثال نذكر المعتزلة الذين انكبّوا على الفلسفة اليونانية فنقلوا عنها نظريات فلاسفة اليونان في الوجود المطلق ، والعالم ، والصورة والهيولى ، والجزء الذي لا يتجزأ ، والحركة والسكون ، والجوهر

والعرَض ، والموجود والمعدوم ، والمحرِّك الأول ، والمبدأ الأول ، ووحدانية الوجود المطلق ، وأرادوا أن يوفقوا بين الإسلام وفلسفة اليونان واستخدام أدلتها في الإثبات والنفي ضد من يخالفون المعتزلة .

ونجد فيما نقل عن أقطاب المعتزلة مصطلحات الفلسفة اليونانية واستعمالها في كتاباتهم وأقوالهم كما نجدها عند غيرهم من المفكرين الإسلاميين وعلى سبيل المثال ننقل عن ابن حزم الفقيه ، وابن سينا الفياسوف مثلاً من أقوالهما برهاناً على تأثر المفكرين الإسلاميين من فقهاء وفلاسفة ، وبرهاناً على شيوع التأثر .

يقول ابن حزم رحمه الله [1] :

« ان الأزلي هو الذي لم يجب بشيء هو مطلق ، أي بل هو مطلق ، فالأزلي لا قبل لهويته ، فالأزلي هو لا قوامة من غيره ، هو لا علة له ولا موضوع ولا فاعل له ولا سبب ، أعني ما من أجله كان ، فلا جنس له ، لأنه إن كان له جنس فهو نوع ، والنوع مركب من جنسه العام له ولغيره ، ومن فصل ليس في غيره ، فله موضوع هو الجنس القابل لصورته وصورة غيره ، ومحمول هو الصورة الخاصية له دون غيره ، فالنوع كله موضوع ومحمول ، فالأزلي لا يفسد ، لأن الفساد إنما هو تبديل المحمول لا الحامل الأول ، فأما الحامل الأول الذي هو الأيس فليس يتبدل ، فإنما يتبدل بضده الأقرب معه في جنس واحد كالحرارة إلى البرودة ، لا بالأبعد من المقابلة كالحرارة باليبس ، أو بالحلاوة أو بالطول ، والأضواء المتقاربة هي في جنس واحد ، فالفاسد جنس ، والأزلي لا جنس له ، فهو لا يتبدل ولا ينتقل من نقص إلى تمام ، لأن الانتقال استحالة ، وهو لا يستحيل ، والتام هو الذي ليست له حالة ثابتة يكون بها فاضلاً ، والناقص هو الذي له حال

(١) صفحة ١٩٤ من كتاب « الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى » لابن حزم الأندلسي ، تحقيق الدكتور إحسان عباس بجامعة الخرطوم .

أخرى يكون بها فاضلاً ، والأزلي لا يمكن أن يكون ناقصاً ، لأنه لا يمكن أن ينتقل إلى حال يكون بها فاضلاً ، لأنه لا يمكن أن يستحيل بتة ، فالأزلي تام اضطراراً ، وإذا كان الأزلي لا جنس له ، فما له جنس وأنواع غير أزلي فالجرم لا أزلي » الخ .

ويقول ابن سينا [1] :

« لا شك أن هنا موجوداً ، فهذا الموجود إذا نظرنا إليه في العقل من حيث هو موجود بقطع النظر عن تحققه في فرد من أفراده ، فلا يخلو إما أن يكون وجوده من ذاته فيكون واجب الوجود ، أو من غيره وحينئذ فلا يكون واجباً بالضرورة ، وهو مع ذلك غير ممتنع ، لأن الممتنع لا يوجد ، فبقي أنه ممكن ، أي لا يستحيل وجوده وعدمه ، بل الطرفان مستويان بالنسبة إليه ، وما استوى طرفاه لا يخرج إلى الوجود إلا بمرجح ، فهذا المرجح إما أن يكون وجوده من ذاته فيكون واجب الوجود ، أو من غيره فيكون ممكن الوجود ، وحينئذ يعود الكلام فيه ، فإما أن تنتهي إلى مرجح واجب الوجود ، أو يتسلسل الأمر في العلل والمعلولات الممكنه إلى غير نهاية أو يدور ، ولكن التسلسل والدور باطلان ، فلم يبق إلا الانتهاء إلى مرجح واجب الوجود .

واذن ، فمن معنى الوجود الذي لا شك في تحقيقه لا بد أن نصل إلى الاعتقاد بوجود واجب الوجود ، وهو الله سبحانه وتعالى » .

والمسلم لم يكن في حاجة إلى هذا الأسلوب المعقد الذي اتخذه ابن حزم وابن سينا في التكلم في «الله» لأنه فُهِم من القرآن أن الله هو الأول ، وفُهِم منه أنه لا شريك له في ذاته وصفاته ، وأنه الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء ولا كفء له .

وليس اتخاذ هذا الأسلوب الفلسفي إظهاراً لمزايا العقيدة الإسلامية وشرحاً

---

(١) صفحة ٨٩ من كتاب « ابن سينا بين الدين والفلسفة » للأستاذ حمودة غواية .

لغوامضها ، لأن العرب فهموا من التوحيد ما أراد لهم القرآن والحديث أن يفهموه ، ووجدوا بين أيديهم كلاماً سهلاً مفهوماً لا تعقيد فيه ، فهو لم يكن في حاجة إلى بحث فلسفي عندما تلوا قول الله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلـد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ليفهم معـنى هذه الآيات المحكمات ، بل فهم بفطرته ومن دعوة الرسول ﷺ أن الله أحد مقصود من الخلق طُرّاً لأنه رب العالمين ، وليس له ولد لأنه منزّه عن اتخاذ الصاحبة ، ولم يولد لأنه الأول بلا بداية ، إذ لو ولد من أبوين أو من أم لكان من وُلد منه هو الأول ، وتعالى الله أن يكون قد سبقه شيء ، ومادام الأمر كذلك – وهو الحق – فلا كفء له .

لم يكن المسلم في العصر الأول في حاجة إلى « واجب الوجود » وأمثاله من المصطلحات وبحوث الفلاسفة والمتكلمين التي لا تشرح ما غمض وتبين ما خفي ، بل هي التعقيد والإبهام والغموض ، وكأنها كتبت بلغة غريبة على العرب وعن العربية ، ولو أن صحابياً جليلاً كأبي هريرة أو أبي سعيد الخدري قرأ ما كتبه المتكلمون ممن تضيّفوا الفلسفة اليونانية لما أدرك من معانيه شيئاً ، ولعله حسب لغة غير لغة القرآن : العربية ، بل ما يقرأ ليس من لغة القرآن ولا من أسلوبه .

ولم تكن العقيدة الإسلامية لفئة خاصة أو لطبقة معينة من الناس كالفلاسفة وقرائهم حتى تتخذ لغة كلغاتهم ومصطلحات كمصطلحاتهم ، بل هي للناس جميعاً ، وليس الناس جميعاً ذوي ثقافة عالية وعقلية فلسفية ، فوجب أن تكون اللغة التي تعبر عن العقيدة وتنقل معانيها لغة سهلة واضحة ، لا اللغة التي يتخذها هؤلاء الفلاسفة والمتكلمون مما لا يفهمه غير الشواذ .

وغموض بحوث هؤلاء المتكلمين والفلاسفة لم يَحُل دون إحداث الأثر السيء في العامة ، فقد تفلسف متكلمة المعتزلة في العقيدة وقالوا بخلق القرآن ، وحملوا السلطة الحاكمة على تأييد نظريتهم بعد اعتناقها إياها فجعلوا تعلمها في منهج التعليم المدرسي ، وفرضوا تعلمها على الصبية والأطفال ومن هم أكبر منهم في صفوف العلم .

وفهموا بحسب مواهبهم أن القرآن مخلوق ، ولم يكن في وسع الطلاب أن يدركوا أن كلام الله موصوف ببعض صفاته ، وليس مخلوقاً ، ولم يدركوا الفارق بين ما هو مخلوق وغير مخلوق بالنسبة لكلام الله ، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى عقيدتهم التي ورثوها وتلقوها بالنسبة للقرآن .

واضطر أهل السنة إلى اصطناع أسلوب الفلاسفة المتكلمين لسببين :

الأول : الرد على ما كان في أقوالهم من كفر أو بدعة أو شبهة أو زندقة أو ضلالة رغبة في دحضها أو رغبة في هداية أصحابها أو الرجاء في الرغبتين معاً .

والثاني : أن كثيراً من القراء سحرتهم الدعاية التي بثها المتكلمون والفلاسفة للفلسفة والكلام فاتخذوا أسلوبهما ليزاحموهم في كتاباتهم رجاء صرف القراء عما لا يتفق مع الإسلام إلى ما يتفق معه .

ولهذا اضطر الأشعري والماتريدي والغزالي إلى اتخاذ أسلوب المتكلمين والفلاسفة للرد والتفنيد والدحض .

والأشعري كان من متكلمة المعتزلة ، والغزالي كان من الفلاسفة ، ولكن الله هداهما إلى الرشد ، فاتخذ الأشعري أسلوب المعتزلة ومنطقهم في تزييف حججهم ودحض أباطيل الفرق الأخرى الضالة ، كما اتخذ الغزالي أسلوب الفلسفة في نقض الفلسفة .

وحجة الإسلام الإمام الغزالي أقوى مفكر إسلامي أظهر تهافت الفلاسفة وأبان فساد مذاهبهم وبطلان أقوالهم ، لأنه هو نفسه فيلسوف وعالم بالفلسفة ودارس نظرياتها بحيث لم يعرف تاريخ الإسلام مثله ، ولهذا كان نقده الفلسفة وأصحابها قائماً على الفهم والدراسة والاستيعاب ، ولم ينظر إلى الفلسفة في نقضها من وجهة نظر الإسلام ، بل نظر إليها من وجهة نظر الفلسفة كما يفهمها هو ، وكانت وجهة نظره متفقة مع الحق ، والحق دائماً مع الإسلام ، والإسلام دائماً مع الحق .

يقول الغزالي في كتابه « تهافت الفلاسفة » [1] :

« إني قد رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التمييز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء ، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات ، واستحقروا شعائر الدين : من وظائف الصلوات ، والتوقي من المحظورات ، واستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده ، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده ، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون ، يتبعون فيها رهطاً يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون ، ولا مستند لكفرهم غير تقليد سماعي إلفي ، كتقليد اليهود والنصارى ، إذ جرى على دين الإسلام نشؤهم وأولادهم ، وعليه درج آباؤهم وأجدادهم ، وغير بحث نظري صادر عن التعثر بأذيال الشُّبه الصارفة عن صوب الصواب ، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السراب ، كما اتفق لطوائف من النظار في البحث عن العقائد والآراء من أهل البدع والأهواء .

« وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة كسقراط وأبقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس وأمثالهم ، وأطناب طوائف من متبعيهم وضلاّلهم في وصف عقولهم وحسن أصولهم ودقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية ، واستبدادهم — لفرط الذكاء والفطنة — باستخراج تلك الأمور الخفية ، وحكايتهم عنهم أنهم — مع رزانة عقولهم وغزارة فضلهم — منكرون للشرائع والنِّحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة .

« فلما قرع ذلك سمعهم ، ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم تجملوا باعتقاد الكفر تحيزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم ، وانخراطاً في سلكهم ، وترفعاً عن مسايرة الجماهير والدهماء ، واستنكافاً من القناعة بأديان الآباء ظناً منهم بأن

---

(١) صفحة ٧١ — ٧٣ وهو تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، طبع دار المعارف بالقاهرة .

إظهار التكايس في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمال ، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد عن تقليد خرق وخبال .

« فأية رتبة في عالم الله أخسّ من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليداً بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقاً ، دون أن يقبلة خبراً وتحقيقاً ، والبُله من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة . فليس في سجيتهم حب التكايس بالتشبه بذوي الضلالات ، فالبلاهة أوفى إلى الخلاص من فطانة بتراء ، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرة حولاء .

« فلما رأيت هذا العرق من الحماقة نابضاً على هؤلاء الأغبياء ، انتدبت لتحرير هذا الكتاب ، رداً على الفلاسفة القدماء ، مبيناً تهافت عقيدتهم ، وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالإلهيات وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراته التي هي على التحقيق مضاحك العقلاء ، وعبرة عند الأذكياء أعني ما اختصوا به عن الجماهير والدهماء من فنون العقائد والآراء .

« هذا من حكاية مذهبهم على وجهه ، ليتبين هؤلاء الملاحدة تقليد اتفاق كل مرموق من الأوائل والأواخر على الإيمان بالله واليوم الآخر ، وإن الاختلافات راجعة إلى تفاصيل خارجة عن هذين القطبين اللذين لأجلهما بعث الأنبياء المؤيدون بالمعجزات وأنه لم يذهب إلى إنكارهما إلا شرذمة يسيرة من ذوي العقول المنكوسة ، والآراء المعكوسة ، الذين لا يؤبه لهم ، ولا يعبأ بهم فيما بين النظار ، ولا يعدون إلا من زمرة الشياطين الأشرار ، وغمار الأغبياء والأغمار ، ليكف عن غلوائه من يظن أن التجمل بالكفر تقليداً يدل على حسن رأيه ، ويشعر بفطنته وذكائه ، إذ يتحقق أن هؤلاء الذين يتشبه بهم من زعماء الفلاسفة ورؤسائهم براء عما قذفوا به من جحد الشرائع ، وأنهم مؤمنون بالله ، ومصدقون برسله ، وانهم اختبطوا في تفاصيل بعد هذه الأصول قد زلوا فيها فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل .

«ونحن نكشف عن فنون ما انخدعوا به من التخابيل والأباطيل، ونبين أن

كل ذلك تهويل ، ما وراءه تحصيل ، والله تعالى ولي التوفيق ، لإظهار ما قصدناه من التحقيق » .

وفي كتاب « تهافت الفلاسفة » رد على ابن سينا والفارابي وغيرهما ، وإذا كان هؤلاء اتخذوا الفلسفة في البحث في الله والوحدانية والوجود والعدم ، وفي القدم والحدوث ، وفي أبحاث الفلسفة الأخرى فإن الإمام الغزالي اتخذ الفلسفة في هدم الفلسفة ، وإذا كان أولئك اتخذوا العقل اعتمادهم فإن الغزالي اتخذه اعتماده في نقض آرائهم نقضاً علمياً ، وأقام نقده كله على العقل والحجة والبرهان .

والحق ، أن تاريخ الفلسفة — وليس تاريخ الفلسفة الإسلامية — لم يعرف فيلسوفاً أحاط بنظريات الفلاسفة والفلسفة ونقدهم ونقض آراءهم ونظرياتهم بالعقل والحق والحجة والبرهان والفلسفة مثل الإمام الغزالي .

ونحن نسمي ما رآه الفلاسفة فلسفة ونقد الغزالي فلسفة باعتبار أن ما ذهبوا إليه متفق فيه أنه فلسفة ، وباعتبار أن ما ذهب الغزالي إليه فلسفة هو فهمنا أن الفلسفة — بالنسبة للغزالي — كانت « العمليات الفكرية والمحاولات العقلية التي يراد بها التوصل إلى الحق والاهتداء إلى الصواب » [1] .

ويجب ألا ننسى مفكراً إسلامياً كبيراً وهو الإمام ابن تيمية الذي وقف في وجه كل البدع سواء أكانت بدع المتكلمين أم بدع الفلاسفة أم بدع المتصوفة وغيرهم ممن رأوا آراء تغاير مذهب السلف وأهل السنة والجماعة .

وهناك فارق بين الغزالي وابن تيمية ، فالغزالي في مجال الفلسفة أقوى وأقدر وأفهم ، وابن تيمية في مجال الكتاب والسنة أعلم ، وان كان الغزالي من فقهاء الإسلام الأعلام ومن العلماء الأئمة في الكتاب والسنة ، وإن كان ابن تيمية ممن نقدوا المنطق اليوناني ونقضوا الفلسفة التي اصطنعها بعض مفكري الإسلام .

---

(١) مقدمة « تهافت الفلاسفة » التي كتبها محققه الدكتور سليمان دنيا صفحة ١٧ .

وتصدى ابن تيمية للمتكلمين والفلاسفة بمذهب أهل السنة القائم على الكتاب والحديث ، وقدّم صحيح المنقول على صريح المعقول ، وإن لم يكن مغفلاً إياه في الاستدلال ، ولكن الغالب هو الحكم ، وكان يؤثر النقل كل الإيثار .

وفي كثير من ردود ابن تيمية كثير من الفلسفة ومصطلحاتها ، وفي رده في « الرسالة التدمرية » أصطنع المنطق اليوناني الذي حمل عليه وعاداه . ولكنه ليس اصطناع تقليد بل اصطناع منهج .

وطريقة ابن تيمية تخالف طريق الغزالي ، فابن تيمية شديد التقيد بالكتاب والسنة ، لا يصدر إلا منهما ، وهو الحق ، والغزالي يتخذ الفلسفة والعقل لأنه يرد على أناس يتخذونهما ولا يرون لغيرهما حجة وفضلاً ، فهو يضرب خصومهم بأسلحتهم ومنطقهم .

وطريقة ابن تيمية هي التي دفعته إلى إعلان الحرب على من زعموا « أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم » فهويرى — وهو الحق — أن مذهب السلف أسلم وأعلم وأعلى وأحكم ، ويرد على دعوى الخلف رداً قوياً عنيفاً في الرسالة الحموية [1] إذ يقول :

« ولا يجوز — أيضاً — أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما قد يقوله بعض الأغبياء ممن لا يعرف قدر السلف ، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها من أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم ، وإن كانت هذه العبارة إذا صدرت من بعض العلماء قد يعني بها معنى صحيحاً فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين الذين

(١) صفحة ٤ — ٥ طبعة المطبعة السلفية بمكة المكرمة حرسها الله .

قال الله فيهم : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب ﴾ وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المعروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات .

« فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالات التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر ، وقد كذبوا على طريقة السلف ، وضلوا في تصويب طريقة الخلف .

« وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة التي شاركوا فيها إخوانهم من الكافرين ، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر وكان مع ذلك لا بد للنصوص من معنى بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى – وهي التي يسمونها طريقة السلف – وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع من التكليف ،وهي التي يسمونها طريقة الخلف – فصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل والكفر بالسمع ، فإن النفي إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ظنوها بينات ، وهي شبهات،

« والسمع ، حرفوا فيه الكلم عن مواضعه ، فلما انبنى أمرهم عل هاتين المقدمتين الكفريتين الكاذبتين كانت النتيجة استجهال السابقين الأولين واستبلاههم واعتقاد أنهم كانوا قوماً أميين بمنزلة الصالحين من العامة لم يتبحروا في حقائق العلم بالله ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله .

« ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة، بل في غاية الضلال » .

ويقول في صفحة ٦ – ٧ : « لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن » .

و « هؤلاء المتكلمون المخالفون للسلف إذا حقق عليهم الأمر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر ،ولا وقعوا من ذلك على عين ولا أثر ،

كيف يكون هؤلاء المحجوبون المفضولون المسبوقون الحيارى المتهوّكون أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى ومصابيح الدجى ، الذين بهم قام الكتاب ، وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب ، وبه نطقوا ، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم ، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة » .

ويقول : « إن الضلال والتهوّك إنما استولى على كثير من المتأخرين بنبذهم كتاب الله وراء ظهورهم ، وإعراضهم عما بعث الله به محمداً ﷺ من البينات والهدى ، وتركهم البحث عن طريق السابقين والتابعين ، والتماسهم علم معرفة الله ممن لم يعرف الله بإقرارة على نفسه، وبشهادة الأمة على ذلك وبدلالات كثيرة » .

وإذا كان للمعتزلة والمرجئة والجبرية والشيعة وغيرهم من الفِرق فلسفاتهم وآراؤهم في التوحيد وأقسامه أو فيما عرف بعلم الكلام وفي تفسير القرآن الكريم فإن للصوفية طريقتهم في ذلك كله .

وكل فرقة تخضع كتاب الله لمذهبها ، وتفسره على طريقتها ، وتتفلسف في ذات الله وفي أسمائه الحسنى وصفاته المثلى بحسب رأيها ، مخالفة بذلك أهل السنة والجماعة .

ولم يسلم عصر من العصور من فِرق وأناس يتناولون القرآن ببدعْ من التفسير والتأويل والاستنباط ، وتحميل آياته من المعاني والدلالات ما لا يتفق مع الحق ، وأدخلوا الخرافات والاختراعات في تفسير القرآن ،ووصفوا الملائكة وصفاً دقيقاً وكأنهم أصحابهم وعشراؤهم ، وتحدثوا في الغيب ووصفوا الغيبيات كالميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة وكأنهم شهدوه وأخذوه

من الوحي ، فصوروه كالميزان القديم بكفتين ، مع أن الموازين تطورت ونسي الناس ذلك الميزان القديم .

وطريقة السلف في العقائد كانت أسلم وأحكم ، فحصروها في دائرة ضيقة حتى لا تشغل العقل ببحوث لا تجديه ، لأنه مهما بلغ من التقدم والسمو فلن يستطيع تصوُّر تلك الغيبيات على حقيقتها ، واشتغال العقل ببحث العقائد يفسده ويضله كما رأينا في الفِرق الكثيرة التي ضلت طريق الحق .

إن السلف تقيدوا بالقرآن والحديث في العقائد ، وفهموا القضاء والقدر – مثلاً – كما أراد رسول الإسلام ، فلما تراجعوا في بحث القدر غضب عليهم الرسول ﷺ ومنعهم من بحثه والخوض فيه ، وجلد عمرُ الرجل الذي سوغ جريمة السرقة التي ارتكبها بأن قضى الله ، فبقي الفهم الإسلامي لدى المسلمين للعقائد سليماً ، حتى إذا ترك المسلمون سنة رسول الله ﷺ وبحثوا في العقائد كان الضلال والفُرقة والزيغ والكفر والإلحاد والحرب بين المسلمين أنفسهم حرب ما تزال مشتعلة حتى اليوم .

ورأينا فيما سلف من فصول هذا الكتاب نموذجاً من الخلاف العقائدي بين المسلمين في مسألة القضاء والقدر ، ولم نذكر آراء بقية الفرق اكتفاء بما ذكرنا .

ونقول : طريقة السلف أسلم وأحكم لأنهم سلموا من الجدل والوقوع في الخطل والزلل ، فعاشوا في أمن وسلام ، لأنهم لم يزيدوا في العقيدة شيئاً ، واعتنقوها كما تلقوها ، أما الشريعة فقد توسعوا فيها كل التوسع ، واجتهدوا فيها أعظم الاجتهاد ، فنما الفقه الإسلامي وساير التقدم الفكري والحضاري ، ولم تضق الشريعة بالثقافة العالية والحضارة الراقية ، والتقدم الطافر ، والفرق بين المتكلمين والفلاسفة وبين الفقهاء أئمة المذاهب الفقهية من أهل السنة والجماعة أن هؤلاء اتبعوا ما أنزل الله ، وأولئك لم يتبعوه إلا ندرة من المؤمنين .

وطريقة الخلف عكست الآية فاضطربت الموازين واختلت المقاييس ، فوسَّعوا ما أمروا بتركه على حاله ، وفصَّلوا ما كان مجملاً وضيقوا ما كان واسعاً ، فتجنوا على العقيـــدة بإخفاء لبابها وراء تلال من قشور البحوث الفلسفية والكلامية ، وتجنوا على الشريعة بتجميدها وحجْر واسعها ومنع الاجتهاد فيهـــا ، وإغلاق أبوابه مما نجم عنه الخلل الذي أضاع ملامح المجتمع الإسلامي وقوض أسسه وأعاد إليه حياة الجاهلية ، وأعان خصوم الإسلام على التحكم في العالم الإسلامي واستعماره وسلبه ، والمسلمون مشغولون بالترهات والأباطيل .

وانتهى الأمر بالإسلام في جميع الأقطار الإسلامية إلى عزله في المعبد فصار لا يحكم به ، وألغيت شريعته ، واستبدل بها غيرها من قوانين الأعداء .

وإذا كنا نلقي التبعة على الاستعمار فما حجتنا بعد أن استقلت البلدان الاسلامية وتحررت ؟ إن الإسلام ما يزال معزولاً عن الحكم والتشريع ، بل زاد حكام البلاد الإسلامية من الذين يحملون أسماء إسلامية في حصار الإسلام وخنقه وحبسه بعد العزل ، بل كان للشريعة الإسلامية بعض الحكم في عهود الإستعمار ، ولكن الحكام المسلمين أزالوا ما كان الاستعمار تركه .

بل نجد في مصر – عل سبيل المثال – حرباً معلنة على الإسلام ، مع أن مصر بلد مسلم وشعبها شعب مسلم ، وكانت قلعة من قلاع الإسلام الكبرى القوية في عهود الاستعمار ، فإذا مصر الإسلامية تتبدل ، ونسمع حواراً في الجامعة في الله ، وليس الحوار خلافاً في فهم ذاته وصفاته وأسمائه ، بل الحوار في إنكار وجود الله .

هذا في مصر ، في الجامعة المصرية التي تجمع نفقاتها من شعب مصر المسلم.

وفي صحف مصر ضلال وكفر وإلحاد ، وتباهٍ وافتخار بالإلحاد ، ودعوة إلى المروق من الإسلام والخروج عليه ، وتشبيهٌ لإيمان المسلم الحق بفزع الكلب حين يجد بين عينيه ورقة طائرة .

وإذا كان هذا في مصر قلعة الإسلام فما القول في غيرها ؟ .

وإلى جانب هذا نجد اتجاهاً آخر يشبه اتجاه الخلف الذين سلفوا من الفرق الضالة المبتدعة والكافرة ، وهذا الاتجاه الآخر لم يكن عن سوء نية بل عن حسن نية ، وعن رغبة في الخير ، وتأكيد لمبدأ صلاح الإسلام لكل زمان ومكان ، ولمبدأ حَوَاية القرآن لعلوم الأولينَ والآخرين ، أليس الله أصدقُ القائلين يقول : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ فكل نظريات العلم الحديث يجب أن يكون في القرآن ، ويجب أن يكون القرآن قد سبق أصحابها إليها ، وإن كنا لم نفطن — بعد — إلى ما يحوي القرآن من هذه النظريات العلمية .

وليس من يتجهون هذا الاتجاه بكافرين ، بل هم مخلصون في عقيدتهم ، ومجتهدون في مذهبهم ، وما قصدوا إلا الطيب من القول والحسن من الفعل .

وأصحاب هذا الاتجاه اطلعوا على شيء من ثقافة الغرب ونظرياته في العلوم المختلفة وفي الصحة وفي الفنون ، وأرادوا أن يرفعوا من شأن القرآن وشأن الإسلام فيأتوا في تفسير آياته بالفتح المبتكر فيبدأوا عهداً جديداً بأن يعلنوا بما حسبوه دليلاً أن القرآن سبق أصحاب النظريات العلمية إليها ، وظنوا أو اعتقدوا أنهم افتتحوا في القرآن فتحاً جديداً .

فإذا رأوا آية كونية هتفوا : ما أعظم القرآن الكريم ، ها هوذا يسبق علماء الكونيات في نظريتهم الجديدة ، وكذلك في الفلسفة وغيرها ، وفي الذرة وعلومها .

هذا الاتجاه في تفسير القرآن في عصرنا مصدره تمجيد القرآن وإعلان سبقه عصر العلم والذرة والصواريخ برد بعض النظريات العلمية والفلسفية إلى كتاب الله ليؤكدوا بالأدلة هذا السبق .

ومن الأمثلة على هذا الاتجاه تفسير بعض المحدثين قول الله تعالى :

﴿ فارْتَقبْ يومَ تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾[1] بالغازات السامة التي اخترعوها ، وزعموا أن القرآن سبق هذا الكشف العلمي وهذا الاختراع الرهيب ، فما هذا الغاز السام أو الخانق الا دخان، وهو عذاب أليم ، فالدخان الذي يغشى الناس يوم القيامة إنما هو من قبيل هذه الغازات .

ولو تأملوا ما بعد الآيتين لوضح لهم أن ما يحسبونه واقعاً يوم القيامة ليس كما حسبوا لأنه وقع في الحياة الدنيا ، فالله تعالى يقول : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا أكشف عنا العذاب إنا مؤمنون * أنى لهم الذكرى وقد جاء هم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلَّم مجنون * إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون * يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ .

فالدخان الذي يغشى الناس ليس حدثاً من أحداث يوم القيامة . بل هو من حوادث الدنيا لأن الله وعد بكشفه في قوله : ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلاً ﴾.

وقد حدث في عهد الصحابة في القرن الأول أن مفسراً فسر الدخان المبين بأنه يقع يوم القيامة ويأخذ بأنفاس الناس ، وعلم الصحابي الجليل عبد الله ابن مسعود بذلك فاستنكر تفسيره وقال : إنما كان هذا لأن قريشاً استعصوا على النبي ﷺ فدعا عليهم بسنين كسنيّ يوسف ، فأصابهم قحط وجَهِدوا منه أشد الجهد حتى أكلوا العظام ، فكان الرجل منهم إذا نظر إلى السماء رأى ما يشبه الدخان من الجوع والجهد .

ومن هؤلاء الكاتبين الذين فسروا بعض آي الذكر الحكيم على ضوء النظريات العلمية مؤلف كتاب « الله والعلم الحديث » أراد أن يوفق بين القرآن وبعض نظريات العلم الحديث فحسب أنه فتح في تفسير كتاب الله

---

(١) الدخان : ١٠ - ١١ .

جديداً بما صنع ، وحمّل القرآن ما لا يحتمل، وساق كلامه مساق التأكيد، غافلاً أن هذه النظريات لم يزل بعضها تحت التجربة ، و بعضها فروض علمية لم تتحقق في عالم الواقع بعد ، وبعضها أوهام وليس علماً .

وأحدث ظهور الكتاب في طبعته الأولى ضجيجاً في الصحافة العربية — أي في صحافة العالم العربي — وفرح المسلمون من العامة والخاصة بهذا الفتح الجديد، وقالوا : ما أعظم القرآن ، ها هوذا كتاب الله الذي لم يفرط فيه من شيء سبق العلمَ الحديث إلى نظرياته .

ولكن ، في خضم هذا الضجيج ارتفعت أصوات مفكرين كبار تنكر هذا الاتجاه الجديد في تفسير القرآن الكريم ، ومنهم العقاد ومحمود شلتوت ومحمد البهي وغيرهم .

يقول مؤلف كتاب « الله والعلم الحديث » في صفحة ٢٤٨ — ٢٤٩ تحت عنوان « بقاء الروح » ما نصه : —

« يقول المولى سبحانه وتعالى في سورة الفجر :

﴿ يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي ﴾ .

« أي أن النفس أو الروح بعد الموت سترجع إلى ربها ، فإن كانت مطمئنة ستكون راضية مرضية ، والرضى الذي ستشعر به يفيد إحساسها أي بقاءها بعد الموت ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ وذلك في سورة آل عمران .

« وهذه الآيات توضح بلا شك أن أرواح من ماتوا في سبيل الله حية عند ربهم فرحة برزق الله وفضله .

« ويقول عز القائل في سورة الأنعام : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ .

« أي أن الموتى يباشرون حياة أخرى فور موتهم ، فالظالمون عند موتهم تقول لهم الملائكة : اليوم ستنالون جزاء أعمالكم ، أي أن أرواحهم ستعذب من يوم خروجها . فماذا يا ترى يقول العلم ؟

يقرر العلم الحديث أنه ثبت ثبوتاً تاماً في معامل الجامعات أن الروح بعد أن تغادر جسدها لها كيانها الأثيري ، والمؤلفات التي كتبت في هذا الشأن كثيرة ومتعددة ، وكلها تجمع على أن الروح باقية ، وأن الحياة متواصلة بعد الموت ، وأن ما نسميه موتاً إنما هو تطور اقتضته محكمة الخبير العليم » .

وما ذكره المؤلف غير صحيح ، فما في وسع معامل الجامعات أن تأتي بالروح إليها لتجري عليها تجاربها فتخرج منها بهذه النتيجة العلمية : أن للروح كياناً أثيرياً .

وجاء كاتب آخر وكتب مقالاً نشرته مجلة « الأزهر » [1] وذكر في الروح قوله « إن الروح وإن كانت أمراً إلهياً لا يدرك له كنه ، إلا أن لها جسداً أثيرياً على صورة صاحبها غاية في اللطافة ، لا يعتريه البِلى والتحلل في قدرتها أن تستبدل مادة من الخارج ، وأن تظهر بصورة صاحبها في أحوال خاصة ، ويكون صاحبها إذ ذاك واقعاً في غيبوبة » .

والأثير الذي قصده الكاتبان كما تذكره المعجمات العلمية الفلكية والفيزيقية : وسط فرضي ينقل الضوء والحرارة ، ويملأ جميع الفراغات خفي ، عديم الرائحة ، لا يتدخل في حركة الأجسام خلال الفضاء وينكر

(١) المجلد الحادي عشر ، الجزء العاشر ، صفحة ٦٢٥ .

الكثيرون وجوده المادي [1] .

إن الأثير كان فرضاً من الفروض العلمية ، فتفسير الروح بانه « جسم أثيري » غير صحيح ، فالأثير قد أنكر وجوده المادي كثيرون ، كما أنكر علماء وجود الأثير نفسه ، وأن حقيقة الروح مجهولة منا نحن البشر ، فإذا عجز العلم عن معرفة حقيقة الكهرباء التي نحسها ونلمس آثارها ونستخدمها في مصالحنا ، وإذا عجز العلم عن معرفة كثير من أمور الذرة التي استطاع العلم فلْقها وحطْمها فإنه عاجز عن الوصول إلى معرفة حقيقتها وجوهرها وكنهها .

والتسرع في إلقاء القول في مثل هذه الأمور بصورة الجزم والتأكيد أو في صورة الثقة أو الطمأنينة من حيث صحة تلك الأقوال ليس من العلم في شيء ، ثم إنه ليس من خدمة القرآن إخضاعه لمثل هذه الاتجاهات أو تفسير آياته على هذا النحو ، لأن النظريات العلمية تتغير ، بل إن بعضها يبطل ، وما أكثر النظريات التي كانت في عداد الحقائق وثبت بطلانها مثل من قالوا منذ قرون أن الأرض ثابتة ، وأنها مسطحة ، وليست على هيئة الكرة .

ونعود إلى كتاب « الله والعلم الحديث » لنأخذ منه مثلاً آخر ، فقد جاء فيه (ص ١٧٣ — ١٧٥) تحت عنوان « خلق الأرض » الآية الكريمة : ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رَتْقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ .

وعقب المؤلف على هذه الآية بقوله : « لعل هذه إحدى الآيات البينات التي تثبت أن القرآن الكريم هو كتاب منزّل لا يمكن أن يرقى إليه شك ، وأنه إثبات على وجود الله بمـــا لا يُقبل معه ظن ، فقد اختلفت الآراء العلمية منذ قديم الأزل على كيفية نشوء الأرض حتّى وصل العلماء أخيراً بعد البحوث

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة طبعة القاهرة ، ١٩٦٥ م .

المضنية التي قامت بها كافة الدول مجندة جهابذة العلم والعلماء ، وبعد الاختراعات العجيبة للمراصد والمجاهر وتقدم أبحاث الجيولوجيا والتحاليل الأرضية إلى النظرية الصحيحة لخلق الأرض ، وسميت بنظرية «لابلاس» ، هذه النظرية قررت أن الأرض والشمس ومختلف الكواكب والأجرام إنما كانت سديماً في الفضاء .

« وأن الأرض انفصلت عن هذا السديم ، وتؤيد هذه النظرية أدلة كثيرة ، منها : شدة حرارة باطن الأرض إذ ترتفع درجة حرارتها درجة واحدة كلما نزلنا إلى باطنها ثلاثة وثلاثين متراً أي بعد ثلاثين كيلومتراً تزيد درجة باطن الارض عن قشرتها ألف درجة مئوية .

« ومن هذه الأدلة أيضاً : البراكين التي تظهر وتشاهد في أنحاء شتى من الكرة الأرضية ، والتي هي عبارة عن ضعف في القشرة الأرضية ، تغلبت عليه الأبخرة والغازات الملتهبة في جوف الأرض فشقت لها طريقاً منشئة فوهة بركان تقذف منه الحمم الذائبة على ارتفاع شاهق ، ولمدد طويلة ، ومما يؤكد حرارة باطن الأرض كذلك العيون الأرضية ذات الماء الساخن والعيون الغائرة ذات الماء الشديد الحرارة .

« وبتقدم العلم أمكن معرفة العناصر المكونة للشمس بتحليل الطيف ، فلكل عنصر عند احتراقه لون خاص به ، فوجد أنها تتكون من نفس العناصر التي تتكون منها الأرض ، بل اكتشفت عناصر في الشمس قبل اكتشاف وجودها في الأرض .

وبذلك قرر العلم أن الأرض والشمس والنجوم أي السماء والأرض وما فيهما إنما كانت سديماً انفصل إلى أجزاء ، وقد سبق القرآن هذا العلم بعشرات المئات [1] من السنين » .

---

(١) لم يمض على نزول القرآن غير عشر مئة وبضع مئة من السنين ، ولا يقال « عشرات المئات » إلا إذا بلغ العدد آلافاً .

ومؤلف كتاب « الله والعلم الحديث » لم يفهم النظرية السديمية على وجهها الصحيح ، والنظرية ما تزال فرضاً لم ينته القول فيها ، وليس كل علماء الطبيعة والفلك يرون ذلك ، بل منهم من يراه ومنهم من يعارض ، والنظرية قائمة على الفرض الذي يذهب إلى نشأة المنظومات الفلكية كلها من السديم ذي الحرارة الشديدة الذي تختلف درجة حرارته فيصيبه التشقق أو الانفصال بعضه عن بعض بفعل التمدد فيه ، فتدور الأجرام الصغيرة منه حول الأجرام الكبيرة ، ومن ذلك التشقق أو الانفصال والدوران تنشأ المنظومات الشمسية وغيرها .

ولعل الأوفق أن ننقل ما جاء في « الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٨٣٩ في النظرية السديمية ليكون القارىء على علم بها من مصدر علمي موثوق به :

« النظرية السديمية : فرض يفسر ترتيب وحركة أفراد المجموعة الشمسية، اقترحه في القرن ١٨ سويدنبرج ، وكانت ، ووضعه لا بلاس في قالب علمي، والنظرية تفترض أن المجموعة الشمسية كانت سديماً شديد الحرارة يدور حول نفسه ببطء ، ثم برد تدريجياً نتيجة لفقدان الحرارة بالإشعاع ، فانكمش وازدادت سرعته ، وفرض لابلاس أنه بمرور الوقت أصبحت القوة الطاردة المركزية عند خط الاستواء إلى الخارج مساوية لقوة الجاذبية إلى الداخل ، ثم انفصلت حلقة غازية ، وأصبح السديم الرئيسي متزناً ، ثم انكمش لتنفصل منه حلقة أخرى ، وهكذا .

« وأخيراً تحولت كل حلقة — بطريقة ما — إلى كتلة كبيرة ، أخذت تنكمش لتكوّن الكواكب .

« أما ما بقي من السديم الرئيسي فقد تحول إلى شمس .

« ولكن الميكانيكية الحديثة أثارت الاعتراضات بأن الحلقات المذكورة لا تكتمل ، بل تكون عدداً كبيراً من الأجرام الصغيرة، وكذلك يزيد الزخم الزاوي للكواكب عن الزخم الزاوي للشمس » .

ونظرية « لابلاس » التي يهتف بها مؤلف كتاب « الله والعلم الحديث » ويسرع بها إلى القرآن يؤيده بها ويجعله مصداقها قد أكل عليها الدهر وشرب ، ولا يقول أحد اليوم : إن هذه النظرية تنطبق على المنظومة الشمسية ، ولعل في الشاهد الذي ذكرناه الغناء كل الغناء . ومع هذا نقدم له ما يقوله أحد المختصين ، وهو الدكتور ج . و. جينز في بحث علمي كتبه بعنوان « مولد العلم ، بيان ما يقدمه علم الفلك وعلم الطبيعيات من التفسير العقلي لنشأة الأرض » .

والدكتور جينز مؤلف كتاب « مسائل خلق الكون وحركة الأجرام الخ » وعضو الجمعية الملكية وأمينها بلندن .

يقول : « المنهج الوحيد الذي يبقى لنا — إذن — هو البحث العلمي المجرد ، فالأجرام الفلكية كلها خاضعة للقوانين الفيزيقية والآلية العامة ، فلو استطعنا ان نعين تعييناً صحيحاً الكيان الحالي لإحدى المنظومات الفلكية فإن هذه القوانين تتيح لنا استقصاء تاريخها إلى غير حد من جهتَي المستقبل والماضي ، وهذا هو المنهج الواجب التعويل عليه حتى في وقتنا الحاضر ، ولكننا قبل أن نعرض لمناحي التطبيق الحديث لهذا المنهج ينبغي أن نبحث فيما أفاده منه « لابلاس » Laplace حين وضع نظريته الفرضية المشهورة عن السديم في عام ١٧٩٦ .

« وكان لابلاس لا يعرف عن الشمس أكثر من أنها تشع الحرارة ، وأن ما يطرأ على سطحها من الكلف والتضاريس وما إلى ذلك من الظواهر يدل على أن طبقاتها الخارجية على الأقل غازية ، وتذهب القوانين العامة في الفيزيقا إلى أن النجم إذا كان غازياً بعضه أو كله لا يمكن أن يستمر في إشعاع الحرارة دون أن يطرأ عليه تغير في تكوينه ، واعتقد لابلاس أن إشعاع الحرارة لا بد أن يصحبه تقلص فأدى به ذلك إلى القول بأن الشمس كانت في الأزمنة الأولى أكبر جرماً منها الآن ومن ثم تمثل الشمس الأولى سديماً هائلاً أو سحابة غازية بلغ أضعاف جرمها الحالي ألوف المرات » .

ويقول : « ولهذا تصور لابلاس أن سديمه الأول كان شديد البطء في دورانه ، ولكن هنـــاك مبدأ آلياً معروفاً هو مبدأ « بقـــاء كمية التحرك الزاويّة » Conservation of Angular Momentum القائل بأن الجسم كلما انكمش زادت سرعة دورانه زيادة مستمرة ، ومن ثم فإن لابلاس وهو يتصور سديمه هائل الجرم شديد البطء في الدوران كان يذهب إلى أن سرعة دورانه ازدادت تدريجياً ، حتى إذا صار قطر السديم بقدر قطر فلك نبتيون تقريباً كان السديم يدور بتلك السرعة الحرجة التي يتم بها دورة في كل ١٦٥ سنة ، وإذ ذاك تطايرت حلقة من مادته وتكون منها في آخر الأمر كوكب نبتيون وهو دائر منذ ذلك الحين ، وفي نفس المكان ، وبنفس السرعة تقريباً ».

ويقول : « ولئن كان فرض لابلاس لم يوفق إلى تفسير وجود الأرض فقد ثبت أن العملية التي تصورها من أهم ما عرفه علم الفلك النظري ، وأن لها نظائر تعد بالألوف في كافة أرجاء السماء ، وكل مثال منها أعظم مدى من كل ما تصوره لابلاس ، فثمة سدم لا عداد لها تدور بأسرع ما يمكن معه تماسكها ، ولذلك يتناثر عنها من خطوط استوائها رشاش من المادة ، إلا أن النطاق الذي تجري فيه العملية من العظم والاتساع بحيث لا ينجم عنها أسر من السيارات ، بل جحافل من النجوم ، وعلى هذا النحو كان مولد شمسنا ، فنحن نرى أن لابلاس كان يحاول الاهتداء إلى سر مولد الوليد (الأرض) فاهتدى — وهو لا يعلم — إلى حل مشكلة مولد الوالد (الشمس) ».

ويقول تحت رسمين كتب تحت أحدهما : « الغرض السديمي الذي افترضه لابلاس » ، وتحت الثاني « نظرية فلكي فرنسي جاء تفسيرها لظواهر الطبيعة أوسع مدى مما تصور » .

« ومن النظريات الفرضية فيما بعد بطلانها ما يكون أجدى على العلم أحياناً من البحث الذي لم يتطرق الخيال إليه ، فقد أخرج لنا لابلاس فرضاً افترضه لتعليل تطور المنظومة الشمسية، فذهب إلى أن الأصل فيها سحابة هائلة من الغاز المتوهج ، وكلما فقدت حرارتها انكمشت ، وكلما انكمشت زادت

سرعة دورانها ، وقد تناثر عنها في اللحظات الفاصلة بفعل القوة المركزية الطاردة حلقات من المادة تكثفت فأصبحت هي الكواكب السيارة وما بقي منها فهو شمسنا . ولا يقول أحد اليوم بأن هذه النظرية تنطبق على المنظومة الشمسية ولكننا لو زدنا حجم السديم ألف مليون مرة لأمكن أن توضح لنا هذه الصفحة مولد مجموعة من النجوم »[1] .

ومؤلف كتاب « الله والعلم الحديث » جهل العلم الحديث والقرآن معاً ، وهو إنشائي في كتابته ، مسرف في المبالغة ، يلقي القول على عواهنه ، فهو يقول في الفقرات التي استشهدنا بها من كتابه : « قد اختلفت الآراء العلمية منذ قديم الأزل على كيفية نشوء الأرض حتى وصل العلماء أخيراً بعد البحوث المضنية التي قامت بها كافة الدول مجندة جهابذة العلم والعلماء الخ ».

أصحيح ما زعمه ؟ أصحيح اختلاف الآراء العلمية منذ قديم الأزل ، أكانت في قديم الأزل للناس آراء علمية ؟ أصحيح أن كافة الدول جندت جهابذة العلم والعلماء ؟ .

الجواب على كل ذلك النفي القاطع .

وهذا المؤلف وأمثاله كلما رأوا آية فيها لفظ صرخوا : هذا هو القرآن يسبق العلم الحديث كأن القرآن مدونة أو كتاب يحوي نظريات العلم الحديث وتطوره .

وهؤلاء المحدثون مخطئون كزملائهم في القديم ، ويجب تنزيه كتاب الله الكريم عن اجتهاداتهم التي تسيء إليه ؛ لأن النظريات العلمية تختلف باختلاف الأزمنة ، ومنها ما لا يزال موضع الجدل ، ومنها بطلانه ، فإذا فسرنا القرآن على طريقتهم ، وزعمنا أن القرآن سبق النظرية السديمية لأنه جاء بها

---

(١) تاريخ العالم ، الترجمة العربية ، المجلد الاول راجع المبحث كله الذي استشهدنا ببضع الفقرات منه في الصفحات من ٥٠ — ٨٤ .

قبل أصحابها ، ثم ظهر بطلانها فإننا نكون قد عرضنا كتاب الله للبطلان والتكذيب .

والفريضة المقدسة التي أمرنا بها من قبل القرآن أن نجعله إمامنا ، لأنه الهدى والنور ، أن نتلقى منه الهداية ، ونهتدي بنوره ، ولا نتخذ القرآن بحيث يضرب بعضه بعضاً ، وأن نقدسه بتنزيهه عن إنزاله من مكانه الرفيع إلى ميدان النظريات العلمية التي لم ينقطع فيها القول فنعرضه للتقلب مع هذه النظريات ، أو للتكذيب أو الاتهام بما لا يليق من التكذيب .

والشيء الذي نقوله في القرآن ونحن مطمئنون : إنه كتاب العقيدة الإنسانية ، لم يفرط في شيء من أمرها ، ولم يذكر ما يصدم الحقيقة العلمية ، أو يأمر بوقف كل ألوان النشاط الجسدي والعقلي ، وكل الطاقات والقوى التي تسعد الإنسان وتزيد في نعمته بما خلق الله ، بل يحث العقل على التأمل ، ويحث الإنسان على العلم النافع والعمل الصالح الذي يوجه النشاط والطاقات والقوى إلى الخير .

ووراء التأمل الذي يحث عليه القرآن أن يزداد المتأمل إيماناً بالله وقدرته وقوته ورحمته ، وأن يعمل الخير لنفسه وللدنيا ويكف عن الشر .

وخير للمسلم الحق ألا يتلاعب بالقرآن وأن ينزهه من كل ما يضرب بعضه بعضاً ، ومن كل ما قد ينجم عنه تعريضه لما لا يجوز أو يحسن .

ويجب ألا نخرج الإسلام عن طريقه القويم ، وألا ندخل إليه ما يعد غريباً عليه ، كما فعلت الفرق في مسألة القضاء والقدر وفي الذات الإلهية وفي الأسماء، وفي الصفات وفي السمعيات ، وفي العقيدة عامة ، حتى خرج منها من خرج على طريقة السلف الصالح أهل السنة والجماعة ، وحتى ضلّ منها من ضل ، وكفر منها من كفر ، وأدخلوا في الإسلام من عقائد الوثنية الباطلة ونظريات الفلاسفة وزعموا أنها من الإسلام عقيدة وإيماناً ، مثل نظرية وحدة الوجود والحلول ، والتناسخ ، والشرك ، وتأليه بعض من خلق وجعله شريكاً لله في الألوهية ، ونفي أحاطة علم الله بالجزئيات ، وأن لا عمل له بعد أن خلق

الخلق ، ونظرية قدم العالم مع وجود الصانع (أي الله عز وجل) ونظرية قدم العالم مع نفي الصانع ، والنظريات اللاهوتية الأخرى التي نراها في المسيحية واليهودية والزرادشتية والبرهمية وغيرها .

وكل هذا باطل ليس من الإسلام في شيء ولا يرضى به ، بل ينفيه ويحاربه ، ويمنع من الزيادة في العقيدة التي نص عليها الكتاب والسنة ، كما يمنع من الخوض فيها إيثاراً للسلامة والأمن وحماية للنفس من الضلال أو الكفر .

وإذا كنا قد عكسنا الآية فزدنا في العقيدة السهلة البسيطة وعقدناها ، وفصلنا مجملها تفصيلاً ينكره القرآن الكريم والحديث الشريف بعد أن أمرنا ألا نزيد في العقيدة وألا نخوض فيها ، وحجزنا الواسع فيما أباح الله لنا في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ . وذلك في أمر الشريعة ، وأغلقنا فيها باب الأجتهاد لنفتح في العقيدة كل أبواب الاجتهاد الذي خرج عن الاجتهاد الشرعي الحق إلى البدعة الضالة المنكرة حتى انتهى بناء الأمر إلى إلغاء الشريعة الإسلامية كلها إلغاء بحيث لا يحكم بها في جميع أقطار الإسلام ، وإلى إباحة البدع في بحث العقيدة فإن علينا أن نعود إلى الإسلام دين الله السمح فنعتنقه بحقه اعتناقاً صحيحاً سليماً .

وفهم الإسلام على سوائه ، واعتناقه بحقه يفرضان علينا أن نبقي العقيدة كما أنزلت ، لأنه ليس من حقنا أن نزيد فيها ونضيف إليها ، وأن نتبع شرع الله حق الاتباع ، ونفيد من إباحته لنا أن نزيد فيه ونضيف إليه ما نحن في حاجة إليه إذا كان ما نزيد فيه ونضيف إليه عدلاً قائماً على الأصول ، لأن كل ما هو عدل ، وكل ما هو خير هو الإسلام ومن الإسلام في الصميم .

إن الله عز وجل يقول في محكم كتابه : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ فكل ما كان عدلاً فهو من أمر الله ، والعدل في حقيقته الخير ، لأن فيه بواعث الخير والانتهاء إليه .

وأما ما كان خيراً فهو من الإسلام في الصميم ، ولدينا الأدلة التي يكفي

منها أن نأخذ واحداً منها على سبيل المثال ، فيه شاهد الاجتهاد المباح ، وفيه من إباحة الإجتهاد والرأي ما داما يقصدان إلى الخير ما لا حدّ له لسعته .

المسلمون جميعاً يقفون من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد بن حارثة موقف التكريم والتبجيل ، لأن الله كرمهم ، ورسول الله رفعهم مكاناً عالياً، ومات رسول الله وهو راضٍ عنهم ، فعملهم في الإسلام حجة ، ورأيهم في الاجتهاد مقبول ، وهو شرع من شرع الله ، فإذا أجمع القرن الأول للإسلام على كلمة واحدة فقد أصبح الإجماع حجة مضافة إلى الحجج الأخرى .

في صحيح البخاري ٦ : ٧١ (١) : « أخبرنا شعيب عن الزهري قال : أخبرني ابن السبّاق (٢) : أن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه — وكان ممن يكتب الوحي — قال : أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وإني لأرى أن تجمع القرآن ، قال أبو بكر : قلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ، فقال عمر : هو — والله — خير ، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد بن ثابت — وعمر عنده جالس لا يتكلم— فقال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ، ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن ، فاجمعه ، فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ ؟ فقال أبو بكر : هو — والله — خير ، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من

---

(١) طبعة بولاق .

(٢) في فتح الباري شرح صحيح البخاري : عبيد بن السباق — بفتح السين وتشديد الباء — مدني يكنى أبا سعد ذكره مسلم في الطبقة الأولى من التابعين .

الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجد هما مع أحد غيره : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ﴾ إلى آخرهما ، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر » .

هذا الحديث الشريف يؤكدلنا قيمة الرأي الذي يقوم على الخير ويحققه ، كما يؤكد ضرورة الاجتهاد الحق .

وقد سبق لي بحث هذا الحديث في كتابنا « الإسلام طريقنا إلى الحياة »[1] وقلت في التعليق عليه :

« إن هذا الحديث الشريف وضع لنا ميزاناً صحيحاً لوزن الأمور كلها وهو « الخير » فهو مردها وحاكمها .

« هو والله خير » ميزان الإسلام .

« ومادام أكرم الصحابة وأفضلهم أقدموا على فعل ما لم يفعله النبي لأنه خير فما الذي يمنعنا من عمل كله خير لم يمنعه الرسول الأكرم .

« وما دام هناك سعة فلماذا نحجر واسعاً ؟ » الخ .

والواجب على مسلمي اليوم أن يتركوا الخوض في العقيدة ويقنعوا فيها بما قنع به أصحاب محمد عليه صلوات الله وسلامه ، ويسكتوا عما سكتوا عنه ، وأن يسعهم ما وسعهم ، ويتجهوا إلى الشريعة التي أباح الله ورسوله فيها « الرأي » والزيادة والإضافة بما يتفق مع مقاصد الشريعة الإسلامية السمحة .

إن الإسلام كله شريعة وعقيدة في كلمات ثلاث : الإيمان بالله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وفي حدود هذه المبادىء يمكن عمل كل

---

(١) صفحة ٢٧٨ .

شيء مما لم يفعله رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين والسلف الصالح رحمهم الله .

ولنتبع طريق الإسلام الحق ، فهو الذي يفضي بنا إلى مرضاة الله ، ومرضاة الله عز وجل تقضي بنا إلى الخير كله ، ولنكن كما وصف القرآن أمة محمد الصالحة المؤمنة في آياته البينات إذ قال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

صدق الله العظيم ، وصدق نبيه الكريم ، وصدق الله إذ يقول في محكم كتابه : ﴿ ومن يبتغ ِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ .

ولكن جدّ للإسلام عدو هو أخطر أعدائه طراً ، ذلك هو المذهب الشيوعي الهدام الذي تمطى على بعض البلدان العربية المسلمة ثم طواه في كفره وباطله .

وكلنا يعرف أن الشيوعية تنكر وجود الله ، وتجحد رسالات السماء ، وتنكر الرسل والأنبياء ، وتكذبهم وتسخر بهم أشد السخرية والتكذيب .

ومعروف أن الشيوعية والاشتراكية تترادفان في مؤلفات أئمة الشيوعية ، ومع هذا زعموا أن الاشتراكية هي الإسلام ، وهذا الزعم باطل وكفر وتضليل ، مع أن الاشتراكية كفر لئيم ، والإسلام إيمان بالله حق ، فكيف يكونان شيئاً واحداً ؟

عقائد ليست إسلامية

في الإسلام كما في غيره من الديانات فرق كثيرة ومنها فرق لا تعد خارجة من الإسلام ، وأخرى خارجة عنه ، وهي كثيرة لا يمكن في هذا المبحث استقصاؤها ، بل لا ضرورة له ويكفي أن نشير إلى بعضها ، وما نتركه لا يخرج ما نذكر عن الوثنية .

وهذه الفرق تظهر في ثوب الإسلام ، وأهلها يدّعونه ، والحق أن نحلَهم ليست إسلامية ، وهم ليسوا مسلمين ، بل هم وثنيون ، وبعض النحل ملتقى لأبشع العقائد وأحطّ الأعمال مثل الباطنية التي عرفت بأسماء مختلفة بحسب البيئات التي ظهرت فيها .

ونبدأ بالديانة أو النِّحلة التي سماها صاحبها « التوحيد الإلهي » وهي ديانة وثنية خليط من بعض نظريات الإسلام وغيره من الديانات ، ونقصد بهذا ديانة السلطان المغولي « أكبر » .

وأكبر لقبه ، واسمه جلال الدين ، وكنيته أبو الفتح (١٥٤٣ – ١٦١٥ م [1]) وهو من أعظم أباطرة المغول الذين حكموا الهند ،

---

(١) سنة ٩٤٩ – ١٠١٤ هـ .

وحكم سنة ١٥٥٥ م [1] إلى أن توفي سنة ١٦٠٥ م وكان شديد العناية بالعلوم والآداب والفنون والفلسفات ، وشغل نفسه باللاهوت من حيث هو لاهوت ، دون أن يقيد نفسه بدين ، والإسلام الذي كان متديناً به تحرر منه بدين ابتكره وسماه « التوحيد الإلهي » و «أكبر» أمّي لا يقرأ ولا يكتب ، ولقي تمجيد الغربيين والمستشرقين وهتافهم باسمه ما لم يلقهما غيره إلا قليلاً ، فقد مجدوا أكبر أعظم تمجيد لأنه ملك قوي مسلم خرج على الإسلام وحطّمَه حطْماً ، فهم يمجدونه لأنهم أعداء الإسلام وهذا عدو الإسلام مثلهم ، وإنه ليسعدهم كل ما يضعف الإسلام والمسلمين ، ويهتفون باسم كل من يزلزل قواعد الإسلام ، ومن هنا ظفر « أكبر » بتمجيد الغربيين والمستشرقين . وندرك من خلال تمجيدهم ديانة أكبر .

يقول جولدزيهر في كتابه العقيدة والشريعة [2] » ٢٥٦ ـــ ٢٥٨ :

« إن الفرصة التي أتاحتها البلاد الهندية للنظر في الأديان نظراً مقارناً قد اتخذت ذريعة لابتداع مذاهب دينية جديدة ، وبما أننا نؤرخ للديانة الإسلامية علينا أن نخص بالذكر أحد هذه المذاهب الذي كان وحي الخاطر والتأمل ، والذي كان ثمرة التفكير في جملة الديانات الكثيرة المزدهرة التي اكتظت بها بلاد الهند .

ومؤسس هذا المذهب هو الملك الهندي أبو الفتح جلال الدين الذي اشتهر في التاريخ بلقبه الجليل « أكبر » الذي وجد في الآداب الأوربية من يترجم ويؤرخ لعهده ، وذلك بالكتاب الذي وضعه في سنة ١٨٨١ « فردريك أغسطس الشلزفيجي الهولشتيني » كونت « نوير » كما عني بدرسه الأستاذ « جاربه Garbe » في خطاب العمادة الذي ألقاه بجامعة « توبنجن » بل إن « ماكس مولر » أطرى كثيراً الأمبراطور أكبر لأنه أول من عني بدراسة علم الأديان

(١) سنة ٩٦٣ هـ .

(٢) ترجمة محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الخالق وعلي حسن عبد القادر .

المقارنة ، وعلى كل حال فقد مهد له طريق الدراسة « أبو الفضل العلاّمي » الذي أصبح وزيره فيما بعد ، والذي ألف في تمجيد مليكه كتاب « أكبر نامه » .

« وقد سبق أبو الفضل الأمبراطور « أكبر » في بحث الملل والنحل المختلفة ، وأكب على دراستها ، وكان يتوق إلى إيجاد عقيده تتخطى حدود الإسلام ومعالمه ، ولكن « أكبر » كان لديه وحده القدرة بصفته حاكماً لدولة كبيرة وطيدة الأركان أن يخرج إلى حيز العمل مشروعاً دينياً هو وليد الدراسة المقارنة للإديان .

« ومهما بدا من قلة استعداد « أكبر » لإدراك مسائل الثقافة العالمية بسبب نقص تعليمه الابتدائي فإن هذا الأمبراطور المغولي العظيم سليل أسرة تيمورلنك التي حكمت من سنة ١٥٢٧ م إلى سنة ١٧٠٧ ، والذي يعد حكمه أزهى عصور الحضارة الإسلامية في الهند ، ترتبط باسمه إحدى الحوادث الهامة في تاريخ الإسلام الهندي التي حدثت في أواخر القرن السادس عشر ، فقد سبق لهذا الأمير الموهوب أن أبدى اهتمامه بتفهم البواعث النفسية العميقة التي تحمل الإنسان على التدين ، وتجلى إحساسه بهذه البواعث التي كان ينشدها « هاريداسا Haridâsa » المطرب الهندي بصوته العذب الرخيم .

« ونجم عن هذه الحالة النفسية التي ملكت مشاعر « أكبر » أنه انتهز هذه الفرصة العجيبة التي أتاحتها له الديانات المتعددة في أمبراطوريته ، فجد في الاستزادة من دراستها مستعيناً بفقهاء كل ملة في استجلاء تعاليمها المختلفة .

« وقد تسنى له في المناقشات التي عقدها أن يكوّن في ذهنه رأياً فيما يفصل بينها من الفروق الدقيقة ، وفي قيمة كل ملة ونحلة بالنسبة لغيرها ، وسرعان ما تزعزع إيمانه بفضل ديانته الخاصة وهي الإسلام على غيرها من الديانات مع أنه ظل مؤمناً بالعقائد الصوفية الإسلامية التي كان يدفعه وجدانه إلى التعلق بها .

« وبينما قد حقق « أكبر » لذوي الملل والنحل المختلفة في امبراطوريته الشاسعة حرية تعبدية لاحد لها – وذلك حوالى سنة ١٥٧٨ – نراه قد صور مذهباً دينياً جديداً يتصل في ظاهره بالإسلام ، ولكنه في جوهره وحقيقته يقضي عليه قضاء مبرماً ، واستعان الأمبراطور بحقه في استصدار فتاوى من العلماء المجتهدين ، وحمل طائفة من علماء البلاط الخاضعين له على إقرار مذهبه الديني الجديد الذي جرد فيه شعائر الإسلام وعقائده من معانيها ومقاصدها ، وأوجد مكانها كأساس للديانة الأمبراطورية فلسفة عقلية خلقية سماها « توحيد إلهي » ووصلت في ذروتها إلى النظرية الصوفية وهي اتحاد النفس البشرية بالذات الإلهية .

« ويلاحظ في عبادات المذهب الجديد ما كان لمستشاري الأمبراطور من الزرادشتيين من أثر قوي عليه ، وهم بقايا أصحاب الديانة الزرادشتية التي لما اشتد اضطهادها في وطنها الفارسي نزحت إلى بلاد الهند ورقشت فسيفساء الديانة الهندية ، وزادت من تنوع ألوانها .

« وكذلك من العسير أن نغفل السمة البارزة في ديانة « أكبر » الذي جعل نفسه كاهنها الأعظم ، وهي عبادة النور والشمس والنار .

« ديانة أكبر » لا يمكن أن تسمى إصلاحاً ولكنها تعد نفياً وإنكاراً للإسلام وخروجاً على تقاليده خروجاً قاطعاً لم يقوَ على مثله مذهب الإسماعيلية . غير أنا لا نلاحظ أنه كان لها أثر عميق في تطور الإسلام .

« ويبدو أنها لم تتخط بيئة الأمبراطور والطبقة العالية المستنيرة ، فضلاً عن أنها لم تعش بعد وفاة مؤسسها .

« وكما هو الحال في العصور القديمة عندما قام الفرعون المستنير أمنحتب الرابع بإصلاح الديانة المصرية وبقي هذا الإصلاح قائماً ما بقي هو في الحكم ، ثم تلاشى بعد موته وعادت الديانة القديمة المتوارثة إلى مكانتها الأولى ، كذلك كان حال الديانة الجديدة التي أوجدها أكبر ، فإنها لم تعش بعد انقضاء حكمه ،

واستعاد الإسلام السني وحدته السالفة ونفوذه السابق بعد وفاة أكبر سنة ١٦٠٥ على الرغم مما صادفه من العقبات اليسيرة بسبب الموقف العدائي للإسلام الذي وقفه ابنه وخليفته « جاهانجير Djahângir » ولم يطلق على « أكبر » أنه الرائد الأول في تحقيق الآمال التي ترمي إلى التقريب بين البرهمية والزرداشتية والإسلام إلا خلال الحركات العقلية الأخيرة والنزعات الفكرية الحرة التي دعا إليها متنورو البراهمة والمسلمين في عهد الحكم الإنجليزي للهند.

ويقول سير ولسل هايديج الأستاذ المحاضر بمدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن (١).

« للسلطان أكبر العظيم الذي يعد بحق أعظم متسامح متشبع بروح الإنسانية بين حكام الهند كان يأخذ الثلث في أواخر أيامه حين جعل بعض الحكام الآخرين نصيبهم النصف بالتمام.

ويقول ديمتريوس ك . بولجر (٢) « لم تكن المسيحية وحدها الدين الذي كان «أكبر» يجنح إليه ، بل قد راعته أيضاً عبادة النار ، وفي إحدى اللحظات داعبته فكرة تناسخ الأرواح ، وقد أخذت غيرته على الإسلام تضعف يوماً بعد يوم حتى غضب عليه المتمسكون بدينهم من رعاياه ، وبلغ من أمر هؤلاء أن نعتوه بالزندقة والالحاد ».

ويقول : « إن تسامح أكبر الديني لم يمنعه من الإقدام في أثناء أعوامه الأخيرة على إخراج المشروع الديني الخطير : مشروع « العقيدة الأكبرية » وهو العقيدة الصوفية التي سمح لنفسه بانتحال بعض الصفات الربانية » .

ويقول : « لما أن وضع مذهبه الديني الصوفي واتخذ لنفسه بعض الصفات الإلهية كانت تنقش على عملته عبارة « الله أكبر » وهي إذا فسرت التفسير الصحيح الدقيق كانت تشيد بعظمة الله، ولكنها قد تعني كذلك أن أكبر هو الله،

(١) تاريخ العالم ٥ : ٦٢٢ .

(٢) تاريخ العالم ٦ : ٥٧٤ و ٥٧٥ و ٦١١ .

وهذا المعنى سواء كان مقصوداً أو غير مقصود هو الذي اختاره الساخرون منه أن يفهموه من هذه العبارة ، ثم حذف هذا النص آخر الأمر » .

وأسهب ول ديورانت في تمجيد أكبر حتى أنه ختم ما كتبه بقوله : « إنه أعدل وأحكم حاكم شهدته آسيا في كل عصورها » .

وديورانت من أشد أعداء الإسلام لَدَداً في الخصومة والحقد ، فهو مولع بحطْم كل مناصر للإسلام وإعلاء شأن كل من ينقض عراه ، وكتابه « قصة الحضارة » مليء بالتجني على الإسلام دون سائر الأديان .

وديورانت مجَّد السلطان أكبر أعظم تمجيد ، فلنأخذ منه ما وصف به ديانة أكبر وفلسفته ، فهو لا يتهم في الحقائق التي يسردها ، هذه الحقائق التي تتصل بأكبر الذي لا دين له وإن كان ديورانت يجعله صاحب رسالةعظمى.

يقول ديورانت : « لما كان فيلسوفاً فلا عجب أن يأخذه شغف شديدبالدين فقد أغرته قراءته الدقيقة للملحمة « ماهابهارتا » ودراسته الوثيقة لشعراء الهنود وحكمائهم بدراسة العقائد الهندية ، ولبث حيناً — على الأقل — يؤمن بمذهب التناسخ ، وخيب فيه ظن أتباعه من المسلمين حين ظهر على الملأ بعلامات دينية هندية على جبهته ، فقد كان له شغف بملاطفة أصحاب العقائد كلها ، لذلك تودد إلى الزرادشتيين بأن لبس ما يلبسونه من قميص ومنطقة مقدسين تحت ثيابه ، وانصاع للجانتيين حين طلبوا إليه أن يمتنع عن الصيد ، وأن يحرم قتل الحيوان في أيام معلومة .

« ولما سمع بالديانة الجديدة المسماة بالمسيحية التي جاءت إلى الهند مع بعثة « جوا » البرتغالية أرسل خطاباً إلى هؤلاء المبشرين التابعين لمذهب بولس ، يدعوهم أن يبعثوا له باثنين من علمائهم ، وحدث بعد ذلك أن قدم جماعة من الجزويت مدينة دلهي وحببوه في المسيح حتى أمر كتابه أن يترجموا له العهد الجديد ، وأباح لهؤلاء الجزويت كل حرية في أن ينصِّروا من شاءوا ، بل عهد إليهم بتربية أحد أبنائه .

« وفي الوقت الذي كان الكاثوليك يفتكون بالبروتستنت في فرنسا ، والبروتستنت – في عهد الملكة أليصابات – يفتكون بالكاثوليك في إنجلترا ، ومحاكم التفتيش تقتل اليهود في إسبانيا وتسلبهم أملاكهم ، و « برونو » يقذف به في النار في إيطاليا كان « أكبر » يوجه الدعوة إلى ممثلي الديانات كلها في أمبراطوريته ليعقدوا مؤتمراً، وتعهد لهم بحفظ السلام بينهم،وأصدر مرسوماً بوجوب التسامح مع المذاهب كلها والعقائد كلها ، ولكي يقيم الدليل على حياده تزوج من نساء البراهمة ، ومن نساء البوذية ، ومن نساء المسلمين جميعاً .

« وكان ألذ ما يمتعه بعد أن بردت في نفسه جذوة الشباب المضطرمة المناقشاتُ الحرة في العقائد الدينية ، ولقد ترك تعاليم الإسلام الجامدة تركاً تاماً حتى أغضب بحياده هذا في الحكم رعيته من المسلمين .

« يقول عنه « سان فرانسس زافير » في شيء من المغالاة : « لقد حطم هذا الملك مذهب محمّد الفاسد ، وهاجمه هجوماً بحيث لم يبق له فضيلة واحدة، ولم يعد في هذه المدينة مسجد أو قرآن – هو كتاب شريعتهم – وأما ما كان هناك من مساجد فقد اتخذوا منها حظائر للخيل أو مخازن » .

« ولم يؤمن الملك أقل إيمان بالوحي ، ولم يكن ليصدق شيئاً لا يقوم على صحته برهان من العلم والفلسفة ، وكثيراً ما كان يجمع طائفة من أصدقائه ومن رجال العقائد الدينية المختلفة ثم يأخذ في مناقشة الدين معهم من مساء الخميس إلى ظهر الجمعة ، فإذا ما اعترك فقهاء المسلمين مع قساوسة المسيحيين زجرهم قائلاً : ان الله ينبغي أن يعبد بالعقل لا بالتمسك الأعمى بوحي مزعوم.

« وكان مما قاله فجاء شبيهاً بروح كتاب « اليوبانشاد » بل ربما كان في قوله متأثراً « باليوبانشاد » و « كابر » : « كل إنسان يسمى الكائن الأسمى باسم يلائم وجهة نظره ، والواقع أن تسميتنا لما يستحيل علينا إدراكه ضرب من العبث » .

« واقترح بعض المسلمين أن تُختبَر المسيحية إزاء الإسلام بمحنة النار ، وذلك أن يمسك شيخ من شيوخ المسلمين بالقرآن وأن يمسك قسيس بالإنجيل ثم يخوضان معاً في النار ، فمن خرج منهما سالماً من الأذى اعترف له منادياً في الأرض بصوت الحق ، وتصادف أن « أكبر » لم يكن يحب الشيخ المسلم الذي اقترحوه لهذه التجربة ، فتحمس للاقتراح ، لكن الجزويت رفضوه ، لأنه إفك وخروج على الدين ، ولأنه خطر على حياة من تقع عليه التجربة .

« وجعل اللاهوتيون يجتنبون أمثال هذه الاجتماعات شيئاً فشيئاً حتى لم يعد يحضرها إلا « أكبر » نفسه مع أصدقائه من أصحاب النظرة العقلية .

« وضاق « أكبر » ذرعاً بالانقسامات الدينية في مملكته وأفزعه الاحتمال بأن تؤدي هذه الديانات المتناقضة إلى تمزيق المملكة بعد موته ، فاستقر رأيه آخر الأمر على أن يكوِّن منها ديانة جديدة تضم أهم تعاليم العقائد المختلفة في صورة بسيطة ، ويحكي لنا المبشر الجزويتي هذا النبأ كما يأتي :

« عقد اجتماعاً عاماً دعا إليه كل رجال العلم البارزين والقواد العسكريين في المدن المجاورة لم يستثنِ أحداً إلا « الأب رِدُلْفو » الذي كان من العبث أن ترجو منه شيئاً غير مناصبة هذه الدعوة الدينية العداء ، فلما أن اجتمعوا جميعاً أمامه خطبهم بأسلوب سياسي ماهر قائلاً :

« إنه لمن الشر في أمبراطورية يحكمها رأس واحد أن تنقسم الأعضاء على بعض ، وأن يتباينوا في الرأي ... ومن ثم نشأ في البلاد أحزاب بمقدار ما فيها من عقائد دينية ، وإذن فلزام علينا أن ندمج هذه العقائد كلها في دين واحد على نحو يجعلها ممثلة في هذا الواحد ، وتكون الفائدة الكبرى التي يجنيها كل من هذه الديانات ، أنه لن يخسر شيئاً من جوانبه الحسنة ، ثم يكسب كل ما هو حسن في سائر الديانات ، وبهذا وحده نمجد الله ونهيىء للناس سلاماً وللأمبراطورية أمناً » .

« ووافق المجلس مرغماً فأصدر « أكبر » مرسوماً يعلن نفسه رئيساً دينياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهذه الرئاسة الدينية هي أهم ما

أثرت به المسيحية على الديانة الجديدة ، وكانت هذه العقيدة الجديدة توحيداً يمثل التقاليد الهندية في التوحيد خير تمثيل ، مضافاً إليه قبس من عبادة الشمس والنار مأخوذة من العقيدة الزردشتية ، وفيه عنصر شبيه بالمذهب الجانتي في إيثاره للامتناع عن أكل اللحوم ، وعد ذبح الأبقار كبيرة من الكبائر ، فما أشد ما اغتبط لذلك الهندوس ، وما أقلّ ما اغتبط له المسلمون .

« وصدر بعد ذلك مرسوم يجعل الاقتصار على أكل النبات إلزاماً على الناس جميعاً مدى مئة يوم على الأقل كل عام ، ثم سار مع ميول الوطنيين خطوة أخرى فحرم الثوم والبصل ، وحرم تشييد المساجد ، وصوم رمضان ، والحج إلى مكة وغير ذلك من شعائر المسلمين .

« ولما أراد المسلمون مناهضة هذه المراسيم نفى كثيراً منهم ، وأُقيم وسط « محكمة السلام » في « فتحبور — سكرى » معبد للديانة المتحدة الجديدة (ولا يزال هذا المعبد قائماً) رمزاً للأمل الذي كان يضطرم في صدر الأمبراطور . وهو أن يكون أهل البلاد جميعاً — بفضل العقيدة الجديدة — إخواناً يعبدون إلهاً لا يختلف من طائفة إلى طائفة .

« لم يكن النجاح حليف « الدين الإلهي » باعتباره ديناً ، ووجد « أكبر » أن التقاليد أقوى من أن يهدمها بقوله إنه يجل عن الخطأ ، نعم ، إن بضعة آلاف من الناس التفوا حول الدين الجديد ، وكان معظمهم ممن يريدون من وراء ذلك اكتساب حظوة عند الدولة ، لكن الأغلبية العظمى ما زالت متمسكة بآلهتها الموروثة ، أما من الوجهة السياسية فقد كان لخطته الدينية بعض النتائج المعينة ، فلئن كان « أكبر » بوحيه الديني الجديد قد أبدى شيئاً من الأنانية ومن الإسراف فقد عوض عن ذلك خير العوض بإلغائه لضريبة الرؤوس وضريبة الحج المفروضتين على الهندوس ، وبإطلاقه الحرية للعقائد الدينية كلها ، وبإضعافه لروح التعصب الديني والجنسي وما يتبع ذلك من جمود الرأي وانقسام الطوائف .

« ولقد كسب إلى جانبه بفضل دينه الجديد ولاء الهندوس ، حتى أولئك الذين لم يعتنقوا منهم تلك العقيدة الجديدة ، فاستطاع بذلك أن يحقق غايته الرئيسية إلى حد بعيد ، وأعني الوحدة السياسية للبلاد .

« ولكن هذا « الدين الإلهي » كان مصدر كراهية شديدة له في نفوس إخوانه في الإسلام ، حتى لقد انتهى الأمر بهم مرة إلى شق عصا الطاعة علناً ، وإثارة الأمير « جهان كير » على أبيه بحيث أخذ يدبر له المكائد خفية .

« وكان مما أثار القلق في نفس الأمير أن « أكبر » قد ظل يحكم البلاد أربعين عاماً ، وأن بنيته لم تزل من القوة بحيث لا أمل في موت قريب يصيبه ، لهذا حشد « جهان كير » جيشاً من ثلاثين ألف فارس ، وقتل « أبا الفضل » مؤرخ القصر وأحب الأصدقاء إلى نفس الملك ، ثم أعلن نفسه أمبراطوراً ، لكن « أكبر » حمل الأمير الشاب على التسليم وعفا عنه بعد يوم واحد ، غير أن خيانة الابن لأبيه عملت على قتل أمه وقتل صديقه ، وحطمت قوته النفسية ، وتركته فريسة هينة « للعدو الأعظم » حتى لقد تنكر له أبناؤه في أواخر أيامه وبذلوا جهدهم كله في النزاع على العرش .

« ومات « أكبر » فلم يكن إلى جانبه إلا طائفة قليلة من أصدقائه المقربين ، مات بمرض الديسنتاريا ، أو مات مسموماً بتدبير « جهان كير » على اختلاف الآراء في ذلك .

« وجاء الشيوخ الدينيون إلى فراش الموت يحاولون أن يردوه إلى الإسلام ، لكنهم منوا بالفشل .

«وهكذا قضى الملك دون أن يجد من يصلي على روحه من أنصار أية عقيدة أو مذهب » .

هذه شواهد تمثل وجهة النظر الغربية والإستشراقية في « أكبر » وهي وجهة نظر معادية للإسلام شر عداء ، تصور «أكبر» صورة آية في الكمال والجمال

والحلال ، لأنه حطّم الإسلام حَطْماً بما ابتدع .

وتذكر هذه المصادر الغربية « أنه كان مصاباً بالصرع ، وروى عنه كثيرون أن داء السوداء كثيراً ما كان يستولي عليه إلى درجة تسودُّ معها نظرته إلى الحياة اسوداداً مخيفاً، وكان يشرب الخمر ويأكل الأفيون في اعتدال، ولعله فعل ذلك ليكسب واقع حياته المظلم شيئاً من البريق ، ولقد كان أبوه كما كان أبناؤه يشربون الخمر كما شربها ، ويأكلون الأفيون كما فعل ، لكنهم لم يكونوا يشبهونه في ضبطه لنفسه ، وكان له حريم يتناسب مع سعة ملكه [1] » .

فالرجل لم يكن طبيعياً ذا فطرة سليمة ، وكان في حقيقته أمياً ، ولكن كان له من يقرأون الكتب حتى انتهى به إلى الإصغاء إلى الكتب الفلسفية المعقدة ، وصار يعي ما تحوي .

ولم يفهم «أكبر» الإسلام ، ولم يدخل الإيمان في قلبه ، ولما قاومه أئمة المسلمين في مملكته اضطهدهم ، وامتد اضطهاده من سنة ١٥٨٢ م إلى سنة ١٥٨٥ .

فأكبر « أفيونجي » سكير ، ودفعه جهله بالإسلام إلى ابتداع دين خليط من الوثنيات رغبة منه في توحيد سياسي ينقض التوحيد الإسلامي .

وكثير من مؤرخي العرب المسلمين شاركوا الغربيين نظرتهم إلى أكبر فزعموا مثلما زعم هؤلاء الغربيون ، ومن هؤلاء المؤرخين المسلمين : الدكتور عبد المجيد البطريق ومحمد مصطفى عطا اللذان ألفا كتاباً بعنوان : « باكستان في ماضيها وحاضرها » [2] وقالا :

---

(١) قصة الحضارة ٣ : ١٣٧ .
(٢) الحلقة ١٣ من سلسلة « اخترنا لك » والكتاب بمقدمة جمال عبد الناصر ، راجع الصفحات ١٣ — ١٦ .

« وفي عهد حفيده أبي الفتح جلال الدين محمد الذي اشتهر في التاريخ بلقبه الجليل « أكبر » والذي ولي الملك عام ١٥٥٦ وكان من الهمة وحسن السياسة حتى استطاع من فتوحه في الهند جنوباً حتى غلب على معظمها ، ويقترن اسم « أكبر » في التاريخ بأباطرته الكبار من أمثال شارلمان وقسطنطين الأكبر ، لأنه كما يقول H. G. Wells : « أقام صرح هند جديدة » .

« وكان هذا العاهل يتسم بالتسامح الديني والعنصري ، فقد أصدر أمراً سنة ١٥٩٣ م « بأن كل من أجبر من الهنود على اعتناق الإسلام في عهد أسلافه أمكنه العودة إلى دينه الأول» ، وكان مجلسه يجمع بين العلماء والفلاسفة ورجال الدين ، ويقيم المساجلات والمناظرات في أدق المسائل وأخطر المشكلات ، وبخاصة فيما يتصل بما وراء الطبيعة على أميته وعدم اصطناعه الكتابة » .

ويقول المؤلفان : « وبلغ من تسامحه أنه ألغى نظام الجزية المفروض على غير المسلمين ... وقد عمل « أكبر » أثناء حكمه الطويل ١٥٥٦ — ١٦٠٥ على تقريب مسافة الخلف بين المسلمين والهندوس ، محاولاً إقناع رعاياه أنه إنما يحكم الهند باسم الجميع ، لافضل لمسلم على هندوسي ، وعندما كان ينجح في غزواته للإمارات الهندية كان يظهر التسامح لحكامها المهزومين ، فيعينهم في مناصبهم من جديد على أن يظلوا تحت لواء الأمبراطورية الإسلامية ، ومما يذكره له الهنود بالإعجاب أنه ساوى بين المسلم والهندوسي في الضرائب المفروضة ، ولم يجد مانعاً من تعيين بعض الهندوس قواداً في جيشه ، ولكن بوفاته انتهت سياسة التسامح التي اتبعها ، وعاد خلفاؤه إلى السياسة القديمة في تغليب مصلحة المسلمين .

«واستطاع حفيده أورنجزيب الذي تولى الحكم سنة ١٦٥٨م حتى ١٧٠٧ م أن يصبح سيد شبه الجزيرة الهندية وأن يكون آخر ملوك المغول العظام ، فقد كان من أهدافه أن يجعل من بلاد الهند وحدة إسلامية ، فتخلى عن سياسة جده ، وفرض الجزية على غير المسلمين من الهندوس » .

ورجل مثل الدكتور عبد الوهاب عزام الذي يتظاهر بالغيرة على الإسلام يقلد المستشرقين فيقول في أكبر بمجلة الرسالة التي كتب فيها عديداً من المقالات تحت عنوان « رحلة إلى الهند » ما ننقله بحروفه [1] :

« وجلال الدين أكبر الذي أتوجه لزيارته الآن هو ابن همايون وحفيد بابر ، وضع هذان له القواعد ليشيد ملكاً عظيماً ، ويوطد دولة ينبسط سلطانها على الهند إلا قليلاً ، ويترك على الزمان سيرة في الفتح والعدل والحضارة والعمارة لا تزال منار إعجاب وتعجب ، ولا تزال مفخرة من مفاخر التاريخ الإسلامي » .

ويقول عزام : « وحاول أن يشيع المحبة والمودة بين الناس بجمعهم على دين واحد ، فألف من الإسلام والمجوسية والنصرانية وأديان أخرى ديناً سماه « التوحيد الإلهي » وبنى معبداً لهذا الدين ودعا الناس إليه فاتبعه قليل بالرغبة والرهبة ، فلما مات لم يبق على دينه أحد » .

ويقول عزام في عدد آخر من مجلة «الرسالة» [2] ما نصه : « سن هؤلاء السلاطين سنناً في الدولة حسنة ، وسلكوا طرقاً في الإصلاح مأثورة ، وجمعوا حولهم – ولا سيما جلال الدين أكبر الذي ملك خمسين عاماً – العلماء والفلاسفة والأطباء والأدباء من الهند وأقطار أخرى » الخ .

فعبد الوهاب عزام لا ينكر على « أكبر » جهله للإسلام كل الجهل واختراعه نحلة كافرة ، واضطهاده المسلمين الذين قاوموا دعوته ونحلته، بل ساق ما ساق على سبيل الإكبار والتمجيد ، وكان مقلداً أعداء الإسلام ، وكأنه أحدهم .

---

(١) مجلة الرسالة ، العدد ٧٥٢ الصادر في يوم الاثنين ١٨ محرم ١٣٦٧ (١ ديسمبر ١٩٤٧ م) السنة الخامسة عشرة .

(٢) مجلة « الرسالة - العدد الممتاز ٧٠٥ الصادر في يوم الاثنين ١٣ صفر ١٣٦٦ هـ (٦ يناير ١٩٤٧ م) السنة الخامسة عشرة . المجلد ١ .

والدين الذي لفقه أكبر ودعاه « التوحيد الإلهي » إنما هو دين وثني لم يرض أحداً من أصحاب الأديان التي لفق منها ما سماه التوحيد الإلهي، لأنه خلْط لا يعدو سمادير « الأفيونجية » .

ويكفي أنه لم يكن ديناً متبوعاً إلا من قلة من المنافقين ، مات بموته ، وما كان قط توحيده الإلهي الإسلام ، ولا يحسب من الإسلام ، والإسلام بريء منه ومن صاحبه .

* * *

وهناك نِحَل لا مجال لحصرها في هذه الصفحات تنتسب إلى الإسلام أو تدعيه ، وليست منه ، بل هي أشد على الإسلام وأعدى أعدائه ، وأبعد عنه من بعض الوثنيات التي لا تريد بالإسلام شراً .

ومن هذه النحل الكافرة التي تصطبغ بصبغة الإسلام لتضليل العامة : الباطنية ، واليزيدية ، والقزلباشية ، والشبُك ، وغيرها .

والباطنية أبشع فرقة من الفرق التي تتظاهر بالإسلام وهي أعدى أعدائه .

يقول الإمام أبو منصور عبد القاهر البغدادي (توفي سنة ٤٢٩ هـ) في كتابه « الفَرْق بين الفِرَق » ص ٢٦٥ – ٢٦٦ :

« وإن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم ، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم ، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان » .

و « إن الذين أسسوا دعوة الباطنية جماعة ، منهم : ميمون بن ديصان المعروف بالقداح ، وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق، وكان من الأهواز ، ومنهم : محمد بن الحسين الملقب بذيذان وميمون بن ديصان ، في سجن والي العراق ، وأسسوا في ذلك السجن مذاهب الباطنية ، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن من جهة المعروف بذيذان ، وابتداء بالدعوة من

ناحية فدخل في دينه جماعة من أكراد الجبل مع أهل الجبل المعروف بالبدين ، ثم رحل ميمون بن ديصان إلى ناحية المغرب ، وانتسب في تلك الناحية إلى عقيل ابن أبي طالب ، وزعم أنه من نسله ، فلما دخل في دعوته قوم من غلاة الرفض والحلولية منهم من ادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، فقبل الأغبياء ذلك منه ، على أن أصحاب الانتساب بأن محمد بن إسماعيل بن جعفر مات ولم يعقب » .

وقال البغدادي في ص ٢٨٧ — ٢٧٩ :

« الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع.

« والدليل على أنهم كما ذكرناه ما قرأناه في كتابهم المترجم بالسياسة والبلاغ الأكيد والناموس الأعظم ، وهي رسالة عبيد الله بن الحسن القيرواني إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابي أوصاه فيها بأن قال له: « أدع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم، فمن أنست منه رشداً فاكشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة مُعوَّلنا ، وإنا وإياهم مجمعون على أن نواميس الأنبياء وعلى القول بقدم العالم ، لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبراً لا يعرفه » .

« وذكر في الكتاب إبطال القول بالمعاد والعقاب ، وذكر فيها أن الجنة نعيم الدنيا ، وأن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد .

« وقال أيضاً في هذه الرسالة : إن أهل الشرائع يعبدون إلهاً لا يعرفونه ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم .

وقال فيها أيضاً : أكرم الدهرية فإنهم منا ونحن منهم ، وفي هذا تحقيق نسبة الباطنية إلى الدهرية » .

ويقول البغدادي ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ :

« والباطنية يرفضون المعجزات ، وينكرون نزول الملائكة من السماء بالوحي والأمر والنهي ، بل ينكرون أن يكون في السماء مَلَك ، وإنما يتأولون الملائكة على دعاتهم إلى بدعتهم ، ويتأولون الشياطين على مخالفيهم والأبالسة على مخالفيهم ، ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة فساسوا العامة بالنواميس والحيل طلباً للزعامة بدعوى النبوة والأمامة ».

ويقول في ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ :

« وقد قال القيرواني في رسالته إلى سليمان بن الحسن : « إني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل ، وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع ، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور ، وإبطال الملائكة في السماء ، وإبطال الجن في الأرض ، وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأن قد كان قبل آدم بشر كثير ، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم » .

وفي هذا تحقيق دعوانا على الباطنية أنهم دهرية يقولون بقدم العالم ويجحدون الصانع .

ويدل على دعوانا عليهم القول بإبطال الشرائع أن القيرواني قال أيضاً في رسالته إلى سليمان بن الحسن : « وينبغي أن تحيط علماً بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم في أقوالهم كعيسى بن مريم قال لليهود : لا أرفع شريعة موسى ثم رفعها بتحريم الأحد بدلاً من السبْت ، وأباح العمل في السبت ، وأبدل قبلة موسى بخلاف جهتها ، ولهذا قتلته البلاد لما اختلفت كلمته » .

« ثم قال له : « ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة [1] حين سألوه عن الروح فقال : الروح من أمر ربي ، لما لم يحضره جواب المسألة ، ولا تكن

---

(١) يقصد بصاحب الأمة المنكوسة سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته الإسلامية .

كموسى في دعواه التي لم يكن له عليها برهان سوى المخرقة بحسن الحيلة والشعبذة ، ولما لم يجد المُحِقّ في زمانه عنده برهاناً قال له : لئن اتخذت إلهاً غيري ، وقال لقومه : أنا ربكم الأعلى ، لأنه كان صاحب الزمان في وقته » .

« ثم قال في آخر رسالته : « وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعي العقل ثم يكون له أخت أو بنت حسناء ، وليست له زوجة في حسنها فيحرمها على نفسه،وينكحها من أجنبي ، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبي ، وما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات ، وخوّفهم بغائب لا يعقل ، وهو الإلـه الذي يزعمونه، وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبداً من البعث من القبور والحساب والجنة والنار حتى استعبدهم بذلك عاجلاً ، وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خَولاً ، واستباح بذلك أموالهم بقوله: ﴿ لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ (الشورى ٢٣) فكان أمره معهم نقداً ، وأمرهم معه نسيئة ، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون » .

ويقول حجة الإسلام الإمام الغزالي في سبب تسميتهم الباطنية [١] .

« أما الباطنية فإنما لقبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر ، وأنها بصورها توهم عند الجهال الأغبياء صوراً جلية ، وهي عند العقلاء والأذكياء رموز وإشارات إلى حقائق معينة ، وأن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار ، والبواطن والأغوار ، وقع بظواهرمسارعاً إلى الاغترار ، وكان تحت الأواصر والأغلال مُعَنّى بالأوزار والأثقال ، وأرادوا بالأغلال التكاليف الشرعية ، فإن من ارتقى إلى علم الباطن انحط عن التكليف واستراح من أعبائه وهم المرادون

---

(١) من كتابه « فضائح الباطنية » حققه وقدم له الدكتور عبد الرحمن بدوي، نشر الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٤م) صفحة ١١ — ١٢ .

بقوله تعالى : ﴿ ونضع عنهم إصْرَهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ الآية ، وربما موهوا بالاستشهاد عليه بقولهم : إن الجهال المنكرين للباطن هم الذين أريدوا بقوله تعالى : ﴿ فَضُرِب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب ﴾ وغرضهم الأقصى إبطال الشرائع ، فإنهم إذا انتزعوا عن العقائد موجب الظواهر قدروا على الحكم بدعوى الباطن على حسب ما يوجب الانسلاخ عن قواعد الدين ، إذ سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة فلا يبقى عصام يرجع إليه ويُعَوَّل عليه » .

وليس مثل حجة الإسلام الإمام الغزالي قدرة وفهماً لمعتقد الباطنية الذي يشير إليه في كتابه « فضائح الباطنية » إذ يقول في صفحة ٣٨ :

« اتفقت أقوال نقلة المقالات من غير تردد أنهم قائلون بإلهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان ، إلا أن أحدهما علة لوجود الثاني ، واسم العلة : السابق ، واسم المعلول : التالي ، وأن السابق خلق العالم بواسطة التالي لا بنفسه ، وقد يسمى الأول : عقلاً ، والثاني نفساً ، ويزعمون أن الأول هو التام بالفعل ، والثاني بالإضافة إليه ناقص لأنه معلوله الخ .

« ثم قالوا : السابق لا يوصف بوجود ولا عدم ، فإن العدم نفي ، والوجود تشبيه [1] ، فلا هو موجود ولا هو معدوم ، ولا هو معلوم ولا هو مجهول ، ولا هو موصوف ولا هو غير موصوف ، وزعموا أن جميع الأسامي منتفية عنه ، وكأنهم يتطلعون في الجملة لنفي الصانع ، فإنهم لو قالوا إنه معدوم لم يقبل منهم ، بل منعوا الناس من تسميته موجوداً ، وهو عين النفي مع تغير العبارة ، لكنهم تحذّقوا فسموا هذا النفي تنزيهاً ، وسموا مناقضه تشبيهاً ،

(١) في نسخة المتحف البريطاني « سببه » واختاره الدكتور عبد الرحمن بدوي محقق الكتاب ، واخترنا نحن ما في النسخة الأخرى التي يعتمدها مع الأولى وهي «تشبيه» لأنه أوفق ، ويؤكده أن الغزالي نفسه في الجملة نفسها يقول : « وسموا مناقضه تشبيهاً » حسب ما جاء في تحقيق الدكتور نفسه .

حتى تميل القلوب إلى قبوله ، ثم قالوا : العالم قديم ، أي وجوده ليس مسبوقاً بعدم زماني ، بل حدث من السابق الخ » .

وقد تصدى الإمام الغزالي للرد على الباطنية وتفنيد زَعَماتها ، وكشف ضلالاتها ، وفضح مراميها، وإثبات كفرها .

ومما لا شك فيه أن الباطنية كفر لئيم ، وتعطيلها بشع غاية في الإلحاد ، وفلسفتها أباطيل وأوهام وقذارات ، وقد اتخذوا الانتساب إلى الإسلام ستاراً يخفي ما يبطنون من الكيد له، وسبيلاً لخداع العامة واجتذاب المنحرفين الضالين ، والرغبة في هدم الإسلام باسم الإسلام ، وقد هدموه في نفوس كثيرة من المخدوعين فصاروا – كما ذكر البغدادي – أشد على الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية والمجوسية .

وقد سبق لي بحث موجز نشرته لي مجلة « الحج » التي تصدر بمكة المكرمة منذ بضع عشرة سنة وأعدت نشره في كتابي « قطرة من يراع » [1] حيث جاء فيه :

« الباطنية فسرت الدين كما تريد تعميماً للشرك ، كما أنها احتالت لتأويل أحكام الشريعة على وجوه تؤدي إلى رفع الشريعة أو إلى مثل أحكام المجوس .

« ويرى أصحاب هذا المذهب – الذي يعد أخطر مذهب ظهر على وجه الأرض منذ وجودها – إباحة نكاح المحرمات من النساء ، والخمر ، وتحليل كل حرام ، واعتبار كل منكر معروفاً، بل اعتداد ما لا تقبله الطبيعة المستقيمة شريعة يجب أن تتبع ، حتى تستطيع أن تهدم دولة الإيمان في نفس الإنسان ، وتقوض صرح الفضيلة والإنسانية والحق .

« إن الباطنية جماع شر ما في الفرق الضالة والكافرة قديمها وحديثها ، وشرها وحده يكاد يرجح بشرور كل هؤلاء .

---

(١) طبع بالقاهرة سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) وراجع فيه الشواهد بصفحة ١٠٦ – ١٠٨ .

« وإتيان الذكور عند الباطنية سنة متبعة ، بل شريعة يُقتَل جاحدها أو الخارج عنها أو عليها، ونستدل على هذا من فعلة ابن أبي زكريا الطامي الذي ظهر بالأحساء والبحرين سنة ٣١٩ هـ ، وفعلته ــ هذه ــ الشنعاء جعله إتيان الذكور لأتباعه سنة متبعة ، ووجوب قتل كل من يأبى هذا العمل الشاذ .

« وستر الباطنية دعوتهم إلا عن أتباعها المخلصين حتى يستطيعوا الرجوع بمن يقدرون عليه من المسلمين إلى المجوسية والدهرية .

وكان زعماء الباطنية ــ لعنهم الله ــ يتبعون وسائل مختلفة في حمل العامة على مذهبهم الباطل ، يزخرفون القول ليتمكنوا من التضليل والإيهام والتشكيك ، كما كانوا يستبيحون كل وسيلة قذرة تنتهي بهم إلى غايتهم الممعنة في السفالة والنجاسة والفسق » .

و « جملة القول في الباطنية أنها مذهب هدام لكل ما يبني المجتمع ويهذبه. مذهب ينحط إلى أسفل من درك الحيوان ، مذهب يعين الطبيعة المعوجة والنفس السافلة والغريزة البهيمية المتوحشة أن تضرى وتفتك بالإيمان والأخلاق .

إن الباطنية مذهب لا يعترف بدين ولا خلق ولا إنسانية ، لانه مذهب قوم لا يفضلهم الشيطان في شيء ، بل هم والشيطان سواء ، بل الشيطان خير منهم ، لأنه كفر عن عناد وحسد ، وعرف مع كفره ربه فطلب إليه سبحانه وتعالى أن يُنْظِرهَ إلى يوم يبعثون » .

وأشار المؤرخون والفقهاء ومنهم حجة الإسلام الإمام الغزالي إلى ألقاب الباطنية ، وعدوا منها القرامطة ، والقرمطية ، والخرمية، والإسماعيلية .

ويقول العلامة الشيخ محمود زاهد الكوثري في مقدمته الرائعة التي كتبها لكتاب « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة » [1] ص ٨ :

---

(١) من تأليف العالم الفقيه محمد بن مالك الحمادي اليماني ، نشر عزت العطار بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هـ (١٩٣٩م) .

« ولمذهب هؤلاء الزنادقة ألقاب على اختلاف البلدان ، وأشهرها «الباطنية» لزعمهم أن لكل ظاهر باطناً ، ولكل تنزيل تأويلاً ، انسلاخاً من الدين ، ويعرفون في العراق باسم « القرامطة » جمع قرمطي نسبة إلى قرمط السابق ذكره، وباسم المزدقية أيضاً بالنظر إلى أنهم يدينون بدين الاشتراك في الإبضاع والأموال الذي ابتدعه مزدق في عهد قباذ الساساني ، ويسمون في خراسان « بالتعليمية » والملاحدة ، والميمونية ، نسبة إلى ميمون أخي قرمط السابق ذكره دون ميمون بن ديصان ، لأنه ليس بفرع ، بل هو أصل البلاء كله ، ويدعون في مصر بالعبيدية، وفي الهند « بالبهرة والإسماعيلية » وفي اليمن « باليامية » نسبة إلى القبيلة المعروفة ، وفي بلاد الأكراد « بالعلوية » حيث يقولون : علي هو الله – تعالى الله عما يقولون – وفي بلاد الأتراك « بالبكداشيه والقزلباشية » على اختلاف منازعهم ، وفي بلاد العجم «بالبابية » ولهم فروع إلى يومنا هذا ، تلبس لكل قرن لبوسه ، وتظهر لكل قوم بمظهر تقضي به البيئة ، وقدماؤهم كانوا يسمون أنفسهم بالإسماعيلية الخ » .

فهذه الفرق كلها هي الباطنية ، وان كانت كل فرقة استقلت بنظريات ومعالم خاصة بها ، ولكن جميعها تصدر من أصل واحد ، ومبادئها ومقاصدها واحدة وهي هدم الإسلام قبل غيره .

وقد وجدت الباطنية مدافعين عنها بغير حق ولا برهان ، بل انتهى ببعضهم إلى تبرئة القرامطة والاعتذار فيما وصفت به إلى أن الواصفين أعداء، مع أن كتبهم التي ألفها أقطاب الباطنية والقرامطة تثبت ما وصفوا به ، بل لم أجد من غيرهم من يدافع عنهم غير واحد [1] .

* * *

---

(١) الأستاذ أحمد السباعي في كتابه « تاريخ مكة » (راجع الطبعة الثانية ١ : ١٤٨ – ١٥٣) يقول السباعي (١ : ١٥٢) : « يعوزنا لصحة التدليل على ما تنقله أخبار المؤرخين أن نطلع على نصوص توضح لنا مبادىء هذا المذهب، ولكن من لنا بهذه النصوص صادرة عن أصحاب =

واليزيدية فرقة لها عقيدتها ، واليزيدية التي نقصر عليها بحثنا غير اليزيدية الأخرى التي تنسب إلى يزيد بن أبي أنيسة الخارجي ،وهو من البصرة ، ولكنه فارقها إلى تون بفارس ، وكان يدعي أن الله عز وجل سيبعث نبياً من العجم ينسخ بشرعه شريعة محمد ﷺ ، وكل من أقر بنبوة محمد من النصارى واليهود فهو مؤمن ، وابن أبي أنيسة ـ هذا ـ كافر .

وهذه اليزيدية خارجة على الإسلام ، وإن كان يزيد الخارجي يدعي الإسلام زوراً وتضليلاً .

أما اليزيدية التي نقصر بحثنا عليها في هذه الفقرات فهي غير اليزيدية المنسوبة إلى يزيد بن أبي أنيسة الخارجي ، بل هي فرقة أموية أوجدتها السياسة لمحاربة آل البيت ، وتأييد بني أمية .

والصراع بين بني هاشم وبني أمية بدأ قبل الإسلام ، ولما بعث محمد الهاشمي ﷺ كان رئيس بني أمية أبو سفيان بن حرب حرباً على الإسلام ورسوله ، وفي عهده ﷺ لم تستطع الجاهلية أن ترفع رأسها ، وكذلك في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، حتى إذا جاء الخلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وجد الأمويون فرصة للتدخل في السياسة والحكم ، ولولا تولي مروان بن الحكم في خلافة عثمان منصب « الكاتب الخاص » له لما استطاع الأمويون أن يوجهوا الخلافة الإسلامية وجهة مناقضة لوجهة الإسلام الصحيحة .

وعندما قتل عثمان رضي الله عنه وبويع الإمام علي كرم الله وجهه بالخلافة

= هذا المذهب بخط أيديهم » والواقع أن في المكتبات هذه النصوص ، وليس ما يذهب إليه السباعي بحق ، فعلى منطقه المتهافت يمكن نفي أكبر حوادث التاريخ . وتبرئة السباعي للقرامطة خطأ شنيع، ولو أراد الحق لوجد أن ما اتهم به القرامطة حق تؤيده رسائلهم وأقوالهم وأفعالهم الثانية من كتبهم الموجودة في المكتبات بخطوطهم ، ثم ما كتبه حجة الإسلام الغزالي والإمام البغدادي وأمثالهما ، وهم من أعدل الناس وأصدقهم ، ويقبل العالم ما يقولون ، فلماذا يطعنهم مؤلف « تاريخ مكة » ؟ إن القرامطة كفرة ملاحدة برغم دفاعه المتهافت عنهـــم .

حاربه بنو أمية حتى اغتيل الإمام ، وانتزعها معاوية بن أبي سفيان ، فاتجهت الخلافة الإسلامية اتجاهاً غير سليم ، وجند الأمويون كل سلاح لمحاربة آل البيت ، وبلغ بهم الحقد واللدد في العداء أنهم كانوا يلعنون الإمام علياً المبشر بالجنة التي لا ينالها إلا من وسعته رحمة الله ورضوانه ، وكان عمال الأمويين في كل بلدان الإسلام يلعنون الإمام ، واللعن : الطرد من رحمة الله ، والإسلام يمنع لعن « المعين » باسمه وشخصه ولو كان غير مسلم ، فلعن الإمام علي كرم الله وجهه طعن في بشارة رسول الله ﷺ ، ومناهضة لأوامر الإسلام .

وأخضعت السياسة الدين لأهوائها ، واتخذ الأمويون كل سلاح لقتل آل البيت ، فما يحزن آل رسول الله يسر الأمويين ، فيوم العاشر من محرم يوم حزن على آل رسول الله والمسلمين ، لأن سيدنا الحسين بن فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ قتل فيه ، فاتخذه الأمويون يوم سرور وابتهاج وعيد ، ووضعوا الأحاديث في طعن علي كرم الله وجهه .

وعندما تولى يزيد بن معاوية الخلافة اشتعل غضب أتقياء المسلمين وعلى رأسهم آل رسول الله ، فيزيد فاسق ، بويع بالخلافة كرهاً ، وأخذت البيعة بالإغراء والتهديد ، وبأمره قوتل الحسين ، وأبيحت المدينة بلد الرسول الكريم لجند يزيد ، وفجر جند يزيد ببنات الصحابة ونسائهم ، وضربت الكعبة في عهد يزيد .

ولما مات يزيدقبل الأربعين من عمره سارت الخلافة الأموية سيراً يعارض نهج الاسلام الحق في الحكم والخلافة ، وانقلبت الخلافة تسلطاً ودنيا ، وصار الخليفة الأموي متحكماً في مال الأمة ورقابها ، واستخدم الأمويون الدين باختلاق الأحاديث ضد آل رسول الله ، وظهر من يدافع عن يزيد حتى ولدت اليزيدية التي بدأت بالدفاع عن يزيد ، ووصفوه بأنه الإمام العادل الهادي المهدي ، وأنه من أكابر الصحابة ، ومن أولياء الله الصالحين .

ولم يكف أنصار يزيد هذه الأكاذيب حتى إذا بَعُدَ بهم الزمن ظهر منهم

من زعم أن يزيد نبي من أنبياء الله ، ولم يقف بهم الأمر عند هذا الكفر الشنيع بالله وبرسوله إذْ زعموا أن يزيد نبي مع أنه لا نبي بعد محمد ﷺ، بل كفروا بالقرآن حين زعموا نبوة يزيد ، لأن الله عز وجل يقول في محكم كتابه: ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكنْ رسول الله وخاتم النبيين ﴾ (١) .

بل تجاوز الأمر ادعاء اليزيدية النبوة ليزيد إلى ادعاء الألوهية له ، فاعتقد اليزيدية أن يزيد إلههم ، ولهم كتابان مقدسان لديهم هما : مصحف رش ، والجلوة ، مملوءان بالكذب والأساطير والدعاوى والبهتان .

وجاء في « مصحف رش » (٢) :

« نظر الله إلى محمد فرآه لا يسلك باستقامة فأوجع رأسه ، فقال محمد لمعاوية : تعالَ احلق رأسي ، لتعاطي معاوية التزيين فأتى معاوية وحلق رأس محمد بخفة فجرحه وجرى منه دم كثير ، فلما رأى معاوية الدم لحسه بلسانه خوفاً لئلا يقع على الأرض ، فقال له محمد : ماذا صنعت يا معاوية ؟ أجاب : إني لحسته خوفاً لئلا يقع على الأرض ، ، فقال محمد : لقد أخطأت بذلك ، فإنك تجذب وراءك أمة عظيمة وتتخاصم مع أمتي ، فقال معاوية : لا أتزوج ولا أقع في العالم قطّ ، ثم بعد زمان ساط الله على معاوية عقارب فلدغته ورشت سمها عليه ، فلما رآه الأطباء جزموا عليه وأتوه بامرأة يربى على الثمانين كيلا تحبل ، فلما عرفها معاوية أصبحت في الغد ابنة خمسة عشرة

(١) سورة الأحزاب : ٤٠ .

(٢) النصوص المنقولة في بحثنا من « مصحف رش» و «الجلوة» مصدرها البحث العظيم الذي كتبه الأستاذ سعيد الديوه‌جي من أبناء الموصل بالعراق ، ونشر بحثه هذا بمجلة الرسالة في خمسة أعداد منها ابتداء من العدد ٥٥٧ الصادر في يوم الاثنين ١٣٦٣/٣/١١ هـ (١٩٤٤/٣/٦ م) السنة الثانية عشرة وختاماً بالعدد ٥٦١ الصادر في ١٣٦٣/٤/٩ هـ(١٩٤٤/٤/٣ م) وقد اعتمدنا على بحثه فيما كتبناه عن « اليزيدية » .

سنة ، [1] وذلك بقدرة الإلـه ، فحبلت وولدت إلهنا الذي يسمى يزيداً » .

وموطن اليزيدية الجبال القريبة من بلدة الموصل التي كانت أموية ، وكان يتولّى الحكم فيها في أكثر الأحيان أفراد من البيت الأموي ، كما كانت الجزيرة من مواطنهم .

ومرت اليزيدية في أدوار معدودات ، ففي دورها الثاني تولّى الشيخ « عدي بن مسافر » الأموي من قبل مروان بن الحكم ، ولد في « بيت فار » من أعمال بعلبك ، ثم رحل إلى الموصل ، ثم غادرها إلى الجبال واتخذها موطنه ، وآثر الخلوة والانقطاع والتنقل في البراري .

ويقول الأستاذ سعيد الديوه‌جي الذي اعتمدنا على بحثه في كل ما كتبنا في اليزيدية أن الشيخ عديا بني لنفسه « زاوية » في جبل « لالش » والتفّ به أهل تلك الديار لورعه وتقواه وصلاحه ، وسلك بأتباعه طريق الهدى والرشاد .

ووصفه الشيخ عبد القادر الكيلاني بقوله : « لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر » .

وكان الشيخ عدي بن مسافر من أهل السنة والجماعة ، ولم يكن أموياً في الآراء المناهضة لآل البيت ، بل كان مع آل البيت ، فهو يقول في إحدى رسائله في النزاع الحادث بين الإمام علي ومعاوية ما نصه : « كانا إمامين مجتهدين ، ولكن المصيب منهما علي رضي الله عنه » وله رسائل معدودات ألّفها في العقائد والتوحيد ، وذهب فيها مذهب السلف الصالح ، وأيد ما ذهب إليه بالكتاب والسنة .

وذكر الأستاذ الديوه‌جي رسالة من رسائله موجودة بمكتبة « مدرسة

(١) نقلنا النص كما ورد ، ولم نصحح الأغلاط ، وأسلوب كتابي اليزيدية المقدسين غاية في الركاكة .

الحجيات» في الموصل، وهي من خير رسائله، نهج فيها نهج السلف الصالح، وندد بالفرق المبتدعة والضالة ، وجاء في رسالته هذه قوله ؛ « ونؤمن بما ورد في الكتاب والسنة ، ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم أن الله لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يشبهه شيء منها الخ » .

وتوفي الشيخ عدي سنة ٥٥٧هـ ودفن بزاويته التي بناها في «لالش» وخلفه ابن أخيه « صخر » وكان صالحاً زاهداً مثل عمه حتى توفي ، فتسلم ابنه « أبو المخاخر عدي » الدعوة وسلك بها مسلك أبيه بأتباعه ، وارتفعت منزلة الأسرة « العدوية » لدى أتباعها فوق منزلة الملوك والحكام، وهؤلاء الأتباع من الأكراد الأشداء .

وفي الدور الثالث — حسب تقسيم الأستاذ الديوهجي — آل الأمر إلى الشيخ « حسن » ولم يكن مثل أسلافه الثلاثة ، بل غرته الدنيا وطمع في الحكم عندما رأى أن أتباع العدوية من الأشداء المغاوير الألى يمكن الإفادة من طاعتهم العمياء وشجاعتهم النادرة ، فانقطع عن أصحابه ست سنين ، ثم خرج عليهم بكتاب ألّفه وسماه « كتاب الجلوة لأرباب الخلوة » حوى أباطيل ، وغلا في حب « يزيد وعدي » ومكّنه دهاؤه وعلمه من أتباعه ، وانتقل إلى الموصل وسكنها طمعاً في الحكم ، وتبعه كثير من أهلها .

وانقلبت العدوية مذهباً باطلاً كافراً ، واتبعه كثير ، كما اتبعه غير قليل من أهل سورية ، ونهض آل البيت يقاومونه ، وخاف الحكام من الدعوة التي يقوم بها الشيخ حسن ، فانبرى له بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وقبض عليه في سنة ٦٤٤ هـ وخنقه بوتر حتى مات ، وتتبع أنصاره وفتك بهم فتكاً ذريعاً ، وفي سنة ٦٥٢ هـ جهز جيشاً وحارب به اليزيدية في موطنها ، ونبش قبر الشيخ « عدي الكبير » وأخرج عظامه وأحرقها ، وقضى على سلطان فرقة اليزيدية .

وبدر الدين لؤلؤ من أشياع آل علي ، وإذا كان خوفه على حكمه حمله على محاربة اليزيدية فإن بواعثه النفسية كانت من أعظم الأسباب ، فاليزيدية التي أوجدها « الشيخ حسن » تنقم على آل البيت الألى يتشيع لهم بدر الدين لؤلؤ ، فكانت حربه التي أعلنها على اليزيدية ودعاتها وأتباعها حتى أضعف أمرهم جميعاً .

ويصف الأستاذ الديوه جي الدور الرابع قائلاً :

« في القرن الثامن الهجري بدأ انحراف هذه الفرقة يزداد عن الإسلام ودخل التجسيم في اعتقادهم ، ولا سيما أن رؤساءهم الدينيين حرموا القراءة والكتابة عليهم فأوقعوهم في ظلمات الجهل وسخروهم لمصالحهم ، وقادوهم حيث أرادوا ، ودخل عقائدَهم عقائدُ يهودية ومسيحية ووثنية صابئية وخارجية ، وكانوا يسترون عقائدهم الزائغة عن الإسلام بكتمانها وعدم إباحتها ، وصاروا بذلك فرقة باطنية خارجة عن الإسلام ، ولا ندري متى تم هذا الانفصال ، ولكن بعض النصوص تصرح بأن يزيدية « جبل مقلوب » بقوا محافظين على إسلاميتهم حتى القرن الحادي عشر الهجري ، وهم على المذهب الشافعي كبقية الأكراد ، ولا يشوب عقيدتهم إلا بغض « آل البيت » والتطاول عليهم ، ولهذا فإننا نرجح أن انفصال اليزيدية عن الإسلام تم في العصور المتأخرة أي بعد القرن الحادي عشر الهجري » .

ويذكر الأستاذ الديوه‌جي عقائد اليزيدية فيقول :

« يعتقدون أن الأمم الباقية من مسيحيين ويهود ومسلمين على ضلال ، ويجب على اليزيدية أن يجتنبوهم ، لأن إلههم « طاووس ملك » لا يحبهم كما يحبّ اليزيدية » .

و « جاء في كتابهم (الجلوة) : « لا تقبلوا كتب الأجانب من اليهود والنصارى والإسلام لأنهم غيروها ، ولكن اقبلوا ما يوافق سنتي » .

و « وقال أيضاً : « جميع الكتب الموجودة بين الخارجين بدلوا فيها وزاغوا عنها ولو كتبها الأنبياء والرسل المرسلون ، لأن كل واحد يبطل الآخر وينفي قوله ويضادده الحق ، والباطل معلوم ، عندي » .

وجـــاء في « مصحف رش » بأن طاووس ملك خلق لهم عدة ملوك قبل الأمويين ، وأن ديانتهم قبل المسيح كانت تسمى وثنية « وكل اليهود والنصارى والإسلام وغير ذلك من الطوائف حتى العجم أيضاً قاموا ضد ديانتا ، ولكن لم يقدروا عليها ولا علينا قط ، لأن إلهنا يقوينا عليهم ويعلمنا العلم الأول والآخر » .

ويعتقد اليزيدية بتعدد الآلهة ، ورفعوا ستة من مشائخهم إلى مقام الألوهية ، كما اعتقدوا في ألوهية الشيطان ، فالآلهة عندهم سبعة غير الله ، وهو الذي خلقهم من نوره ، وخلقه يشبه من يشعل سراجاً من سراج آخر ، وآلهتهم هي :

١ ــ الملاك عزازيل ، وهو الشيطان ، وسموه « طاووس ملك » رئيس الآلهة جميعاً ، وخلقه يوم الأحد .

٢ ــ الملاك دردائل ، وهو الشيخ حسن ، خلقه يوم الإثنين .

٣ ــ الملاك إسرافيل ، وهو الشيخ شمس الدين ، خلقه يوم الثلاثاء .

٤ ــ الملاك ميخائيل ، وهو الشيخ عطا ، خلقه يوم الأربعاء .

٥ ــ الملاك عزرائيل ، وهو السجادين ، خلقه يوم الخميس .

٦ ــ شمنائل ، وهو ناصر الدين ، خلقه يوم الجمعة .

٧ ــ نورائل ، وهو بدين ، خلقه يوم السبت .

ويزعمون أن الله قال لهم : خلقت السماء فاصعدوا إليها وليخلق كل منكم شيئاً ، فصعدوا إلى السماء ، وخلق الأول الأرض ، وخلق الثاني الشمس ، والثالث خلق القمر ، والرابع الفلك ، والخامس « المصرفع » أي نجمة الصبح ، والسادس خلق الفردوس ثم جهنم ، ثم صعد الله إلى مكانه ، وترك

تصريف العالم للآلهة السبعة بالتناوب ، كل منهم يصرفه ألف عام منذ طوفان نوح حتى اليوم دون أن يشاركه أحد في حكمه. وحكم العالم الآن وتصريف شؤونه بيد « طاووس ملك » وهو رئيسهم وأشدهم قدرة وأقربهم إلى الله ، وسلطانه في بعض الأحيان لا يقل عن سلطان الله ، والشيطان الذي هو « طاووس ملك » مختص بالملة اليزيدية ، ويزعمون أنه جاءهم ورأوه ، وينكرون أمر طرده من الجنة .

وجاء في كتابهم المقدس المعروف بمصحف رش : «إن الأمم لا تعرف ذلك فتقول : إن إلهنا نزل من السماء مطروداً محتقراً ، ولهذا يجدّفون عليه ، فقد غلطوا بذلك وضلوا ، أما عندنا نحن اليزيدية فلا نقبل ذلك لأننا نعرفه وحدنا ، وهو واحد من السبعة الآلهة المذكورة آنفاً ، ونعرف صورته وشخصه ، وهي صورة الديك [1] فلا يجوز لأحد أن يلفظ اسمه أو ما يشابه اسمه كالشيطان والقبطان وشروشط وماشاكل ذلك ، ولا لفظة ملعون أو لعنة أو نعلبذ أو ما أشبه ، فكلها حرام علينا لفظها احتراماً له ، واذا جدف عليه أحد أو نطق بما شابه ذلك أمام اليزيدي فيجب على اليزيدي أن يقتله أو يقتل نفسه ، أما بقية الطوائف فلا تعرف هذه الأشياء كلها ، لأنها لا تعرف طاووس ملك ولا يعرفها ولا ينزل عن حدها ، أما نحن معشر اليزيدية فأتى عندنا وسلم لنا الآيات والحقائق والقوانين ، فصارت كلها بالتناسل وراثة من الوالد إلى ابنه ، ثم صعد إلى السماء » .

ويتحدث الشيطان (طاووس ملك) يصف نفسه في « مصحف رش » قائلاً : « أنا موجود ، وليس لي نهاية ، أنا رتبت منذ القدم تدابير العالم وانقلاب الأجيال وتعرُّف مديريهم ، لي تسلط على كل الخلائق ، وإلى تدبير مصالح كل الذين تحت حوزتي وقبضة يدي ، أنا حاضر سريعاً عند

---

(١) يرمز اليزيدية إلى الشيطان بديك أعور مصنوع من النحاس ، وزيارته عندهم فرض ، وهم يطوفون به في القرى اليزيدية .

الذين يثقون بي ويدعونني وقت الحاجة ، ولا يخلو مني مكان في الدنيا كلها ، أنا مشترك في كل الوقائع التي يسميها الخارجون شروراً لأنها ليست بحسب مرامهم » .

ويتحدث الشيطان في « الجلوة » قائلاً : « لكل زمان مدبر مشورتي ، ويندم ويحزن الذي يقاومني ، جميع الآلهة ليست لها مداخلة في شغلي ، بيدي قوة وسلطة على جميع ما في الأرض فوقاً وأسفل » .

وليس هؤلاء وحدهم آلهة اليزيدية ، فهناك آلهة أخرى ، فقد مرت الإشارة إلى أنهم يؤلّهون يزيد بن معاوية ، ولكنهم قصروا عمل يزيد على تسلم السناجق (الأعلام) السبعة من سليمان الحكيم ، وسلمها الأمة اليزيدية، ويزعمون أنهم محتفظون بهذه الأعلام .

والشيخ « عدي الكبير » « جعلوه إلهاً ، وزعموا أنه مشير لله ووزيره ، أو هو شريكه في حكم العالم وتصريفه ، فالسماء تحت حكم الله ، والأرض تحت حكم الشيخ عدي، وربما كان ما يملكه عدي أكثر مما يملكه الله عز وجل، ودليلهم : أن الله زار الشيخ عدياً في « لالش » فقام الشيخ عدي بضيافة الله على أكمل ما تكون الضيافة ، ولما رد الشيخ عدي الزيارة وصعد إلى السماء مصحوباً بأتباعه ومريديه لم يكن لدى الله علف خيولهم ، فأمرهم بالنزول إلى الأرض وأن يأتوه من حقوله بالعلف ، فأتوه به ، وسقط التبن في السماء فكان منه « المجرة » المسمى » « درب التبانة » .

ومع أن اليزيدية تدعي أن الشيخ عدياً شريك الله في الملك لم تشر كتبها إلى أي عمل يدل على هذه الشركة ، إلا أنهم يعتقدون أن الشيخ عدياً يستقبل أتباعه في اليوم الآخر ويضعهم في طبق ويحمله على رأسه ويدخل بهم الجنة، ويبقى من عداهم من بقية الناس في معاناة أهوال الموقف وكربه .

وزيارة قبر عدي في لالش فرض على كل يزيدي وقبره أفضل من مكة

والقدس ، ويحجون إلى جبل لالش في اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر (أيلول) إلى العشرين منه ، وكل يزيدي يستطيع الحج ولا يحج كافر ، وأن الشيخ عدياً أفضل من محمد ﷺ ، كما يدعون ، لعنهم الله .

ويعتقدون أن نبياً من العجم سيبعث في آخر الزمان ينسخ ما سبقه من الأديان ، ويؤيد دين اليزيدية ، وهم في هذا الاعتقاد يتفقون مع اليزيدية المنسوبة إلى يزيد بن أبي أنيسة الخارجي البصري الذي مرَّ ذكره ، بل أخذوه منه.

وهم يقرأون القرآن ويعلمونه أولادهم ، ولا يصلّون ، وإن كانوا يسجدون للشمس والقمر ، ولا يصومون رمضان ، وإنما يصومون ثلاثة أيام من الصباح إلى المساء من شهر كانون الأول الشرقي .

ويعتقدون بالحلول ، وجاء في كتابهم المقدس « الجلوة » : « لا أسمح لأحد أن يسكن هذه الدنيا أكثر من الزمن الذي حددته له ، وإن شئت أرسلته مرة أخرى وثانياً وثالثاً إلى هذا العالم أو غيره بتناسخ الأرواح » .

وموجز القول أن اليزيدية نحلة وثنية لفقتها مما في الديانات والوثنيات ، فظاهرها الإسلام ، وفيها منه كالقرآن الذي يتلونه ، وفيه من المسيحية والمجوسية وغيرها من الوثنيات ، وهي ليست من الإسلام في شيء إلا في قراءة القرآن وبعض أموره ، ولكن هذا لا يجعل اليزيدية إسلاماً ، لأن ما فيها من الوثنية والكفر والإلحاد يخرجها من الإسلام .

* * *

ومرت إشارة إلى « القزلباشية » (١) وسبب تسمية هذا الفرقة بهذا الاسم أنهم يتخذون العمائم الحمر ، فسماهم العثمانيون «قزل باش» ومعناه :

---

(١) راجع كتاب «الشبك» تأليف الأستاذ أحمد حامد الصراف العراقي ، طبع مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٣٧٣ هـ (١٩٥٤م) وفيه تفصيل في بحث أمثال هذه المذاهب الباطلة والنحل الفاسدة .

الرؤوس الحمر ، وعمامتهم حمراء ذات اثنتي عشرة عَذَبة تمثل كل واحدة منها إماماً من الأئمة الاثني عشر من ذرية الإمام علي ، ويعتقدون أنها عمامته رضي الله عنه .

والقزلباشية فرقة دينية في تركيا تضم أكرادا وتركاً، ويقيمون في الأناضول ، وأكثرهم من الترك ، ومظهرهم من الشيعة ، أو هم من الشيعة الخارجة على الإسلام ، ويسمون أنفسهم « العلوية » نسبة إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

ويتركون شعورهم فلا يحلقون الرؤوس ولا يقصون شواربهم ، ويتركون لحاهم دون أن يتناولوها كأصحاب السنة ، وهم ليسوا في حقيقتهم مسلمين وإن ادعوا الإسلام ، فهم لا يتوضؤون ولا يصلون ولا يصومون رمضان ، وإنما يصومون من المحرم اثني عشر يوماً ابتداء من غرته ، ويشربون الخمر .

ويعتقدون أن الله عز وجل تجسد في الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ويعتقدون أن الله قد تجسد في أناس قبل الإمام علي ، منهم سيدنا عيسى عليه السلام ، ويتعبدون السيدة مريم ويكرِّمونها بالصلاة لها ، كما يصلون لعلي وعيسى وموسى وداود إكراماً لهم ، وتتردد أسماؤهم في أدعيتهم وأناشيدهم ، ولهم صلاة بالليل يؤمهم فيه إمام يترنم بدعاء تساوقه أنغام الموسيقى .

ويعتقدون أن الله واحد في ثلاثة أقانيم ، ويأتي بعد الإمام علي في المقام خمسة ملائكة هم وسطاء اللاهوت والناسوت ، ولهـم كهنة هم وسطاء بين الله والناس .

ويحرصون على بعض الأعياد المسيحية مثل عيد الفصح .

ونحلة القزلباشية وثنية فيها كثير من المسيحية كالعشاء الرباني وغيره ، ونحلتهم خليط من الديانات السماوية المحرفة والوثنيات والإسلام الذي يدعونه وهو منهم براء .

وهناك غير القزلباشية فرق ونحل ترتدي رداء الإسلام وهي ليست مسلمة ، بل كلها خارجة على الإسلام ، وما تزال في العراق وتركيا والشام وإيران والهند وفلسطين حتى اليوم فرق من هذه الفرق استخدمها أعداء الإسلام من شيوعية وصهيونية واستعمار لضرب الإسلام .

وتفصيل القول في هذه الفرق والنحل يستغرق مئات الصفحات ، ولا ضرورة إليها من مبحثنا هذا ، فنحن لا نتقصى الفرق والنحل ، بل نذكر الديانات والعقائد ، وأما الفرق فيكفي فيها أن نشير إلى أهمها وبعضها ، وما تركناه منها — وهو كثير — ولا يخرج عما ذكرناه ، وإن اختلف بعضه ، وكلها وثنيات فاسدة ، ونحل باطلة ، وعقائد كفر وشرك وتعطيل وإلحاد .

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِعُ

ليس من السهل أن أذكر جميع المصادر والمراجع التي رجعت إليها واعتمدتها في كتابة هذا الفصل ، لأنها تعد بالمئات ، ولو عددتها كلها لبلغت الألف ، وقد جاء في الموضوعات التي بحثتها أسماء كتب كثيرة ، ما لم أذكر هو الأكثر ، واكتفيت بما ورد ذكره ونقلت عنه .

* * *

فهرس الموضوعات